محمد رفعت بك

التيارات السياسية

فى حوض البحر الأبيض المتوسط



محمد رفعت بك

التيارات السياسية
في حوض البحر الأبيض المتوسط



بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة الكتاب

هذه بحوث سياسية تعالج تطورات التاريخ والعلاقات الدولية بين شعوب البحر المتوسط ودوله ، وهى بحوث تستمد أصولها من التاريخ قديمه وحديثه ، وما تزال بالموضوعات تستقصى أسبابها وتتتبع تطوراتها حتى تصل بينها وبين أحداث السياسة الحاضرة ؛ فيكون التاريخ لهذه البحوث كالجذور للشجرة وتكون السياسة لها كالثمرة ؛ فهى من التاريخ خلاصة ، وللسياسة نقد وتحليل ؛ فمن كان يرجو من هذا الكتاب علاجا تاريخياً مستفيضاً فإنه لن يجنى من مطالعته سوى لبانات اعتصرت من شجرة التاريخ اعتصارا وصفيت عن كل ما عداها من قشور وألياف وفروع وأوراق ، وأما من آثر الاستزادة فأمامه بستان التاريخ ومروج السياسة واسعة الرحاب وارفة الظلال مليئة بمختلف العشب والأشجار والثمار .

وقد كان أول عهدى بمعالجة هذه البحوث فى خريف سنة ١٩٤٦ حين طلب إلىّ صديقى الأستاذ الدكتور طه حسين بك أن أعد لمجلته «الكاتب المصرى» بحوثاً شهرية فى السياسة الدولية ، تتناول بالدرس أهم مشكلات الساعة ، وخاصة ما كان متعلقاً منها بشئون مصر والشرق ؛ فشكرت له حسن ظنه ولبيت دعوته ؛ ومن ذلك التاريخ نبتت فى رأسى فكرة دراسة « التيارات السياسية فى حوض البحر المتوسط » وأخذت المادة تتجمع لدىّ تباعاً حتى صغتها أخيراً فى هذا الكتاب .

وغنى عن البيان أن تداخل هذه البحوث بعضها فى بعض قد أفضى فى النهاية إلى شىء من التكرار فى بعض الأحداث والآراء ، وهو تكرار لم أر غضاضة فى إثباته ، توكيداً للفكرة من جهة والتماسا لفائدة القراء من جهة أخرى .

ولا حاجة بى قبل الختام إلى القول بأن التيارات السياسية فى البحر المتوسط

ستظل دائبة الحركة والمسعى، شأنها فى ذلك شأن الفكر الإنسانى نفسه ، فهو الذى يحركها ويدفعها ويبسطها حينا ويقبضها حينا آخر ، وهو الذى يسيرها ببطء أو عنف كيفما شاء أو شاءت الفرص ؛ غير أن لهذه التيارات أصولا وأسبابا تتصل بالتاريخ ،وهذه الأصول وتلك الأسباب باقية على الأيام لن تنال منها يد التغيير أو الحدثان ، وهى التى فصلناها فى كتابة هذه البحوث ؛ أما ماقد نصل إليه فى بحوثنا من نتائج وآراء فمردّه غالبا إلى الأسباب التى أوردناها ، ثم إلى اجتهادنا فى استقراء الحوادث بقدر ما وصل إليه جهدنا المحدود . وسبحان من له الكمال وحده

هذا ومن دواعى الغبطة وحسن المصادفات أن يقترن ظهور هذا الكتاب بالذكرى المئوية لوفاة عاهل مصر العظيم محمد على الكبير وهو الذى جعل البحر المتوسط مهاداً لأسطول مصر الحربى والتجارى وحرّك فيه من التيارات السياسية والحربية والاقتصادية ما أعلى شأن مصر بين دول العالم الكبرى . حتى أصبحت مصر من أهم عوامل التوازن والاستقرار فى حوض البحر المتوسط ؟.

مصر الجديدة فى سبتمبر سنة ١٩٤٩

محمد رفعت

الفصـــل الأول

البحر المتوسط فى العصور القديمة

مضى زمن كان فيه حوض البحر المتوسط قبلة أنظار المترفين من السياح والعلماء يفدون اليه من مختلف انحاء العالم يجوبون انحاءه وينعمون بمباهجه ودراساته وذلك لما حبته الطبيعة من جو منعش صاف وشمس دافئة تبعث الحياة والنشوة فى النفوس وألوان زاهية ساحرة وشجيرات وفاكهة واعناب ونخل باسقة ، وآثار مما خلفته المدنيات التى تتابعت على سواحله منذ القدم من معابد وكنائس ومساجد وتماثيل ونقوش وتحف هى آيات فى الفن والذوق والجمال قد اتخذت منها المدنية الحديثة مثلا ونماذج تحاكيها وتقتبس منها .

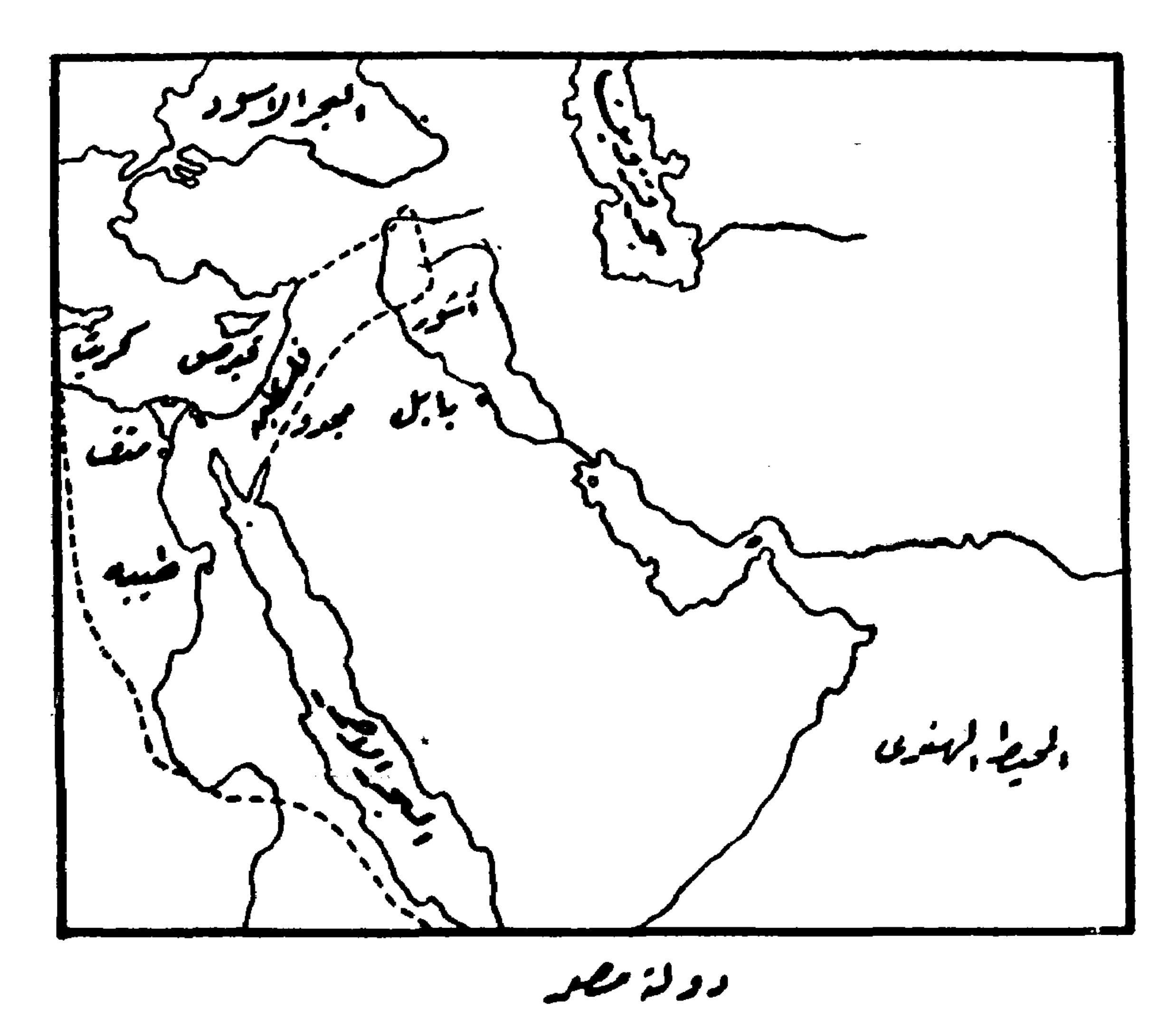
وكان من أثر شيوع السلم والحياة الرضية فى ربوع البحر المتوسط فى بعض حقب التاريخ ان نعم العالم بأثمن ما انتجه الفكر الانسانى من حكمة وأدب وفن وعلم . فعلى سواحله ظهرت أعظم المدنيات أثرا فى التاريخ وهى المدنيات المصرية والاغريقية والرومانية والإسلامية ، ومن سواحله الشرقية أضاء الكون بنور الأديان الآلهيـة التى نبذت الاوثان ودعت إلى الأخاء والمساواة وعبادة الله الواحد الحق . وظل الناس يستمدون من مدنيات البحر المتوسط فنونهم وعلومهم وفلسفتهم حتى اكتشفوا العالم الجديد وخاطر الملاحون بأرواحهم وبسفنهم فى مسالك الاقيانوسات يجوبونها شرقا وغربا يريدون الوصول إلى كنوز العالم الجديد من ذهب وفضة ومنتجات قيمة أخرى ، وإلى عالم الشرق البعيد حيث الجواهر والاحجار الكريمة والاعطار وأنواع الحرائر والتوابل والبسط ، وحيث الاسواق الرائجة بين مئات الملايين من الانفس . وحينئذ غشيت العالم غاشية الماديات وتسابقت الدول وتناحرت فى سبيل الاستعمار وبسط النفوذ تارة فى أمريكا وأحياناً فى الهند وسائر بلدان آسيا واخيراً فى أفريقية وحوض البحر المتوسط

وسرعان ما انطفأ بريق تلك النواحى المضيئة من حوض البحر المتوسط وكأن عصا سحرية قد نفضت عنها غلالات الفن التى تسربلت بها طوال القرون الماضية فحولتها الى حقائق عارية ليس فيها إلا مناطق اقتصادية ومحطات تنتهى اليها أنابيب البترول من مختلف الآبار فى الشرق الاوسط ، هذا الى القواعد الحربية والبحرية والنقط الاستراتيجية التى ترابط فيها الجيوش وتحرسها الأساطيل وتحلق فى جوها الطائرات وترنو اليها الدول بعيون متيقظة شاخصة حريصة كل الحرص على ألا تنفرد دولة منها كائنة ما كانت بميزة التسلط والحراسة فى منطقة ذلك البحر الذى يتوسط العالم - كما يدل عليه اسمه - وهو بعد الطريق العالمى الذى تلامس مياهه سواحل أكبر وأهم مجموعة من شعوب العالم .

ولقد ساير هذا البحر الشعوب التى سادت سواحله فى رقيها وانحطاطها فكان نصيبه تارة الهدوء والسعادة والأمن ، وتارة تتجاذب مياهه وسواحله التيارات السياسية والاجتماعية المتعارضة فتعرض شعوبه الوادعة لخطر الحرب والدمار وهى التى تتفيأ منذ القدم ظلال أغصان الزيتون المباركة رمز السلام فى العالم .

وسنرى فيما يأتى أثر التيارات السياسية فى حوض البحر المتوسط وما طرأ على شعوبه وسواحله من تقلبات واحداث فى عصور التاريخ المختلفة .

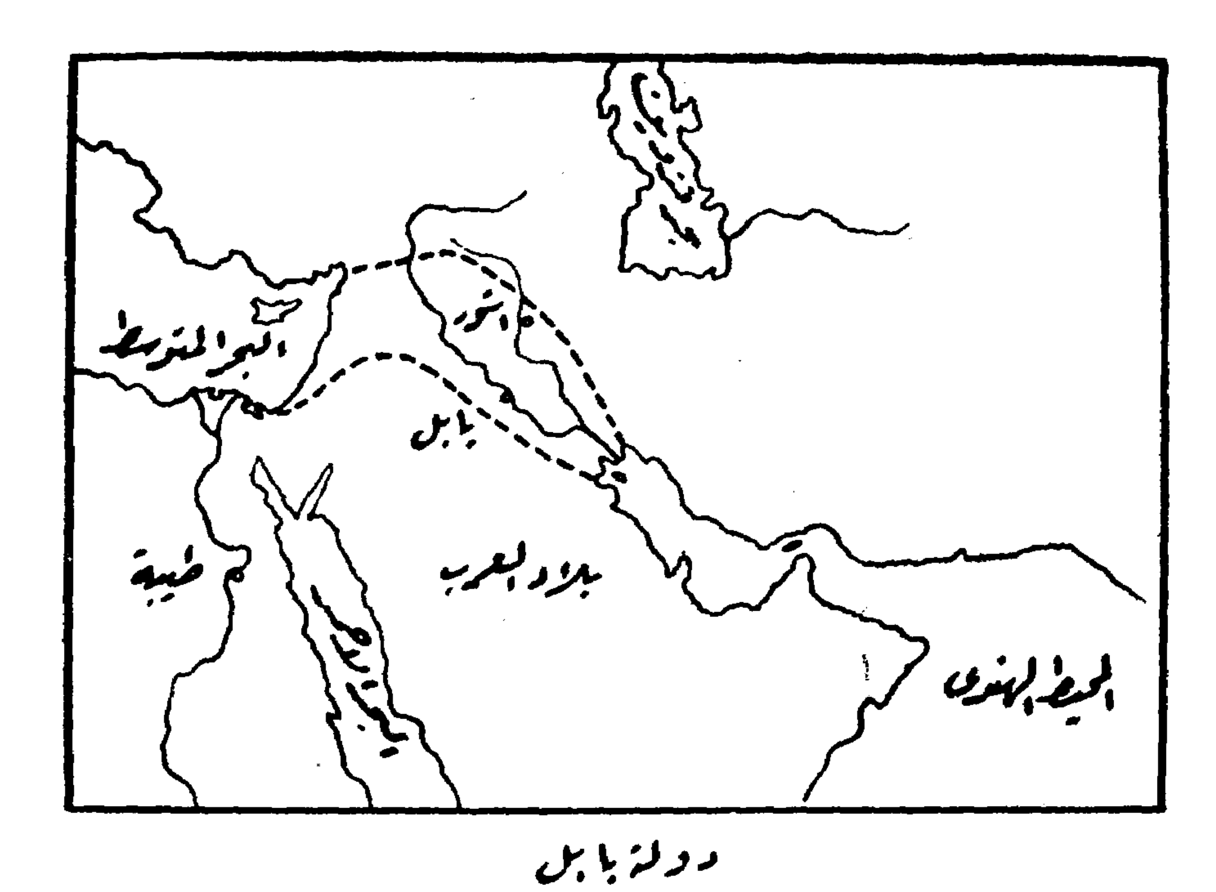
ففى التاريخ القديم قامت حضارة مصر على نهر النيل وحضارة بابل واشور على دجلة والفرات . وهذه الحضارات كانت تتصل بحوض البحر المتوسط عن قرب أو بعد ، ولكن مما لا مشاحة فيه انها نشأت على ضفاف أنهار عظيمة أخصبت بها السهول والوديان فأينعت فى ربوعها الزراعة وعاش الناس على ضفافها ناعمين فى رغد وخفض من العيش ، ولم يكن البحر كالنهر سببا من أسباب نهوضهم أو عنصراً من عناصر كفاحهم ومعاشهم فبقيت هذه المدنيات برية نهرية فى طابعها حتى بعد أن بنى المصريون القدماء السفن ودانت لهم أقاليم شرقى البحر المتوسط واتصلوا بجزره وجهزوا الأساطيل تمخر بعضها عباب البحر الأحمر الى بلاد « بُنت » أو الصومال ويجرى بعضها فى بحر إيجة بين جزره وسواحله ، فقد ظلت الحضارة المصرية القديمة مع ذلك كله متأثرة ببيئة الوادى حتى النهاية .



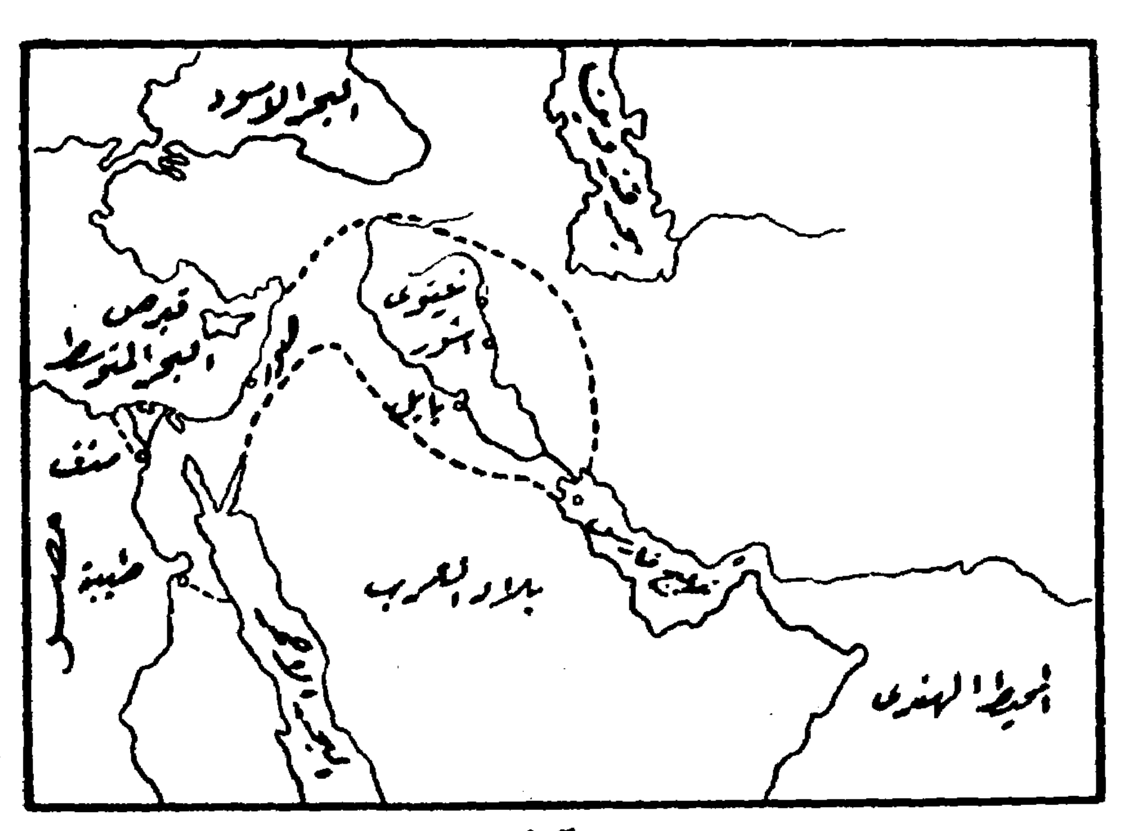
دولة مصر

وفى أثناء قيام الدولة المصرية القديمة ظهرت فى الشمال حضارة بحرية من صميم البحر المتوسط كان مركزها جزيرة كريت وعاصمتها مدينة كنوسس Knossos وقد ازدهرت هذه الحضارة فى بحر ايجه حول ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد واتصلت بقبرص وشمالى افريقية وشرقى البحر المتوسط وغربيه . ولكن حدث ماقوض دعائم هذه الحضارة وعفى على آثارها فاندثرت معالمها وسحب عليها الزمن ذيل النسيان حتى انبرى لها بعض العلماء من الانجليز وغيرهم فى أول القرن العشرين فكشفوا عن قصر كنوسس العظيم وما احتواه من كنوز وتحف وأدوات وكتابات لم يوفقوا الى حل رموزها الى الآن . ولكنها جميعا تدل دلالة واضحة على ملك عظيم ومدنية راقية قامت فى كريت وجزر بحر إيجه ثم زال فجأة ذلك السلطان وأمحت بزواله آثار أول دولة بحرية سادت فى مياه البحر المتوسط قبل الميلاد بألفى سنة تقريباً .

ولما ضعف سلطان الدولة المصرية أخذت شعوب شرقى البحر المتوسط تتحرر من الحكم المصرى وكان الفينيقيون الذين سكنوا سواحل الشام ولبنان الحديث أول من خاطروا فى البحر المتوسط غربا وجنوبا وأسسوا لهم على سواحله مستعمرات لم تكن فى أول أمرها سوى مراكز تجارية اذ كانت التجارة وتبادل المنتجات وكسب الرزق بمختلف الطرق من أهم الأغراض التى دفعت الفينيقيين الى المخاطرة والكشف . وقد امتد نفوذهم الى جزر قبرص وكريت ورودس ومالطه وصقلية وجزر البليار وأقاموا لأنفسهم قواعد تجارية على ساحل افريقية الشمالية وفى شبه جزيرة ايبريا وكانوا على الارجح أول من نفذت سفنهم وراء عمد هرقل الى الاقيانوس فساروا فيه شمالا محتضنين سواحل شبه جزيرة ايبريا حيث حصلوا على معدن الفضة ومنها الى جزر سيلى قرب سواحل انجلترا حيث معدن القصدير . وكان الفينيقيون شديدى الحرص على مصادر أرزاقهم فاحتفظوا بها سرا لم يبوحوا به لاحد غير مواطنيهم فكان بحارتهم يقفون عند مضايق البحر المتوسط فى صقلية وعمد هرقل يحرسونها وينكلون بالسفن الغريبة التى تخاطر بشق هذه المياه ويمنعونها من اقتحام مناطق نفوذهم . وللفينيقيين فوق ذلك كله على أوربا فضل ادخال عناصر المدنية بين شعوبها فهم الذين علموهم استعمال المقاييس والمكاييل واستخدام الارقام والحروف الابجدية وأدخلوا صناعات النسيج وبناء السفن والاصباغ . وكانت مدنهم صور وصيدا وعكا على ساحل الشرق أهم مراكز حضارتهم ، وأقاموا على ساحل افريقية الشمالية مستعمرة قرطاجة وفى ايبريا قادس وغيرها ولم يتركوا فى البحر المتوسط موطنا مهما دون أن يكون لهم فيه تجارة وعملاء يبادلونهم السلع . وعلى ذلك يمكن اعتبار الفينيقيين أول شعب جعل من حوض البحر المتوسط وحدة ان لم تكن سياسية فقد كانت تجارية اقتصادية



دولة بابل

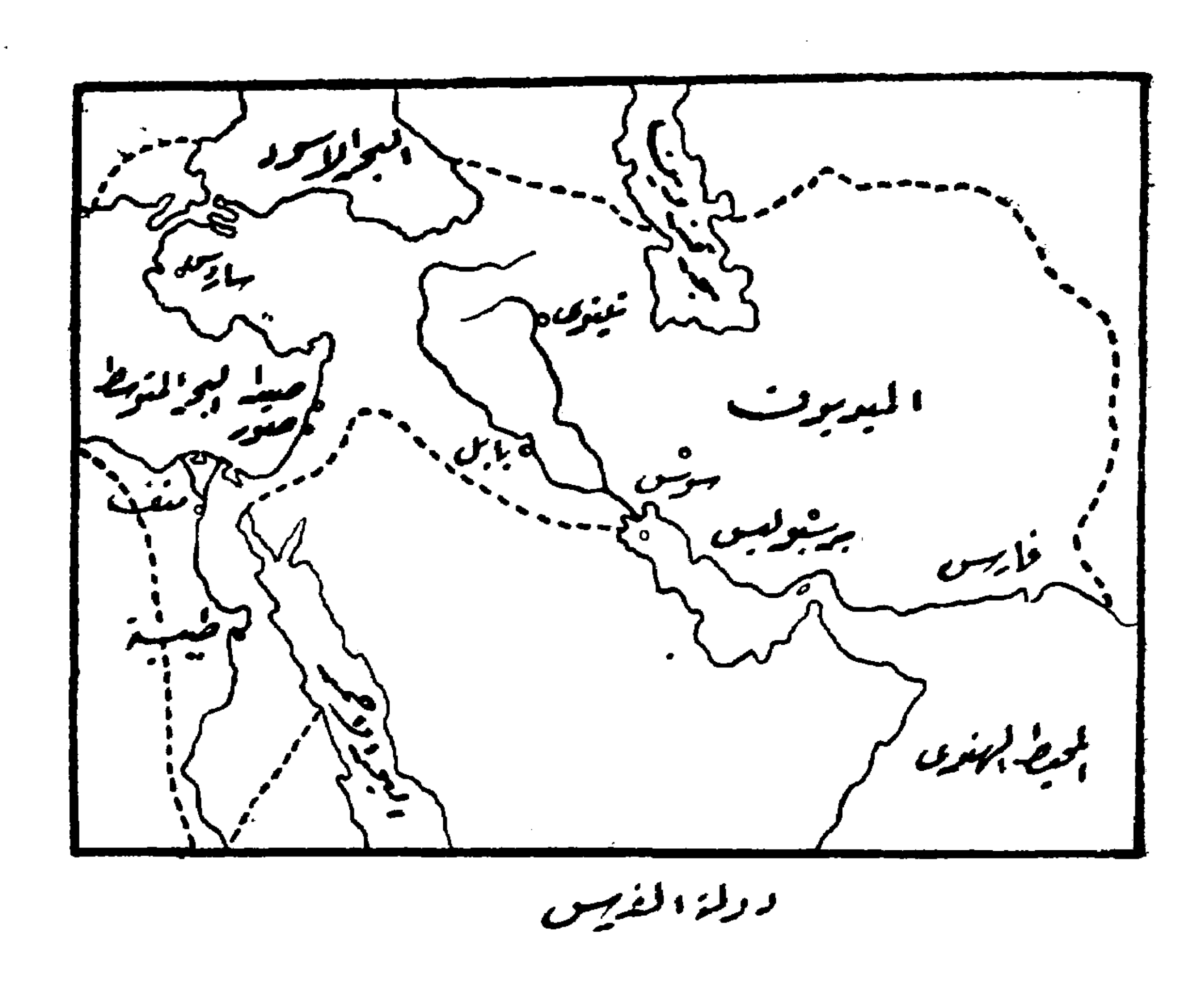


دولة آشور

ولما قامت دولة الاشوريين فى القرن التاسع قبل الميلاد وأخذت تزحف غربا من بلاد ما بين النهرين نحو سواحل البحر المتوسط أخذت دولة فينيقيا تضعف تدريجياً فسقطت سوريا وفلسطين ومصر تحت حكم أشور. ولكن الحضارة التى مثلتها فينيقيا وسادت فى البحر المتوسط بضعة قرون عاشت وازدهرت من بعدها فى قرطاجه على ساحل افريقية الشمالى واستمرت الى أن ظهرت روما ونشب صراع الحياة أو الموت بين الشعبين القرطاجى والرومانى. على أن الفترة التى سادت فيها دولة أشور لم تطل أكثر من قرن ونصف قرن تعرضت بعدها كذلك لهجوم عنيف من ناحية الشرق أيضا فقد ظهر الميديون والفرس وأخذوا يغيرون على الاشوريين وحلفائهم وأخيراً انقضوا على عاصمتهم نينوى واستولوا عليها فى سنة ٦٠٦ قبل الميلاد وبذلك زال سلطان الاشوريين وأصبح الفرس أصحاب السيادة فى الشرق وقد ضم ملكهم قورش Cyrus بلاد ميديا وبابل واشور وكون منها جميعاً دولة الفرس العظيمة التى اخضعت غرب آسيا وشرق أوربا من بحر إيجه غربا إلى نهر السند شرقا ومن بحر بنطس Pontus أو البحر الأسود شمالا إلى حدود مصر جنوبا. وظلت فارس تحكم هذه الأرجاء الواسعة بكفاية نادرة وفق نظم ادارية دقيقة من القرن السادس إلى قرب نهاية القرن الرابع قبل الميلاد. وقد استعان الفرس بأهل فينيقيه واستغلوا مهارتهم فى الملاحة فأنشأوا لهم أسطولا بحريا كان يرابض فى شرقى البحر المتوسط وبحر ايجه ليحرس املاكهم فى تلك المنطقة وكانوا قد اخضعوا جزيرة قبرص ومنطقة جنوبى البحر الأسود والمضايق أو الهلسبنت وآسيا الصغرى وبلاد المشرق ومصر.

وعاصر دولة الفرس فى ذلك الوقت قيام المدنية الاغريقية القديمة وظهور المدن اليونانية. ولما كانت اليونان بلادا صغيرة جبلية فى الغالب لا تكفى سهولها ومحصولاتها لتوفير أسباب الرزق أمام أهليها وكانت مياه البحر تتغلغل داخل البلاد وتلامس معظم سهولها ومدنها وقراها فقد نشأ أهل اليونان كأهل فينيقيا ملاحين مخاطرين فاتخذوا التجارة مهنة والبحر ميدانا لنشاطهم وأسسوا مستعمرات

لهم على سواحل بحر بنطس وآسيا الصغرى وأمتد نشاطهم إلى مصر حيث سمح لهم الملك امازيس بتأسيس مستعمرة لهم فى نقراطيس Naucratis فى مديرية البحيرة وكانت تلك هى الخطوة الأولى التى مهدت لتأسيس مدينة الاسكندرية بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون .



دولة الفرس

وكان اليونانيون الذين استوطنوا سواحل آسيا الصغرى وجزر بحر إيجـــه يعتبرون أنفسهم من الهيلينيين وأرضهم جزءا من أرض بلاد اليونان الأصلية ولذلك سرعان ما اصطدمت مصالح الفرس الذين كانوا يحكمون آسيا الصغرى بمقاومة اليونانيين فى تلك المنطقة ونشب صراع هائل استمر اكثر من قرن بين امبراطورية الفرس والمدن اليونانية الناشئة . وكان ذلك أول صراع بين الشرق والغرب تناول الاحتكام فيـه زيادة على السيطرة فى البحر المتوسط — نظم الحكم وطرائقه ، فقد كانت فارس امبراطورية عظيمة أظل سلطانها شعوب الدول الشرقية

القديمة جميعاً وكانت حكومتها استبدادية اتوقراطية يستأثر بالأمر فيها ملك عظيم يقدسون شخصه ويدينون له بالطاعة العمياء ، وكانت جيوشهم تتألف من جنود محترفين من المرتزقة الذين كان الولاة يجمعونهم من انحاء الامبراطورية الواسعة وكان أساس الفكرة التى يقوم عليها نظام الحكم فى تلك الامبراطورية تضاؤل قيم الأفراد أمام أرادة الامبراطور والتضحية بهم جميعاً إذا اقتضى الأمر فى سبيل ارضاء الملك العظيم . أما الاغريق فكانوا يباهون باستقلال مدنهم وتمتع الأحرار منهم بحرياتهم واشتراكهم جميعا فى تسيير شئون حكوماتهم وكانت جيوشهم على قلة عددها تتألف من الأحرار الذين اشربوا حب بلادهم ومرنوا منذ صغرهم على أساليب الطعن والنزال واحتمال مختلف الآلام ذيادا عن اوطانهم .

وكانت الغلبة فى بدء الكفاح للفرس برا وبحرا ولكن ديمقراطية الأثينيين السياسية قد اتاحت لعبقرى سياسى من مواطنى اثينا هو تمستكليس Themistocles أن يظهر ويقود الشعب الأثينى فى محنته مصمما على كسر قوة الفرس . وقد رأى تمستكليس بثاقب فكره أنه لا ضير البتة يصيب اليونانيين إذا تركوا الفرس يتوغلون برا داخل بلاد اليونان الجبلية وركزوا هم جهودهم فى انشاء أسطول حربى يفوق أسطول الفرس حتى إذا تهيأ للاغريق فى البحر أن ينتصروا على الفرس وآلت لهم السيادة فى بحر ايجه تعذر على الفرس الافادة من تفوقهم فى البحر واضطروا إلى التراجع بقواتهم إلى آسيا الصغرى. وقد استمع له الاثينيون وأخذوا يعدون اسطولا يضارع أسطول الفرس قوة وان لم يدانه عددا ، وجاءت جحافل الفرس يقودها ملكهم ابن دارا ويساير الجيش بحراً اسطولهم العظيم . وكأنما فطن الفرس إلى استعداد الاغريق بحرا فآثروا أن تخترق جيوشهم مضيق الهلسبنت وتهاجم اليونان من الشمال على حين يستعد الاسطول لغزو الاغريق جنوبا وغربا بمؤازرة الجيش البرى ، وكان تمستكليس يعلم أنه لا قبل للاغريق بالوقوف طويلا أمام الجيوش الفارسية القوية الكثيرة العدد ولكنهم إذا تمكنوا من محاربة الاسطول بحرا فان انتصارهم سيؤدى حتما إلى تهديد

مواصلات الجيش الفارسى وعرقلة تموينه . وتنفيذاً لهذه الخطة لم يسير الاغريق جيوشا لمقاتلة الفرس ، ولكنهم أقاموا عند ممر ترمبولى Thermopylae قوة أسبرطية مؤلفة من خمسة آلاف محارب بقيادة ليونيداس ملك اسبرطه للدفاع عن هذه النقطة الاستراتيجية ووقف تقدم الفرس جنوبا .

وفى صيف عام ٤٨٠ قبل الميلاد زحف الجيش الفارسى برا نحو الجنوب وقدر عدده بمائتى الف مقاتل وسار الاسطول بمحازاته بحراً مكونا من الف سفينة منها خمسمائة سفينة حربية على الأقل ، ولم يكن للاغريق سوى ٣٠٠ سفينة على الأكثر . وأخيراً التقت الطائفتان وجها لوجه فى البر وفى البحر . أما فى البر فان ليونيداس ورجاله قد وقفوا يصدون هجمات الفرس المتتابعة عليهم من أمام وخلف وقفة خلدت بطولتهم فى التاريخ فقد فنوا عن آخرهم قبل أن تتدفق جيوش الفرس جنوبا فى الطريق إلى اثينا . وأما فى البحر فان انتصار الفرس فى المعركة البرية وموت الملك ليونيداس كان له رنة حزن وجزع أثارت الأغريق فى جميع انحاء اليونان وحفزتهم إلى العمل فما لبثوا أن أصلحوا أسطولهم وزادوا عدده ووقفوا به عند جزيرة سلاميس أمام مدخل اثينا فى انتظار المعركة الفاصلة بين الاسطولين. وجلس ملك الفرس على عرش أقيم له على المرتفع الذى يطل على خليج سلاميس ليشرف على سير المعركة وما كاد الاسطول الفارسى العظيم يدخل المضيق الذى يفصل الجزيرة عن البر وتبدأ المعركة البحرية حتى تعذرت الحركة على السفن الفارسية لضخامتها من جهة ولكثرة عددها وضيق مسالك الماء من جهة أخرى فما كاد الظلام يرخى سدوله فى ذلك اليوم حتى باد معظم الاسطول الفارسى وكسب الاغريق المعركة البحرية فاصبحوا بها أصحاب السيادة فى البحر المتوسط . ولم يحس الفرس أثرا لانتصارهم فى البر ما دام الاغريق متفوقين بحراً وعلى أثر ذلك ارتد الفرس عن بلاد الاغريق وعبروا الهلسبنت ثانية عائدين إلى آسيا تاركين قوة لا تزيد على خمسين الف رجل تحتل شمال اليونان لتعيد غزوها متى صحا الجو وحل الربيع التالى . ولكن ثبات الاغريق واتحادهم أمام الخطر الاجنبى كان

كفيلا بهزيمة تلك البقية الباقية من فلول الفرس فرحلوا على اثرها إلى آسيا بغير رجعة .

وقد افاد الأغريق من الحرب الفارسية فائدة كبرى إذ عرفوا ثمرة الاتحاد فكونوا بعد ثلاث سنين من موقعة سلاميس « اتحاد ديلوس » لتكون البلاد على أهبة الاستعداد إذا جازف الفرس بهجوم جديد .

وكان اتحاد المدن الاغريقية مدعاة لانتعاش حركة التجارة فى شرق البحر المتوسط فظهر ميناء بيرا Piraeus عند مدخل أثينا وازدهرت المدنية الاغريقية فى أثينا فى عهد بركليس Pericles ازدهاراً لا تزال آثاره إلى الآن مصدر وحى والهام للناس جميعا فى ميادين الأدب والفن والحكمة . وفى عهد بركليس نقل مقر الاتحاد من جزيرة ديلوس إلى اثينا واستأثرت أثينا بالمبالغ التى كانت المدن ترسلها لبناء الاسطول والمحافظة عليه . فأثار هذا العمل سخط منافستها اسبرطه وقامت الحرب الاغريقية الداخلية التى تعرف بحرب البلبو بونيز التى استمرت اكثر من ربع قرن كانت نتيجتها اضمحلال المدن الاغريقية وظهور دولة مقدونيا بزعامة ملكها فليب وكان ذلك حول سنة ٣٦٠ قبل الميلاد .

وفى عهد ابنه الاسكندر الأكبر تجدد النزاع بين الغرب والشرق بين الفرس والهيليين ، وكان البحر المتوسط ميدانا لذلك الكفاح فى بدايته وكان من أهم نتائجه تأسيس ميناء الاسكندرية الذى مالبث أن أصبح أهم موانىء البحر المتوسط شرقا وغربا.

ويظهر أن الاسكندر حين بدأ حملته على آسيا كان قد صمم فى قرارة نفسه على أن يتحرر من قيود الفكر السياسى الهيلينى الذى يربط صاحبه بأطراف مدينته أو دولته وأن يحلق فى العالم الاسيوى بجناحين من الثقافة اليونانية والادارة الفارسية ومن ورائه الجند المقدونى الذى لايقهر لعل ذلك أن يجمع العالم المتمدين فى نظام واحد يكون الاسكندر على رأسه ويكون من أهم خصائصه الجمع بين مزايا الشعبين العظيمين الأغريقى والفارسى. وليس أدل على وضوح تلك الفكرة فى ذهنه من تخطيط المدن والموانىء الجديدة التى أنشأها وسماها باسمه على امتداد

البلاد التى فتحها طولا وعرضا أو التى أنشأها خلفاؤه بعد وفاته تخليدا لذكرى انتصاراته وقد أصبحت تلك المدن مراكز وحقولا نبتت فيها البذرة الهيلينية الشرقية الجديدة وأينعت .

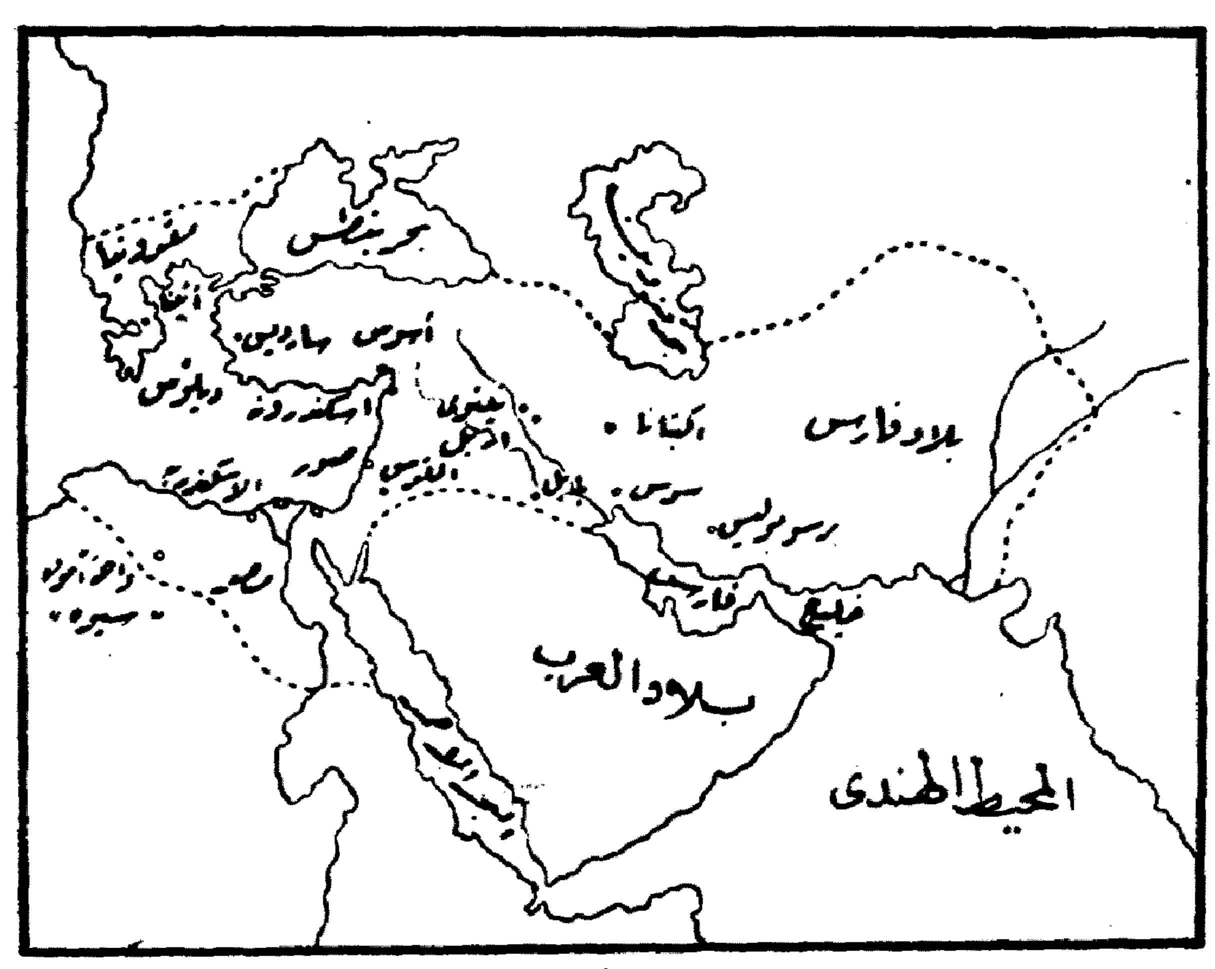
وفى سنة ٣٣٤ ق . م . قام الاسكندر من مقدونيا وقاد جيوشه فتوغل بها فى آسيا الصغرى وخلص مدنها الأغريقية من نير الفرس ثم سار شرقا حتى وصل إلى جبال طوروس وعبر الممر الذى يفصل هضبة الأناضول من سهول سوريا وهناك وقف دارا الثالث ملك الفرس وآخر ملوك أسرته يستعد بجيوشه الجرارة لملاقاة العدو فدارت بين الفريقين معركة أسوس Issus التى انتصر فيها الاسكندر واضطر الفرس إلى الارتداد شرقا حتى عبروا نهر الفرات ، ودانت جميع الأقاليم التى تلى الفرات غربا إلى البحر الادرياتى لسلطان الاسكندر . وقد خلد انتصاره فى « أســوس » بانشاء ميناء الاسكندرونة الذى يشرف على الخليج الذى دارت المعركة فوق مرتفعاته .

وقد كان الطريق أمام الاسكندر مفتوحا من جهة الشرق ولكنه آثر أن يزحف جنوبا فيخضع فينيقيا وفلسطين ثم مصر وبذلك يدرأ خطر قوة الفرس البحرية ويسد عليها المنافذ على مدى الساحل الشرقى . وكان من رأى مستشارى الاسكندر أن تقف فتوحه عند الحد الذى وصلت إليه وأن يقتسم العالم مع ملك الفرس فتكون لهم الأراضى الواقعة شرقى نهر الفرات ويقنع المقدونيون بالاقاليم ولكن الاسكندر كان مدفوعا فى غزواته بعوامل وأطاع عالمية جعلته يهزأ بانصاف الحلول، فما كاد يتم إخضاع مصر وكانت إذ ذاك ولاية فارسية حتى عاد ثانية إلى سوريا ومنها سار شرقا إلى نهر دجله وكان « دارا » قد جمع جيشا عظيما يحاول به أن يوقف زحف الاسكندر فدارت بينهما معركة « أربل » سنة ٣٣١ ق . م وكانت النتيجة نصرا حاسما للاسكندر ، وولى دارا ظهره على أثر المعركة تاركا ملكه وجيشه وعرشه للمقدونيين

ولم يلبس دارا أن قتله أتباعه فى أثناء فراره وأصبح الاسكندر ولا منافس له فى الشرق فاستمر يزحف بجيشه خمس سنوات أخرى فى الشمال إلى نهر جيحون

وفى الجنوب الشرقى إلى نهر السند ووادى الكانج وعندئذ لم يطق جنوده مواصلة الزحف شرقا فقرر الاسكندر العودة إلى بابل حيث مرض بالحمى ومات سنة ٣٢٣ ق . م ولم تزد سنه على ثلاثة وثلاثين عاما ملأها بحروب وفتوح لم يجرؤ على مثلها قائد من قبل أو من بعد . وقد كان الاسكندر يعدالعدة قبل وفاته لفتوح أخرى يستكمل بها تفوقه العالمى فيبسط نفوذه على شبه جزيرة العرب ويمد فتوحه فى حوض البحر المتوسط من مصر إلى قرطاجه ومنها إلى عمد هرقل ومن بحر إيجه إلى صقلية وإيطاليا ، ولكن أيامه لم تطل حتى يدرك بغيته ولم يقدر لمدنية الشرق وفلسفته أن تنمحى فى الثقافة اليونانية كما أراد الاسكندر حين مد فتوحه وأنشأ المدن والمراكز التى نظمها لصبغ العالم المتمدين كله بالصبغة الهيلينية .

وقد بلغ إيمان الاسكندر بنظريته التى تقوم على أساس امتزاج العقليتين أنه تزوج بالأميرة روكسانا ابنة دارا وحض ضباطه على التزوج بالفارسيات وعين



دولة الاسكندر

من الفرس كثيرين فى وظائف الدولة وفرض الآداب الملكية الفارسية فى مقابلاته وحفلاته ، كما أنه أعلن نفسه ابن الاله آمون فى معبد آمون بواحة سيوة فى مصر فانه بعد فتوحه فى آسيا لم يرض لنفسه أن يكون أقل من الآلهة وقد اضطر المدن اليونانية إلى الاذعان لذلك وكان الموت نصيب زملائه الذين سولت لهم أنفسهم أن يناقشوا الصفة الإلهية للاسكندر الأكبر .

ولما مات الاسكندر لم تجد مشروعاته الكبرى من يضطلع بتنفيذها لا من أفراد أسرته ولا بين قواده وقد توزعتهم المطامع من بعده فقسمت الدولة العظيمة إلى ثلاث مناطق على رأس كل منها قائد من أكبر قواده فكانت مقدونيا واليونان بيد انتيجونس Antigonus وممتلكات آسيا تحت حكم سلوكس Seleucus وكانت مصر من نصيب بطليموس Ptolemy وكان من أمهر قواد الاسكندر وقد أسس له فى مصر ملكا وأسرة ظلت تحكم البلاد إلى أن ضمها الرومان فى سنة ٣٠ ق . م .

وقد فطن بطليموس إلى ما للقوة البحرية من أهمية فى بلاد كمصر تقع على ساحل البحر المتوسط وفى مفترق الطرق بين الشرق والغرب فبنى أسطولا عظيما وأتم تشييد مدينة الاسكندرية التى كان الاسكندر قد خططها عند قرية صغيرة اسمها راقودة Rhacotis بين ساحل البحر وبحيرة مريوط أمام جزيرة صغيرة اسمها فاروس وقد اتصلت هذه الجزيرة بالبر بطريق صخرى لا يزال إلى الآن يقسم الميناء إلى قسمين غربى وشرقى . وقد شيد بطليموس على الجزيرة منارة الاسكندرية الشهيرة وقد كانت الأولى من نوعها فى العالم وإحدى عجائب الدنيا فى التاريخ القديم ويكفى أن تكون منارة الاسكندرية هى البناء الذى أوحى إلى المسيحيين أن يقيموا فيما بعد أبراج كنائسهم وإلى المسلمين أن يشيدوا مآذن مساجدهم وقد نهضت تجارة الاسكندرية فى عهد البطالمة وازداد عمرانها حتى غطت سمعتها فى مدى قرن منذ إنشائها على قرطاجه العظيمة فأصبحت سيدة البحر المتوسط وأهم مدينة فى العالم من المحيط الهندى إلى عهد هرقل . ولم تفقها بعد ذلك سوى روما .

ثم انتقل مسرح الحوادث سريعا من شرق البحر المتوسط إلى غربيه وذلك على أثر ظهور روما فى شبه جزيرة إيطاليا التى تقسم البحر المتوسط إلى قسمين شرقى وغربى . وكان الرومان أقل حظا فى المدنية من اليونان و بلاد المشرق وكان كل ما وصلهم من آثار المدنية قد جاءهم من الشرق عن طريق الأغريق فى صقلية وجنوبى إيطاليا. ولما آل السلطان إلى روما فى شبه جزيرة إيطاليا فى القرن الثالث قبل الميلاد اصطدمت مصالح روما بالأغريق فى جنوبى إيطاليا ثم بالقرطاجيين الذين كانوا يواجهونهم على ساحل أفريقية الشمالية . وكان الصراع بين روما وقرطاجه صورة جديدة من الكفاح القديم بين فارس واليونان ، وكان صراعا هائلا بين مجتمعين عظيمين أحدهما فى قرطاجة يقوم على المال والتجارة والبحر والآخر فى روما يقوم على الزراعة والأرض . وتعرف الحرب التى نشبت بين روما وقرطاجة بالحرب البونية أو الفينيقية. وكان موضوع النزاع بينهما يدور حول التسلط على جزيرة صقلية ومضيق مسينا والقوة التى تتحكم فى ذلك المضيق لأن قرطاجه إذا تحكمت فيه تعذر على روما أن تتصل بساحل إيطاليا من الشرق وإذا تحكمت فيه روما لم تأمن قرطاجة على سواحلها وتجارتها .

وكان القرطاجيون كالفرس يعتمدون فى جيوشهم على الجنود المرتزقة الذين يجندونهم من مختلف البلدان على حين كان الرومان يعتمدون فى حروبهم على رجالهم . وكما تنبه اليونانيون من قبل فى كفاحهم إلى ضرورة تنمية قوتهم البحرية كذلك فعل الرومان إذ اعتمدوا على أهل سرقوسة وبنوا لهم أسطولا حربيا لمواجهة قوة قرطاجة العظيمة . على أن القرطاجيين فضلا عن قوتهم وموانيهم البحرية قد واتتهم الظروف بظهور قائد حربى عبقرى من مواطنيهم هو هانيبال Hannibal الذى يعد من أمهر القواد الحربيين الذين ظهروا فى التاريخ . ولذلك كانت الحرب سجالا بين الرومان والقرطاجيين فانتصر الرومان أولا واستولوا على صقلية وفرضوا غرامة كبيرة على قرطاجة .

ولما استأنف الفريقان الحرب كان الرومان قد احتـــلوا جزيرتى فورسقه وسردانية ولم يأبهوا لاحتجاج القرطاجيين كما سيروا حملة ضد بلاد الغال Gaul فأخضعوها وامتد سلطانهم شمالا فيما وراء البحر المتوسط وغربا إلى ساحل المحيط . وأرادت قرطاجة أن تحفظ التوازن بينها وبين روما وأن تتعوض من الجزر التى فقدتها فى البحر المتوسط فوجهت أحد قوادها « هملكار » لفتح أسبانيا والاستيلاء على مناجم الفضة بها وأخذ العدة لتنظيم جيش قوى من أهليها يضارع جيش روما . فقام هملكار بتنظيم هذا الغزو وترك من بعده لولده هانيبال مهمة إتمام ذلك العمل العظيم . ومالبث النزاع أن قام من جديد بين قرطاجة وروما بل بين القائد الفذ هانيبال وبين دولة روما . فقام هانيبال فى سنة ٢١٨ ق . م على رأس جيش مؤلف من ٤٠,٠٠٠ جندى وزحف شمالا قاصد غزو روما عبر جبال البرانس والألب مذللا جميع العقبات التى اعترضته . وقد آثر هانيبال تسيير حملته برا خوفا من تفوق الأسطول الرومانى من جهة ولكثرة عدد فرسانه وفيلته من جهة أخرى بحيث كان يتعذر عليه نقلها بحرا . يضاف إلى ذلك أنه كان يعتمد على مؤازرة الشعوب الشمالية التى أخضعتها روما وكانت تكن لها كراهية شديدة فكأنما كان هانيبال يمنى نفسه بتزعم الشعوب التى غلبتها روما فى كفاحها جميعه لاسترداد حريتها واستقلالها . وقد لاقى هانيبال وجيشه فى أثناء عبورهم ممرات الألب من الصعاب وشدة البرد والجوع ما أفقده عددا كبيرا من جنوده ورأى هانيبال أنه أصبح بمعزل عن قرطاجة وأمام عدو عنيد يمتاز بصلابته وكثرة موارده وخاصـــة فى الرجال فعقد عزمه على الكفاح وصمم على مفاجأة العدو واقتناص الظفر منه مهما كلفه ذلك . ولم يكن بين صفوف الرومان وقتئذ قائد يستطيع مغالبته فانتصر هانيبال فى موقعة بحيرة ترازمين Trasimene ٢١٧ ق . م انتصارا عظيما خسر الرومان به معظم جنودهم ولكنه لم يكن انتصارا حاسما ولم يتبعـــه هانيبال بالزحف لمحاصرة روما نفسها لأنه خشى أن تطول مدة الحصار فتضعف الروح المعنوية بين جنوده فآثر الزحف شرقا وجنوبا لعله أن يجد بين الأغريق سندا وعونا ضد روما .

وأصلح هانيبال أمر جيشه على حــين كوّن الرومان جيشا جديدا فتقابل الجيشان فى موقعة كانيا Cannae الشهيرة سنة ٢١٦ ق . م ومع أن عدد الرومان كان قريبا من ضعف عدد القرطاجيين وحلفائهم فان النصر كان حليف هانيبال ودحر الجيش الرومانى عن آخره . وحين كان هانيبال يجنى ثمار انتصاره ويؤلب أعداء روما عليها وينتظر وصول المدد إليه من أسبانيا بقيادة أخيه الصغير هاسدروبال كان الرومان يستجمعون بعد الهزيمة ويعدون أنفسهم لكفاح جديد حتى لا يتركوا زعامة العالم وحوض البحر المتوسط لقرطاجة فأخذوا يخضعون المدن التى جنحت إلى جانب هانيبال واحدة بعد أخرى . وبعد أن قضى هانيبال عشر سنوات فى إيطاليا مكللا بغار النصر آملا أن يصل إليه المدد ليكمل عمله العظيم فيقضى على قوة روما ويضمن لقرطاجة العزيزة تفوقها فى العالم بلا منافس جاءه نعى أخيه وانهزام جيشه سنة ٢٠٧ ق . م أمام القوات التى أرسلها الرومان إلى أسبانيا لمنع وصول المدد إليه . وألقيت إليه أنباء الكارثة بطريقة مروعة إذ رمى إليه أحد قواد الرومان فى معسكر القرطاجيين برأس أخيه القائد هاسدروبال، فكان فيه النعى وأنباء الكارثة جميعا .

وقد فت هذا الحادث فى عضد هانيبال ولكنه ظل فى جنوب إيطاليا يتحين الفرص ويرقب دوران عجلة الحظ ، ولكن العجلة دارت بالخلاف وبدأ الحظ يعاكسه إذ ظهر بين الرومان القائد الكفء الذى ضارع هانيبال قوة وإقداما وهو سيبيو Scipio الأفريقى الذى استطاع تخليص أسبانيا من يد القرطاجيين ومن ثم هاجمهم فى عقر دارهم بأفريقية كما فعل هانيبال بالرومان . فاضطرت قرطاجة إلى أن تدعو بطلها إلى إنقاذ وطنه فجاء هانيبال إلى أفريقية على عجل ودارت معركة « زاما » قرب قرطاجة من الداخل سنة ٢٠٢ ق . م وقد وقف القائد القرطاجى وجها لوجه أمام غريمه سبيو القائد الرومانى وظلت نتيجة المعركة تتأرجح فى ميزان القــدر فترة من الزمن إلى أن تغلب القائد الرومانى وخسرت قرطاجة المعركة ونزلت عن أملاكها وأسطولها وحملت غرامــة كبيرة تدفعها إلى روما

واصبحت بعد ذلك دولة فى الدرجة الثانية من الاهمية تخضع فى سياستها لروما

ولكن الرومان لم ينسوا اذلالهم على يد هانيبال فلم يتركوا قرطاجه تتجدد وتعيش وتزدهر، وما فتئوا يرددون فى منتدياتهم وفى خطبهم وجوب تدمير قرطاجة ومحوها من الوجود حتى تم لهم ما أرادوا ودمروها تدميراً سنة ٤٦ . ق . م . ولم يبقوا لها على اثر. واصبحت روما بعد ذلك تسيطر وحدها على حوض البحر المتوسط ـ وسطه وغربيه وأخذت تعد العدة لنشر رواقها كذلك على شرقية حتى تكون بمأمن من ظهور قرطاجة أخرى تهدد وجودها كما هددتها من قبل قرطاجة هانيبال.

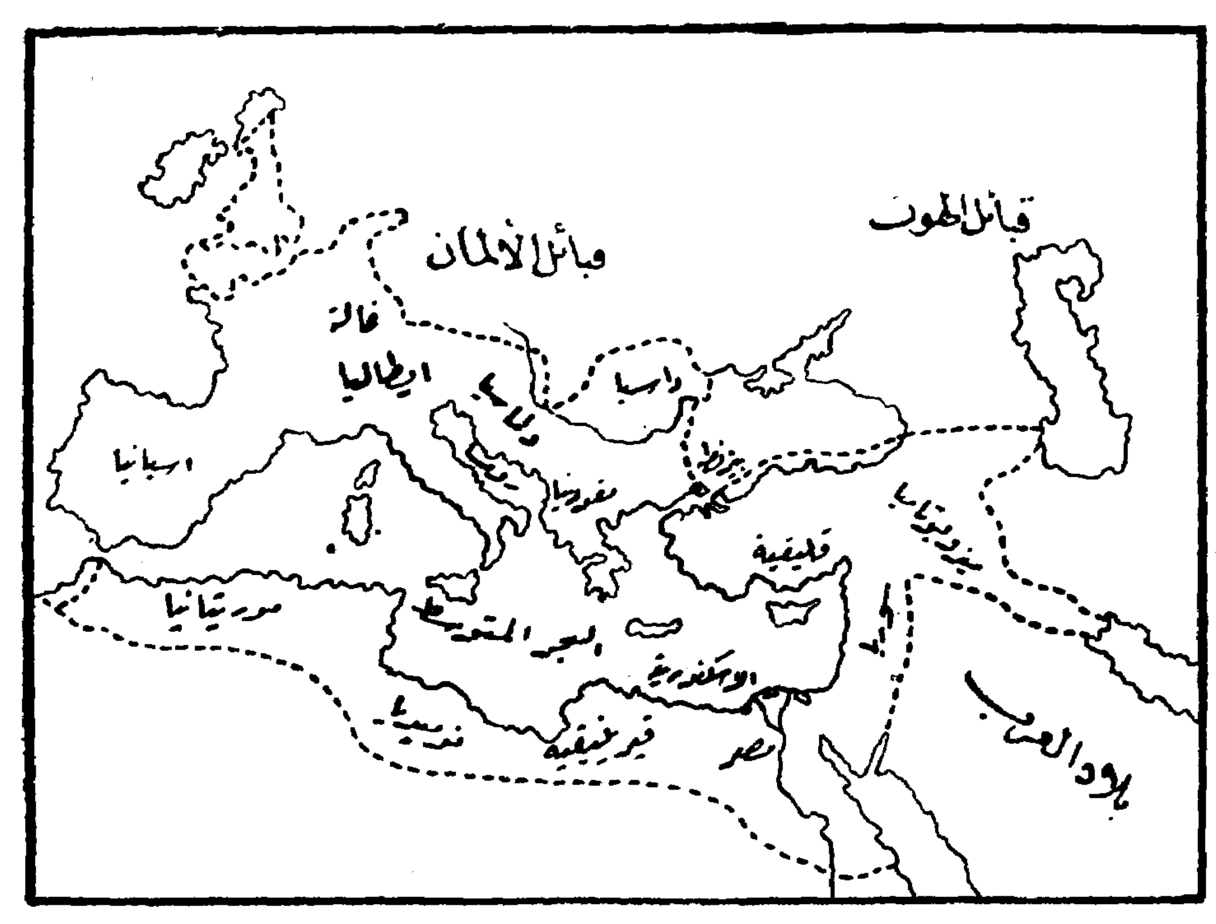
وما كادت روما تنتهى من موقعة زاما حتى استوقف نظرها نهضة مقدونيا وكان ملكها قد تحالف مع هانيبال فى أثناء الحروب البونية ثم تحالفت مقدونيا ووارث ملك السلوقيين فى آسيا الصغرى فخشيت روما أن تتحد المملكتان ضدها فسارعت بمهاجمة مقدونيا وأخضعتها . ومن بلاد اليونان سارت الكتائب الرومانية إلى آسيا الصغرى لمنازلة الملك أنطيوكس الذى استولى على أملاك بطليموس فى آسيا فضم سوريا وفلسطين وأملاك دولة الفرس القديمة الى ملكه الواسع فهزمته روما فى آسيا الصغرى وتخلصت بذلك من الدولتين العظيمتين اللتين تخلفتا عن الاسكندر الأكبر ولم يبق سوى مصر وكانت العلاقات بينها وبين روما ودية الى درجة التبعية . وبذلك أصبحت روما بعد خمسين سنة من موقعة زاما سيدة البحر المتوسط شرقا وغربا .

ولما اتسعت أملاك روما لم يعد نظام الجمهورية الصغيرة الناشئة على نهر التيبر يلائم الحاجات والتطورات الجديدة التى واجهت الشعب الرومانى بعد انتصاراته السريعة وانتشار نفوذه شرقا وغربا . ولذلك بدأت روما تتمخض عن ثورات وتقلبات داخلية بين طبقات الشعب تارة وبين الشعب وكبار قواده تارة أخرى . وظلت المنازعات الداخلية قائمة حتى ظهر يوليوس قيصر فجمع السلطة فى يده ووطد سلطان روما فى أملاكها وكاد ينشىء نظاما حكوميا ثابتا يكون هو واسطة عقده وحينئذ أوجس أنصار الجمهورية خيفة من سياسته وقتلوه فى سنة ٤٤ ق . م وورثه

قريبه أو متبناه اكتافيوس فاتحد مع أنطنيوس زميل قيصر وصديقه وشرعا ينتقمان من قتلة قيصر وينفذان سياسته ، فانتصرا على جيش بروتس قاتل قيصر ونصير الجمهورية فى موقعة فلبى Philippi فى تراقيا وبعدها اتفقا على أن يسيطر اكتافيوس على الغرب وأن يظل أنطونيوس حاكما فى الشرق وأن يتركا افريقية حيث كانت قرطاجة سابقاً لزميل ثالث لهما اسمه لبيدوس . ولـكن سمعة انطونيوس فى الشرق كانت قد ساءت وتدهورت إذ وقع فى شراك كليوبطره وريثة البطالمة فى مصر واتخذها زوجة له وصار وقته مضيعاً بين انطاكية عاصمته فى الشرق وبين الاسكندرية حيث تعيش زوجته الجميلة

فسعى اكتافيوس حتى أعلنت روما الحرب على كليوبطره وسار بجيشه وأسطوله شرقا ،فأبحرت كليوبطره على ظهر أسطولها يؤازرها حبيبها أنطونيوس لمقاتلة اكتافيوس فدارت بينهما معركة بحرية فى اكتيوم سنة ٣٢ ق . م على ساحل اليونان الغربى وانهزم فيها الأسطول المصرى وفر أنطونيوس وانتحر ، ودخل اكتافيوس أرض مصر منتصراً سنة ٣٠ ق . م وأصبحت مصر منذ ذلك الوقت ولاية رومانية . وأبت كبرياء كليوبطره أن تدخل روما ذليلة فى موكب اكتافيوس وهى التى كانت تطمع أن تجلس على عرشها إلى جانب قيصر أو حبيبها أنطونيوس فانتحرت . وكانت آخر ملوك البطالمة فى مصر .

وبموتها وموت أنطونيوس فقدت مصر سيادتها وقوتها البحرية فى شرقى البحر المتوسط وجمع اكتافيوس فى يده حكم الشرق والغرب جميعا وبذلك أصبح طريق الامبراطورية الرومانية معبداً وصار اكتافيوس أول امبراطور لها فى سنة ٣٠ ق . م باسم أغسطوس. وقد وسعت الامبراطورية جميع الشعوب التى كانت تسكن حوض البحر المتوسط بكل سواحله فكان يحدها من الشرق نهر الفرات ومن الشمال نهر الدانوب والرين ومن الجنوب الصحراء الـكبرى ومن الغرب المحيط الاطلنطى ولم يبق خارج هذه الحدود الا القبائل الجرمانية المتبربرة شمالى الدانوب وشعوب الشرق الاقصى .



الدولة الرومانية

وظلت الدولة الرومانية تسيطر على حوض البحر المتوسط خمسة قرون يظل سلطانها العالم المتمدين بأجمعه فصبغته بمدنيتها ووحدته بقانونها و سلطة امبراطورها وربطته بطرقها السابلة بالأمن حتى أصبحت الشعوب الخاضعة لها رومانية فى كل شيء الا الدين . فقد كانت الشعوب حرة فى عبادة آلهتها حتى ظهر المسيح عيسى عليه السلام فى عهد الامبراطور تيبريوس نحو سنة ٣٠ بعد الميلاد فجعل يجوب البلاد ويدعو الى الأخاء والمساواة بين الناس جميعا شريفهم وحقيرهم ويحضهم على طاعة الله والرفق بالفقراء والضعفاء ويبشر الناس جميعاً بملكوت السماء ورحمة الله التى تتسع لجميع عباده على السواء لافرق بين عامل وأمير ثرى أو فقير . وكان من تعاليمه عليه السلام إن الملوك والأباطرة كسائر الناس لا يمتازون بشيء عن غيرهم وان ارادة الله وجبروته فوق كل ارادة وقوة . فاعتبرت الحكومة الرومانية الدعوة الى ذلك كله خيانة للأمبراطورية وهدما لمبدأ الوحدة التى ربطت اجزاء الدولة فاضطهد القياصرة هذا الدين الجديد وطاردوا معتنقيه حتى صارت

المسيحية جريمة فى نظر الحكومة فكان المسيحيون يجتمعون فى الكهوف والخبايا يتعبدون فيها مستهدفين لأشنع أنواع العذاب ، ومع ذلك ظل المسيحيون الى النهاية لا يحنون رءوسهم إلا لله الواحد الذى دعاهم المسيح لعبادته . ولم يزدهم اضطهاد روما إلا استمساكا بعقائدهم واستعداداً لبذل الروح فى سبيلها .

ولما اختفى السيد المسيح بعد أن قررت الحكومة الرومانية القبض عليه والتنكيل به ذهل الناس ولم يصدقوا ماحل به فقام القديس بولس أحد أصحاب المسيح وفسر للناس كيف أن الله سبحانه وتعالى أرسل السيد المسيح ليخلص الناس من الخطيئة ويحتمل عنهم العذاب . وجعل القديس بولس يطوف بأنحاء الامبراطورية من بلدة طرسوس الى آسيا الصغرى وبلاد اليونان الى روما مبشرا بالدين الجديد ، وكان ينشر رسائله باللغة الاغريقيه الذائعة إذ ذاك بين الناس فتبعه خلق كثير ونشأت الجماعات المسيحية فى كل صقع وموطن ثم ظهرت الكنائس وقام بأمرها طائفة من القساوسة من أذكى الرجال وأنشطهم حتى اذا اعتلى عرش الامبراطورية قسطنطين فى سنة ٣٢٤ ميلادية ورأى ما عليه الجماعات المسيحية من القوة والمعرفة ورجاحة العقل لم يسعه سوى الاعتراف رسمياً بالدين المسيحى

وفى عهد قسطنطين كان الخطر على حدود الدولة الرومانية قد اشتد من الشمال لتحفز القبائل الجرمانية المتبربرة لمهاجمة الدولة بعد أن تغلغل جنود الجرمان فى الجيش الرومانى وتدخلوا فى كثير من شئون الدولة كما كان الخطر يهدد الدولة من الشرق لظهور دولة الفرس الساسانية الجديدة فى ٢٢٦ ميلادية ومحاولتها استرداد سابق نفوذها على حدود نهر الفرات . لذلك اتجهت عزيمة قسطنطين إلى انشاء عاصمة جديدة تكون بمأمن من غارات البرابرة من جهة وفى مركز وسط يلائم رقابة الحدود الشرقية من جهة أخرى فشيد سنة ٣٣٠ ميلادية مدينة القسطنطينية على الضفة الأوربية من مضيق البسفور ليشرف منها الامبراطور على شئون الشرق والغرب جميعا . وكان انشاء العاصمة الجديدة مكان بيزنطه اليونانية فأصبحت تعرف بروما الجديدة أو مدينة قسطنطين حتى جاء الأتراك

فعرفت باسم اسطنبول . وكانت العاصمة الجديدة فى بدء أمرها تضارع الاسكندرية ثم ما لبثت ان فاقتها بل فاقت روما نفسها . وجاء وقت أصبحت فيه سيدة العالم المتمدين كله .

وبظهور العاصمة الجديدة أنقسم حوض البحر المتوسط بل انقسمت الدولة الى قسمين متميزين القسم الغربى وكانت تتغلب فيه اللغة والثقافة اللاتينيتان وعلى رأسه روما ، والقسم الشرقى كانت تغلب فيه اللغة والثقافة اليونانيتان وعلى رأسه القسطنطينية . ثم توالت هجمات القبائل المتبربرة على الدولة الغربية منذ أواخر القرن الرابع بعد الميلاد حتى استولى القوط الغربيون على غالة واسبانيا وأفريقية ثم سقطت روما نفسها فى سنة ٤٧٦ م فى يد زعيم من المتبربين اسمه ادواكر ، وبذلك انتهت الدولة الرومانية الغربية بعد أن ظلت روما تحكم العالم خمسة قرون تقريبا .

وكانت المسيحية قد اصبحت فى عهد الأمبراطور تيودسيوس الدين الرسمى للبلاد فلما انهارت الأمبراطورية فى الغرب ورثتها الكنيسة وعلى رأسها أسقف روما أو البابا الذى اضطلع بنصيب كبير من الواجبات الحكومية لاسيما بعد أن اعتنق المتبربرون الدين المسيحى فأعطوا قيادهم لرجال الدين معترفين بفضلهم فى كل ما وصلوا اليه من مكانة ومدينة .

أما الدولة الرومانية الشرقية فقد انعزلت عن غرب أوربا وصمدت وحدها تكافح القبائل المتبربرة من الشمال والفرس ويليهم العرب ثم الأتراك من الشرق حتى تداعت على يد الأتراك بعد الف سنة من سقوط روما .

وقد حاول الأمبراطور جوستينيان (٥١٧ — ٥٦٥ م) أحد اباطرة الدولة الرومانية الشرقية أن يعيد إلى الدولة وحدتها وأن يخلص روما وايطاليا وسائر الأملاك الرومانية الواقعة غربى حوض البحر المتوسط من قبضة المتبربرين فلم يوفق. وكان جوستنيان قادرا له ولع عظيم باشياء كثيرة كالبناء والعمارة والقانون والدين والتجارة والحرب والسياسية وقد باشر هذه النواحي جميعا وتولاها بنفسه فاسرف فى بذل المال لها فحمل الدولة اعباء مالية جسيمة ثم باء فى النهاية بالافلاس

والخسران . وقد ذهبت معالم كل ما زاوله من اعمال عدا فن العمارة والقانون . فقد خلف بعده كنيسة ايا صوفيا وهى آية فى الفن البيزنطى البديع ، والف فى القانون لجنة جمعت شتات القانون الرومانى ونقحتها وانتجت المجموعة أو المدونة القانونية المعروفة باسمه والتى لاتزال من أقوى أسانيد القانون المدنى .

ذلك كان شأن جوستينيان فى الحياة المدنية ، وأما فى الحرب فقد كان له قائد لامع الذكر اسمه بليساريوس أعاد للجيوش الرومانية سابق شهرتها ومجدها ومكن لدولته فى حوض البحر المتوسط فقاد جيشا سنة ٥٣٣ م استرد به اقليم افريقية من قبائل الوندال ثم عبر بجيوشه إلى جزيرة صقلية فاحتلها ونزل بجنوب ايطاليا وهزم قبائل القوط الشرقيين واحتل نابلى وروما ورافنا وعادت ايطاليا مرة أخرى إلى حظيرة الدولة الرومانية الشرقية . ولكن سوء الحالة المالية فى البلاد وتهديد قبائل السلافيين أو الصقالبة للدولة من الشمال وتهديد الفرس لها من الشرق لم يجعل لهذه السيادة قيمة تذكر فسرعان ما اجتاحت قبائل اللبارد ايطاليا وجعل الصقالب من الشمال والفرس من الشرق يتابعون هجماتهم على الدولة الشرقية حتى وقعت فى محنة شديدة جرت عليها حروبا استمرت مع دولة الفرس نحو مائة سنة وقد استطاع كسرى فى أثنائها أن يضم إلى ملكه سوريا وفلسطين ومصر ثم تمكن الأمبراطور هرقل من هزيمة الفرس فى موقعة نينوى سنة ٦٢٧ واسترد على أثرها الأقاليم التى كانت فقدتها

وبينما كان الروم والفرس يعانيان فى كفاحهما منتهى الجهد والاعياء وقد تضعضعت فى بلادهما أسباب القوة المادية من زراعية وصناعية وتجارية فقل عدد سكانها وتفانت جيوشها المدربة ، إذ وصلت الى كل من العاهلين المتنافسين فى سنة ٦٢٨ م رسالة من شخص غير معروف قد نشأ فى جوف الصحراء ليس له ذكر ولا شأن يدعوهما فيها الى الايمان بدين جديد. أما الامبراطور هرقل فأحسن مقابلة الرسول وأكرم وفادته وأما كسرى فغضب ومزق الرسالة ورمى بها ، فمزق الله ملكه شر ممزق ورمى به فى التهلكة ، ولم تكن هذه الرسالة إلا رسالة الاسلام بعث بها الى العاهلين العظيمين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

الفصل الثانى

البحر المتوسط

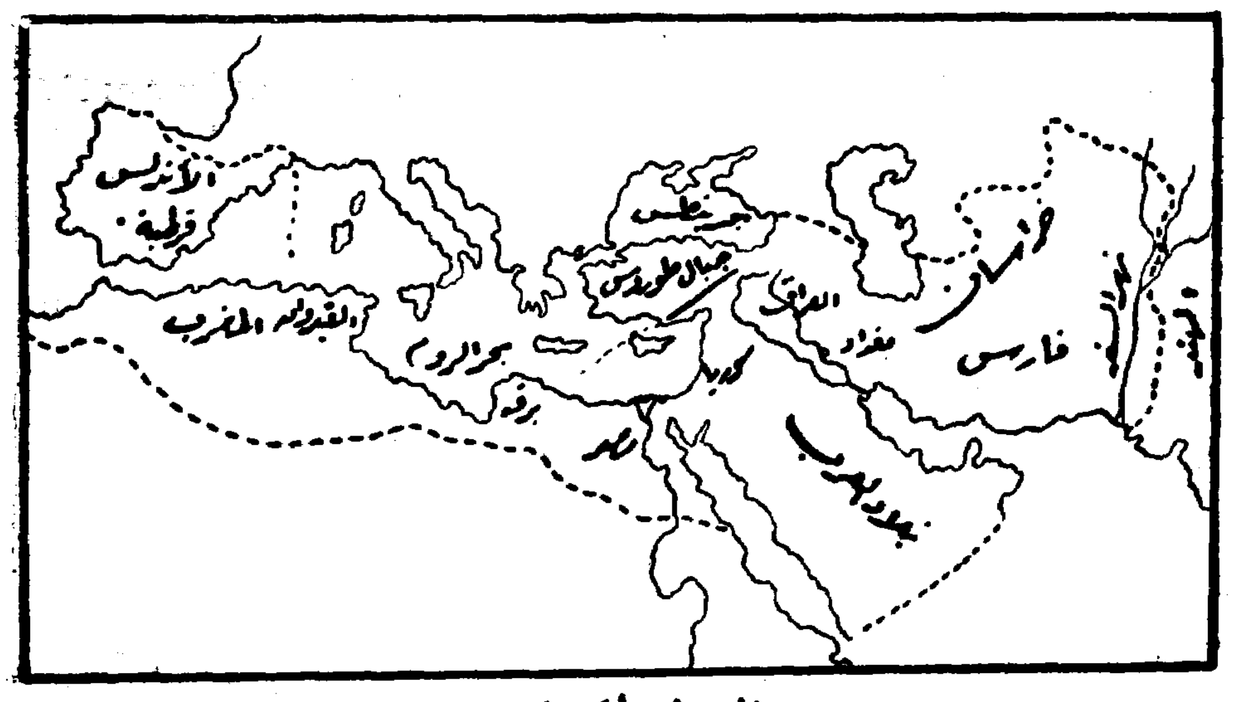
من العصور المتوسطة الى نهاية القرن الثامن عشر

نشأت الدعوة الاسلامية فى قلب الصحراء ولكن سواحل البحر الأحمر لم تكن بعيدة عن ربى مكة والطائف، فلم تكد الدعوة تجاوز حدود جزيرة العرب وتتعرف اليها الشعوب التى كانت تسكن الجانب الشرقى من حوض البحر المتوسط حتى لقيت بذرة الاسلام أرضاً طيبة صالحة فنمت وأورقت وازدهرت وأنتجت أحسن الثمرات . وعلى رغم قول المؤرخين أن الشعوب الفاتحة تخضع عادة وتندمج فى المدنيات القديمة التى تتغلب عليها فان العرب وقد فتحوا سوريا وفلسطين ومصر فى منتصف القرن السابع واضطروا الدولة الرومانية الشرقية أن تنسحب من هذه الارجاء وتنكمش فى آسيا الصغرى والبلقان قد طبعوا أهل تلك البلاد بلسانهم ودينهم وعاداتهم فى أقل من قرن وكأنما قد قطعوا كل صلة بالماضى القريب ، فأمسوا ثم أصبحوا مسلمين يتكلمون العربية ويأتمرون بأوامر القرآن الكريم وينهجون سنة النبى ﷺ كأن لم تكن المسيحية والاغريقية أو اللاتينية سائدة بينهم إلى وقت قريب فى تلك الارجاء . وليس من شك فى أن من أهم العوامل التى ساعدت على هذا الانقلاب العظيم حسن استعداد الشعوب لاستقبال الدين الجديد الذى أراحهم من الخلافات والاضطهادات الدينية التى أفسدت عليهم الحياة منذ قرون وخلصهم من الضرائب الثقيلة التى كانت تجبيها بيزنطه من الشعوب الخاضعة لها

على أن هذا الاستعراب الذى شمل شرقى البحر المتوسط لم يتم دون أن يترك أثره فى الفاتحين أنفسهم، فالعرب من ناحيتهم قد تأثروا بالثقافة الهيلينية أو البيزنطية

وبالمدنية التى أخضعوها لحكمهم فحفظوا التراث الاغريق العلمى وعربوه وأفادوا منه كثيراً فى فلسفتهم وعلومهم، ومن ثم نشأت المدنية الاسلامية وأنشئت الجامعات الاسلامية التى أرسلت نور العلم والعرفان فى الآفاق واهتدت بهديها جميع الشعوب حتى المسيحية الأوربية فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تعيش فى أحلك ساعات تاريخها تحت نظام الاقطاع

ويخطىء الذين يقولون ان العرب لنزوحهم من الصحراء كانوا غير أهل لمزاولة الملاحة البحرية فانهم ما كادوا يستقرون على ساحل البحر المتوسط فى سوريا وفلسطين ومصر حتى مرنوا على البحر واستعانوا بالروم وسكان فينيقيا القديمة فى بناء أساطيلهم التجارية والبحرية ولم يطل بهم الزمن حتى استطاعوا فى عهد الأمويين أن يخضعوا جزيرة قبرص ويهاجموا بيزنطة مرة أخرى . وقد أنشأوا ميناء البصرة على رأس خليج فارس كما عبروا مضيق هرقل واجتازوا صخرته بقيادة طارق ابن زياد فى سنة ٧١١ م لفتح الأندلس فهو « جبل طارق » منذ ذلك التاريخ . ولما استقرت أمورهم فى الاندلس وشمالى أفريقية استطاعوا احتلال جزر البليار فى الغرب وصقلية ومالطه وجنوبى إيطاليا . فاذا كان قد



الدولة العربية

استعصى على العرب فتح مغاليق أوربا أمام القسطنطينية من الشرق فانهم قد فتحوا طريقهم إلى صميم أوروبا من الجنوب والغرب وأنشأوا لهم فى الاندلس دولة دامت قرابة ثمانية قرون

وليس معنى هذا أن البحر المتوسط قد أصبح فى عهد العرب بحيرة عربية كما كان بحيرة رومانية فى عهد الرومان ، فان الدولة الرومانية الشرقية ظلت مسيطرة على سواحل آسيا الصغرى والمضايق وبحر إيجه وشبه جزيرة البلقان كما ظلت الدولة الرومانية المقدسة التى أنشأها شرلمان تسيطر على شمالى ووسط إيطاليا وجنوبى فرنسا . ولكن الأمر المحقق هو أن فتوح العرب فى الشرق والجنوب قد قسمت حوض البحر المتوسط إلى قسمين متميزين لا يزال كل قسم منهما حافظا لميزاته إلى الآن ، فقد طبع العرب شرقى البحر وجنوبه بالطابع العربى الاسلامى ودخل القسم الغربى منه فى طور تاريخى جديد طبعه بالطابع التيوتونى المسيحى على رغم بقاء العرب مسيطرين على سواحل أندلوسيا وبعض أجزاء من جنوب إيطاليا عدة قرون

ومما لا شك فيه أن الملاحة والمواصلات البحرية قد تأثرت فى الفترة التى ساد فيها نظام الأقطاع فى أوربا وازدهرت فيها المدنية الاسلامية فى الشرق والجنوب فقد عنى العرب أكثر ماعنوا بطرق القوافل وتأمينها وبتعبيد الطرق العامة وإقامة الجسور وحفر الترع . وبذلك نشطت طرق التجارة البرية والنهرية لا فى الشرق وحده بل وفى أوربا أيضا بواسطة نهر الطونة والرين ، وظلت الملاحة البحرية فى ركود حتى ظهرت المدن الإيطالية ونزل النور منديون من الشمال يخاطرون بسفنهم فى مياه البحر المتوسط الدافئة وقامت أخيراً الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر فعادت الحركة إلى البحر المتوسط وأفادت الملاحة والتجارة كما أفادت المدن الإيطالية من هذه الحروب خيراً كثيرا

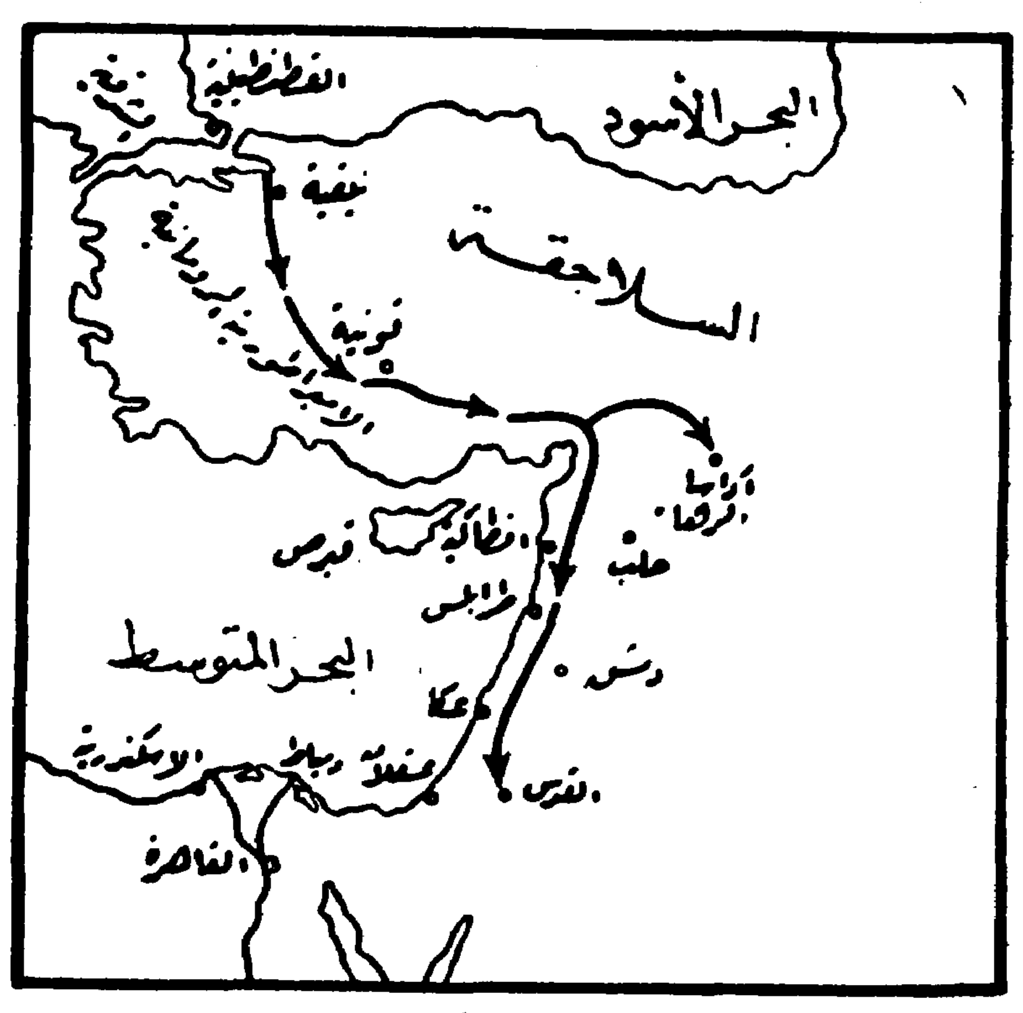
على أن الجموع الغفيرة التى حركتها الكنيسة وأثارها الرهبان لتخليص أورشليم والبلاد المقدسة من أيدى الأتراك السلاجقة أو من أيدى الفاطميين كان لا بد لها

من اتخاذ إحدى سبيلين إلى الأرض المقدسة إما عن طريق بيزنطه وآسيا الصغرى ثم عبور جبال الطوروس والانحدار جنوبا إلى فلسطين . وأما الذهاب إلى إحدى المدن الإيطالية المستقلة كجنوه أو بيزا أو البندقية وركوب البحر منها إلى سواحل الأرض المقدسة . ولما كانت الطريق البرية الأولى محفوفة باخطار طبيعية وأخرى اجتماعية إذ كانوا يتعرضون فيها لهجوم السلاجقه فى آسيا الصغرى واستبداد امبراطور بيزنطه فى شئون معاشهم وتموينهم فان الصليبيين فضلوا ركوب البحر من أحد الموانى الايطالية ولم يعمدوا إلى الطريق البرى إلا نادراً وخاصة فى الحملة الأولى التى اندفعوا فيها بحماستهم الهوجاء وجهلهم المطبق بطبيعة البلاد والمسافات فلاقوا من أمرهم عنتا شديدا

فلما انتهى بهم المطاف واستطاعوا دخول بيت المقدس وإنشاء الدويلات الصليبية الأربع على سواحل المشرق وهى طرابس وانطاكيه والرها وأورشليم تشجع الأوربيون وأخذت وفودهم إلى البلاد المقدسة تتابع وبذلك بدأ العهد الصليبي الذى يسر لأهل الغرب أن يتصلوا بمدنيات الشرق ، وكان هذا الاتصال من أهم العوامل التى مهدت لحركة النهضة الحديثة فى أوربا . وكانت السفن الطليانية التى تحمل الصليبيين الى البلاد المقدسة تتقاضاهم امتيازات تجارية لمواطنيها وتعود إلى أوربا محملة بنفائس الشرق من أنواع الحرير والأبسطة والورق والتوابل ومصنوعات ومنسوجات مختلفة فتوزعها بأرباح كثيرة داخل أوربا عن طريق ممر برنر فى جبال الألب فنهر الرين أو الدانواب . وكان أهم هذه المدن الايطالية جنوه ثم البندقية وهى التى اتسع سلطانها شرقى البحر المتوسط وأصبحت لهافيه السيادة التجارية البحرية غير منازعة .

ولما نشبت الحرب الصليبية الأولى سنة ١٠٩٧ اتخذت طريقها إلى البلاد المقدسة براعن طريق الدولة الرومانية الشرقية ولكن الصليبيين مع ذلك لم يهملوا القوة البحرية فكانت السفن الايطالية تعاونهم فى أثناء زحفهم جنوبا إلى أورشليم وكانت من العوامل التى ساعدتهم على اخضاع انطاكيه بعد حصار دام ثمانية أشهر .

وما كاد الصليبيون يستولون على أورشليم سنة ١٠٩٩ بعد مذابح بشرية مروعة خاض الصليبيون الدماء فيها إلى الركب حتى استطاعوا تثبيت نفوذهم فى مينـاءى عكا وصور وأصبح ساحل الشرق كله فى قبضة أيديهم . أما فى الداخل فى دمشق وحلب والموصل فـكان الأمراء المسلمون أو الأتابكة متنازعين يحكمون مقاطعات صغيرة متفرقة ولذلك سهل على الصليبيين فتح هذه البلاد . ولـكن أمد الصليبيين فى الشرق لم يطل أكثر من قرنين على رغم تتابع الحملات الصليبية من أوربا تارة برياسة ملوكها وأحيانا بزعامة نواب من لدن البابا وقيادة جماعة من الاشراف الذين أولعوا بحب المخاطرة والفروسية .



حملة الصليبية الأولى

وما كاد الصليبيون ينزلون بأرض الشرق حتى نقلوا إليه فوضى نظام الأقطاع من أوربا وزال من بين الصليبيين ما كان قد بدا فى أمرهم أولا من روح الوحدة والترابط فاحتدم بينهم النزاع وتملـكتهم روح الجشع والأثرة وجعلت الحماسة

الدينية تضعف فتسفر عن خبيء نفوسهم فاستباحوا لأنفسهم أن يتحالفوا مع الأمارات الاسلامية ضد منافسيهم من الأمراء الصليبيين ، وبعد أن كان البابا فى روما يمنى نفسه بجمع كلمة المسيحيين أمام قبر المسيح عليه السلام فينشر سلطانه الروحى على مسيحي الشرق والغرب نسى الصليبيون عهودهم للكنيسة وحكموا أورشليم كملوك مستقلين غير عابئين بحق البابا فى روما أو الامبراطور فى بيزنطه .

وأخيراً ظهر بين المسلمين ما كان يعوزهم قبيل الحرب الصليبية الأولى وهو زعيم قوى يجمع شتات قواتهم ويؤلف منهم جبهة قوية تدفع الصليبيين إلى بلادهم ذلك هو الأمير عماد الدين زنكى السلجوقى صاحب الموصل والعراق فقد عمل على التخلص من جيرانه الصليبيين فى أمارة الرها وكانت أمنع وأقوى حصونهم شمالى سوريا ففتحها سنة ١١٤٤ وعادت الثقة بذلك إلى نفوس المسلمين وحفزهم النصر إلى مواصلة العمل لطرد الصليبيين من ديارهم . وخلف عماد الدين ابنه نور الدين واتخذ مدينة حلب عاصمة له ليكون على مقربة من ميادين الجهاد .وكانت الأنباء بسقوط الرها قد وصلت إلى أوربا فقامت حركة صليبية جديدة لانقاذ الصليبيين قبل استفحال أمر نور الدين فوصل امبراطور المانيا كنراد الثالث وملك فرنسا لويس السابع وقصدوا إلى دمشق يحاصرونها فامتنعت عليهم واضطروا إلى العودة إلى بلادهم بعد فشل ذريع كان من أهم العوامل التى أدت إلى نهضة المسلمين فى الشرق فما لبثت دمشق أن سقطت فى يد نور الدين بعد أن كان أميرها مواليا فى أول الأمر للصليبيين .

ولما أصبحت بلاد الشام بيد المسلمين ولم يبق للصايبيين سوى أمارات السواحل ومملكة بيت المقدس أيقنوا أنه لا نجاة لهم إلا عن طريق البحر المتوسط وأن السبيل إلى مقاتلة المسلمين من الشمال أى عن طريق الامبراطورية وآسيا الصغرى وسوريا قد أغلق دونهم لتفوق السلاجقة وعلى ذلك قر رأيهم على ضرورة غزو مصر حتى يستطيعوا الاحتفاظ ببيت المقدس . وكذلك وجد

السلطان نور الدين صاحب دمشق أنه لا أمل فى قهر الصليبيين إلا إذا ضيق عليهم الخناق من جميع الجهات فلا يكون لهم إلا طريق البحر وهى وحدها لا تكفى لاقامة دولة فى المشرق .

وعلى ذلك تسابق الجانبان للظفر بمصر وكانت الأحوال فيها قد تدهورت فى آخر أيام الدولة الفاطمية وصار الوزراء فيها يقاتلون بعضهم بعضا ويستعينون فى الحصول على مآربهم بالتقرب إلى الغزاة، فبعضهم يؤازر نور الدين وبعضهم مع الصليبيين وبذلك تعرضت البلاد لأقسى محنة فى تاريخها وكان حريق الفسطاط سنة ١١٦٨ م احدى نتائج هذه السياسة الانتحارية العقيمة . وقد انتهى التسابق بين المهاجمين إلى ثبوت قدم القائد الكردى شيركوه فى مصر ومن بعده ابن أخته صلاح الدين الأيوبى الذى استطاع أن يستقل بمصر والشام ويؤسس دولة الأيوبيين بعد موت العاضد آخر خلفاء الفاطميين فى سنة ١١٧١ وموت زعيمه السلطان نور الدين.

ولكن الصليبيين لم يقطعوا الأمل فى امتلاك مصر بل أنهم وقد اطلعوا على خيراتها وما يستطيعون أن يفيدوه منها فضلوا الاستيلاء عليها ولو ضحوا فى سبيلها بمملكة أورشليم نفسها ، لذلك اتجهت وجهة الصليبيين فى القرن الثالث عشر إلى مصر وكان من صالح تجار البنادقة أن تكون لهم قواعد تجارية فى مصر حتى يتسع مجال تجارتهم بين الشرق والغرب ولكن الصليبيين فى محاولتهم الاحتفاظ ببيت المقدس والاستيلاء على مصر قد وزعوا جهودهم وحبطت مساعيهم فى الغرضين جميعا .

ولما صار الأمر كله لصلاح الدين فى كل من الشام وحلب والموصل صار الصليبيون محصورين بقواته من الشمال والجنوب والشرق ولم تبق أمامهم إلا طريق البحر ثم نشب النزاع بين الفريقين فانتصر صلاح الدين فى موقعة حطين ١١٨٧ انتصاراً حاسما سقطت على أثره أم حصون الصليبيين فى عكا ونابلس والرمله ويافا وأخيراً سقطت أورشليم ولم يبق للصليبيين سوى ميناء صور . وهنا يظهر

الفرق واضحاً بين تسامح العرب ومبلغ حضارتهم وما كان عليه الصليبيون من جهل حتى بالمبادىء الانسانية الأولى، فقد كان دخول الصليبيين بيت المقدس مقرونا بطوفان من الدماء البشرية على حين أظهر صلاح الدين بعد دخوله بيت المقدس من التسامح والرحمة ما سجله له تاريخ العصور الوسطى وأساطيره بالفخر فقد ترك للصليبيين فرصة أربعين يوماً يجلون فيها عن البلاد وقد سمح بفك أسر ملكهم مكتفيا بأخذ المواثيق عليه بألا يحارب المسلمين. ولكن يجب أن نذكر أنه كان قد مضى على الحرب الصليبية الأولى نحو قرنين من الزمان وأن المسلمين والصليبيين معاً كانوا قد تخلقوا بصفات الكرم والفروسية وذهبت عنهم خشونة العداء الماضى وحدة التعصب الدينى الذى ساق شعوب أوربا إلى تلك الحروب.

ولما ذاع خبر انهزام الصليبيين فى حطين وفتح المسلمين بيت المقدس تحركت أوربا لحرب صليبية ثالثة كان قوامها هذه المرة ملوك الدول الناشئة الذين تغلبوا تدريجاً على نظم الاقطاع التى كانت سائدة فى الماضى وكونوا من شعوبهم قوميات مستقلة. فقام فليب اغسطوس ملك فرنسا سنة ١١٩٠ ومعه رتشارد «قلب الأسد» ملك انجلترا وأبحرا من ميناء مرسيليا قاصدين بلاد الشرق. وقام فردريك بارباروس امبراطور المانيا بطريق البر ولقى فى طريقه صعابا كثيرة تغلب عليها ولكنه غرق فى أحد أنهار آسيا الصغرى ولم تقو حملته على مواصلة السير من بعده فعادت أدراجها إلا نفراً قليلا منها. ولما وصل الفرنسيون إلى ساحل المشرق حاصروا عكا واحتل رتشارد جزيرة قبرص وهو فى طريقه إلى الشرق وجاء صلاح الدين فضيق الخناق على الصليبيين من البر فى عكا ولكنه لم يستطع حمايتها من البحر، إذ كانت السفن الايطالية متفوقة وكان البحر مفتوحا أمام الصليبيين فظلت عكا ممتنعة على صلاح الدين ولم تلبث أن سقطت فى يد الصليبيين. ودب النزاع بين الصليبيين فعاد فيليب أوغسطوس إلى أوربا وبقى رتشارد وجها لوجه أمام قوات صلاح الدين وقامت بين الفريقين معركة انتصر فيها رتشارد ثم

اتفق الفريقان على ابرام صلح الرملة ١١٩٢ وبمقتضاه ترك بيت المقدس بيد المسلمين على أن يسمح للمسيحيين بالزيارة والحج ويكون للصليبيين فى مقابل ذلك ساحل الشام من صور إلى يافا ويرد المسلمون للصليبيين المخلفات التى وقعت فى أيديهم . وما لبث ان اختفى البطلان الشهيران رتشارد وصلاح الدين من الميدان أما أولهما فعاد إلى أوربا حيث وقع أسيراً فى يد النمسا وهو فى طريقه إلى بلاده وأما صلاح الدين فأدركه أجله فى السنة التالية سنة ١١٩٣ وكأنما أحس قبل موته بخطر هجوم الفرنجة على مصر فحصن سواحل مصر الشمالية وأنشأ أسطولا بحرياً كان له شأنه فى الكفاح الذى قام من بعد بين خلفاء صلاح الدين والصليبيين وقد عرفوا بالفرنجة لأن الكثرة الغالبة منهم كان موطنهم فرنسا .

وليس أدل على تحول أغراض الحروب الصليبية الى اتجاهات أقليمية فردية بحتة من مصير الحرب الصليبية الرابعة وقد قصد الصليبيون ومعظمهم من فرنسا إلى البندقية ليساوموا دوقها على أن ينقلهم إلى سواحل مصر على سفن البندقية وله فى مقابل ذلك مال معين ونصف الأراضى التى يفتحونها ، ولكنهم حين عجزوا عن تقديم المال المتفق عليه أشار عليهم أن يؤدوا للبندقية خدمات بدل المال الذين عجزوا عن سداده . وفعلا قامت الحملة سنة ١٢٠٢ وقصدت إلى ميناء زارا التابع للمجر فاحتلوه للبنادقة . ولم يكتف البنادقة بهذا الكسب فوجهوهم نحو القسطنطينية نفسها وكان بها خلاف شديد على العرش فاجلسوا على العرش المرشح الذى كانت تناصره البندقية ، ولما لم يكافئهم الامبراطور الجديد على مابذلوا من جهد لتوليته هاجموا العاصمة ووضعوا حدا للدولة البيزنطية الأغريقية سنة ١٢٠٤ . وخيل للبابا فى روما أن الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية قد زال وأصبحت الكنيسة الكاثوليكية كاسمها عالمية واحدة ، ولكن هذا الحلم لم يتحقق إلا لسنوات قليلة ظهر على أثرها ميخائيل باليلوجو فأعاد للامبراطورية صفتها الأغريقية ثانيا سنة ١٢٦١ وبقيت الدولة الشرقية تعانى ماتعانى بسبب الخلافات

الدينية وتقدم الأتراك السلاجقة أولا ثم ظهور الأتراك العثمانيين بعدهم حتى سقطت القسطنطينية سنة ١٤٥٣ .

ويتضح من الاحداث التي صحبت الحملة الصليبية الرابعة مقدار تضاؤل الحافز الديني في تجهيز هذه الحملات وتغلب العوامل السياسية والاقتصادية . وكانت البندقية أول من أفاد من هذه الحملات فقد كانت تعمل على احتكار القواعد والأسواق التجارية في شرقي البحر الأبيض المتوسط جميعه . ولما كانت مصر هي الطريق الطبيعي للوصول إلى سواحل البحر الأحمر ثم إلى بلاد الهند والشرق الأقصى كان من الأهمية بمكان أن توجه الحملات الصليبية في القرن الثالث عشر للاستيلاء على مصر لا لتخليص بيت المقدس والتبرك بقبر المسيح عليه السلام كما كانت الدعوى في بدأ الحروب الصليبية .

وعلى ذلك بدأت الحملات البحرية الصليبية ضد مصر وكانت أهدافها جميعا إخضاع ميناء دمياط لتشق سفنهم فرع دمياط إلى قلب البلاد بمصاحبة القوات البرية . وقد باءت هذه الحملات بالفشل لأن محاولة اختراق الدلتا وهي مليئة بفروع النيل وقنواته وخاصة في فصل الفيضان لم تكن خطة مأمونة العواقب ، فكان المصريون يتخذون من الجسور متاريس ومن الترع خنادق ليعوقوا سير الحملات المعادية ولم تسبق في التاريخ أن هوجمت مصر عن طريق وسط الدلتا إلا في هذه الحملات وكان الطريق الطبيعي الذي اتخذه الفرس والاسكندر والعرب لمهاجمة مصر من الحدود الشمالية الشرقية .

وكانت أولى هذه الحملات في سنة ١٢١٨ حين كان الملك العادل سيف الدين أخو صلاح الدين يحكم مصر وسوريا معا وكانت الأراضي المقدسة في أمن وسلام دائبين ولم يحدث قط أن شكا المسيحيون من ظلم أو عنت كما كان في عهد السلاجقة ولكن البابوية في عهد البابا انسنت الثالث كانت تتحرق حمية وشوقا إلى المملكة اللاتينية في أورشليم وتريد بأي ثمن أن تستردها .

فجمع البابا في روما مجلسا كنسيا مثلت فيه جميع المدن الغربية وقرر إرسال

حملة صليبية فى تلك السنة وحصر جميع الموانى فى الشرق ووقف التجارة معها . وبدأت الحرب بحصار دمياط بزعامة جان دى برين المطالب بعرش أورشليم . وكان ينازعه فى القيادة نائب البابا بلاجيوس . وقد سقطت دمياط فى يد الصليبيين سنة ١٢١٩ وكان السلطان الكامل قد خلف أباه السلطان العادل على العرش وبقى الصليبيون نحو سنة فى دمياط فى انتظار باقى الصليبيين ثم اخترقوا الدلتا ووقفوا أمام القلعة الجديدة التى بناها السلطان الكامل وسماها المنصورة . وعندذلك بدأت مفاوضات الصلح التى عرضها السلطان الأيوبى على أساس مغادرة الصليبيين لمصر مقابل النزول لهم عن جزء من مملكة أورشليم وإعادة الصليب الذى كان صلاح الدين قد استولى عليه . فقبل هذه الشروط الملك جان ورفضها نائب البابا فاستعد المصريون لاستئناف الحرب واضطر الفرنجة إلى التقهقر وقبول معاهدة الصلح سنة ١٢٢١ لمدة ثمانية أعوام دون أن يستردوا أورشليم . وبذلك انتهت الحملة الصليبية الخامسة دون أن يحقق الصليبيون غرضا ، وظفروا من الغنيمة بالاياب .

ثم جاءت حملة بحرية أخرى بعد سبع سنوات . وليس من الحق أن نسميها حربا صليبية لأن زعيمها الامبراطور فردريك الثانى كان محروما من الكنيسة وكان رجال الدين ممنوعين من الاتصال به أو معاملته على أى صفة . ومع ذلك فقد استطاع فردريك أن يكسب للمسيحية مزايا ويحقق لها أهدافا عجزت عن بلوغها الحملات الصليبية التى كان يرعاها البابا وتباركها الكنيسة . ومن عجب أن تقوم هذه الحملة مغضوبا عليها من الكنيسة والبابا وأن تظفر بتحقيق أمانى المسيحيين دون أن تشتبك مع المسلمين فى موقعة . وتفصيل ذلك أن الامبراطور كان متزوجا ابنة جان دى برين فأصبح بعد موت حميه صاحب الحق الشرعى فى تاج أورشليم وقام بحملته من برنديزى سنة ١٢٢٧ وهناك أصابته الحمى فظن البابا أنه يتمارض ويتهرب من عهده وميثاقه الصليبى فأصدر ضده قرار الحرمان فى تلك السنة . ولكن فردريك لم يعبأ بالقرار البابوى وأبحر سنة ١٢٢٨ ومعه بضع مئات من الفرسان وبدأ مفاوضاته مع الملك الكامل رأسا وخشى السلطان أن يعيد التاريخ نفسه فتسقط

دمياط وشمالى الدلتا فى يد الصليبيين مرة ثانية ولذلك عجل بالاتفاق مع فردريك سنة ١٢٢٩ وكانت أهم شروط الاتفاق أن يأخذ فردريك بيت المقدس بشرط أن يحتفظ المسلمون بالاماكن الإسلامية المقدسة ويتعهد فردريك مقابل ذلك بمساعدة الملك الكامل ضد اعدائه سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين وبعدم ارسال نجدات صليبية أخرى لمساعدة الصليبيين الذين كانوا يقيمون على الساحل فى الشام. وعلى ذلك دخل فردريك أورشليم وتوج نفسه بيده ملكا عليها وبقى بها نحو شهر ثم عاد إلى بلاده يدفع عنها هجوم البابا ويضطره من بعد إلى اصدار قرار الغفران عنه وبقيت أورشليم ١٥ سنة فى أيدى المسيحيين ثم استردها القائد بيبرس السلطان المملوكى سنة ١٢٤٤ ولم تدخل الأراضى المقدسة بعدها تحت حكم المسيحيين .

وقد أدى ضياع أورشليم مرة ثانية من أيدى الصليبيين إلى قيام حملة جديدة سنة ١٢٤٨ بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا الذى حمل الصليب وارتدى مسوح القديسين فسموه «سان لوى» وكانت هذه الحملة بحرية كسابقاتها ووجهتها دمياط كذلك وكانت الدولة الايوبية قد انتابتها الاسقام فى أواخر أيامها فسقطت دمياط دون مقاومة . ثم سارت الحملة قاصدة القاهرة فلما بلغت المنصورة توقفت كما فعلت حملة جان دى برين. وبنى الصليبيون أمام المنصورة عند البحر الصغير قنطرة استحكامات يحتمون بها . وفى هذه الأثناء مات الملك صالح ايوب فاتفقت زوجته شجرة الدر مع الأمراء المحاربين على مواصلة الحرب ضد الصليبيين وألا يذاع بين الناس خبر وفاة السلطان واضطلعت شجرة الدر بمهام الأعمال حتى جاء توران شاه ابن السلطان الصالح بعد نحو ثلاثة شهور . وما كاد يتسلم زمام الأمور حتى نظم قوات الدفاع ونقل اجزاء السفن على ظهور الجمال إلى نقطة فى شمالى دمياط حيث ركبت أجزاء السفن وانزلت إلى البحر وهاجمت الصليبيين وقطعت عنهم المدد وحاول لويس أن يهاجم المسلمين فلم يفلح واضطر إلى العودة بمعسكره إلى دمياط فتعقبهم المصريون حتى ادركوهم عند فارسكور فنشبت بينهما معركة حاسمة فقد فيها الصليبيون نحو ثلاثين الفا وأسر فيها لويس وعدد من الاشراف الفرنسيين الذين كانوا يصحبونه ولم يفك أسره

إلا بعد تسليم دمياط ودفع فدية عظيمة من المال فغادر البلاد سنة ١٢٥٠ إلى عكا وظل بها أربع سنوات فى انتظار امدادات من أوربا يستعين بها على تحقيق أمانيه فى استرداد أورشليم فلما لم يستمع لندائه أحد عاد إلى فرنسا واستمر الصليبيون بعدد على ساحل الشام أربعين سنة أخرى. ولم يكن بقاؤهم تلك المدة عن استقرار أو متعة ولكن الظروف كانت تخدمهم فان الرابطة التى كانت تجمع بين مصر وسوريا فى عهد صلاح الدين وخلفائه قد انفصمت عراها بانتهاء دولة الايوبيين فى مصر وظهور سلاطين المماليك ثم بزحف جموع المغول من أواسط آسيا بقيادة هولاكو مكتسحين أمامهم كل شىء فسقطت بغداد فى أيديهم المخربة سنة ١٢٥٨ وقتل المستعصم آخر خلفاء العباسيين، ومن بغداد زحفوا إلى الغرب يريدون التهام سوريا ومصر. ولم يكن المغول يومئذ قد اسلموا وكان بينهم كثير من المسيحيين فأمل الصليبيون فى الشرق والغرب أن يتحالفوا مع المغول ضد المسلمين ويحملوهم على اعتناق النصرانية وبذلك لا يقتصر نجاحهم على استرداد بيت المقدس بل يكسبون الوسيلة لنشر المسيحية فى ارجاء آسيا وسطها وغربيها، ولكن هذه الامانى لم تتحقق وهاجم جيش هولاكو بلاد الشام واستولى على دمشق فى سنة ١٢٦٠ ثم اتجه المغول جنوبا يقصدون مصر فانبرى لهم قطز سلطان المماليك ومعه بيبرس اكبر قواده وأقوى شخصية بين المماليك ودارت بين الفريقين معركة حاسمة فى عين جالوت سنة ١٢٦٠ فانهزم المغول وقتل قائدهم ونجت مصر من غارات التتر. وكانت نتيجة هذا النصر ان اتحدت قوات مصر والشام مرة ثانية كما كانت فى عهد صلاح الدين وأخذ بيبرس الذى ولى السلطنة بعد قطز يقوى جيوشه وبحريته وحصونه حتى استطاع أن يستولى على النقط الصليبية على ساحل الشام واحدة بعد أخرى فسقطت قيصرية وارسوف ١٢٦٥ ثم انطاكيه سنة ١٢٦٨

وقامت على أثر ذلك حركة صليبية اخيرة فى أوربا بزعامة سان لوى ملك فرنسا أيضاً ومعه اخوه شارل دوق انجو وملك صقايه وادوارد ملك انجلترا ولم يعاود سان لوى خطته القديمة فى غزو مصر بعد الدرس القاسى الذى تلقاه عند المنصورة

فى حملته الأولى فقرر أن ينزل هذه المرة بأرض تونس ويزحف منها شرقا ولكن المنية عاجلته سنة ١٢٧٠ وعلى شفتيه اسم أورشليم يردده مع أنفاسه الأخيرة . وحاول الصليبيون بعده تقوية مركزهم فى عكا ولكن الحمية الصليبية كانت قد آذنت بالغروب فاستولى السلطان قلاوون على امارة طرابلس الصليبية ١٢٨٩ ثم لم تمض سنتان حتى سقطت عكا آخر بلاد للصليبيين فى يد السلطان خليل بن قلاوون . وبضياع عكا زالت دولة الصليبيين اللاتينية من الأراضى المقدسة ولم يبق لهم فى تلك الاصقاع إلا بقايا ورسوم من حصونهم وقلاعهم التى بنوها شاهدة على جشع النفس البشرية وغرورها .

ومن عجب أن تبدأ الحروب الصليبية ووجهتها تثبيت نفوذ الكنيسة ونشر المسيحية فى الشرق ولا تكون نهايتها بعد قرنين إلا وقد تأيد سلطان المسلمين فى الشرق وباتوا يهددون الدولة الرومانية الشرقية بل ويهددون المسيحيين فى عقر دارهم فى غرب أوربا . وكان ظهور الاتراك العثمانيين على هضاب الاناضول أول نذير بالخطر الذى كان يتربص باوربا

والاتراك العثمانيون كأسلافهم الاتراك السلاجقة ينتسبون إلى الجنس التورانى، وكان مهدهم الأول وسط آسيا وشماليها وقد اعتنقوا الإسلام كسائر القبائل التركمانية واستوطنوا آسيا الصغرى . وكان زعيمهم الأول ارطغرل قد آزر سلاجقة قونيه فى حربهم ضد المغول فأقطعوه امارة صغيرة قرب انقره ثم مات ارطغرل سنة ١٢٨٨ فخلفه ابنه عثمان وإليه ينتسب الاتراك وهو الذى أسس للاتراك العثمانيين دولة مستقلة بعد موت السلطان السلجوقى وجعل يمد فى نفوذها شمالا وغربا حتى ضم بروسه سنة ١٣٢٦ وكانت تحت حكم الأغريق ووصل إلى سواحل بحر مرمره. وتوطدت أركان الدولة الفتية فى عهد أورخان إذ تحالف مع امبراطور القسطنطينية ضد اعدائه من شعوب البلقان والعرب واليونان فى الجنوب وجميعهم كانوا فى نزاع مستمر مع امبراطور القسطنطينية ، وعبر الاتراك لأول مرة مضيق الهلسبنت فى منتصف القرن الرابع عشر واتخذ لجيشه قواعد حربية فى شبه جزيرة غاليبولى.

ومنها هاجم السلطان مراد الذى خلف اباه اورخان أراضى الدولة الشرقية حتى استولى على ادرنه العاصمة الثانية للدولة واتخذها عاصمة للاتراك سنة ١٣٦٧ ثم لم يلبث المسيحيون فى البلقان أن اتحدوا ضد الخطر التركى فجمعوا لحربهم جيشاً يبلغ عدده ١٠٠٫٠٠٠ جندى ودارت معركة قوصوه سنة ١٣٨٩ وفيها انهزم البلقانيون وتمهد الطريق لفتح البلقان . وكانت العلاقات بين اباطرة القسطنطينية وسلاطين الاتراك من الود والانسجام فى فترات طويلة بحيث كان الاباطرة يزوجون بناتهم لأمراء العثمانيين أو للسلطان نفسه ويرسلون أبناءهم للخدمة فى الجيش التركى الذى أصبح نموذجا للنظام والمهارة . ثم انقض المغول بقيادة تيمورلنك على الاتراك فى موقعة انقره ١٤٠٢ فانهزم الاتراك واخذ السلطان بايزيد العثمانى أسيراً ثم مات بعد أن تشتت ملكه. ولكن المغول لم يعبروا الاناضول إلى أوربا بل عادوا أدراجهم إلى سمرقند ثم لم تلبث دولتهم أن تجزأت على أثر موت تيمور فى ١٤٠٥ فاستطاع السلطان محمد الأول أن يجمع شتات الدولة وكانت أولى حسناته بعد أحياء الدولة التركية أن أنشأ نواة الاسطول التركى وقوامه بحارة من ملاحى الأغريق فى بحر ايجه . وكان السلاطين منذ فتح البلقان يفرضون على شعوب المسيحية التى خضعت لهم أن يقدموا عدداً من الاطفال سنوياً لينشئوهم منذ صغرهم على حب الدين الإسلامى والوطنية العثمانية فلا يعرفون لهم ابا غير السلطان ولا أما سوى تركيا ولا دينا سوى الجهاد فى سبيل الإسلام ومن هؤلاء الشبان نشأت طائفة الانكشارية المشهورة فى الجيش وطائفة الملاحين فى الأسطول الناشىء .

فلما حانت الفرصة لمحمد الثانى الذى اعتلى العرش سنة ١٤٥١ لم يتردد فى محاصرة القسطنطينية برا وبحراً وكانت الحكومة البيزنطية قد فقدت كل نفوذ خارج أسوار القسطنطينية وحاولت الشعوب المسيحية فى البلقان بقيادة البطل المجرى هنياد انقاذ البلاد من الاتراك أكثر من مرة فكانت الهزيمة تلحقهم اينما ساروا وكانت آخر هزيمة لهم أمام ورنه على البحر الأسود سنة ١٤٤٥ . لذلك كان اخضاع القسطنطينية القائمة على امنع نقطة استراتيجية فى البحر المتوسط أمراً مرتقبا تتوقعه أوربا فى أى وقت

ولما سنحت الفرصة للسلطان محمد الثانى للحرب الحاسمة التى أوشك أن يحقق فيها أحلام سلاطين آل عثمان سير جيشاً لا يقل عدده عن ١٥٠ الف مقاتل ومعه ٨٠ سفينة فى وقت لم يكن يملك فيه الامبراطور قسطنطين باليولوغس آخر اباطرة القسطنطينية سوى بضعة آلاف من الجنود، وضن عليه الغرب بالمساعدة فلم يتقدم لنجدته سوى مدد قليل من سفن مدينة جنوه ورجالها. ولما رأى السلطان أن دخول الميناء متعذر لوجود سلاسل ضخمة تحول دون اختراق مدخل الميناء اقام مجازا من الخشب انزلقت عليه السفن فوق السلاسل تحت جنح الظلام لمحاصرة المدينة العظيمة واستمر هذا الحصار خمسين يوماً استبسل فيها الجانبان وقتل فيها قسطنطين وهو يدافع بنفسه مع جنوده فوق أسوار المدينة ثم هجم الاتراك هجومهم الأخير فى ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ فتسلقوا الأسوار ودخلوا المدينة فاتحين وحولوا كنيسة القديسة صوفيا إلى مسجد جامع للمسلمين وأصبحت مدينة قسطنطين من ذلك اليوم عاصمة للدولة التركية الإسلامية فاطلق عليها اسم اسطنبول، وبسقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين أخذ شرقى البحر المتوسط لونه الإسلامى الغالب إلى الآن .

وقد أدرك العثمانيون بعد تثبيت أقدامهم فى المضايق ما للقوة البحرية من الأهمية لا سيما أن جمهورية البندقية كانت واقفة لهم بالمرصاد فى شرقى البحر المتوسط فوجهوا همتهم للعناية بالاسطول واستولوا على جزر بحر ايجه واحدة تلو أخرى وخاصة ما كان منها قريبا من مدخل المضايق . ومازالت تركيا تناوىء البنادقة حتى اضطرتهم فى نهاية القرن الخامس عشر إلى دفع الجزية لتركيا وقد قوى مركز الاتراك فى البحر المتوسط أثر فتح مصر وسوريا فى عهد السلطان سليم الأول سنة ١٥١٧ وفتح رودس وسواحل افريقية الشمالية فى عهد السلطان سليمان القانونى وبذلك أصبحت سيادة تركيا البحرية غير مقصورة على شرقى البحر المتوسط بل تجاوزته إلى الغرب أيضاً .

وبينما كان السلطان سليم القانونى يوطد أركان الدولة التركية براً وبحراً طالع الناس انباء انقلاب بحرى عظيم شغل حكومات الغرب فصرفها شيئا فشيئا عن البحر

المتوسط وفتح امامها عالما جديداً مليئا بالثروات التى كانت تتضاءل امامها تجارة الشرق وموارده فقد استطاع كرستوف كولمبس أن يكشف عن قارة امريكا الجديدة سنة ١٤٩٢ كما استطاع فاسكو دى جاما أن يسيح إلى الشرق حول رأس الرجاء الصالح ١٤٩٨ وبذلك انتقل نشاط الحكومات والشعوب الغربية إلى المحيط الاطلنطى ونحول مركز الثقل فى العالم إلى ناحية الغرب ولم يعد البحر المتوسط كما كان مركزا للعالم المتمدين ومصدرا للنشاط التجارى .

وعبثا حاولت مصر فى آخر أيام سلاطين المماليك الشراكسة أن تسترد تفوقها التجارى والبحرى فى البحر الأحمر وشرقى البحر الأبيض المتوسط . فقد اخضع البرتغاليون سواحل الدكن فى الهند وجزيرة هرمز عند مدخل خليج العجم وهاجموا عدن وصنعاء ومصوع واخذت سفنهم تجوب مياه البحر الأحمر وخليج العجم وتسطو على سفن المصريين والغربيين والبنادقة وتستولى عليها .

ووصلت أنباء هذه القرصنة إلى مسامع السلطان الغورى . فشكا أولا إلى بابا روما طالبا وقف البرتغاليين وعدم تعرضهم للتجارة المصرية من الشرق والبحر المتوسط وهدده بمهاجمة الأماكن المقدسة ، وكانت فلسطين مع سوريا وجزء من الاناضول تحت حكم المصريين . ولما لم تفد الشكوى جهز الغورى حملة بحرية قامت من السويس واشترك معه البنادقة لمعاقبة البرتغاليين فانتصر المصريون أولا ووقع القائد البرتغالى اسيراً ولكن البرتغاليين عادوا فانتصروا فى موقعة ديو سنة ١٥٠٩ وهى جزيرة صغيرة قرب ساحل الهند الغربى . وعلى أثر ذلك تحولت التجارة من موانى عدن وجده وسواكن والسويس إلى طريق رأس الرجاء الصالح وانقطع طريق التجارة بين مصر والهند فكان لذلك أثر عظيم فى سوء حالة البلاد الاقتصادية والسياسية لا فى مصر وحدها ، وقد أصبحت أيالة عثمانية منذ ١٥١٧ بل فى جمهوريات ايطاليا أيضاً التى كانت تعتمد على تجارتها وأسواقها فى الشرق .

ولما ضعف شأن الملاحة فى البحر المتوسط وتسابقت الدول الغربية نحو الأرض البكر الجديدة فى امريكا وفى الهند عن طريق الاقيانوس خلا الجو فى البحر

المتوسط لفئات من المرتزقة والقراصنة الذين اغتنموا تلك الفرصة وأسسوا لانفسهم ولحكوماتهم مجداً اقاموه على الاتاوات والعطايا التى كانوا يفرضونها على السفن التجارية التى كانت تخاطر بالملاحة فى تلك الأرجاء . وكان من أثر ذلك تدهور شأن المدن الايطالية وزوال سلطانها التجارى والسياسى وقد شمل هذا التدهور حوض البحر المتوسط كله شرقية وغربيه . وقد نشط الاتراك فى عهد السلطان سليمان وأقاموا لأنفسهم دولة بحرية من الدرجة الأولى بفضل جهود القواد البحريين الذين اشتهروا بالمهارة والبطولة الدينية التى كانت تدفعهم أحياناً للقرصنة . وألمع هؤلاء القواد ذكراً هو خير الدين بربروس الذى أخضع الجزائر وبلاد تونس للدولة ، وطورغوت الذى اخضع طرابلس وجعلها ولاية عثمانية . وثمة قواد آخرون ساحوا فى البحر الأحمر وأخضعوا اليمن وعدن وأعدوا الخرائط والرسوم للملاحة فى البحر المتوسط وبحر ايجه والبحر الأحمر .

غير أن هذا التفوق لم يلبث أن تصدع بعد وفاة سليمان القانونى أمام اتحاد البندقية واسبانيا والبابوية فقد كون الجميع حلفا مقدساً ضد تركيا فى سنة ١٥٧١ برياسة أمير نمسوى ونشبت بين الطائفتين معركة بحرية حاسمة فى ليبانتو Lepanto غربى شبه جزيرة المورة وفيها انهزم الاتراك وبدأ يغشاهم الضعف والركود الذى نشر رواقه على البحر المتوسط .

ثم جاءت فترة اصلاح نهضت فيها تركيا ثانيا على أيدى وزراء قديرين من أسرة كبريلى فاستردوا سيادتهم البحرية فى شرقى البحر المتوسط واستطاعوا أن يستولوا على قبرص وكريت وشبه جزيرة المورة من البنادقة فى أوائل القرن الثامن عشر . ولكن هذه الفترة لم تطل أيضاً فسرعان ما ظهرت روسيا الجديدة وقد وضع لها بطرس الأكبر برنامجها السياسى البحرى فامتد سلطانها غربا على حساب السويد وبولنده على سواحل البحر البلطى وجاءت بعده كترينه الثانية فحققت لروسيا الجزء الثانى من برنامج بطرس وهو الزحف جنوبا نحو البحر المتوسط بالاستيلاء على سواحل البحر الأسود والمضايق من تركيا . ومنذ ذلك اليوم قام الكفاح المرير

بين تركيا وروسيا وتتابعت الحروب بينهما فتارة تنتهى بانتصار تركيا وتارات بانهزامها ، وتقلص سلطان تركيا شيئا فشيئا عن شبه جزيرة القرم ثم عن سواحل البحر الأسود . وكانت معاهدة كجوق قيناردجي سنة ١٧٧٤ أول دليل على ما وصلت اليه تركيا من الضعف والخذلان أمام روسيا فبمقتضاها تمتعت روسيا بحرية الملاحة التجارية فى البحر الأسود والمضايق وأخذت روسيا تطالب بحماية الشعوب الارثوذكسية التابعة للسلطان .

وبدخول روسيا ميدان السياسة العالمية واختراق سفنها التجارية للبحر الأسود والمضايق إلى البحر المتوسط ظهر فى حوض البحر المتوسط عامل جديد خطير لم يلبث أن اعاد للبحر المتوسط أهميته وخطورته . ذلك أن التنافس الاستعمارى بين الدول الغربية الذى نشأ على أثر الاستكشافات البحرية الجديدة كان قد استحال إلى كفاح أدى إلى حروب متتابعة بين انجلترا وفرنسا حتى أوائل القرن العشرين وكان البحر المتوسط من أهم مناطق التنافس بين الدولتين أولا ثم بينهما من جهة وبين روسيا من جهة أخرى وبذلك عادت العواصف السياسية تهب على حوض البحر المتوسط ابتداء من القرن التاسع عشر وذهب عنه الركود الذى خيم عليه نحو قرنين من الزمان .

الفصل الثالث

البحر المتوسط فى العصور الحديثة

كانت الثورة الفرنسية وحروب نابليون هى التى وجهت أنظار بريطانيا وسائر الدول الأوربية إلى أهمية البحر المتوسط المتجددة وكانت هذه الدول قبل ذلك لاتكاد تلقى اليه بالا . ولقد بلغ من قلة اكتراث الدول بشأن البحر المتوسط قبل الثورة الفرنسية ان نابليون حين قام بحملته الشهيرة قاصداً إلى مصر فى صيف عام ١٧٩٨ استطاع أن يفلت من رقابة الأساطيل الانجليزية وهى إذ ذاك سيدة البحار ومعه سفن ونقالات تحمل أكثر من ثلاثين الف نفس بمهماتهم ومدافعهم ومختلف حاجاتهم وتم له ذلك على رغم ما ارصدته الحكومة الانجليزية من السفن الحربية لاستطلاع حركات الأسطول الفرنسى فلم يدرك الانجليز قصد نابليون بونابرت ولم يفطنوا إلى أن هدفه مصر واحتلال مالطه فى طريقه إلا بعد فوات الوقت ونزول القوات الفرنسية بمصر ومالطه جميعا .

عند ذلك تنبهت انجلترا إلى الخطر الذى تتعرض له مصالحها وممتلكاتها فى الشرق إذا ربض عدولها فى تلك المنطقة الحيوية التى اعتبرتها منذ ذلك الوقت شريان الامبراطورية الذى يصل بين الأمم ومستعمراتها فى الهند فاخذت تعمل كل ما فى وسعها لاحباط مسعى الفرنسيين لتثبيت نفوذهم فى البلاد بالقوة أو بالسياسة . ومن أجل ذلك نشبت معركة أبو قير البحرية أو النيل سنة ١٧٩٨ وفيها دمر نلسون أمير البحر الانجليزى أسطول بونابرت وقضى على الحملة الفرنسية منذ ذلك الوقت بالخذلان . ولما طال بقاء الفرنسيين بمصر عقب الموقعة وعجزت تركيا بمفردها عن طرد الفرنسيين اتفقت انجلترا وتركيا على مهاجمة مصر بقصد تحريرها من الفرنسيين فقامت فى سنة ١٨٠١ حملة انجليزية قاصدة مهاجمة مصر من الغرب وأرسلت تركيا قوتين احداهما برية تهاجم مصر من جهة حدودها الشرقية

والأخرى بحرية لتعاون الانجليز وأرسلت الهند قوة رابعة الى مصر عن طريق القصير . وفى أوائل مارس سنة ١٨٠١ وصلت الحملة الانجليزية الى أبى قير فانهزم الفرنسيون وحاصر البريطانيون الاسكندرية وسارت الحملة قاصدة القاهرة وعندئذ طلب الفرنسيون الصلح واتفقوا على أن يغادروا البلاد بعددهم وأسلحتهم على سفن انجليزية وانتهت الحملة الفرنسية على مصر بعد ثلاثة سنوات وثلاثة أشهر

ومع أن الحملة لم تكن لها نتيجة حربية تذكر فان نتائجها السياسية والأدبية بالقياس إلى مصر وبلاد المشرق كانت ذات شأن عظيم . ويكفى أن يقال أن المسألة المصرية قد بدأت منذ اليوم الذى نزل فيه نابليون أرض مصر ، وان خروج الفرنسيين منها بعد ذلك لم يكن أكثر من اسدال الستار على الفصل الاول من التمثيلية التى قدر لها فيما بعد أن تكون فى المكان الاول على مسرح السياسة الدولية بحوض البحر المتوسط .

أما الفصل الثانى فقد أزيح الستار عنه فى سنة ١٨٠٧ وكان المنظر الأول منه يمثل الأسطول الانجليزى مخترقا المضايق ليرغم تركيا على ترك محالفة نابليون والاشتراك مع بريطانيا وروسيا فى مناهضته . وكان نابليون قد أرسل الى القسطنطينية سفيراً معروفا بنشاطه وهمته اسمه الجنرال Sébastiani فما زال ذلك السفير الفرنسى يحض حكومة الباب العالى على مصادقة فرنسا ومناوأة أعدائها حتى رفض الأتراك مطالب انجلترا ونشبت بينهما الحرب. فعمل سبستيانى مع الحكومة التركية على تحصين القلاع القائمة على جانبي المضايق وتسليحها وشحنها بالذخيرة والمؤن وواصل الجميع العمل ليل نهار حتى فاجأوا الأسطول الانجليزى المهاجم بنار حامية من الجانبين أصابت كثيراً من وحداته فلم يسع أمير البحر الانجليزى دكورث Duckworth سوى الانسحاب بسرعة . وكانت هذه أول محاولة من جانب الانجليز لاختراق المضايق حربياً . أما المرة الثانية فكانت فى سنة ١٩١٥ فى أثناء الحرب العالمية الأولى

ولما باءت حملة دكورث بالخسران أرادت انجلترا أن تدارى اخفاقها فى

الدردنيل بارسال حملة بحرية بقيادة الجنرال فريزر Frazer لغزو مصر وكان الانجليز يمنون أنفسهم بانضمام المماليك الذين كانوا يناوئون محمد على الى صفوفهم ولكن الانجليز لم يكادوا يبلغون الاسكندرية لينهجوا طريق حملة نابليون حتى علموا بوفاة زعيمى المماليك الألفى والبرديسى ففت ذلك فى عضدهم ولكنهم واصلوا هجومهم فاستولوا على الاسكندرية وأرسلوا قوة احتلت رشيد وخشى محمد على مغبة الهجوم الانجليزى فسعى سعيه حتى تم الصلح بينه وبين المماليك ثم جاءته الاخبار بانتصار حاكم مدينة رشيد على الحملة الانجليزية فتشجع وأخذ ينظم قوات الدفاع بمشورة صديقه قنصل فرنسا ويرسل النجدات لمساعدة حاكم رشيد حتى انتصر المصريون عند قرية « الحماد » جنوبى رشيد وقام محمد على على رأس جيشه لمقابلة الانجليز الذين تحصنوا بالاسكندرية فعجل هؤلاء بفتح مفاوضات الصلح فتم ذلك وتبادل الفريقان الأسرى وأقلعت العمارة الانجليزية على عجل فى سبتمبر سنة ١٨٠٧

ولم يكن السبب فى تعجل الانجليز يأسهم من استمالة المماليك إلى جانبهم فحسب بل كان هنالك سبب آخر ، ذلك ان انقلابا سياسياً حدث فى أوربا على أثر مقابلة نابليون وقيصر روسيا فى مدينة تلست ١٨٠٧ واتفاقهما معاً ضد انجلترا . وكانت المسألة الشرقية أو مصير الدولة العثمانية من أهم المسائل التى تفاوض العاهلان بشأنها وقد عرض القيصر أن تستولى روسيا على القسطنطينية والمضايق وامارات الدانوب على أن تأخذ فرنسا مصر فرفض نابليون أن يسلم بالمضايق والقسطنطينية عاصمة الدنيا لروسيا وفشل مشروع الاتفاق . فعاد الكفاح بين نابليون من جهة والشعوب الذى أذلها وأهدر استقلالها من جهة أخرى . وكان من أهم مظاهر ذلك الكفاح الحصر البحرى الذى فرضه نابليون ضد انجلترا وتجارتها فى البلاد التى كان يسيطر عليها واعتزام انجلترا مقاطعة الثغور الفرنسية وقد وجد الملاحون المحايدون فى شدة الحصر البحرى بين انجلترا وفرنسا فرصا لنشاطهم التجارى فى البحر وكان الشعب الاغريقى المشهور بولعه بالملاحة والتجارة فى مقدمة الشعوب التى أفادت فى تلك الفترة فوائد ساعدته من بعد فى نهضته وثورته ضد تركيا

ولما انتهى الأمر بانهزام نابليون أمام الحلفاء فى موقعة ليبزج سنة ١٨١٣ ثم فى موقعة واترلو سنة ١٨١٥ انعقد مؤتمر فينا لتنظيم خريطة أوربا ووضع القواعد الكفيلة بمنع نشوب ثورات أخرى كالثورة الفرنسية من شأنها أن تسبب الاضطراب لملوك أوربا وحكوماتها وينشأ عنها ماينشأ من حروب دموية جديدة تعرض الشعوب لكوارث وويلات لعلها تكون أدهى وأمر مما تحملته فى الماضى

وقد كان خليقا بدول أوربا وهى تحاول علاج مشاكلها أن تبحث أيضاً موضوع المسألة الشرقية ومضايق البسفور والدردنيل، ولكن قيصر روسيا إذ ذاك الاسكندر الاول وكان يعد نفسه مبعوث العناية الإلهية للقضاء على نابليون وحكمه فى أوربا لم يشأ أن يكون مصير الدوله العثمانية مسألة دولية تهم الدول جميعاً فتتناولها بالدرس وتصدر فيها قرارات عامة قد تقيد حرية روسيا، ولذلك فضل القيصر أن يستمر مصير تركيا معلقاً بمشيئة روسيا وحدها فلا تسرى عليها الضمانات التى يتخذها مؤتمر فينا لصيانة حقوق الملوك وأصحاب الحقوق الشرعية ضد الثورات والثائرين. هذا من جهة ومن جهة أخرى أبت على تركيا كرامتها أن تشترك فى مؤتمر دولى يرتبط أعضاؤه برباط الاخاء المسيحى ويتسمون بسمة المحالفة المقدسة لتستجديه ضمانا لاستقلالها وسلامة أرضها وعلى ذلك انعقد المؤتمر دون أن تشترك فيه تركيا وكانت نتيجة ذلك أن حفل القرن التاسع عشر بمشاكل وحروب دارت معظمها حول المسألة الشرقية وفى مقدمتها مشكلة المضايق .

وقد خرجت انجلترا من المؤتمر حاملة لواء التفوق فى مياه البحر المتوسط فقد كان لها حصن جبل طارق منذ أوائل القرن الثامن عشر. وكان يسيراً عليها أن تطالب المؤتمر باقرار امتلاكها لتلك المستعمرة ولكنها اكتفت بالحالة القائمة واتجهت بسياستها وخططها وجهة شرقية بعد أن أيقنت بأهمية طريق الشرق داخل البحر المتوسط وبخطورة المنطقة الجديدة التى كشفت عنها حملة بونابرت فى مصر والشرق الأوسط . لذلك استولت بمقتضى قرارات مؤتمر فينا على جزيرة مالطة فى وسط الطريق بين جبل طارق وبلاد الشرق . كما استولت على جزر الايونيان كورفو

وكفالونيا وزنطه لتشرف منها على سير الامور فى منطقة البلقان المليئة بالاحتمالات والنذر

وما لبثت الاخطار أن توالت فقد قامت ثورة الإغريق فى سنة ١٨٢٢ ضد تركيا وقد وجد الثوار من تفوقهم التجارى والبحرى فى بحر إيجة والبحر المتوسط ومن معاونة الشعوب الأوربية لهم أعظم عضد فتغلبوا على القوات التركية وكادوا يفوزون باستقلالهم لو لم يلجأ السلطان محمود الثانى الى محمد على . وحينئذ تغير وجه الحرب إذ أرسل محمد على إلى بلاد اليونان فى سنة ١٨٢٤ حملة بحرية مدربة تدريباً حديثا بلغ عددها ...ر١٧ جندى سافرت على أكثر من تسعين سفينة منها ٦٣ قطعة مسلحة . وما لبث المصريون أن احتلوا جزيرة كريت ومنها اتصلوا بالاسطول التركى وسرعان ما ظفروا بالثوار فى البحر ونزل المصريون بشبه جزيرة المورة فأخذت مراكز الثوار وحصونهم تتساقط فى أيدى المصريين حصنا بعد حصن حتى خضعت بلاد المورة جميعا ولم يبق بيد الثوار إلا بعض جزر بحر إيجه وكان بها مقر قيادتهم .

وعند ذلك ثارت ثائرة الشعوب المسيحية وخاصة فى روسيا فاضطرت حكوماتها الى التدخل وأسرعت انجلترا فى دعوة فرنسا وروسيا الى عقد معاهدة لندن سنة ١٨٢٧ لوقف الحرب بين تركيا واليونان والموافقة على منح اليونان حق الاستقلال الذاتى فاذا أبت إحدى الدولتين المتحاربتين وقف الحرب تدخلت الدول بالقوة . ويلاحظ أن النمسا لم تشترك مع الدول الثلاث لأن وزيرها مترنخ صاحب سياسة مؤتمر فينا وما تلاه من المؤتمرات لتأييد أصحاب الحقوق الشرعية وحمايتهم من الثورات ـ لم يشأ أن يفرق بين الثورة فى إيطاليا أو أسبانيا وبينها فى اليونان أو أن يميز بين أصحاب الحقوق الشرعية على اختلاف جنسياتهم .

وتنفيذا لشروط معاهدة لندن تألف اسطول مشترك من الدول الثلاث بقيادة أمير البحر الانجليزى كدرنجتون. ولما توقفت تركيا عن تنفيذ شرط الهدنة ووقف الحرب دخل الاسطول المتحد فى خليج نوارين حيث الاسطول المصرى التركى

واتفق مبدئيا على ان تبقى الحالة كما هى حتى تصدر أوامر جديدة . ولكن وقع سوء تفاهم بين الاسطولين اثناء غياب القائد العام المصرى ابراهيم باشا داخل المورة . وكانت تعليمات القائد البحرى الانجليزى تقضى باستعمال القوة إذا دعت الحال فدارت واقعة نوارين البحرية فى اكتوبر سنة ١٨٢٧ وقضى على معظم سفن الاسطول المصرى العثمانى فى مدى ثلاث ساعات وبذلك تشجع الثوار وأخذوا يستردون مكانتهم الأولى

وعلى الرغم من أن انجلترا اسفت لوقوع حادث نوارين وجاءت وزارة جديدة كانت سياستها ضد التدخل بالقوة وعلى رغم أن فرنسا ارسلت إلى المورة قوة حربية بقيادة المرشال ميزون Maison واتفقت مع محمد على على التزام الحيدة وسحب قواته من المورة فان أنباء نوارين لم تكد تبلغ مسامع الباب العالى حتى استشاط غضبا وأصدر منشوراً عاما دعا فيه المسلمين إلى الجهاد ضد روسيا ، وسرعان ما نشبت الحرب بين روسيا وتركيا وحدهما سنة ١٨٢٩ واخترقت القوات الروسية البلقان وهددت ادرنه والقسطنطينية نفسها فعجل السلطان بطلب الصلح واضطر إلى قبول معاهدة لندن من حيث الاعتراف باستقلال اليونان وخشيت الدول أن تصبح اليونان بعد ذلك تحت حماية روسيا فتدخلت سنة ١٨٣٢ لتضمن لليونان استقلالا تاما .

وبذلك ظهرت قوة بحرية جديدة فى شرقى البحر المتوسط وجعلت هذه القوة اليونانية تناوىء تركيا تارة وتمالىء انجلترا وفرنسا تارة أخرى حتى استطاعت بفضل مصاهرتها للاسرة المالكة فى بريطانيا أن تضم اليها جزر الايونيان . وقد نزلت عنها انجلترا لليونان من تلقاء نفسها فى سنة ١٨٦٣ بمناسبة المناداة بالأمير جورج الدنمركى ملكا على اليونان وكان جورج هذا شقيقا لزوجة ولى عهد انجلترا إذ ذاك والذى أصبح ملكا على انجلترا فيما بعد باسم ادورد السابع . وفى سنة ١٩٠٨ ضمت اليونان جزيرة كريت . ولما انتهت الحرب العالمية الأولى ضمت اليونان اليها معظم جزر بحر ايجه وها هى الآن بعد الحرب العالمية الثانية تضم جزر الدوديكانيز التى كانت بيد ايطاليا ولعلها تطمع فى ضم جزيرة قبرص بعد زمن قريب .

وفى الوقت الذى كانت فيه اليونان تمد نفوذها فى شرقى البحر المتوسط وتوسع رقعتها كانت تركيا لا تزال تصارع النوازل التى تتوالى عليها من الداخل والخارج. ففى سنة ١٨٣٢ دخلت فى حرب بينها وبين محمد على فسارت حملة مصرية بقيادة ابراهيم باشا تؤازره قوة بحرية لغزو فلسطين والشام ووقفت قواته أمام حصن عكا المنيع ثمانية أشهر انتهت باخضاعها واخضاع سائر المدن السورية ومن ثم عبرت جيوشه جبال طوروس ونزلت بهضاب آسيا الصغرى وهناك عند قونية دارت معركة حاسمة بين المصريين والاتراك فى سنة ١٨٣٢ انهزم فيها الاتراك هزيمة كاسحة فزحف ابراهيم شمالا قاصداً القسطنطينية ووقفت قواته عند بروسه اطاعة لاوامر والده.

وكان السلطان قد طلب إلى الحكومة الانجليزية ارسال قوة بحرية تساعده ضد الغزو المصرى ولكن انجلترا كانت فى شغل عنه بشئون خارجية وداخلية ادعى إلى اهتمامها فاعتذرت واضطر الباب العالى إلى طلب المعونة من روسيا فلبت الطلب ووصلت الى تركيا قوة روسية عمادها ١٥،٠٠٠ جندى عسكرت على الضفة الاسيوية من البسفور وهذه أول مرة وطئت فيها جنود الروس أرض المضايق فثارت ثائرة انجلترا وفرنسا وخيل اليهما أن روسيا ستحقق امانيها بوضع القسطنطينية والمضايق تحت حمايتها فسارعت الحكومتان إلى النصح للسلطان بقبول الشروط التى طلبها محمد على واخذتا تلحان عليه حتى تم الاتفاق بين محمد على والسلطان فى كوتاهيه سنة ١٨٣٢ على أن يكون حكم سوريا وادنه بيد محمد على. وحينئذ لم يبق ثمة مبرر لبقاء القوات الروسية الراسية على ضفاف البسفور فصدرت لها الأوامر بالانسحاب ولكن ما كاد آخر جندى روسى يغادر تركيا حتى ظهر أن روسيا وتركيا قد ارتبطتا بمعاهدة دفاعية هى معاهدة هنكيار اسكلسى فى يوليه سنة ١٨٣٣ وفيها شرط سرى فحواه انه فى مقابل المساعدة الحربية التى تعهد القيصر بتقديمها للسلطان إذا اعتدى عليه مهاجم تكتفى روسيا من الباب العالى باغلاق الدردنيل فى وجه السفن الحربية لجميع الدول الأخرى. وليس فى هذا الشرط

ما يخالف القاعدة القديمة المتبعة بشأن المضايق فقد كانت القاعدة المرعية أن يغلق السلطان المضايق فى وجه السفن الحربية أمام الجميع . ولكن معاهدة هنكيار اسكلسى اقتصرت على ذكر الدردنيل ولم يرد فيها ذكر البسفور . والقسطنطينية كما نعلم واقعة على البسفور فكأن المعاهدة جعلت البسفور مفتوحا أمام روسيا وعرضت القسطنطينية لهجوم الروس على حين قد نصت على اغلاق الدردنيل فى وجه جميع السفن الحربية التابعة للدول الأخرى . وفسرت الدول معاهدة هنكار اسكلسى بين روسيا وتركيا بأنها محاولة لأبعاد الدول عن الاشتراك فى المسألة الشرقية ورضاء تركيا بأن تكون تحت حماية روسيا بمفردها ، فاحتجت انجلترا وروسيا أمام حكومتى السلطان والقيصر وظلت الريب والشكوك تساور الحكومتين الغربيتين بشأن روسيا حتى قامت الحرب ثانية بين تركيا ومحمد على فى سنة ١٨٣٩ وانهزمت جيوش السلطان فى موقعة نزيب أو نصيبين شمالى سوريا . ولما وصلت أخبار الهزيمة إلى الباب العالى كان السلطان محمود الثانى قد انتقل إلى رحمة الله وخلفه ابنه عبد المجيد وهو غلام فى السادسة عشرة من عمره فاضطربت شئون الدولة وجازف فوزى باشا أمير البحر العثمانى بأسطوله قاصداً إلى الاسكندرية حيث وضع الأسطول العثمانى كله بين يدى محمد على .

وعند ذلك تدخلت الدول صيانة لمصالح الدولة العثمانية من جهة وخوفاً من انفراد روسيا من جهة أخرى بمعاونة الدولة كما فعلت فى سنة ١٨٣٢ . ولكن روسيا لم تبعث شروط معاهدة هنكيار اسكلسى من مرقدها وبرهنت للدول وللحكومة الانجليزية بصفة خاصة أنها توافق الدول على الاشتراك فى قمع محمد على وارغامه على قبول الشروط التى تضعها . وعند ذلك عقدت الدول معاهدة لندن فى ١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ وفيها عرض على محمد على أن يقتصر على حكم مصر بحق الوراثة وحكم سوريا مدة حياته على أن ينزل عن الأقاليم الأخرى التى احتلها ويسلم الأسطول العثمانى ، فاحتجت فرنسا صديقة محمد على على هذه الشروط وطالبت بحق محمد على فى التمتع بثمرة انتصاره على تركيا والاحتفاظ بحكم الأقاليم

الواقعة تحت يده . ولما أبى محمد على قبول هذه الشروط تألفت قوة بحرية مشتركة من الانجليز والنمسويين والروس ضد محمد على وقامت الثورة بايعاز من تركيا والحلفاء فى سوريا ولبنان ضد القوات المصرية ولم تستطع قوات محمد على مواجهة ذلك الخطر المشترك فتقهقرت من سوريا وتحملت فى أثناء انسحابها عنتا وخسائر جمة وفى الوقت الذى كانت فيه فرنسا تهدد دول أوربا بالحرب وتستعد لها جاءتها الأنباء بتقهقر قوات محمد على فعدلت عن المخاطرة بدخول الحرب وسقطت وزارة مسيو تيير Thiers التى كانت تدعو إلى الحرب وخلفتها وزارة أخرى مسالمة ما لبثت، أن أصلحت من موقفها تجاه الدول، فرحبت الدول بعودة فرنسا إلى حظيرة المؤتمر الأوربى وجعلوا من جانبهم يحضون تركيا على ضرورة تسوية النزاع بينها وبين محمد على باجابته إلى الشروط التى طالب بها فصدر الفرمان بتوليته وفق مطالبه فى يونيه سنة ١٨٤١

وفى يوليه من تلك السنة أصدرت الدول أول اتفاق دولى خاص بالمضايق. وفيه تقر الدول حق السلطان فى إغلاق المضايق أمام السفن الحربية لجميع الدول على إختلاف جنسياتها ما دام الباب العالى فى حالة سلم . وقد قضى هذا الاتفاق على الميزة التى كسبتها روسيا بمقتضى معاهدة هنكيار اسكلسى وأصبح موقف الدول جميعها سواء أمام المضايق .

على أن اتفاق روسيا مع دولتى الغرب لم يدم طويلا فسرعان ما شبت ثورة سنة ١٨٤٨ فى فرنسا ومنها انتقلت إلى ألمانيا والنمسا والمجر فأودت بمترنخ وبنظامه الرجعى وقام القيصر نيقولا الأول يحاول أن يسد الفراغ الذى خلفه مترنخ بمناصرة العناصر الرجعية فى شرقى أوربا وغربيها على السواء .وكانت روسيا تنقم على فرنسا إعلانها نظام الجمهورية برياسة لويس نابليون ابن أخ نابليون الأول - وقد قلب نظام الحكم فى سنة ١٨٥٢ من الجمهورية إلى الامبراطورية واتخذ لنفسه لقب الامبراطور نابليون الثالث - فازدادت الكراهية بين الدولتين وعز على نيقولا الأول أن يعتلى عرش فرنسا ثانية واحد من ذرية نابليون وقد كانت روسيا تزعم

أن العناية الإلهية قد أرسلت قيصرها الاسكندر الأول أخو نيقولا ليخاص العالم من خطايا الثورة الفرنسية وسيئات نابليون . وكان الامبراطور نابليون الثالث يبادل قيصر روسيا تلك الكراهية الموروثة بين الأسرتين وخاصة بعد أن أرسل القيصر إلى الامبراطور رسالة يوجه اليه فيها الخطاب بقوله « عزيزى » بدلا من «أخى» كما يقضى العرف المصطلح عليه بين الملوك .

لذلك لم يكن غريباً أن تتطور الكراهية إلى عداوة وتتطور العداوة إلى حرب أوربية ـ كانت الأولى بعد انتهاء الحروب النابليونية سنة ١٨١٥ ـ وهى حرب القرم. وكان السبب المباشر للحرب خلافا تافهاً بين الرهبان الكاثوليك والارثوذكس فى بيت المقدس ـ أما الرهبان الكاثوليك فكانوا يستندون إلى معاونة فرنسا ابنة الكنيسة الكبرى ويعولون فى نزاعهم على مساعدة الامبراطور نابليون الثالث وعلى أن فرنسا كانت أولى الدول الأوربية تعاقداً مع تركيا فى القرن السادس عشر . وأما الرهبان الأرثوذكس فقد لجأوا إلى قيصر روسيا وكانت روسيا تستند إلى كجوق معاهدة قينارجى سنة ١٧٧٤ فى دعوى حماية المسيحيين الأرثوذكس وهم الكثرة العظمى بين المسيحيين فى الدولة العثمانية . ومن سخرية القدر أن تقوم تركيا بمهمة الوسيط والحكم بين المتنازعين المسيحيين فحاولت الوصول إلى تسوية لموضوع النزاع ولكنها لم تلق قبولا من روسيا التى أكدت حقها فى حماية الارثوذكس وطالبت الباب العالى باقرار ذلك الحق . فرفض السلطان دعوى روسيا بايعاز السفير الانجليزى استراتفورد ده ردكليف Stratford de Redcliffe الذى كان يمقت روسيا وقيصرها. وعند ذلك تحركت الجيوش الروسية فعبرت نهر البروت واحتلت امارات الدانوب وكان هذا بمثابة إعلان الحرب على تركيا ، ولم تلبث روسيا أن دمرت الأسطول التركى فى البحر الاسود عند سينوب فثارت ثائرة الشعوب الغربية وخاصة فى انجلترا وأيقن الجميع أن روسيا إنما تريد القضاء على تركيا لتستولى على المضايق والقسطنطينية وتهدد مصالح بريطانيا وفرنسا فى الشرق وفى البحر المتوسط . فلم يسع انجلترا وفرنسا سوى إعلان الحرب والتقدم لمساعدة تركيا ضد روسيا . وقد

وقفت كل من النمسا وروسيا موقف الحياد ولـكنهما كانتا تناصران الحلفاء أدبياً وسياسياً على حين تقدمت مملكة بيد منت الناشئة أو إيطاليا الحديثة بمساعدة الحلفاء حربياً قبل انتهاء الحرب .

وسارت القوات الانجليزية الفرنسية فاخترقت المضايق إلى البحر الاسود ونزلت بميناء ورنه على البحر الاسود وقد رأى الحلفاء أن خير وسيلة للنيل من روسيا هى غزو شبه جزيرة القرم وحصار سفاستبول وهى الميناء الحربى الحصين لروسيا على البحر الاسود . وقد وقف قيصر روسيا فى تلك الحرب بمفرده أمام تركيا وحلفائها من دول أوربا المسيحية التى اجتمعت بجيوشها وأساطيلها لمقاومة العدوان الروسى . وكان القيصر نيقولا يقول أن خير حليف للروس فى تلك الحرب هو القائد يناير وأخوه فبراير يشير بذلك إلى الصقيع القطبى الذى يهب عادة فى هذين الشهرين فيعوق النشاط وينشر المرض . ولـكن القائدين المذكورين لم يخرجا عن حيدتهما فى زمهرير ذلك الشتاء فقد حصد البرد والمرض آلافا من الجانبين ، ويكفى أن فـكرة الصليب الأحمر لمساعدة الجرحى والمرضى لم تولد إلا فى أثناء تلك الحرب وعلى يدى السيدة الانجليزية حاملة المصباح الاحمر فلورنس نيتنجيل Florence Nightingale التى أثارتها أخبار الـكوارث فى تلك الحرب فجاءت تضمد جروح الجرحى وتعنى بالمرضى حتى استيقظ ضمير الأمم المتحاربة فبدأت تهتم بتغذية جيوشها وتموينها وتمريضها وتوفير أسباب العلاج لها .

سقطت سفاستبول بعد حصار دام شهراً ولم تبق فائدة من إطالة الحرب فانتهت . وعقد مؤتمر باريس سنة ١٨٥٦ وفيه تقرر قبول تركيا ضمن هيئة الدول الأوربية وإعلان حيدة البحر الأسود ، ومقتضى هذا عدم تحصين موانيه وقلاعه ومنع إقامة السفن الحربية فى مياهه وكان هذا وحده هو العقاب الذى أصاب روسيا ومع ذلك لم يدم هذا الحظر على البحر الأسود أكثر من خمسة عشر عاما فما كادت فرنسا تنهزم أمام بروسيا فى الحرب البروسية الفرنسية سنة ١٨٧١ حتى انتهزت روسيا الفرصة وتحررت من هذه الحيدة ثمناً لبقائها محايدة فى أثناء الحرب

وكان بسمرك المستشار الألمانى صاحب الكلمة الأولى إذ ذاك فى السياسة الأوربية فلما تحرج الموقف بين روسيا وتركيا وقامت الحرب بينهما سنة ١٨٧٦ اجتمع برياسته مؤتمر برلين فى سنة ١٨٧٨ وفيه تقرر استقلال الامارات البلقانية بلغاريا ورومانيا والجبل الأسود ومنع دولة بلغاريا الحديثة من الامتداد على بحر إيجه . ولم تتعرض المعاهدة لنظام المضايق أو الملاحة فى البحر الاسود ، ولكن انجلترا اغتنمت فرصة هزيمة تركيا أمام روسيا فطلبت اليها أن تحتل جزيرة قبرص ثمناً لمعاونتها لتركيا فى المستقبل فقبلت تركيا أن تستأجر انجلترا منها الجزيرة فى عام ١٨٧٨

ويعتبر احتلال انجلترا لجزيرة قبرص جزءاً مكملا لبرنامج الامتداد الانجليزى نحو الشرق . فقد طرأ تغيير فى عالمى السياسة والتجارة فى البحر المتوسط على أثر إنشاء قناة السويس وافتتاحها للملاحة فى ١٨٦٩ إذ كان النفوذ الفرنسى غالباً فى شركة القناة فأخذت الحكومة الانجليزية تعمل بمختلف الوسائل لمنع فرنسا من استغلال الحالة فى مصر والقناة لمصلحتها وسارع الوزير الانجليزى دزرائيلى إلى شراء أسهم الخديو اسماعيل فى القناة فى ١٨٧٥ فأصبح من المحتوم بعد ذلك أن تكون لانجلترا قاعدة قريبة فى شرقى البحر المتوسط لتشرف منها على القناة من جهة ولترقب نشاط السياسة الروسية فى الشرق الأدنى والاوسط من جهة أخرى وكان ذلك من عوامل إتمام صفقتها مع تركيا على قبرص .

ومافتئت انجلترا تواصل سياستها فى شرقى البحر المتوسط حتى أمكنها التدخل بمفردها فى النزاع الداخلى الذى قام فى مصر بين الخديو توفيق والعرابيين فأرسلت كل من انجلترا وفرنسا فى أول الأمر أسطولا بحريا لمراقبة الحالة فى مايو سنة ١٨٨٢ فلما أزمعت انجلترا التدخل بالقوة وضرب الاسكندرية أحجم الفرنسيون عن الاشتراك معها وتدخلت انجلترا بمفردها فكانت موقعة التل الكبير فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ وفيها انهزم العرابيون وكان الاحتلال الانجليزى .

ولم يكن أحجام فرنسا عن زهد فى مجال السيطرة والاستعمار ولكن فرنسا كانت حديثة عهد بالهزيمة أمام قوات ألمانيا الناشئة وكانت بحاجة شديدة إلى

موالاة انجلترا وعدم إثارتها ضدها لتكون إلى جانبها عند الحاجة . وكأنما أراد بسمرك المستشار الألمانى أن يصرف اهتمام فرنسا عن فكرة الإنتقام ومحاولة استرداد الالزاس واللورين فترك لها أن تبذل فضل نشاطها فى مجال الاستعمار القريب بأفريقية لعله أن يشغلها عن السياسة الأوربية من جهة ويوقع الشحناء بينها وبين انجلترا أو بينها وبين إيطاليا من جهة أخرى .

ومن خلال هذه السياسة ابتسم الحظ السعيد لفرنسا وواتتها الظروف فأنشأت فى شمالى أفريقية وحوض البحر المتوسط بعد هزيمتها المنكرة فى سنة ١٨٧١ دولة استعمارية مترامية الأطراف لم تتح لدولة غيرها منذ عهد الرومان فى التاريخ القديم وللاتراك إلى حد ما فى فترة تفوقهم خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . وكان الفرنسيون قد بدأوا باحتلال الجزائر فى سنة ١٨٣٠ وأرادت فرنسا أن تمد نفوذها شرقا نحو تونس وطرابلس وحاولت أن تغرى محمد على على مشاركتها فى تنفيذ هذه السياسة من ناحية حدود مصر الغربية ولكن الحكومة الانجليزية كانت قد تنبهت إلى خطورة هذه السياسة فحالت دون إخراجها إلى حيز التنفيذ . وبقيت فرنسا خمسين سنة تتحين الفرص لمد سياستها الاستعمارية فى شمالى أفريقيه حتى استطاعت أن تعلن حمايتها على تونس سنة ١٨٨١ متحدية فى ذلك دولة إيطاليا الحديثة التى كانت قد ألفت وحدتها السياسية وباتت تتلهف على إنشاء دولة استعمارية لها تشبها بالدول الكبرى الاخرى وإحياء لامجاد الدولة الرومانية القديمة . وكانت لإيطاليا جالية كبيرة العدد جمة المصالح فى تونس التى لا تفصلها عن أرض صقلية إلا بضعة كيلو مترات . فكان طبيعياً أن تتطلع إيطاليا إلى احتلالها لولا أن فرنسا سبقتها . وكانت انجلترا قد تفتحت لها آفاق جديدة فى أفريقية باحتلالها مصر وسيطرتها على القناة ثم باشتراكها مع المصريين فى إعادة فتح السودان فتركت شؤون شمالى أفريقيه تتنازعها فرنسا وإيطاليا حتى تم التفاهم بينهما على أن يكون أقليم طرابلس من نصيب إيطاليا وأن يكون لفرنسا حق الامتداد غربا لتبسط سلطانها على مراكش .

ولما بانت خطط فرنسا ومطامعها الاستعمارية فى بلاد المغرب قامت كل من انجلترا وألمانيا تعارضان ذلك التوسع الفرنسى الخطير فى حوض البحر المتوسط واشتد العداء بين انجلترا وفرنسا حتى كاد الأمر يفضى إلى نشوب حرب بين الدولتين على أثر حادث فاشودة سنة ١٨٩٨ وذلك أنه بعد أن تم للمصريين قمع الثورة المهدية واسترداد السودان بمساعدة نفر من الانجليز لا يزيدون على ٤٠٠٠ جندى وعلم القائد العام للجيش المصرى كتشنر بوصول قوة فرنسية صغيرة من وسط أفريقية إلى قرب مصب نهر سوباط تريد أن تكسب لفرنسا شيئا من أراضى السودان التى استباحتها الدول ورأتها نهباً لمن غلب على أثر استفحال الثورة المهدية وانسحاب المصريين فى سنة ١٨٨٤ . حينئذ أبحر كتشنر فى النيل الأبيض على رأس قوة مصرية وتقابل مع الضابط الفرنسى مارشان Marchand عند فاشوده قرب مصب نهر سوباط ورفع العلم المصرى على الأرض التى عسكر عليها الفرنسيون، وما لبثت أن جاءت الأوامر إلى مارشان من حكومته بالانسحاب فزال الخطر وانتهت الأزمة بين الدولتين مؤقتا فى سنة ١٨٩٩ .

ثم حدث انقلاب خطير فى جو السياسة بأوربا فقد يئست الحكومة الانجليزية من صداقة ألمانيا لها حين انتهج الامبراطور الألمانى وليم الثانى سياسة عدائية نحو انجلترا فناصر الرئيس كروجر زعيم البوير فى ثورتهم وحربهم ضد الانجليز فى جنوب افريقية ، ثم حين قررت ألمانيا النهوض بقوتها البحرية وانشاء أسطول بحرى يضارع أقوى أسطول فى أوربا ليلائم المكانة التجارية والصناعية التى وصلت إليها المانيا أخيراً .وكان ملك الانجليز ادورد السابع الذى اعتلى العرش بعد وفاة والدته الملكة فيكتوريا فى سنة ١٩٠١ شديد الميل إلى سياسة الوفاق مع فرنسا وكثير الكراهية لقريبه وليم الثانى فما زال يسعى بالود محاولا تقريب مسافة الخلف بين الحكومتين الانجليزية والفرنسية حتى تم عقد الاتفاق الودى بين الدولتين فى سنة ١٩٠٤ فكان نذيراً بأشياء كثيرة أولها اطلاق يد انجلترا فى مصر والسودان مقابل امتداد النفوذ الفرنسى غرباً إلى بلاد المغرب وثانيها تحفز المانيا

لعرقلة مساعى فرنسا فى بلاد المغرب واصرارها على اقتناص فرصة تتميز بها سواء فى مراكش نفسها أو فى جهة أخرى إذا استعصى عليها ذلك . وقد كان هذا الاتفاق الودى بين الحكومتين أول لبنة فى تشييد جبهة الحلفاء فى أوربا ضد المحالفة الثلاثية القديمة بين ألمانيا والنمسا وإيطاليا تلك الجبهة التى انضمت إليها روسيا فيما بعد وظلت قوية راسخة حتى نشبت الحرب العالمية الأولى .

ولقد حاولت ألمانيا فى حادثين تاريخيين أن تفوز بميزة لها فى بلاد المغرب فلم تستطع أن تصمد أمام مناوأة انجلترا لها واتفاقها مع الفرنسيين ففى الحادث الأول زار الامبراطور الألمانى ميناء طنجة زيارة رسمية فى سنة ١٩٠٥ وأعلن سيادة سلطان مراكش على تلك الأقاليم وصداقة ألمانيا له ، وكانت نتيجة هذه الزيارة اجتماع مؤتمر الجزيرة فى جنوبى اسبانيا قرب جبل طارق وفيها أعلن المؤتمرون سياسة الباب المفتوح فى مراكش واقرار مركز فرنسا الخاص فى تلك الأرجاء . وفى الحادث الثانى أرسلت ألمانيا سفينة حربية إلى ميناء أغادير على ساحل الاطلنطى فى سنة ١٩١١ لمحاولة اثبات حق المانيا ـ إلى جانب فرنسا واسبانيا ـ فى بلاد المغرب ، واحتجاجا على تدخل فرنسا فى مراكش بالقوة . وكادت أزمة أغادير تؤدى إلى نشوب الحرب العالمية الأولى قبل موعدها بثلاث سنين لو لم تبادر انجلترا باعلان عزمها على منع المانيا من احتلال أية بقعة فى بلاد المغرب. وأخيراً سارعت فرنسا إلى مفاوضة ألمانيا رأسا وتعويضها بجزء كبير من أرض الكونغو الفرنسية ضمته ألمانيا إلى مستعمرتها فى غرب أفريقية .

وكانت المظاهرتان المسرحيتان اللتان قامت بهما ألمانيا فى غربى البحر المتوسط عند طنجه وأغادير فى بدء القرن العشرين مقدمة لعواصف جديدة جعلت تهب على البحر المتوسط وتحرك أمواجه العاتية فتصطخب على صخوره وسواحله وتلاطم شعوبه وسكانه حتى وقتنا هذا .

وكانت دولة إيطاليا الحديثة مصدر تلك العواصف الهوجاء التى جعلت من حوض البحر المتوسط وكراً تؤمه زبانية الحرب من غواصات وألغام ومدمرات

وطائرات تنساب فى جوه ومائه وتصيب الأعداء والمسالمين والمحايدين على السواء

وكان أول هبوب العاصفة على سواحل برقة وطرابلس إذ قامت إيطاليا فى سنة ١٩١١ وأعلنت الحرب على تركيا قاصدة غزو طرابلس فاحتلت جزر الدوديكانيز واستولت على ميناء بنغازى وحاصرت ميناء طرابلس. وكانت شعوب البلقان تتآمر هى أيضاً على تركيا وتحاول جمع كلمتها ضدها فسارعت تركيا إلى عقد الصلح مع إيطاليا حتى تتفرغ للحرب البلقانية فتركت طرابلس والدوديكانيز لإيطاليا التى أخذت فى إخضاع داخل البلاد ، ولكن الظفر بهذه البلاد لم يكن من السهولة بالدرجة التى ظنتها إيطاليا ، فقد لقيت معارضة ودفاعا مجيدين من جانب السنوسيين ورجال القبائل وبعض الضباط الأتراك الذين أبوا أن يجلوا عن البلاد حتى بعد توقيع معاهدة الصلح

وقد خرجت تركيا من حرب البلقان خاسرة معظم أراضيها فى مقدونيا وتراقيا وحلت اليونان الحديثة محل تركيا فى سلانيك وساحل بحر إيجه الشمالى . أما بلغاريا وقد خسرت المعركة فى الحرب البلقانية الثانية فلم تظفر بتحقيق أمانيها فى الحصول على ميناء لها على ساحل بحر ايجه

ثم نشبت الحرب العالمية الأولى فظهر فى عالم البحر المتوسط عالم جديد ، ذلك ان مضيق جبل طارق وحصنه لم يحولا دون اختراق الغواصات الألمانية للمضيق وتسربها إلى مياه البحر المتوسط . فقد أخذ عدد قليل من الغواصات الألمانية يجول فى البحر المتوسط ويختبىء فى خلجانه وبين جزره العديدة وخاصة فى بحر إيجه ومياه البحر الادرياتى وكانت تنقض من مخابئها تلك على السفن التجارية والنقالات المعادية فتضربها بالطوربيد وتغرقها . واستفحل أمر هذه الغواصات فى البحر المتوسط طوال الحرب العالمية الأولى حتى بلغت الخسائر الناتجة من الغواصات فى ذلك البحر نحو نصف مجموع خسائر الغواصات جميعا فى كافة الانحاء وقد اضطر الحلفاء إلى إهمال البحر المتوسط فى الملاحة واستخدام طريق رأس الرجاء الصالح فى مواصلاتهم مع الشرق

ولما انتهت الحرب العالمية الأولى ثبتت إيطاليا فى جزر الدوديكانيز وقوى مركزها فى البحر الادرياتى على أثر احتلالها لتريستا وجزر البحر الادرياتى ثم ميناء فيوى

وما لبث أن علا ضجيج العواصف فى البحر المتوسط على أثر انتصار الحركة الفاشية واضطلاع مسولينى الزعيم الفاشى بشئون الحكم فى إيطاليا منذ سنة ١٩٢٣، فقد عمد الفاشيون إلى وسائل العنف والتهديد فى سياستهم الخارجية ، فأخضعوا طرابلس وبرقة رغم استماتة الأهالى فى الدفاع عن مراكزهم فى الداخل وجعلوا من ألبانيا فى البلقان دولة مستقلة تابعة لسياستهم . وفى سنة ١٩٣٥ قام مسولينى بمشروع غزو الحبشة متحديا فى ذلك الحكومة الانجليزية ومن ورائها الامبراطورية البريطانية وعصبة الأمم فسارعت جيوشه ومعداته الحربية تحت سمع أوربا وبصرها مخترقة البحر المتوسط وقناة السويس إلى البحر الأحمر ومنه إلى بلاد الحبشة فاستولى عليها وواجه دول أوربا بالأمر الواقع فأقرته على ذلك

وما كادت تفرغ إيطاليا من حرب الحبشة حتى قامت الحرب الأهلية فى أسبانيا بين الجمهوريين الشيوعيين والوطنيين. وكانت فرنسا وروسيا تسندان حكومة الجمهورية تؤيدهما انجلترا إلى حد ما على حين كانت إيطاليا وألمانيا تسندان الجنرال فرنكو زعيم الوطنيين. وانتهزت إيطاليا الفرصة فاحتلت إحدى جزر البلقان لتتخذ منها قاعدة تشرف منها على الطريق بين فرنسا وأملاكها فى شمالى أفريقيه وكذلك احتل الالمان فى أسبانيا وفى منطقة مراكش الاسبانية نقطا استراتيجية أهمها ميناء سبته الذى يقع على الساحل الافريقى فى مواجهة جبل طارق فأخذوا يحصنونها ويسلحونها لمناوأة الانجليز عند الحاجة .

وقد انتصر الوطنيون فى النهاية فابتهجت دولتا المحور إيطاليا وألمانيا ، ووقع فى وهمهما أن معدات الحرب عندهما تفوق ما أعدته روسيا وفرنسا . وعلى ذلك انساق الدكتاتور الالمانى إلى إشعال نار الحرب العالمية الثانية موقنا بأن الـه الحرب سيعقد فوق هامته اكليل النصر على شرط ألا يطول أمد الحرب إلى أكثر من

ثلاث سنين والا لحقه الانجليز فى استعدادهم الحربى وتفوقوا عليه . ولكن إله الحرب خدعه فألقمه الانتصارات الأولى حتى استنام اليه وصمد الانجليز وحلفاؤهم واستطالت الحرب إلى أكثر من ثلاث سنين فمال ميزان النصر إلى جانب الحلفاء شيئاً فشيئاً حتى تم لهم الفوز

وكان نصيب البحر المتوسط من الحرب العالمية الثانية أضعاف ما كان نصيبه فى الحرب العالمية الأولى ففى الحرب الثانية انهارت فرنسا أمام ألمانيا انهياراً تاما وبذلك ضاع السند الذى كانت تعتمد عليه انجلترا فى البحر المتوسط وخاصة فى القواعد الفرنسية بشمال أفريقية . ثم ان إيطاليا دخلت الحرب الثانية إلى جانب ألمانيا وكانت إلى جانب الحلفاء فى الحرب الأولى . وبدخولها الحرب إلى جانب ألمانيا أصبح البحر المتوسط مغلقا تقريبا فى وجه الملاحة ، تجارية كانت أو حربية فصار طريق رأس الرجاء الصالح هو السبيل الوحيد للاتصال بالشرق وبميادين الحرب فى البحر الأحمر وحتى فى البحر المتوسط نفسه .

ولما هاجمت إيطاليا بلاد اليونان فى عام ١٩٤١ أبدى اليونانيون بطولة عظيمة ردت قوات الدكتاتور العظيم على أدبارها فسارعت ألمانيا إلى نجدة حليفها فاخترقت البلقان وأخذت دوله تتساقط واحدة تلو أخرى فى أيدى ألمانيا حتى دانت لها شبه جزيرة البلقان كلها عدا تركيا وأصبح بحر إيجه وجزره بما فى ذلك جزيرة كريت فى يد ألمانيا . ومن كريت وصقلية استطاع الالمان أن يصوبوا غاراتهم الجوية ضد الشرق الأوسط وضد جزيرة مالطه خاصة وقد خصوها بوابل لا ينقطع من قذائفهم الجوية حتى كادوا يدكونها دكا . وكان غرض الالمان من ذلك تيسير نقل جيوشهم ومعداتهم الحربية إلى ساحل أفريقية الشمالى والزحف منه شرقا إلى مصر والقناة

وبعد كفاح وجلاد وكر وفر ودفع ورد استطاع الحلفاء أن يكسروا حدة هجوم المحور فى موقعة العلمين الشهيرة على ساحل البحر المتوسط فى خريف سنة ١٩٤٢ فارتدت قوات المحور من حدود مصر إلى برقه ومنها إلى طرابلس فتونس

والحلفاء من ورائهم يتبعونهم ليطردوهم من الشرق على حين كانت قوات أخرى من الحلفاء تواجههم من الغرب وقد قطعت عليهم الطريق براً وبحرا من ساحل الاطلنطى إلى تونس . وأخيراً عبر الحلفاء البحر المتوسط إلى بنتالاريا فصقلية فإيطاليا مطاردين فلول العدو . وعند ذلك تصدع المحور فخرجت إيطاليا من الحرب فى سبتمبر سنة ١٩٤٣ وتفرغ الحلفاء لمهاجمة الالمان والتضييق عليهم شرقا من ناحية الروس وغرباً من ناحية الهجوم النورماندى الذى قام به الحلفاء فالتقى الجميع تحت راية النصر فى برلين فى مايو سنة ١٩٤٥

وما كادت تنتهى الحرب فى أوربا حتى وضح للجميع أن توازن القوى فى البحر المتوسط قد اختل اختلالا جسيما فى أثناء الحرب فقد عادت فرنسا إلى نفسها وإلى مستعمراتها فى شمال أفريقية ، ولكن بدون قوة بحرية تذكر فقد أغرق الضباط الفرنسيون سفنهم أمام ميناء طولون فى ١٩٤٣ حتى لاتقع فى أيدى الألمان أو الانجليز . وحاول الفرنسيون أن يستردوا نفوذهم فى دولتى المشرق سوريا ولبنان فلم يستطيعوا واحتكم السوريون واللبنانيون إلى مجلس الأمن فى هيئة الأمم المتحدة فنصرهم المجلس وتخلت فرنسا عن البلدين فى صيف عام ١٩٤٦ وخريفه . وبعد ذلك تقلص النفوذ الفرنسى عن شرق البحر المتوسط وقد خرجت إيطاليا من الحرب منهزمة وأن كانت قد أصلحت من شأنها عقب سقوط النظام الفاشى بانضمامها إلى قوات الحلفاء فقد خسرت جزر الدوديكانيز التى انضمت إلى اليونان وأضاعت تفوقها فى البحر الادرياتى بفقدها أقاليم فينزيا جوليا وبه موانى فيومى وبولا وتريستا وجزر البحر الادرياتى وبذلك أصبحت يوغسلافيا سيدة البحر الادرياتى . وكانت بلغاريا تمنى نفسها بتحقيق أحلامها القديمة بالحصول على ميناء على بحر ايجه فخانها الحظ مرة أخرى فى هذه الحرب

ولكن إذا كان عالم البحر المتوسط قد افتقد بعد الحرب قوة ايطاليا وشيئاً من قوة فرنسا فان روسيا قد تقدمت تريد أن تعوض الخلل فى الميزان السياسى البحرى بأن تضع يدها على شىء من ميراث إيطاليا أما فى طرابلس وأما فى جزر الدوديكانيز . فلما أبى عليها الحلفاء ذلك راحت تطالب بأن تضع قدمها فى منطقة

المضايق حتى يخلو لها الطريق تماما إلى حوض البحر المتوسط. وللحكومة السوفيت الآن النفوذ السياسى الأول فى البلقان فى البانيا ورومانيا وبلغاريا فهى آمنة من ناحية البحر الادرياتى، ولكن تعرضها للهجوم من ناحية بحر ايجه والمضايق والبحر الاسود ما فتىء يسهدها ويقض مضجعها إذ أن الحدود الجنوبية لروسيا هى المنفذ الوحيد الذى بقى مفتوحا أمام المهاجمين بعد ان أمنت نفسها وحصنت حدودها من الغرب بضم ولايات البحر البلطى وبالاتفاق مع بولنده وفنلنده. أما من الشمال ومن الشرق فان روسيا تتمتع بحصانة طبيعية تستعصى على الهجوم.

ولا يزال الصراع قائما بين روسيا والحكومات الغربية بشأن تركيا واليونان وهما الدولتان اللتان تعنيان بمشكلة المضايق. وقد أعلن الرئيس ترومان فى ربيع ١٩٤٧ عزمه على مساعدة اليونان وتركيا باقراضهما ٤٠٠ مليون دولار كدفعة أولى وقد قال فى أثناء عرضه هذه المساعدة على مجلس الكونجرس الأمريكى الذى يجمع بين شيوخ الدولة ونوابها ما يأتى: «انه فى سبيل تقدم الشعوب فى ظلال السلم وابعاد أسباب القهر والاستبداد نهضت الولايات المتحدة بدور رئيسى فى تكوين هيئة الأمم المتحدة. ولا يمكن أن نحقق أغراضنا الا إذا عقدنا النية على مساعدة الشعوب الحرة في المحافظة على نظمها الحرة وسلامة وطنها ضد الحركات العدوانية التى تحاول فرض نظمها الدكتاتورية عليها. فاذا أمسكنا عن مساعدة اليونان وتركيا فى هذا الوقت العصيب فسيكون لامساكنا هذا آثار بعيدة المدى تصيب الغرب والشرق جميعا». وتركيا واليونان كلاهما من الدول التسع عشرة التى تنتفع الآن من مشروع مارشال لانعاش أوربا اقتصاديا وتناصر معسكر الدول الغربية.

ومن هذا ترى أن البحر المتوسط الذى كان قد فقد أهميته على أثر كشف أمريكا والعالم الجديد قد استطاع فى النهاية أن يجذب أمريكا نفسها إلى سواحله وأن تدفع بها تيارات السياسة إلى خوض الغمار العالمى ملقية بمبدأ منرو وعزلتها السياسية عرض الحيط. وأكبر الظن أن ظهور الولايات المتحدة فى عالم البحر المتوسط سيصحح التوازن السياسى فيه كما صحح دخولها فى أيام الحرب ميزان القوى التى كانت تصطرع على سواحله.

الفصل الرابع

بوابات البحر المتوسط

البسفور والدردنيل

جزى الله آلهة الأغريق القدماء كل خير فقد علموا شعوب أوربا كثيراً من دروس الحياة فى حالتى الحرب والسلم ، وكان لهم - فيما وعته الأساطير من حسناتهم فضل السبق فى كشف اهمية بوابات البحر المتوسط وتحصينها وتأمينها ضد المعتدين على بلادهم من لصوص البحر أو من القبائل والشعوب التى لا تمت بسبب إلى مدنيتهم . فأقاموا على جانبى بوغاز « مسينا » بين جزيرة صقلية الهيلينية وأرض ايطاليا المتبربرة إذ ذاك حارسين ماردين هما سلا Scylla وشاربدس Charybdis قد كمن كل منها فى كهف قدّ من صخر ، ولكل منهما رءوس عدة يتجه كل منها صوب جهة من الجهات الأصلية أو الفرعية ، وفى كل رأس ضفائر كالحبال وعيون كالمنائر وأذرعة كالخطاطيف تأخذ كل سفينة منحوسة غصبا ، فما تزال تدور بها وسط دوامة البوغاز حتى تغرقها ومن عليها .

وكذلك فعل « دردانوس » ابن الآلهة الأكبر « زوس » لحماية البوابة التى تفصل أوربا عن آسيا باسم الهلسبونت Hellespont والتى عرفت بعد ذلك « بالدردنيل » إذ أنشأ مدينة « دردانا » لتشرف على البواغيز عند أضيق نقطة فى عروضها وتدفع غارات الاسيويين الذين تحدثهم أنفسهم بغزو أرض هيلين

أما « بوابة مسينا » فلم تلبث أن فقدت أهميتها على أثر ظهور روما واتساع سلطانها جنوبا حتى شمل جزيرة صقلية وغرباً حتى وصلت جنودها وأساطيلها إلى « عمد هرقل » (جبل طارق) وهى البوابة القائمة بين أفريقية وأوربا والتى تحرس أبواب الاقيانوس فيما وراء البحر المتوسط

وأما بوابة « أترنتو » التى توصل بين البحر الأدرياتى والبحر المتوسط فان القدماء لم يحاولوا تحصينها أو حراستها لسعة بوغازها التى تبلغ ٤٧ ميلا ولم يكن العلم قد كشف بعد طريقة للتحكم فى مثل هذا المدى الواسع من الماء

ولم تكن لهذه البوابات فى أول الأمر إلا أهمية محلية كان يحدها اعتقاد الناس فى ذلك الوقت ان البحر المتوسط هو مركز العالم، وأطرافه هى حدود المعمورة غربا . فلما ازدهر عصر النهضة الأوربية فى القرن الخامس عشر وكشف كولومبس عن قارة جديدة فى غرب الاقيانوس وتقدمت الملاحة فى عرض المحيط فأتيح لمجلان الاسبانى أن يسيح حول العالم ، وتنافست الشعوب الغربية فى الوصول إلى الهند وسائر بلاد الشرق واستغلال مافى هذه الأرجاء من نفائس وكنوز ومجال للتوسع والاستعمار أصبح لهذه البوابات أهمية دولية بالغة الخطر إذ جاء الملاحون والمستعمرون من مختلف الدول يريدون المرور داخل هذه البوابات وخارجها فأيقظوا أصحاب الدور التى تفتح عليها تلك البوابات من غفلتهم وأقلقوا راحتهم وقامت الدول البحرية ترنو ببصرها نحو هذه البوابات وتتمنى بجدع الأنف أن يكون لها مكان مرموق إلى جوارها أو تصبح بيدها مفاتيحها فتتحكم فى فتحها وإغلاقها ضد منافسيها كلما دعت الحاجة . ومن ذلك نشأت الأهمية الاستراتيجية لهذه البوابات وللاراضى المجاورة لها . وقد زاد من شأن هذه الأهمية أن عصر النهضة كما كشف عن قارة أمريكا كشف أيضا عن استعمال البارود فى الحرب فأصبح من المستطاع تحصين هذه البوابات وتسليحها بالمدافع التى يمكن تسليطها على سفن العدو إذا هى حاولت المرور دون إذن صاحب المفتاح .

ومع أن كشف أمريكا واستعمار بلاد الشرق قد قللا فى أول الأمر من أهمية دول وموانى إيطاليا الجمهورية التى ظلت متفوقة فى البحر المتوسط طوال العصور الوسطى ، فان اهتمام الدول به كطريق عالمى تؤدى بواباته إلى الشرق وإلى أمريكا قد تضاعف فأصبح مستقبل هذه البوابات أمرا يهم الدول جميعا لا أصحاب الدور فحسب .

وأولى هذه البوابات أهميــــة فى التاريخ والسياسة معاً هى مضايق الدردنيل والبسفور ويبلغ طول مضيق الدردنيل الذى يوصل بين بحر إيجه وبحر مرمرة ٤٠ ميلا وعرضه يتراوح بين ميل وأربعة . ويبلغ طول مضيق البسفور الذى يوصل بين بحر مرمرة والبحر الأسود ١٨ ميلا ويتراوح عرضه بين ٨٠٠ ياردة وميلان وثلاثة ارباع الميل . وأمابحر مرمرة فيبلغ طوله ١٧٠ ميلامن الشرق إلى الغرب فيكون طول المضيق وبحر مرمرة بينهما نحو ٢٣٠ ميلا .

وقد بدت أهمية هذه المضايق من الوجهة الاستراتيجية فى التاريخ القديم عندما زحف الفرس بجحافلهم وأساطيلهم من آسيا يعبرون الهلسبونت ويهددون بلاد الاغريق فى القرن الخامس قبل الميلاد فوقف لهم الاغريق موقف البطولة فى موقعة سلاميس الحاسمة وبذا تخلصت أوربا من الوقوع تحت نير الفرس

وقد استهوت مناعة هذه المضايق ومحاسنها قسطنطين أحد قياصرة الرومان فشيد فى سنة ٣٣٠ ميلاديه على ضفاف البسفور حاضرة لدولته فاقت كل ماصنعته يد الآلهة حتى بزت روما نفسها وصارت تعرف بروما الجديدة .وأصبحت المضايق وعلى قرنهـا الذهبى بيزنطه أو مدينة قسطنطين العظيمة مفخرة الدنيا ومعجزة الطبيعة والصناعة معاً فى روعتها وبأسها وموقعها الجغرافى الفذ وخصائصها التى تحدث بها العالم فكانت من أجلها موضع إعجاب الناس ومثار حسدهم وحقدهم جميعا

وظلت بيزنطه أو القسطنطينية مركزاً حصيناً للمسيحية فى الشرق حتى ظهر الأتراك العثمانيون أمام المضايق فى منتصف القرن الخامس عشر وكانوا فى دفعتهم الحربية الأولى نحو الغرب قد غالبوا الطبيعة بإيمانهم فتغلبوا على ما أقامه أهل بيزنطه من حصون وسدود وسلاسل وأغلال شدوها وسط البوغاز لدرء خطر الهجوم، فلم يجد كل ذلك فتيلا ودخل السلطان محمد الثانى القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ وكان طبيعاً أن يظل أمر المضايق من شئون تركيا وحدها بيدها مفاتيحها إن شاءت يسرت لحلفائها المرور فيها وإن شاءت أغلقتها فى وجه الدول لا تبالى من تعاند، ولم يكن هذا يستغرب مادامت متفوقة فى أوربا وكانت لها الكلمة العليا على

الأقاليم المتاخمة للبواغيز . فلما بدأ ضعف تركيا وظهرت روسيا فى أفق السياسة الدولية وقام بطرس الأكبر يرسم لها طريق النهوض والتفوق فى أوربا وضع لها الأساس الدائم لسياستها الخارجية التى ما فتئت ترعاها إلى الآن ، وترمى هذه السياسة فى جملتها إلى تخليص روسيا من عزلتها الجليدية بين بحار مغلقة أو متجمدة أكثر العام ، والأخذ بيدها نحو الغرب عن طريق البحر البلطى ومناهضة السويد وبولنده ، ونحو الجنوب عن طريق البحر الأسود ومنه إلى البسفور وبحر مرمرة والدردنيل والبحر المتوسط حيث النشاط التجارى والمياه الدافئة .

وقد حقق بطرس الأكبر سيطرة روسيا على البحر البلطى وترك لكترينا الثانية وخلفائها مهمة تحقيق الشطر الثانى من برنامجه وهى الزحف جنوبا على حساب تركيا. وعلى ذلك لم تعد مسألة المضايق من شأن تركيا وحدها بل ظهرت فى الميدان أمامها روسيا وبدأت سلسلة الحروب الروسية التركية وتتابعت على أثرها انهزامات تركيا وكان أول امتياز نالته روسيا فى سنة ١٧٧٤ بمقتضى معاهدة « كجوك قينا ردجى » إذ سمح لها بحرية مرور سفنها التجارية داخل المضايق ثم ما لبثت الدول الأخرى أن انتفعت بهذه الميزة وجعلت بريطانيا وفرنسا تناهضان مطامع روسيا فى تركيا والمضايق وروسيا لا تنى لحظة عن توجيه ضرباتها واحدة تلو الأخرى ضد فريستها، وفى أثر كل ضربة كانت روسيا تأخذ أهبتها لبلوغ هدفها الأخير بالسيطرة على المضايق ، لكن الآلهة التى عهد القدماء اليها بحراسة البواغيز كانت دائماً إلى جانب الأتراك فحالفهم الحظ السعيد إلى الآن .

ويعتبر نابليون أول من لفت نظر الدول إلى أهمية المضايق فى التاريخ الحديث فقد تألبت ضده انجلترا وروسيا عندما فاجأ العالم بحملته على مصر فلما اضطر إلى الإفلات من مصر وتقلد الحكم فى فرنسا أرسل سفيره سبستيانى إلى القسطنطينية ليعمل على توثيق الروابط بينه وبين تركيا والحيلولة بينها وبين المحالفة المعادية لفرنسا . ونجح سبستيانى فى مهمته وأرادت انجلترا أن تؤدب تركيا فبعثت تطالب إليها إعلان الحرب على نابليون والإنضمام إلى جانب بريطانيا وروسيا ووضع

الأسطول التركى وحصون الدردنيل فى يد الحلفاء فلما أبت تركيا قام أمير البحر الانجليزى دكورث Duckworth فى مارس سنة ١٨٠٧ بحملة بحرية اقتحم بها المضايق وهدد القسطنطينية وكانت هذه أول محاولة فى التاريخ الحديث لاستيلاء دولة أوربية على المضايق . وما كاد الانجليز يبدأون بمحاولتهم حتى شمر الأتراك عن ساعد الجد يعاونهم الفرنسيون فأنشأوا الاستحكامات ونصبوا المدافع على مرتفعات المضايق وجمعوا الأسلحة من المخازن والمتاحف والمنازل وصنعوا القنابل والقذائف وظلوا فى استعداداتهم ليل نهار حتى إذا وصل الأسطول الانجليزى إلى أقرب النقط منالا للمدافعين انقض عليهم الأتراك بوابل من مدافعهم وقنابلهم وما زالوا بهم حتى ارتدوا على أعقابهم محملين بالخسائر مثقلين بخيبة الأمل .

ولم تجرؤ دولة أخرى على تكرار هذه المحاولة للإستيلاء على المضايق بهجوم مسلح إلا فى أبان الحرب العالمية الأولى .

وجاءت فترة اتفق فيها قيصر روسيا ونابليون فى مدينة تلست Tilsit على حساب تركيا وكاد العاهلان يصلان إلى تسوية نهائية بشأن تقسيم أملاكها لولا تشدد نابليون فى موضوع المضايق ومصير القسطنطينية وكان القيصر يريدها من نصيب روسيا . وعلى ذلك سرعان ماحل التجافى بين الدولتين مكان الوفاق وقامت حرب الأمم ضد نابليون فى روسيا أولا ثم فى أسبانيا وألمانيا من بعد وبدأت قوات نابليون تتراجع أمام تصميم الشعوب على التخلص من طغيانه فانهزم فى موقعة ليبزج ١٨١٣ ثم فى موقعة واترلو نهائياً فى سنة ١٨١٥ .

وعلى أثر ذلك اجتمعت الدول فى مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ لتسوية المشاكل السياسية التى واجهتهم فى اعقاب النظام النابليونى . وليس من شك فى أن مشكلة المضايق ومصير تركيا وأملاكها كانت من أهم المسائل التى شغلت أذهان الدول وقتذاك ، ولكن روسيا آثرت أن تبقى المسألة الشرقية بعيدة عن متناول المؤتمرات الدولية حتى لاتتقيد روسيا أمام الدول بسياسة معينة بشأن تركيا ولكى تبقى المسألة الشرقية محصورة فى دائرتها الضيقة بين تركيا وروسيا . وإذا لاحظنا إلى

ذلك أن تركيا لم تكن كبرياؤها لتسمح لها أن تلتمس فى مثل هذه المؤتمرات أسباب الضمان لاستقلالها وسلامة أراضيها لاسيما أن المبادىء الجديدة التى كانت تربط بين تلك الدول فى سنة ١٨١٥ كانت تستند إلى روح التعاون الذى تفرضه الأخوة المسيحية بين ملوك أوربا وأمرائها وفق نصوص المحالفة المقدسة — إذا لاحظنا ذلك أدركنا الأسباب التى جعلت مؤتمر فينا يغفل موضوع المسألة الشرقية وكان اغفالها سببا لتوالى الحروب فى هذه المنطقة فى القرن التاسع عشر .

وكان موضوع المسألة الشرقية يتكون من شعبتين رئيسيتين الأولى مشكلة المضايق والثانية مصير املاك تركيا بعد ما بدا من ضعفها فى الداخل والخارج . أما عن مصير أملاك الدولة فان انجلترا كانت لا تفتأ تبدىء وتعيد عباراتها التقليدية بضرورة حفظ استقلال الدولة وسلامة أملاكها . ولكن ذلك لم يكن يعدو مجرد الكلام ولم تكن انجلترا مستعدة لضمان سلامة تركيا بالقوة اللهم إلا إذا مست مصالحها بطريق مباشرة . وعلى ذلك بقيت أملاك الدولة العثمانية عرضة للسلب والاقتطاع حتى تم تمزيقها عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى .

وأما موضوع المضايق فلا يزال إلى الآن مثار نقاش وجدال بين الدول ، وكانت القاعدة القديمة التى سارت عليها تركيا وأقرتها الدول عرفياً أن تركيا هى صاحبة الأمر كله فى المنطقة وان المضايق بصفة عامة يجب اغلاقها فى وجه جميع السفن الحربية . أما السفن التجارية فقد رخصت معاهدة كجوك قينارجى سنة ١٧٧٤ بمرورها ولما قامت الحرب الروسية التركية وعقدت بين المتحاربين معاهدة أدرنه سنة ١٨٢٩ تأيدت فيها حرية الملاحة للسفن التجارية فى المضايق والبحر الاسود .

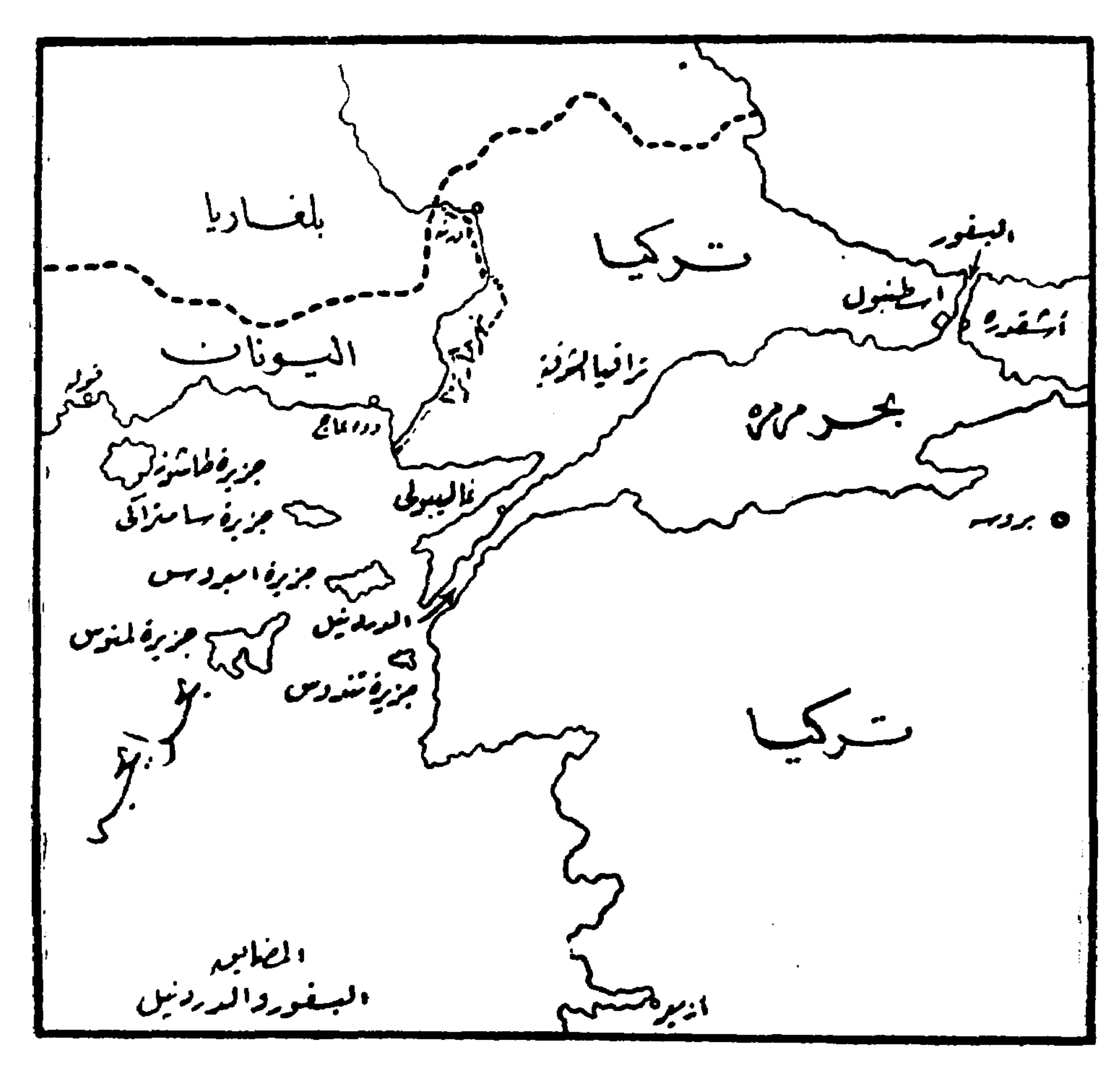
وكانت روسيا تعلم علم اليقين أن أى مساس بالقاعدة القديمة التى تمسكت بها تركيا لابد أن يعرضها لمشاكل دولية قد تؤدى بها إلى الحرب . ولذلك انتهجت خطة تنطوى على الحذر وضبط النفس فلم تعمد إلى الافادة من انتصاراتها بكسب خاص بها فى منطقة المضايق . إلا مرة واحدة وكان ذلك فى سنة ١٨٣٢ حين كان

محمد على الكبير يهدد القسطنطينية والمضايق على أثر انتصاره على قوات السلطان فى موقعة قونيه الشهيرة فقد طلبت تركيا المساعدة البحرية من انجلترا فاعتذرت الحكومة الانجليزية . وعلى ذلك رحب السلطان محمود الثانى بما بدا من استعداد روسيا لمعاونته وفعلا أرسلت روسيا نجدتين بلغتا ١٥,٠٠٠ جندى أقاموا أمام ترابيا على ضفة البسفور الاسيوية لحماية المضايق . عند ذلك ثارت ثائرة الدولتين الغربيتين انجلترا وفرنسا وبذلتا كل مافى وسعهما لعقد الصلح بين تركيا ومحمد على حتى لا يبقى أمام روسيا مبرر لابقاء قواتها .

وفعلا تم الصلح بين المتحاربين ولكن روسيا لم تشأ أن تغادر أراضى تركيا قبل أن تأخذ ثمنا لنجدتها فعقدت مع الباب العالى معاهدة هنكيار اسكلسى فى يوليه سنة ١٨٣٣ وهى معاهدة حربية دفاعية اتفق فيها سراً على أنه فى مقابل المساعدة الحربية التى يتعهد القيصر بتقديمها للسلطان عند الحاجة لا يريد القيصر أن يطالب السلطان بمساعدة فعلية وانما يكتفى منه باغلاق الدردنيل فى وجه جميع السفن الحربية لجميع الدول . ولم ينص فى المعاهدة على شىء خاص بالبسفور وهو المضيق الذى يوصل بحر مرمرة بالبحر الاسود والذى تقع القسطنطينية على ضفته الأوربية . فكأن معاهدة هنكيار اسكلسى قد تركت البسفور تحت رحمة الأسطول الروسى إذا شاءت اخترقته وألقت مراسى أسطولها أمام القسطنطينية على أن يظل الدردنيل مغلقاً أمام سفن الدول الأخرى . ومعنى هذا أن تصبح مفاتيح البوابة بيد روسيا أن شاءت طلبت إلى السلطان فتحها لتنفذ منها إلى البحر المتوسط وفى هذا مخالفة صريحة للقاعدة القديمة التى تجعل المضايق مغلقة فى وجه جميع الدول على السواء وتترك لسلطان تركيا وحده الهيمنة على المضايق .

ولذلك توترت العلاقات بين روسيا ودول الغرب وظهرت للعالم مطامع روسيا جلية بشأن تركيا ووضح لبريطانيا وضوحا لا لبس فيه ان روسيا تعمل جاهدة لاقتحام منطقة البحر المتوسط وتهديد مصالح بريطانيا فى الشرق. وعلى ذلك اتخذت مشكلة المضايق صفتها الدولية العالمية واتجهت أنظار الدول إلى هذه المنطقة

الاستراتيجية الخطيرة فجعلت الدول تعمل مع تركيا الضعيفة لصيانة هذه المنطقة وتأمينها لا بالوسائل التى كانت سائغة عند آلهة الأغريق القدماء ولا بمستحدثات الدفاع التى اخترعها العقل البشرى وأنتجتها البحوث العلمية والنهضة الصناعية الحديثة ولكن بالاتفاقات والمعاهدات الدولية ، لعل ذلك أن يوقظ ضمير الدول السياسى ، ويجعل منه سنداً يحتمى به الضعيف وقوة يرهبها القوى .



وعلى ذلك جاءت سلسلة الاتفاقات الدولية التى ابرمت فى أثناء القرنين التاسع عشر والعشرين بشأن المضايق وقد كان آخرها اتفاق منترو سنة ١٩٣٦ . أما أولها فكان اتفاق لندن فى سنة ١٨٤١ وقد أبرمته الدول عقب الأزمة الدولية التى أثارتها فتوح محمد على الكبير وتهديده القسطنطينية بعد أنتصاره فى موقعة

نصيبين أونزيب الشهيرة عام ١٨٣٩ فقد خشيت الدول إذ ذاك أن تتقدم روسيا بأساطيلها وجيوشها فتخترق البواغيز بمساعدة السلطان تنفيذاً لمعاهدة هنكيار اسكلسى ثم تتخذ من هذه المساعدة مبرراً لكسب ميزات أقليمية أو سياسية تميزها على سائر الدول وبذلك تعيد مأساة سنة ١٨٣٢ . ولكن روسيا كانت قد سئمت العزلة السياسية فانضمت إلى انجلترا والنمسا وبروسيا ضد محمد على وضد فرنسا التى أبت إلا أن تقف إلى جانب محمد على فى محنته . فلما انسحبت قوات محمد على من سوريا أمام ضغط الحلفاء واضطر إلى قبول شروط معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ عدلت فرنسا سياستها وأبت أن تثير حرباً أوربية ضد الحلفاء من أجل محمد على وعلى ذلك جنحت إلى جانب الحلفاء واتفقت معهم على معاهدة اغلاق المضايق

وقد نص اتفاق لندن على القاعدة التقليدية المرعية وهى أن يتعهد السلطان بأن يغلق المضايق أمام السفن الحربية على اختلاف جنسياتها ما دام الباب العالى فى حالة سلم . وطبيعى أن يأذن السلطان لحلفائه إذا كانت تركيا فى حرب بالمرور داخل المضايق ، ومهما يكن من أمر فإنه ما دامت الحرب قائمة فلن يكون للمعاهدات أيا كانت قيمة تذكر .

وقد نص الاتفاق فى مادته الثانية على استثناء السفن الحربية الصغيرة التى قد تحتاجها المفوضيات الأجنبية .

وفى سنة ١٨٥٦ اجتمعت الدول فى باريس لعقد معاهدة الصلح مع روسيا على أثر انهزامها فى حرب القرم أمام تركيا وحلفائها انجلترا وفرنسا وبيدمنت أو ايطاليا ، فانتهز الحلفاء هذه الفرصة للقضاء على مطامع روسيا فى البحر الأسود والمضايق وقرروا أولا توكيد القاعدة القديمة الخاصة بالمضايق ثم زادوا عليها تقرير حيدة البحر الأسود ، ومعناها إزالة القواعد البحرية ومنع تحصين الثغور وحظر اقامة الاساطيل الحربية فى مياهه وامكان مرور اساطيل الدول بداخله فى وقت الحرب وتهديد روسيا بكل سهولة . وكان هذا اكبر إذلال منيت به روسيا فى القرن التاسع عشر . وظلت روسيا ترسف فى هذا القيد مدة خمسة عشر عاماً

إلى أن سنحت لها الفرصة للتخلص منه عقب الحرب الفرنسية البروسية سنة ١٨٧٠ فكان لها ما أرادت ثمنا لوقوفها على الحياد فى الحرب الفرنسية البروسية .

وفى سنة ١٨٧٦ قامت الحرب من جديد بين روسيا وتركيا فزحفت الجيوش الروسية جنوبا مخترقة البلقان مهددة القسطنطينية والمضايق فسارع الباب العالى بطلب الصلح وعقد معاهدة سان استفانو ١٨٧٨ وبمقتضاها انشئت لبلغاريا دولة اشتملت على تراقيا ومعظم مقدونيا وصار لها ساحل يمتد على بحر ايجه وأصبحت بلغاريا الجديدة تهدد اليونان وتركيا فى أوربا وتكفل لروسيا مقاما ممتازاً فى منطقة عظيمة الخطر بالقياس إلى مركز بريطانيا وفرنسا فى البحر المتوسط . لذلك تدخل دزرائيلى أو لورد بيكنسفيلد فى الأمر قبل تنفيذ معاهدة سان استفانو المجحفة بتركيا وقر رأى الدول على الاجتماع فى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ برياسة بسمرك مستشار الامبراطورية الالمانية لاعادة النظر فى المسألة الشرقية فقرر المؤتمر الغاء شروط معاهدة سان استفانو وعادت بلغاريا امارة لا يخشى منها على سلامة القسطنطينية أو المضايق وبذلك أيد المؤتمر القاعدة القديمة الخاصة بالمضايق .

وما فتئت روسيا تكيد لتركيا وتحرض شعوب البلقان على الثورة والانتقاض عليها وخاصة بعد ظهور حركة الثورة التركية ١٩٠٨ حتى استقلت امارات البلقان وقطعت كل صلاتها بتركيا وانشأت لها ملكيات مستقلة ما لبثت أن تحالفت ضد تركيا فقامت الحرب البلقانية الأولى سنة ١٩١٢ ثم قامت الحرب البلقانية الثانية بين المتحالفين ، فتدخلت الدول وانعقد مؤتمر لندن ١٩١٣ وبقيت تركيا تسيطر على المضايق والقسطنطينية وجزء صغير من تراقيا يمتد غربا إلى نهر ماريتزا وشمالا إلى شمال ادرنه التى استردتها تركيا فى الحرب البلقانية الثانية .

ثم حدث تطور خطير قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى فقد ضؤل شأن روسيا حربياً بسبب هزيمتها النكراء أمام اليابان براً وبحرا فى سنة ١٩٠٥ فلم يعد لها ذلك الشأن الذى كانت تخشاه انجلترا فقربت بينهما فرنسا وتعاقدت الدولتان فى سنة ١٩٠٧ وأصبحت المانيا لا الروسيا مصدر الخطر وموضع السخط

والكراهية والخوف من الجميع . فلما نشبت الحرب العالمية الاولى كانت روسيا إلى جانب الحلفاء على حين انحازت تركيا إلى جانب المانيا فتعرضت المضايق من جراء ذلك لأقسى تجربة فى تاريخها الحديث . فقد كان من صالح الحلفاء أن يستبقوا الروس إلى جانبهم ليقاتلوا الالمان فى الجبهة الشرقية وكان الحافز الوحيد الكفيل باثارة حماستهم للحرب أن يعدهم الحلفاء بتحقيق امانيهم فى القسطنطينية والمضايق بعد انتهائها . وفعلا عقد إتفاق سرى فى سنة ١٩١٥ بين بريطانيا وفرنسا وروسيا نص فيه على أن تكون القسطنطينية والمضايق بعد الحرب من نصيب روسيا بشرط أن يكون لانجلترا الجزيرتان اللتان تتحكمان فى مدخل الدردنيل وهما جزيرة « تندوس » من جهة الشرق و « امبروس » من الغرب . ومع أن هذا الاتفاق السرى لم يتحقق لنشوب الثورة البلشفية فى روسيا وخروجها من الحرب قبل نهايته فان شروط الاتفاق وفداحة الثمن الذى دفعته بريطانيا تنبىء عن حالة اليأس الشديد الذى كان مستوليا على السياسة الانجليزية فى ذلك الوقت .

وكانت تركيا حين دخلت الحرب إلى جانب المانيا قد هاجمت روسيا فى القوقاز فتعذر على روسيا المتهالكة المضعضعة فى ذلك الوقت ان تباشر بنجاح حربين فى ميدانين عظيمين بعيدى الشقة فطلبت إلى الحلفاء تخفيف الضغط عنها بحملة ترسلها انجلترا ضد المضايق فقامت حملة غاليبولى الشهيرة فى مارس سنة ١٩١٥ وكان تشرشل وزير البحرية الانجليزية إذ ذاك اكبر داعية للحملة واضطرت انجلترا إلى سحبها بعد تسعة أشهر تحملت فيها خسائر جمة ولم تقو على ادراك شىء من غرضها الحربى الذى قصدت اليه من اختراق المضايق .

ثم انتهت الحرب فى خريف سنة ١٩١٨ وكانت روسيا صاحبة المطامع والدعاوى العريضة فى المضايق والبلقان عامة قد تركت الميدان غارقة فى ثورتها زاهدة فى كل ما كسبته من مزايا اقليمية بمقتضى معاهدة سنة ١٩١٥ وعلى ذلك قرر الحلفاء أن تشرف على المضايق والقسطنطينية لجنة دولية تمثل الحلفاء ، فاحتلوا القسطنطينية واملوا على حكومة تركيا المهدمة شروط معاهدة « سيفر » Sévres سنة ١٩٢٠

وهى المعاهدة التى قررت النزول للاغريق عن جزء كبير من منطقة المضايق وجزء من آسيا الصغرى وتكوين لجنة من بريطانيا وفرنسا وايطاليا لمراقبة المضايق نفسها .
وهى فى النهاية معاهدة لم يقدر لها التنفيذ إذ ما لبث مصطفى كمال ان أعلن ثورته المشهورة وقاد الأمة التركية من نصر فى ميادين الحرب إلى نصر سلمى جديد كانت له اثاره فى نظم الحكم والاجتماع واضطر الحلفاء ان يعقدوا معه صلحا شريفاً فى لوزان ٢٤ يوليه سنة ١٩٢٣ وفى هذا المؤتمر لم يمل الحلفاء شروطهم على تركيا كما اعتادوا أن يفعلوا من قديم أو كما املوها على المانيا والنمسا من قبل إذ أخذ عصمت باشا ممثل تركيا الجديدة مكانه على قدم المساواة مع لورد كرزون Curzon ممثل انجلترا الارستقراطى العظيم وجعل يعرض مطالب تركيا غير هياب ولا وجل ويرد على اللورد حجة بحجة .

ولما جاء دور البحث فى مشكلة المضايق لم ير الحلفاء بداً من قبول شيشيرين Chicherin ممثلا لحكومة السوفيت الجديدة على رغم أن دول الحلفاء لم يكن يربطها بحكومة السوفيت صلة ما ، لا سياسية ولا اقتصادية . ومن العجب فى هذا المؤتمر أن يكون ممثل روسيا عدوة تركيا القديمة أقوى نصير لتركيا الجديدة وأول محام عن قضيتها ضد الحلفاء وضد بريطانيا بصفة خاصة ، ذلك لأن بريطانيا التى ظلت قرنا أو أكثر تعلن عن صداقتها لتركيا وتنادى بضرورة التمسك بحق السلطان فى أن يغلق المضايق أمام جميع السفن الحربية منعاً لروسيا من التسلل بأساطيلها إلى البحر المتوسط قد جاءت إلى مؤتمر لوزان تنشر مذهباً جديداً يناقض مذهبها القديم وتبشر بالمبادىء الجديدة التى تدعو إلى الإيمان بحرية البحار وحرية الملاحة للجميع . وعلى ذلك وجب على تركيا أن تترك المضايق حرة فلا يكون لها فيها قواعد بحرية أو جوية ولا يكون على ضفافها حصون أو قلاع أو حاميات أو طائرات ولا يرسو بمائها سفن مسلحة أو تبث فيه ألغام تعوق الملاحة فى السلم أو فى الحرب .
وهنا تساءلت تركيا وروسيا لفائدة من هذه المبادىء الجديدة ؟ يقينا أنها لم تكن لفائدة تركيا فان حيدة المضايق تحرم عليها تسليحها وتجعلها هدفاً لهجوم الأعداء

فى أى وقت . وظاهر أنها لم تكن لفائدة روسيا فان هذه الحيدة تيسر لبريطانيا وحلفائها اختراق المضايق بأساطيلها الحربية وتهديد روسيا فى عقر دارها بالقرم. إذن لم يبق شك فى أن الحلفاء إنما أرادوا بمبدأ حرية البحار الذى طلبوا تطبيقه على هذه المضايق أن يضمنوا مصالحهم الخاصة وأن يكفلوا لأساطيلهم الحربية حرية المرور فى المضايق والبحر الاسود ضد السوفيت إذا اقتضت الحال . وقد بانت أغراض الحلفاء هذه بالنجدات البحرية التى أرسلتها بريطانيا بطريق المضايق لمساعدة الثائرين وقتذاك فى روسيا البيضاء ضد السوفيت . وبعد نقاش وجدال وأخذ ورد لم يسع تركيا إزاء ما كسبته فى لوزان من الاعتراف بحقها فى استرداد أدرنه وتراقيا وغاليبولى إلى مزايا أقليمية أخرى - أن تسترسل فى معارضة سياسة انجلترا بشأن المضايق فوافقتها على رغم احتجاج روسيا وإصرارها على توكيد السياسة التقليدية التى تجعل شأن البواغيز بيد تركيا تغلقها أمام جميع السفن الحربية لكافة الدول على السواء . وكانت الدول قد اشترطت فى حرية مرور السفن الحربية ألا تزيد مجموع حمولة السفن التى تخترق المضايق على مجموع حمولة أقوى دولة من دول البحر الأسود ولكن مندوب روسيا فطن إلى الخطار الذى يهدد روسيا من جراء ذلك فاعترض وتساءل عما يكون عليه الحال إذا اشترك فى إختراق المضايق أكثر من دولة . ولكن اعتراض روسيا لم يلق قبولا من جانب الحلفاء ولا من جانب تركيا نفسها التى آثرت الاتفاق معهم

وعلى ذلك نصت معاهدة لوزان على حرية الملاحة فى المضايق للجميع فى الحرب والسلم بشروط معينة ومنها الشرط الذى يحدد حمولة السفن التى تمر بها ، ومنها أن الغواصات لا تمر إلا سابحة فوق الماء ، ومنها أيضاً ألا تبقى الأساطيل داخل المنطقة أكثر مما يستغرقه مرورها ، ومنها ألا تقوم أساطيل الدول المتحاربة بأعمال حربية داخل المضايق فى زمن الحرب ، وإذا كانت تركيا فى حرب فلها أن تفتش السفن التجارية فى أثناء مرورها . وضمانا لحرية الملاحة قررت الدول حيدة شبه جزيرة غاليبولى وجزيرتى تندوس وأمبروس التابعتين لتركيا وجزيرتى لمنوس

وسامترا كى التابعتين لليونان وهذه الجزر تتحكم جميعاً فى مدخل البواغيز ، وكذلك تقررت حيدة ضفتى البسفور إلى بعد عشرة أميال فى الداخل .

ولم يبخس الحلفاء حق تركيا جملة فى تأمين نفسها فرخصوا لها بتحصين القسطنطينية وجعلها قاعدة بحرية وإبقاء حامية حربية بها قوامها ١٢٫٠٠٠ جندى وكونوا لجنة دولية برياسة تركيا لمراقبة تنفيذ هذه الشروط وكانت اللجنة تضم عضواً من كل من : بريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان وبلغاريا واليونان ورومانيا وروسيا . وقد نصت المادة الثامنة عشرة من المعاهدة على أن تقوم بريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان باتخاذ الاجراءات التى تطلبها عصبة الأمم لضمان حرية الملاحة فى المضايق ورد العدوان عنها . وقد وافقت روسيا على المعاهدة فى آخر الأمر وبقيت شروط هذه المعاهدة قائمة أكثر من ١٢ عاما استطاعت تركيا فى أثنائها أن تفرغ لتنفيذ برنامج الاصلاح الكمالى الذى خلق من تركيا دولة فتية موطدة الأركان ومن الأتراك شعباً ناهضاً سرعان ما انعقدت له الزعامة فى البلقان وفى شرق البحر المتوسط

وفى سنة ١٩٣٥ – ١٩٣٦ اكفهر جو السياسة الدولية فى أوربا بل فى العالم كله فقد هاجمت إيطاليا أثيوبيا وجردت ضدها جيوشها وطائراتها وأساطيلها وغازاتها السامة متحدية فى ذلك بريطانيا ومن ورائها عصبة الأمم . ولما لم يفد توقيع العقوبات الاقتصادية ضدها ووضح للناس خيبة أملهم فى العصبة وفى مبدأ التأمين الجمعى ضد العدوان وظهر أن ميثاق العصبة وحده لا يستطيع أن يدفع شراً أو يمنع عدوانا – انتهزت تركيا هذه الفرصة السيكولوجية وأبدت رغبتها فى ضرورة تعديل معاهدة لوزان بشأن المضايق حتى لا يتعرض أمنها وسلامتها لعبث دولة مهاجمة كايطاليا . وكان من صالح انجلترا بعد أزمة الحبشة أن يكون لها حلفاء أقوياء فى البحر المتوسط كتركيا وأن يكون هؤلاء الحلفاء مسلحين وبمأمن من هجمات العدو ، فأجابت تركيا إلى ما طلبت .

وكذلك انحازت روسيا إلى تركيا إذ لم يكن فى مصلحتها أن تبقى البواغيز مفتوحة لأساطيل الدول تهدد ثغورها وقواعدها فى البحر الأسود . وكانت

المحالفة بين البلدين قد ساعدت على تصفية الجو بينهما ونزع الضغائن من الصدور فلم يعد يضايق روسيا أن تتسلح صديقتها تركيا وتمتشق حسامها ذياداً عن البواغيز. ولم تشأ تركيا أن تتشبه بألمانيا أو إيطاليا فتعمد فى تحقيق أغراضها إلى القوة وخرق المعاهدات وآثرت أن تدعو الدول إلى مؤتمر سريع يجيب تركيا إلى رغباتها وانعقد المؤتمر فى منترو فى يولية سنة ١٩٣٦ وقرر الغاء القيود الدولية التى وضعت فى مؤتمر لوزان بشأن الرقابة على المضايق ونص على حق تركيا فى تسليحها وتحصينها كما تريد وقرر بشأن الملاحة ما يأتى :

١ — فى وقت السلم تكون الملاحة التجارية حرة للجميع ويسمح بمرور السفن الحربية عدا الغواصات وحاملات الطائرات والبوارج التى تزيد حمولتها على ١٠٫٠٠٠ طن .

٢ — وفى وقت الحرب إذا كانت تركيا محايدة يحظر على سفن الدول المحاربة المرور إلا بقرار من عصبة الأمم أو كان ذلك لمعاونة حليفة لتركيا سبق أن ارتبطت معها بمحالفة أعلنت وسجلت فى عصبة الأمم.

٣ — أما إذا كانت تركيا دولة محاربة فيحظر مرور السفن التجارية التابعة للعدو أو للسفن المحايدة التى تحمل رجالا أو ذخيرة للعدو ويبقى حق التصريح بالمرور فى المضايق بيد تركيا تستعمله كما تشاء حتى إذا لم تكن هناك حرب واقعة

وقد نصت المعاهدة فى المادتين ١١ و ١٢ على أن الترخيص للدول الواقعة على البحر الأسود فى إرسال سفنها الحربية الكبرى داخل المضايق بشرط مرور هذه السفن فرادى وإلا تحرسها أكثر من مدمرتين اثنين ولها أن ترسل غواصاتها داخل المضايق بقصد الوصول إلى قواعدها إذا كانت الغواصات قد صنعت أو اشتريت خارج البحر الاسود ولها أن ترسل هذه الغواصات للاصلاح أيضاً وفى جميع هذه الحالات تكون الملاحة نهاراً وعلى وجه الماء ويكون مرورها فرادى وبعد إخطار الحكومة التركية بوقت كاف .

وعلى ذلك عاد حق السيادة فى المضايق كاملا لتركيا ، ولأول مرة فى تاريخ

المضايق اتفقت كلمة بريطانيا وروسيا وتركيا على مصلحة واحدة وأصبح مفتاح البواغيز بيد حارس البوابة وصاحب الدار . والدول التى اشتركت فى هذه المعاهدة هى بريطانيا وفرنسا وروسيا واليابان وتركيا وبلغاريا ورومانيا ويوغسلافيا واليونان واستراليا . ولم تشترك إيطاليا كما لم تدع ألمانيا إلى الاشتراك

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية أعلنت تركيا حيدتها وحافظت على هذه الحيدة إلى النهاية ووقعت إحداث كان يخشى منها أن تعتدى ألمانيا على حيدة المضايق . ولكن ألمانيا رغم اقترابها من سواحل المضايق وهى تحارب فى البلقان ثم فى روسيا لم تكن فى حاجة ملحة إلى استعمال المضايق لعدم كفايتها البحرية من جهة ولاعتمادها على مواصلاتها وقواتها البرية من جهة أخرى . أما الحلفاء فانهم كانوا بطبيعة الحال يرحبون باستعمال المضايق للاتصال بروسيا ولكن الطريق إلى المضايق لم يكن ممهداً أمام الحلفاء وقد تحصن الألمان فى كريت وبحر إيجه وساحل تراقيا الشرقية وعلى ذلك لجأ الحلفاء إلى استخدام طريق إيران والخليج الفارسى لا احتراما لمبدأ إغلاق المضايق بل عجزا عن اختراقها

والآن بعد أن وضعت الحرب أوزارها واجتمع مؤتمر الصلح الأول فى قصر لكسمبورج بباريس فى يوليه سنة ١٩٤٦ لتقرير شروط الصلح مع الدول التى اشتركت فى الحرب إلى جانب المحور ضد الحلفاء ، واجتمع ممثلو الدول الأربع فى موسكو فى مارس سنة ١٩٤٧ محاولين الأتفاق على شروط الصلح مع المانيا والنمسا فان مشكلة المضايق لابد أن تطرح يوما ما على بساط البحث وستكون حينئذ مثار خلاف شديد بين الدول، فان روسيا بعد ان دعمت ثورتها فى الداخل ووطدت مكانتها فى أوربا وفى العالم كله بفضل ما اضطلعت به من بطولة فى مقاومة هتلر ثم فى مطاردة فلول جيوشه إلى أسوار برلين ستعمل جاهدة على تبوُّ مكانها المرموق على مسرح السياسة الدولية ولن تكتفى هذه المرة بأن تلعب دور المتفرج فى حلبة المشكلات الدولية الكبرى فترضى بأن تمسك تركيا بمفتاح البوابة إذ لم تعد تخشى مهاجمة الدول بعد أن نهضت حربياً وبحرياً وجوياً ، بل على العكس يهمها

الآن أن تفتح أبواب المضايق وأن تـكون حرة ليتسنى لها الاتصال بالعالم الخارجي متى وكيفما شاءت ولن تنسى روســيا المرارة التى ذاقتها فى بدء هذه الحرب الأخيرة عند ما كانت تحارب إلى جانب الألمان وطالبت تركيا بأن تغلق المضايق فى وجه بريطانيا وفرنسا فلم تستجب لها تركيا وتمسكت بحيدتها التى أعلنتها منذ نشبت الحرب إلى نهايتها ، فانقلبت الصداقة القديمة بين البلدين إلى عداوة أعادت إلى الذاكرة ما كان بين الدولتين فى العهد القيصرى من جفاء ومرارة وعداء مستحـكم . لذلك لم يكن مستغرباً أن تنذر روسيا تركيا بعدم رغبتها فى تجديد معاهدة الصداقة الروسية التركية التى انتهى أجلها فى سنة ١٩٤٥ كما أنها تقدمت فى سنة ١٩٤٦ بمذكرة تطلب فيها إعادة النظر فى معاهدة منترو الخاصة بالمضايق. وقد تضمنت المذكرة المبادىء التى ترى حكومة السوفيت أن تقوم عليها سياسة المضايق وهى :

١ — أن تظل المضـايق مفتوحة دائماً لمرور السفن التجـارية لجميع الأمم

٢ — أن تظل المضايق مفتوحة دائماً لمرور السفن الحربية التابعة للدول الواقعة على البحر الاسود

٣ — ألا يسمح — إلا فى أحوال خاصة — للسفن الحربية غير التابعة للدول الواقعة على البحر الاسود بالمرور فى المضايق .

٤ — أن يلحظ فى النظام الجديد الذى يوضع للمضايق صالح تركيا والدول الواقعة على البحر الاسود

٥ — أن تشترك حكومة الاتحاد السوفيتى وتركيا فى تنظيم الدفاع عن الدردنيل والحيلولة دون استخدام الدول الأخرى للمضايق لاغراض تتعارض مع صالح الدول الواقعة فى البحر الأسود

وتعتقد الحـكومة السوفيتية أن هذه المقترحات لا يمكن أن تؤثر بحال ما فى سيادة تركيا وأن التدابير الدفاعية التى يشترك فى وضعها الاتحاد السوفيتى مع تركيا ستـكون أقوى وأدعى إلى الاطمئنان من التدابير التى تضعها تركيا بمفردها .

وتنص المادة ٢٨ من معاهدة منترو على أن مدتها عشرون سنة ولـكن المادة ٢٩ تجيز للدول أن تطلب تعديل موادها بعد انقضاء خمس سنوات

أو مضاعفاتها من تاريخ سريانها ، وعلى ذلك تكون المعاهدة قابلة للتعديل فى نوفمبر سنة ١٩٤٦ بعد انقضاء فترتين عليها .

وقد أثارت مقترحات روسيا زوبعة دبلوماسية على درجة عظيمة من الخطورة فان حكومة السوفيت أرادت أن تحصر مجال المناقشة فى مواد المعاهدة على الدول ذوات المصالح فى البحر الاسود وهى روسيا وتركيا ورومانيا وبلغاريا وأن تجعل مهمة الدفاع عن المضايق مقصورة على هذه الدول أو على روسيا وتركيا وحدهما ولذلك طالبت روسيا بأن يكون لها قواعد بحرية وجوية على المضايق . وتركيا مصممة تصميما أكيداً على التمسك بحقوقها ، والأتراك قد يقبلون الرأى الذى أبدته بريطانيا وأمريكا فى أن تكون المضايق حرة للملاحة لجميع الدول ولكنها تأبى أن توضع المضايق تحت اشراف لجنة تسيطر عليها روسيا ويكون من أعضائها رومانيا وبلغاريا وكلتاهما تدوران فى الفلك السوفيتى وكانتا من الدول التى تعاونت مع المحور أو أن يكون لروسيا قواعد بحرية أو جوية على شبر من أرضها .

وغنى عن البيان أن بريطانيا ومعها الولايات المتحدة ستتمسكان للنهاية بدولية المضايق ووجوب اشتراك الدول الكبرى فى بحث موضوعها والاتفاق النهائى بشأنها على أن تشترك الولايات المتحدة فى الاتفاق وتحل مكان اليابان إذ لم تكن الولايات المتحدة من الدول الموقعة على معاهدة منترو . ووضح من خطاب مستر ترومان رئيس الولايات المتحدة أمام الكونجرس الأمريكى الذى يجمع بين نواب الأمة وشيوخها فى مارس سنة ١٩٤٧ والذى طالب فيه بالموافقة على اعتماد مبلغ ٤٠٠ مليون دولار لمساعدة كل من اليونان وتركيا — أن أمريكا معتزمة التدخل فى شئون المضايق والبحر المتوسط بطريق لا تدع مجالا للشك فى أنها تريد أن تصحح الميزان السياسى بين القوى المتنافسة فى البحر المتوسط . فاذا أصرت روسيا على تعديل معاهدة منترو وفق مصلحتها وعلى غير ما ترضى به تركيا وأصدقائها فلن يمضى وقت طويل حتى تظهر فى أفق السياسة العالمية ، مسألة شرقية جديدة ، تختلف من أجلها الدول اختلافا شديداً وقد تشتبك بسببها فى حرب طاحنة تناضل فيها تركيا وتقف منها كما وقفت فى سنة ١٩١٩ لا كما كان يقف الرجل المريض أمام روسيا قبل ذلك التاريخ .

الفصل الخامس

بوابات البحر المتوسط

جبل طارق وطنجه

ا — جبل طارق:

إذا ذكر الانجليز فى كتاباتهم أو فى سياستهم كلمة « الصخر The Rock » اقترن الاسم بالمتانة والمناعة وانصرف الذهن رأساً إلى تلك القلعة الجاثمة فوق الجبل الذى يشرف على المضيق، وكلاهما عرف باسم ذلك الفاتح العربى الذى كان أول من دل على أهمية ذلك الموقع من الوجهة الحربية فى القرن السابع بعد الميلاد. وناهيك بمضيق تكتنفه الجبال الشوامخ شمالا وجنوبا ويفصل بين قارتين عظيمتين كما يوصل بين بحرين خضمين أحدهما فى وسط المعمورة تلاءمس أمواجه سواحل أعرق الأمم مدنية فى حقب التاريخ المختلفة والثانى أحد المحيطات الخمسة التى تغمر نحو ثلاثة أرباع الكرة الأرضية بالماء وتجعل الكون من ورائها ظلمات بعضها فوق بعض.

وكان الفينيقيون القدماء أول من خاطروا فى البحر المتوسط غربا واجتازوا المضيق شمالا إلى البرتغال وجزر سيلى قرب سواحل انجلترا الجنوبية، ولكنهم احتكروا الملاحة والتجارة فى تلك الأصقاع وحرموا على غيرهم من ملاحى البحر المتوسط ارتيادها. ثم ذهبت دولة الفينيقيين وقام الكفاح بين روما وقرطاجه فتغلب الرومان وجعلوا ينشرون سلطانهم رويداً رويداً حتى أصبح البحر المتوسط بحيرة رومانية واجتازت سفنهم ذلك المضيق الذى أطلقوا عليه « عمد هرقل » لمناعة المرتفعات التى تقوم على جانبيه من الناحيتين الأوربية والأفريقية وليس بينهما سوى ١٤ كيلو مترا. وكانت الصلات والروابط بين

الجانبين من السهولة واليسر لدرجة دعت بعضهم إلى حسبان اسبانيا جزءاً من أفريقية واعتبار جبال البرانس هى الحد الجنوبى الذى يفصل أوربا عن أفريقية . لذلك لم تظهر للمضيق فى زمن الرومان أهمية حربية تذكر .

ولما زحفت القبائل الجرمانية المتبربرة فى القرن الخامس بعد الميلاد تحتل الأرجاء التى زال عنها سلطان روما لم يكن لهؤلاء المتبربرين فى أول أمرهم سابق عهد بالملاحة أو بالبحار عامة ، ولكنهم سرعان ما مرنوا على الملاحة والقرصنة حتى أضحى غرب البحر المتوسط مسرحا لنشاطهم وسطوتهم فاحتل القوط الغربيون اسبانيا ، وجاء الوندال على أثرهم فاجتازوا المضيق إلى شمالى أفريقية فاحتلوها وكانوا قوماً معروفين بالفتك والتدمير فاندثرت حضارة أفريقية الشمالية بعد أن كانت من أغنى ولايات الامبراطورية الرومانية وأعلاها كعبا فى الحضارة

وقد حاول جوستنيان امبراطور الدولة الرومانية الشرقية استرجاع هذه الأرجاء تحت النفوذ الرومانى وانتصر قائده باساريوس على جموع المتبربرين عام ٥٢٣ ميلادية . ولكن هذه الفترة لم تدم طويلا وظل الفساد والاضمحلال فاشيين فى تلك الربوع إلى أن جاء العرب فى القرن السابع فوجدوا الطريق ممهداً لفتوحهم فنشروا الدعوة الاسلامية فى شمالى أفريقية وصبغوا بلاد البربر بالصبغة العربية التى لازمتها إلى وقتنا الحالى .

ولما أوفد موسى بن نصير عامل الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك على شمالى أفريقية قائده طارق بن زياد على رأس قوة من العرب والبربر لفتح الأندلس قصد طارق أولا إلى ميناء « Ceuta سبته » المواجه لجبل طارق وهناك انضم إليه فريق من أعداء ردريك « Roderick » ملك اسبانيا القوطى ومنهم حاكم سبته الذى أمد طارق بالسفن اللازمة لنقل قواته عبر المضيق إلى أرض الأندلس . ونزل طارق بالجزيرة فى مواجهة الجبل الذى عرف باسمه ليؤمن مواصلاته مع أفريقية الشمالية وبنى على الجبل قلعة منيعة لاتزال أسوارها باقية إلى الآن . وكان بذلك أول من كشف عن أهمية ذلك « الزقاق » الضيق كما كان يسميه العرب .

وكان ردريك قد جمع جيشاً جراراً يبلغ عدده ثلاثة أضعاف قوات طارق. فرأى طارق أن يسمو بالروح المعنوية بين جنوده إلى حد الاستماتة وأن يجعل من هذه الغزوة فتحا مبينا مقيما فأمر أن تحرق السفن التي أقلتهم إلى سواحل أندلوسيا ونبه جنده فى عبارته التاريخية المأثورة بأن العدو أمامهم والبحر من ورائهم فاستبسلوا فى القتال وتغلبت فئتهم القليلة على فئات العـــدو الكثيرة . ولقد حالفهم النصر حتى دانت لهم شبه الجزيرة وبقى العرب بها زهاء ثمانية قرون لم تنقطع الصـــلات فى أثنائها بينهم وبين قبائل البربر فى أفريقية الشمالية حتى أمكن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بالمغرب أن يجمع فى القرن الثانى عشر بين ملك الأندلس والمغرب فى آن واحد . ولما ترك العرب شبه الجزيرة نهائياً فى سنة ١٤٩٢ خلفوا وراءهم فيما خلفوه كلمات عربية كثيرة لا تزال ظاهرة فى أسماء الأسبان وآثارهم ومعالم بلدانهم إلى الآن . ومن هذه الأسماء جبل طارق الذى أطلقوه على المرتفعات الشمالية التى حصنها طارق وهكذا ذهبت « عمد هرقل » البطل الأسطورى الأغريقى الأصل المنتسب إلى الآلهة الرومانية وبقى اسم طارق القائد المتواضع الذى ينتمى إلى الشعب العربى .

ولم يفطن الاسبان ولا العرب فى ذلك الوقت إلى أنه فى اليوم الذى غادر فيه آخر عربى أرض الأندلس قد ولدت مشكلة جبل طارق ، فقد انفصمت بخروج العرب عرى الوحدة التى كانت تربط بين شبه الجزيرة وشمالى أفريقية وأصبح كل من الجانبين تابعاً لسلطة تختلف جنسا وديناً ولغة ومدنية عن الأخرى وصار ممكناً بعد هذا الانفصال أن تسطو دولة قوية على إحدى الجهتين فتعرض استقلال الجهة الأخرى لخطر محقق. فقد استولت البرتغال فى سنة ١٦٥٦ على طنجة وقدمتها الأميرة كترينه البرتغالية Catherine de Braganza هدية العرس لزوجها شارل الثانى ملك انجلترا عند زواجها فى سنة ١٦٦٢ ولو قد بقيت تحت يد انجلترا لتعرض جبل طارق وجنوبى اسبانيا لخطر الاحتلال الانجليزى . ولكن انجلترا كانت تعانى أزمة مالية خطيرة بسبب حياة البذخ والاستهتار التى كان يعيشها الملك

والناس فى عهد عودة الملكية ، وكان الاحتفاظ بطنجه يكلف الحكومة نفقات طائلة بسبب تسلط قراصنة البحر فى تلك الأرجاء ، وعلى ذلك سرعان ما نزلت انجلترا عن طنجه سنة ١٦٨٤ وتركتها بأيدى القبائل .

ومن غرائب القدر أن تفقد انجلترا ميناء طنجه فى الوقت الذى نشطت فيه حركة الاستكشافات فقام كولمب بسياحاته الشهيرة لكشف العالم الجديد وساح فاسكودا جاما حول رأس الرجاء الصالح ، وتجهت نية هولنده وانجلترا نفسها لتأسيس شركات الملاحة التجارية للاتصال بدول الشرق والهند . ولما كانت مراكز هذا النشاط الجديد بعيدة عن سواحل البلاد صاحبة الشركات جعل الانجليز يبحثون عن قاعدة مركزية لهم، منها يمتارون وبها يحتمون إذا اعترضهم عدو أو نال سفنهم عطب فى الطريق . وكان طبيعياً أن تكون القاعدة فى متناول خطوط الملاحة سواء منها الذاهبة إلى الشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح أو القاصدة غرباً إلى العالم الجديد أو الميممة شطر بلاد المشرق شرقى البحر المتوسط . وبدا للانجليز فى أول الأمر أن ميناء قادس البرتغالى يحقق ذلك الغرض كما يحققه ميناء طنجه على الساحل الأفريقى وتفتح للانجليز آفاقا جديدة فى أفريقية الشمالية . ولكن الانجليز كانوا يريدون إلى ذلك أن يطعنوا اسبانيا عدوتهم اللدود فى صميم دارها فوطدوا عزمهم على احتلال جبل طارق ليجمعوا إلى الفائدة الحصانة الحربية .

وفى سنة ١٧٠٠ مات شارل الثانى ملك أسبانيا دون أن ينجب من يخلفه فسعى لويس الرابع عشر ملك فرنسا حتى اختير حفيده فيليب دوق انجو ملكا على أسبانيا فخشيت انجلترا أن يتحد التاجان الفرنسى والأسبانى فتملك أسرة البوربون قوة بحرية مزدوجة على المحيط الأطلنطى وفى البحر المتوسط تهدد تفوق انجلترا البحرى من جهة وتخل بالتوازن الدولى فى أوربا من جهة أخرى . وتفاديا لذلك تألف حلف أوربى من النمسا وهولنده وانجلترا لمنع فرنسا من التوسع فى أوربا بدرجة تعرض سلامة الدول الأخرى لخطر الغزو ونشبت لذلك حرب الوراثة الأسبانية سنة ١٧٠١ بين الفريقين .

وبذلت انجلترا فى تلك الحرب جهودا جبارة فى البر والبحر وانتصر قائدها الشهير « مارلبرو Marlborough » فى عدة وقائع حربية معظمها فى الأراضى المنخفضة واستطاع امير البحر « روك Rooke » أن يحتل جبل طارق سنة ١٧٠٤ باسم الملكة آن وانتهت الحرب فى سنة ١٧١٣ بمعاهدة اترخت. فاعتلى فيليب الخامس البربونى عرش أسبانيا على أن ينزل نهائيا عن حقه فى تاج فرنسا وتطبيقا لشروط معاهدة الصلح استولت انجلترا على جبل طارق ولكن آسبانيا رفضت الاذعان لهذا الشرط وحاولت جهدها أن تسترد حصنها المنيع فحاصرته قواتها فى أثناء القرن الثامن عشر مرتين كانت أولاهما فى سنة ١٧٢٧ .

واستمر الحصار فى المرة الثانية من ١٧٧٩ إلى ١٧٨٣ وكان حادثا دوليا على درجة عظيمة من الأهمية فقد كانت انجلترا مشتبكة وقتئذ مع مستعمراتها فى حرب الاستقلال الأمريكى وكانت فرنسا وأسبانيا تؤيدان الثوار ضدها وجاء الأمراء والقواد والمهندسون والخبراء من بلدان أوربا المختلفة يشاهدون ذلك الصراع الحربى بين المحصورين والمحاصرين وقد تزود كل من الجانبين بخيرة رجاله وعتاده ، وكان مما لفت أنظار أوربا القلعة العائمة التى اخترعها مهندس فرنسى وأمد بها المحاصرين

وقد سارت طائفة من هـــذه القلاع محملة بالمدافع فى صبيحة يوم من أيام شهر سبتمبر سنة ١٧٨٢ وسط ضجيج هائل من النظارة الذين تسلقوا التلال القريبة ليشاهدوا معجزة اخضاع « الصخرة » ولكن « اليوت Eliott » حاكم الصخرة الإنجليزى لم يكن رجلا أهلا للاستسلام، فقد أعد مفاجأة حامية أصلى بها المحاصرين وقلاعهم إذ أقام أفرانا عظيمة أوقد فيها النيران لصهر الرصاص وجعلت المدافع تقذف السفن والقلاع بالرصاص المصهور فدمر السفن وحصد الرجال وأوقع الرعب فى قلوب المحاصرين فتركوا الميدان بعد أن تكبدوا خسائر فادحة بلغت فى الأنفس نحو اربعة آلاف على حين لم تزد خسارة المحصورين على بضعة رجال . ومنذ ذلك الوقت رسخ فى الأذهان أن « الصخرة » حصن منيع لا يقهر فلم يجرؤ أحد من بعد على أن يقترب منها أو ينالها بسوء .

وفى نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر قامت الثورة الفرنسية وظهر نابليون بونابرت يقود حملته على مصر فاتجهت أنظار الدول نحو بلاد المشرق وبدأت العواصف تهب على مياه البحر المتوسط بعد أن ظلت ثلاثة قرون فى شبه ركود بسبب كشف أمريكا وتحول مركز الملاحة والتجارة من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلنطى . وأدرك نابليون وهو فى طريقه إلى مصر أهمية جزيرة مالطة من الوجهة الحربية فاحتلها وجاء فى أثره أمير البحر الانجليزى نلسون فأخرج منها الفرنسيين واحتل الانجليز الجزيرة منذ ذلك الوقت وقد تأيد احتلالهم لها فى مؤتمر فينا سنة ١٨١٥.

وبظهور هذه القاعدة الانجليزية الجديدة فى وسط البحر المتوسط أخذت أهمية جبل طارق تتضاءل تدريجيا بالقياس إلى جزيرة مالطة . ولم يكن لمعركة الطرف الأغر التى انتصر فيها نلسون على الأسطول الفرنسى فى سنة ١٨٠٥ أثر يذكر فى زيادة أهمية الجبل . فلما انعقد مؤتمر فينا لم تر انجلترا من الأسباب ما يدعوها إلى المطالبة باحتلال ميناء سبته أو طنجه لتقوية مركزها فى جبل طارق ولو طالبت بشىء من ذلك لأجابها المؤتمر إلى ما طلبت . ولكنها آثرت أن تتجه بقواعدها شرقا فطالبت بجزر الايونيان غربى بلاد اليونان ووافقها المؤتمر على ذلك .

وقد بقى الانجليز بهذه الجزر إلى سنة ١٨٦٢ حين اعتلى الأمير جورج الدنمركى عرش اليونان فقدمتها إليه انجلترا هدية لتستميل الرأى العام إلى جانبه . ومن الصعب أن تنزل انجلترا لليونان طوعا عن جزر الايونيان ولا تنزل عن جبل طارق لأسبانيا رغم شكواها الأليمة على طول السنين . ولكن انجلترا استغلت ضعف أسبانيا واضطراب أحوالها الداخلية فلم تحرك ساكنا ولم تصغ إلى شىء من مطالب أسبانيا فى جبل طارق وقد ثبتت قدمها فيه بمضى الوقت وأصبحت تلك الصخرة رمزا لثبات الامبراطورية البريطانية وعنوانا على تفوقها البحرى .

وفى أوائل القرن العشرين تتابعت أحداث سياسية هامة كان من شأنها أن تعيد إلى جبل طارق شيئا من أهميته الأولى، فبعد أن كانت بريطانيا توجه اهتمامها

صوب الشرق لمناهضة النفوذ الروسى الذى كان يزحف حثيثا نحو حدود الهند ويهدد المضايق والقسطنطينية للوصول إلى البحر المتوسط كلما سنحت فرصة، لم يلبث أن تغير الوضع حين خرت روسيا ذليلة مكسورة مهيضة الجناح أمام قوات اليابان البرية والبحرية فاذا هى تسارع إلى محالفة انجلترا ، وإذا العداوة المكينة التى كانت تضمرها بريطانيا لروسيا طوال النصف الأخير من القرن التاسع عشر تتحول إلى ألمانيا . فقد قدرت ألمانيا حين عقد الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا فى سنة ١٩٠٤ وثم حين قوى هذا الاتفاق بانضمام روسيا إليهما ان هؤلاء الحلفاء قد يتحرشون بها فى وقت ما وحينئذ تضغط ألمانيا بين شقى الرحى : روسيا من الشرق وفرنسا وبريطانيا من الغرب .

وخوفا من هذه العاقبة رفعت ألمانيا القناع وأعلنت فى قول صريح أنها تعمل على إنشاء أسطول حربى يلائم مركز ألمانيا العالمى فى الصناعة والتجارة وانها تريد أن يكون لها نصيبها فى الاستعمار كغيرها من الدول . وقد رنت ألمانيا بعينها شرقا وغربا تبحث عن مناطق جديدة للاستعمار. أما فى الشرق فقد أوثقت علاقاتها مع تركيا وبدأت المشروع المعروف باسم الزحف نحو الشرق، ومدت خطا حديديا يصل بين برلين وبغـــداد . وأما فى الغرب فقد أرادت أن تحول بين احتلال فرنسا واحتلال بلاد المغرب جميعها ، ووطدت عزمها على أن يكون لها نصيب فى هـــذه الأرجاء الغنية بمعادنها وبما يترامى وراءها من أسواق وميادين للعمل والاستعمار. وبذلك عاد الاحتكاك القديم بين ألمانيا من جهة وفرنسا وانجلترا من جهة أخرى ، وقد مهد وليم الثانى امبراطور ألمانيا للأزمة بزيارة جبل طارق فى مارس ١٩٠٥ حيث قابل حاكم الصخرة ثم بزيارة طنجة فى السنة نفسها ، ثم بمحاولة احتلال ثغر أغادير سنة ١٩١١ .

وما كادت تنتهى أزمة مراكش حتى نشبت الحرب الكبرى فى سنة ١٩١٤ ولما كانت إيطاليا قد لزمت الحيدة فى أول الحرب ثم انضمت إلى جانب الحلفاء فى سنة ١٩١٥ فان الحلفاء لم يعانوا فى هذا الحرب من الكوارث والخسائر ما عانوه من بعد فى الحرب العالمية الثانية ، ومع ذلك استغلت ألمانيا سلاح الغواصات فى

البحر المتوسط ضد الحلفاء اكبر استغلال فقد اخترقت غواصاتها مضيق جبل طارق بسهولة ووجدت فى سواحل هذا البحر القريبة وخلجانه الكثيرة وجزره المتقاربة — وخاصة التابعة منها لتركيا واليونان فى بحر ايجه أو للنمسا فى البحر الادرياتى — مكامن وأوكار تلجأ اليها عند الحاجة وتصلح من أمورها، وكان من نتيجة ذلك أن بلغت خسائر الحلفاء بسبب الغواصات الالمانية فى البحر المتوسط نصف مجموع الخسائر التى لحقتها جميعاً، وكان من نتيجتها كذلك أن الحلفاء — على رغم تفوقهم البحرى — وجدوا أنفسهم مضطريين إلى توجيه خطوط ملاحتهم الشرقية إلى رأس الرجاء الصالح وترك البحر المتوسط مؤقتا حتى تدبر الوسائل لمكافحة خطر الغواصات.

وكما قلل سلاح الغواصات من شأن جبل طارق كان لسلاح الطيران واختراع المدافع البعيدة المدى تأثيرهما فيما تتعرض له الصخرة من اخطار محققة وخاصة إذا ساءت الصلات بين بريطانيا وحكومة اسبانيا. ولما كانت أرض الجبل لا تصلح لاقامة قاعدة جوية عليها فقد استعاضوا عن ذلك بحاملات الطائرات وتفادوا أخطار الجو بالاقامة فى الكهوف المنحوته فى الجبل فاعدوا عدتهم إذا حزب الأمر وضيق الاسبان الخناق على أهل الجبل فبثوا الالغام فى البرزخ الضيق الذى يصل بين أرض اسبانيا والجبل لينسفوا هذا البرزخ حين يبدو لهم الخطر، وبذلك تصبح القلعة الحصينة جزيرة مستقلة تشرف على المضيق.

ويساعد بريطانيا على تشبثها بالبقاء فى هذا المأزق حرصها على سمعتها الدولية من جهة ورغبتها من جهة أخرى فى الاحتفاظ بالقواعد التى تحرس طريقها إلى الشرق مبتدئة من جبل طارق إلى مالطه، إلى قبرص، فقناة السويس، فعدن، ثم علمها بأن أهالى الجبل جميعا قد تبرطنوا فلا يكاد أحد من سكانه ينتمى إلى اسبانيا. وتعتمد انجلترا فى دعوى الاحتفاظ بجبل طارق على أن الانجليز قد قضوا فيه من الزمن ما يساوى تقريباً الزمن الذى مكثه الاسبان به فليس لهم إذن أمانى قومية تدفعهم إلى الانتقاض على الحكم الانجليزى وليس ثمة تيارات وطنية تدفعهم إلى العصيان والثورة.

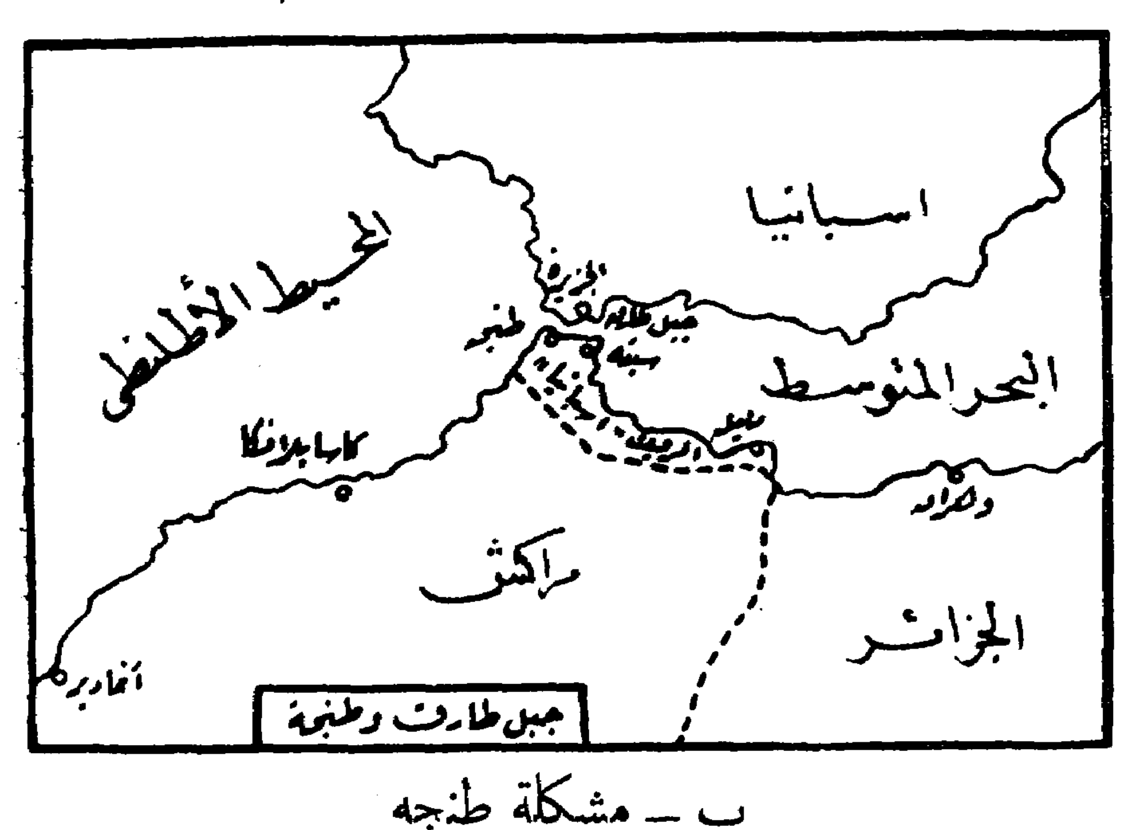
ولكن الاسبان الوطنيين يعتبرون وجود الانجليز فى جبل طارق جرحا لكرامتهم، وليس من الممكن أن يقيموا على هذا الضيم طويلا فان جبل طارق جزء لا يتجزأ من بلادهم ولهم وفقا للقانون الدولى حق السيطرة على سواحل بلادهم والمياه التى تلامسها إلى مسافة ستة أميال. وقد حاول بريمو ده ريفيرا Primo de Rivera دكتاتور اسبانيا فى سنة ١٩٢٣ أن يقنع الانجليز بالانسحاب عن الجبل على أن يتعوضوا منه بسبتة على الساحل الأفريقى، وقام نفر من كتاب الانجليز وغيرهم يبحثون الموضوع وينشرون آراءهم علنا فى صالح هذا التبادل ولكن ذلك لم يجد شيئاً.

وقد اقترح بعضهم انشاء نفق يصل بين شبه الجزيرة وشمالى افريقية فظهر من بحث الموضوع أن مياه المضيق من العمق بحيث يجب أن يكون طول النفق ٣٥ كيلو مترا على الأقل وكان ذلك سببا للعدول عن الفكرة.

ولما قامت الحرب العالمية الثانية لزمت اسبانيا الحيدة فى الظاهر ولكنها آزرت قوات المحور بطرق مختلفة، وسنحت لهتلر فى بعض مراحل الحرب فكرة مرور قواته داخل اسبانيا ومنها تعبر المضيق إلى شمالى أفريقية. وقد أغرى الجنرال فرنكو زعيم اسبانيا الحالى بقبول هذا العرض ولاسبانيا فى مقابل ذلك جبل طارق وان توسع منطقتها فى مراكش على حساب فرنسا، ولكن الحلفاء احبطوا هذا التدبير فسارعوا باحتلال أفريقية الشمالية وبذلك ضاعت الفرصة على الدكتاتورين.

وقد برهنت الحرب العالمية الثانية على أن فائدة جبل طارق لاتعدو ان تكون معقلا أو حصنا منيعاً، فلم ينتفع به الحلفاء كقاعدة جوية أو بحرية كما انهم لم ينتفعوا كثيراً بجزيرة مالطه لقربها من قواعد ايطاليا الجوية وقد ركزوا قواتهم البحرية فى ميناء الاسكندرية. ولكن هذا كله لم يكف لجعل بريطانيا تحيد عن سياستها القديمة فتنزل عن قاعدتها بجبل طارق ذلك لأن تفوقها البحرى يقتضيها ان تمسك بمفتاح البوابة الغربية للبحر المتوسط لاسيما بعد أن نبذت امريكا سياسة العزلة وبدأت تتجه بسياستها الدولية نحو الشرق عن طريق البحر المتوسط. كذلك تأبى روسيا إلا أن تكون لها قواعد فى البحر المتوسط كغيرها. ويهم بريطانيا إلا تضيع من يدها مفاتيح

البوابات جميعاً . وهكذا يتشبث البريطانيون بالسياسة الحربية القديمة التي تقوم على أساس الخطط الثنائية البرية والبحرية ويأبون أن يعترفوا بالخطط الثلاثية التي تعطى القوة الجوية أهمية لا تقل عن أهمية السلاحين الأولين أن لم تفقهما .



ب — مشكلة طنجه

لقد شاءت المصادفات السياسية العجيبة أن تخدم فرنسا فى القرن التاسع عشر خدمة عظيمة لم تكن تخطر لها على بال وخاصة بعد ضياع مستعمراتها فى أمريكا وآسيا وبعد انهزامها على يد روسيا فى سنة ١٨٧٠ إذ وأتتها الفرصة فأقامت على ساحل أفريقية الشمالى امبراطورية فرنسية عزيزة الجانب منيعة القواعد . وقد بدأت باحتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ ثم أعلنت حمايتها على تونس سنة ١٨٨١ ومن هذين الأقليمين تغلغل النفوذ الفرنسى إلى مراكش .

ولما كانت مراكش على مقربة من بوابة جبل طارق ومنها تستطيع فرنسا إذا خلا لها الجو فى منطقة المغرب الأقصى أن تمسك بأحد مصراعى تلك البوابة العظيمة فى مواجهة جبل طارق منافسة أو مهددة — فقد قامت بريطانيا تؤازرها بعض الدول ذوات المصالح فى البحر المتوسط تحول دون تحقيق مآرب فرنسا ،

واشتدت أسباب الخلاف والتنافس بين الدولتين فى أواخر القرن التاسع عشر فكانت فرنسا تعرقل مساعى انجلترا فى مصر والسودان وكانت انجلترا والمانيا تعرقلان مساعى فرنسا فى أفريقية الشمالية حتى أوشك الخلاف بينهما أن يفضى فى النهاية إلى الحرب على أثر حادث فاشودة سنة ١٨٩٨ . غير أن سحب الخلاف ما لبثت أن تبددت بفضل مساعى الوزير الفرنسى الشهير دلكاسيه Delcassé الذى قال « إن ألمانيا هى الدولة الوحيدة التى يجب أن تخشاها فرنسا وان أمن فرنسا ونجاتها لا يتحققان إلا على أساس معاهدة تحالف مع بريطانيا من جهة وروسيا من جهة أخرى » وكان الود بين انجلترا وألمانيا قد تعكر صفاؤه فسارع الملك ادورد السابع إلى تمهيد الطريق لعقد الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا فى إبريل سنة ١٩٠٤ وهو أساس التحالف القائم بين الدولتين حتى اليوم .

وبمقتضى هذا الاتفاق ترك لانجلترا أن تنفذ برنامجها فى وادى النيل كما ترك لفرنسا أن تعمل حرة فى مراكش ، ولكن بتحفظين مهمين تفاهمت عليهما الدولتان : الأول أن ساحل مراكش الشمالى الغربى المواجه لجبل طارق لايدخل فى المنطقة الفرنسية بل يحتفظ به لاسبانيا ، وهى الدولة الضعيفة التى لاتقوى على مناهضة انجلترا أو الكيد لها ، والثانى أن ميناء طنجه يصبح ميناء دولياً محايداً فتزال حصونه وتهدم قلاعه ويمنع تسليحه . وكان سلاطين بلاد المغرب قد أرادوا أن يحولوا دون توغل ممثلى الدول فى داخل أراضى السلطنة فقرروا أن يكون مقامهم فى ميناء طنجه بمنأى عن العواصم الوطنية ، فكأنما كان هذا أيذانا باصطباغ طنجه بالصبغة الدولية من بعد .

وكانت اسبانيا فى تلك الفترة قد نهضت من الكبوة التى نالتها على أثر انهزامها فى الحرب الأمريكية الاسبانية سنة ١٨٩٨ وضياع جزر الفلبين وكوبا وبورتوريكو من يدها وصممت أن تصلح من حالها وتعوض بعض ما فقدته فى الداخل والخارج من ثروة ونفوذ فأحدثت انقلاباً اقتصادياً صناعياً نهضت على أثره البلاد نهضة شاملة . ثم ما لبثت أن أدركت أنها أقرب دول أوربا إلى مراكش وأن الصلات

بينها وبين بلاد المغرب كانت فى بعض أحقاب التاريخ من الوثاقة بدرجة جعلت من البلدين وحدة سياسية . ولم يكن هذا الشعور الذى يختلج فى صدور الاسبانيين خافياً على فرنسا ، فلم تجد بدأ من ارضاء اسبانيا جارتها وقريبتها اللاتينية البوربونية فعقدت معها أيضاً معاهدة فى اكتوبر سنة ١٩٠٤ وافقت فيها فرنسا على أن يكون لاسبانيا منطقة نفوذ فى الشمال الغربي من بلاد المغرب ، مقابل اعتراف اسبانيا بمركز فرنسا الخاص فى مراكش .

وما كادت ألمانيا تعلم بخبر المعاهدتين حتى ثارت ثائرتها واعتبرت اتفاق الدول الثلاث فيما بينهم واغفالهم شأنها فى أمر دولى عظيم الخطر كهذا اهانة للشرف الألمانى الرفيع لا يغسلها إلا الدم أو التلويح بالسيف ، فقام وليم الثانى امبراطور ألمانيا وهو إذ ذاك فى أبان سطوته وجبروته — وتحدى فرنسا وانجلترا وأعلن أنه سيزور طنجه بنفسه ليبرهن للعالم على أن سلطان مراكش لا يزال ملكا مستقلا حقيقاً بزيارة امبراطور ألمانيا ، وان انجلترا وفرنسا لا تستطيعان أن تفرضا ارادتهما على العالم فى غيبة ألمانيا . وفعلا نزل الامبراطور بطنجه فى مارس سنة ١٩٠٥ فى أثناء رحلة له فى البحر المتوسط وحمل سلطان مراكش على أن يدعو الدول إلى مؤتمر دولى عقد فى يناير سنة ١٩٠٦ فى « الجزيرة » أحد موانىء اسبانيا الجنوبية تجاه جبل طارق لبحث موضوع مراكش . وفى خلال ذلك سقط « دلكاسيه » وزير خارجية فرنسا الذى عقد ذلك الاتفاق الودى ضد ألمانيا فكان سقوطه أكبر نصر سلبي صادفته سياسة وليم الثانى امبراطور ألمانيا

غير أن مؤتمر الجزيرة لم يحقق آمال ألمانيا فقد انحازت ايطاليا إلى جانب انجلترا ولم تستفد ألمانيا كثيراً من وجود النمسا إلى جانبها وانتهى المؤتمر بتقرير سياسة « الباب المفتوح » فى مراكش مع المساواة الاقتصادية لجميع الدول كما قرر لفرنسا مركزاً خاصاً فى مراكش لتجاور أراضيهما وتقارب مصالحهما . وشجع هذا القرار فرنسا على مواصلة سياسة التدخل فى مراكش معتمدة على صداقة بريطانيا وعلى سكوت ايطاليا بعد أن أعطيت طرابلس وجزر الدوديكانيز .

وفى سنة ١٩١١ دخلت القوات الفرنسية فاس فتحركت ألمانيا محاولة أن تلقى الرعب فى قلب فرنسا وأرسلت سفينة حربية أمام ميناء « اغادير » على ساحل الاطلنطى فتراجعت فرنسا وطلبت المعونة من الحكومة الانجليزية . فأعلنت انجلترا بلسان وزيرها لويد جورج ان انجلترا ستقف إلى جانب فرنسا وانها لن تسمح بنزول الألمان فى أية بقعة من الشمال الغربى لأفريقيه . فهدأت الحال هدوءاً ما ، وسعت فرنسا إلى اكتساب رضا ألمانيا رأساً وقدمت لها لقمة دسمة سائغة من أقليم الكنغو الفرنسى مقابل اعترافها بمركز فرنسا الخاص فى مراكش وبذلك انتهت الأزمة المغربية الثانية التى كادت تضرم نار الحرب بين الدول وتقدم الحرب العالمية الأولى ثلاث سنوات قبل موعدها المحتوم .

ولم تلق فرنسا بعد ذلك فى بلاد المغرب اعتراضا يؤبه له فأعلنت حمايتها سنة ١٩١٢ ، وبذلك انقسمت مراكش إلى ثلاث مناطق : المنطقة الكبرى وتخضع للنفوذ الفرنسى والمنطقة الريفية وتخضع للنفوذ الأسبانى ولا تزيد مساحتها على ١٥٫٠٠٠ ك . م مربع وعدد سكانها ٧٥١٫٠٠٠ وبها ميناء « سبتة » الذى يضارع جبل طارق فى مناعته وإن كان فى يد أسبانيا لا أهمية له . وفى هذه المنطقة قبائل الريف المشهورون بشجاعتهم وحسن بلائهم ضد الأسبان وقد دوخ زعيمهم الأمير عبد الكريم قواد أسبانيا من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٢٧ ولولا تعاون الحكومتين الفرنسية والأسبانية ضـــده لقضى عبد الكريم على النفوذ الأسبانى فى شمال أفريقية . ثم منطقة طنجه الدولية ولا تزيد مساحتها على ٢٢٥ ميلا مربعا وسكانها نحو ٨٠٫٠٠٠ أكثرهم مسلمون ومنهم ٨٠٠٠ من اليهود و ١٤٠٠٠ من الأسبان . والمناطق الثلاث تخضع خضوعا إسميا لسيادة سلطان مراكش ويمثله « خليفة » فى المنطقه الريفية و « مندوب » فى طنجه

وقد حاولت الدول أن تقرر نظاما ثابتا لطنجه خارج نطاق الحمايتين الفرنسية والأسبانية لولا أن نشبت الحرب العالمية الأولى ، ثم شغلت الدول بعدها فترة بمشاكل السلم فلم تستفق إلى طنجه إلا فى سنة ١٩٢٣ وكانت فرنسا تطمح

— عقب الحرب العالمية الأولى — إلى تحقيق أمنيتها فى ضم طنجه إلى منطقة الحماية الفرنسية ولكن انجلترا وأسبانيا عارضتا فى ذلك واستقر الرأى فى النهاية على وضع نظام دولى محايد خضعت له طنجة إلى سنة ١٩٤٠ حين تشجع فرنسكو على أثر انكسار فرنسا فى الحرب العالمية الثانيه فأعلن انقضاء النظام الدولى وضم طنجه إلى منطقة النفوذ الأسبانى .

ويقضى النظام الذى وافقت عليه الدول الثلاث فرنسا وانجلترا وأسبانيا فى باريس فى ديسمبر سنة ١٩٢٣ بأن يكون لطنجه مجلس تشريعى مكون من ٢٦ عضوا تمثل فيه الجاليات الأجنبية والمسلمون واليهود كل طائفة بحسب أهميتها ، وتكون السلطة التنفيذية بيد هيئة المراقبة التى تتألف من ممثلى الدول الثلاث ومندوب السلطان ، ولهذه الهيئة بأكثرية الآراء حق منع تنفيذ القرارات التى يصدرها المجلس التشريعى . ويعين للميناء حاكم إدارى فرنسى له مساعدان أحدهما أسبانى والآخر بريطانى ، وللأجانب فى طنجه محاكم مختلطة تقضى بينهم ، أما المسلمون واليهود فلهم محاكمهم الخاصة . ولم تشترك فى هذا النظام فى أول الأمر إيطاليا ولا أمريكا ولا روسيا ثم اشتركت إيطاليا فى سنة ١٩٢٨ بمساعى انجلترا ليكون صوتها وصوت أسبانيا إلى جانبها حين ينشأ نزاع بينها وبين فرنسا ولم يقع فى وهم انجلترا قط أن تنحاز إيطاليا وأسبانيا إلى صفوف أعدائها

ولما كانت الجالية الأسبانية فى طنجة هى أكثر الجاليات الأجنبية عددا فقد جعل مركز أسبانيا فى طنجة يقوى على مر الزمن وخاصة بعد قيام الحكم الجمهورى بها سنة ١٩٣١ فعين أسبانى لقيادة البوليس وعين وكيل أسبانى للجمارك كما عين أسقف أسبانى للرياسة الدينية الكاثوليكية وزيد عدد ممثليها فى اللجنة التشريعية . ولم تفد طنجة كثيرا من نظامها الدولى بل صارت مباءة لكل مفاسد النظم الدولية المعروفة من منازعات واستهتار وإفلات من حكم القانون والنظام . فلا عجب إذن أن يطرد تأخر طنجه التى كانت أعظم ثغور بلاد المغرب وان تغلبها على مكانتها الموانىء الجديدة التى أنشئت فى المنطقة الفرنسية مثل الدار البيضاء ، أو كاسا بلانكا .

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية كانت الثورة الوطنية فى اسبانيا قد انتهت بفوز الوطنيين بزعامة فرنسكو ضد الجمهوريين وكانت دولتا المحور قد آزرتا فرنسكو بالعدد والرجال والمدافع والطائرات وباتت المانيا تترقب الفرصة التى تعلن فيها اسبانيا انضمامها إلى جانب المحور ، ولكن اسبانيا كانت قد انهكتها الحرب الأهلية فأعلن فرنسكو الحياد والتزمه طوال الحرب، غير أنه كان حياداً مشرباً بروح العطف على دولتى المحور. وقد تجلى هذا العطف فى نواح عدة أهمها أرسال نجدة من متطوعى الاسبان لمعاونة المانيا فى قتالها ضد روسيا والرضا باتخاذ الغواصات الالمانية بعض الموانىء الاسبانية مكامن وملاجىء وتتزود منها سرا عند الحاجة . لذلك لم يكن مستغرباً أن ينتهز فرنسكو فرصة انهيار فرنسا فى صيف سنة ١٩٤٠ فيعلن انفراد اسبانيا بالحكم فى طنجه وانتهاء النظام الدولى بها .

واستمرت طنجه تتبع اسبانيا مباشرة إلى أن انتهت الحرب بهزيمة دولتى المحور وحينئذ طلبت بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة إلى فرنسكو فى سبتمبر سنة ١٩٤٥ سحب قواته من طنجه ، وعلى ذلك عاد النظام الدولى إلى طنجه كما كان قبل الحرب العالمية الثانية .

ولما كانت روسيا مصممة أن تأخذ مكانها إلى جانب الدول الغربية فى الشئون الدولية فقد طالبت باشتراكها إلى جانب الولايات المتحدة فى اللجنة التى الفها الحلفاء لبحث موضوع طنجه ولم تكن روسيا ولا الولايات المتحدة من الدول المشتركة من قبل فى نظام طنجه الدولى ، وقد قبل طلب روسيا على حين لم تدع اسبانيا إلى الاشتراك . وقد قرر الحلفاء ابقاء النظام الدولى بطنجه حتى يبحث موضوعها بحثا جديداً فى مؤتمر خاص قبل حلول أجل النظام الحالى فى سنة ١٩٤٨ وكان هذا النظام قد تجدد من تلقاء نفسه سنة ١٩٣٦ حين كانت الدول مشتغلة بأزمة ايطاليا والحبشة .

ولما كان النزاع الحالى بين كتلتى الدول الشرقية والغربية قد بلغ أشده فأن الأمل فى انعقاد مؤتمر دولى خاص تبحث فيه مسألة طنجه يبدو الآن أمراً ضعيفا بعيد الاحتمال .

ويلوح أن روسيا عنـد ما تحين الفرصة لن تـكتفى باخراج قوات فرنـكو من طنجه دون الجلاء عن مراكش الاسبانية كلها إلا إذا تغير نظام الحكم القائم فى اسبانيا . ولا تزال حكومة السوفيت تذكر بمرارة انتصار الوطنيين فى اسبانيا على حلفائها الجمهوريين الشيوعيين كما انهـا لم تنس الفرقة الزرقاء التى الفها فرنـكو من متطوعى الاسبان لمعاونة قوات المحور فى ميادين روسيا

وقد تسنح الفرصة عند مايعاد بحث نظام طنجه لأن يسترد سلطان مراكش نفوذه وسيادته لا فى طنجه فحسب بل فى مراكش كلها . وقد بدأ الوعى القومى يقوى ويشتد فى بلاد المغرب على أثر انتهـاء الحرب العـالمية الثانية وبات المراكشيون يترقبون الفرص لاسترداد حقوقهم . ومن اثارذلك أن سلطان مراكش نفسه هو الذى أصـدر باسمه المراسيم الجديدة المؤقتهالخاصة بطنجه ومنها تمثيل الولايات المتحدة والسوفيت فى هيئة المراقبة وابطالالمرسوم الصادر فى سنة ١٩٢٨ بشأن اشتراك ايطاليا فى المراقبة .

الفصل السادس

بوابات البحر المتوسط

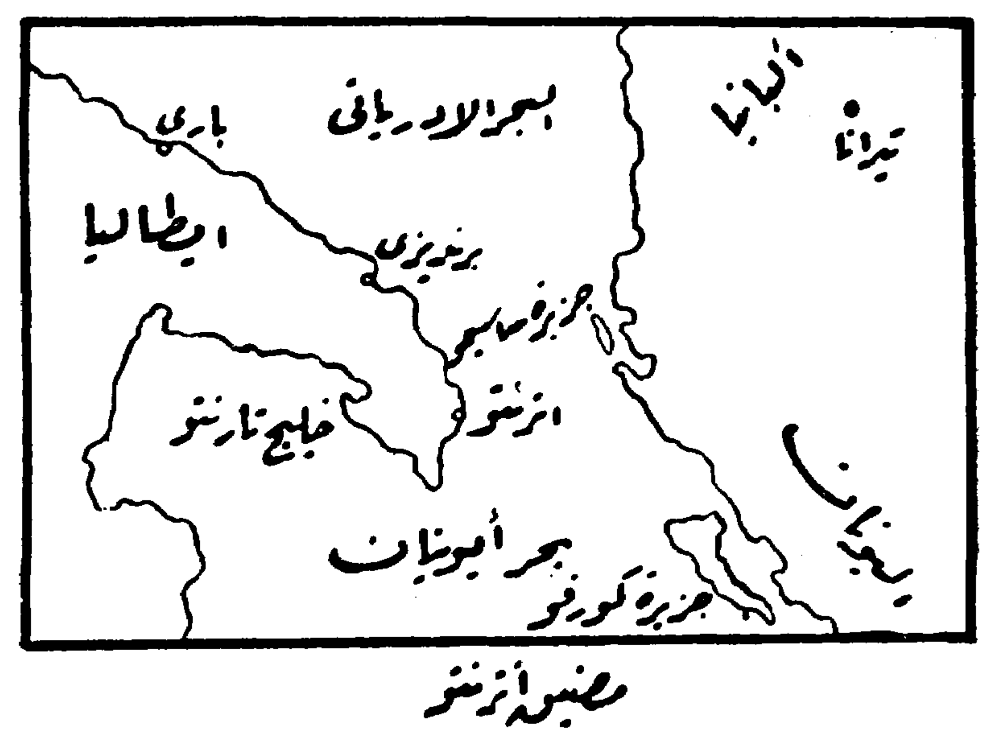
مضيق اترنتو ـ البحر الأدرياتى ومشكلة تريستا

إذا وقفت عند اترنتو آخر موانئ ايطاليا فى اقصى الشرق من الجنوب، وسرحت الطرف فى عرض المضيق المعروف باسم هـذا الميناء والذى يفصل ايطاليا عن البلقان استبانت لك من وراء الأفق البعيد ظلال الجبال المرتفعة الواقعة على الساحل البلقانى بألوانها الجذابة التى تختلط بالسحب فتجعل منها لوحة فنية رائعة الجمال .

ومع أن المسافة التى تفصل جانبي المضيق لاتقل عن ٤٧ كيلو مترا فان السيطرة على هذا المضيق خير منها فى مضيق جبل طارق ذلك لأن مياه البحر فى منطقة البحر الادرياتى أقل عمقا ، فبينما تستطيع الغواصات اختراق مضيق جبل طارق بسهولة كما اثبتت تجارب الحربين العالميتين فان الغواصات المعـادية لا تستطيع الافلات من الشباك التى توضع عند مدخل اترنتو .

وليس لمضيق اترنتو أو للبحر الادرياتى أهمية ساسية تذكر بالقياس إلى أهمية بوابتى البحر المتوسط الشرقية والغربية عند قناة السويس وجبل طارق . ولـكن تاريخ العصور الوسطى قد جعل للبحر الأدرياتى شأنا فاق به أهمية البحر المتوسط نفسه . فقد ظهرت مدينة البندقية المشرفة على البحر الأدرياتى من عل واتسع نفوذها وتوثقت الروابط التجارية بينها وبين بلاد المشرق منذ بعيد، فكانت سفنها أول شيء حمل إلى أوربا كنوز الشرق من حرير وجواهر وأبسطة وجلود وعطور وتوابل وكانت هـذه النفائس تنقل من البندقية إلى فينا وأجزبرج وباريس ومنها إلى بلدان أوربا المختلفة . ومن البندقية قامت جماعات كثيرة من الصليبيين مزودة ببركات البـابا ودعواته لانتزاع البقاع المقدسة من أيدى المسلمين فكانت سفن

البندقية تحملهم فى البحر الأدرياتى وتخترق بهم مضيق اترنتو ثم تتجه بهم شرقا إلى البلاد المقدسة التى طالما أريقت فى سبيلها الدماء رخيصة من لدن أهل الشرق والغرب جميعاً . وكانت سفن البندقية أيضاً هى التى تحمل من نجا منهم من الموت لتعود بهم إلى أوطانهم مخذولين فقراء إلا من رضا الله أو من رضا البابا أو من الذكريات والأحاديث عن الشرق وروائعه .



مضيق اترنتو

ولقد أفادت جمهورية البندقية من هذه الرحلات الصليبية وما جرت إليه من مغانم تجارية وفوائد كبرى، فجعلت تمد نفوذها على ساحل دلماسيا وجزر الأيونيان وقبرص وبحر إيجة حتى صارت لها الزعامة فى الملاحة والتجارة فى البحر المتوسط. وكانت البندقية تقيم فى كل عام مهرجانا بحرياً مقدساً تحتفل فيه بتفوقها على البحر فيقدم البابا « للدوق » أو لرئيس حكومة البندقية خاتما يبـــاركه فيقذفه الدوق أثناء الحفل فى البحر ليكون رمز التوثيق والصلة بين المدينة والبحر ، كما يكون خاتم الخطبة بين الزوجين ، كأنما خطبت البندقية البحر لنفسها وارتبطت إليه برباط الزواج المقدس .

وفى مستهل العصور الحديثة زحف الأتراك غرباً وجعلوا يناهضون نفوذ البندقية ثم جاءت الاستكشافات الحديثة فى العالم الجديد وكان برتلميو دياز البرتغالى

قد ساح حول الرجاء الصالح وجاء فاسكودا جاما بعده ووصل عن الطريق نفسه إلى الهند فى نهاية القرن الخامس عشر . فتحول الاهتمام من ذلك الوقت عن البحر المتوسط إلى المحيط الاطلنطى والمحيط الهندى وتضاءلت تبعاً لذلك أهمية جمهوريات الموانىء الايطالية . وأخذ نفوذ الأتراك يقوى ويمتد فى البلقان وفى البحر المتوسط حتى وقفت جيوشهم أمام أسوار فينا وأصبح ساحل دلماسيا خاضعاً للنفوذ النمسوى والتركى .

ثم قامت الثورة الفرنسية وظهر نابليون بونابرت فقاد جيوشه لغزو ايطاليا فانهارت جمهورية البندقية وعقد نابليون مع النمسا صلح كامبوفورميو سنة ١٧٩٧ ومن شروط هذا الصلح اتضحت نيات بونابرت وسياسته نحو الشرق فقد ترك البندقية للنمسا مقابل نزول النمسا لفرنسا عن الأراضى المنخفضة والاحتفاظ لفرنسا بجزر الأيونيان عند مدخل البحر الادرياتى لتتخذ منها فرنسا قواعد تزحف منها نحو الشرق . ولم يكد نابليون يفرغ فعلا من صلح كامبوفورميو حتى سارع بأعداد مشروعه العظيم بغزو مصر .

غير أن سلطان فرنسا لم يدم طويلا لا فى مصر ولا فى جزر الأيونيان التى احتلها الانجليز وفقا لقرارات مؤتمر فينا وبقى التفوق فى البحر الادرياتى للنمسا التى حلت محل جمهورية البندقية القديمة . وظلت الحال كذلك حتى قامت حركة الوحدة الايطالية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر واحتدم النزاع بين بيدمنت أو إيطاليا الحديثة والنمسا، ولم تدخل البندقية فى نطاق الوحدة إلا بعد هزيمة النمسا أمام بروسيا فى سنة ١٨٦٦ فكان ضم البندقية إلى إيطاليا ثمناً لحيدتها فى الحرب . ومنذ ذلك الوقت أصبح التفوق فى البحر الادرياتى مشتركا بين النمسا وإيطاليا . وقد كانت امبراطورية النمسا بالاتحاد مع المجر تملك ساحل دلماسيا وشبه جزيرة إستريا بما فى ذلك موانىء تريستا وبولا وفيومى وجزر البحر الادرياتى أما إيطاليا فكان لها الساحل الغربى للبحر الادرياتى ولها فى الشمال الغربى ميناء البندقية .

ونشبت الحرب العالمية الأولى فأعلنت إيطاليا حيدتها فى أول الأمر رغم ارتباطها بدولتى الوسط بالمحالفة الثلاثية ثم تحولت تدريجا من الحيدة إلى مؤازرة الحلفاء الذين استمالوها الى جانبهم بما قدموا لها من مزايا أقليمية مغرية طالما تطلعت إيطاليا الى تحقيقها . فقد أذن لها الحلفاء بمعاهدة لندن السرية فى سنة ١٩١٥ فى أن تضم اليها بعد كسب الحرب تريستا وشبه جزيرة استريا ودلماسيا بما فى ذلك جزر البحر الادرياتى كما قرروا حيدة البانيا بعد الحرب على أن تمثلها إيطاليا أمام الدول الأجنبية وبذلك يصبح البحر الادرياتى بحيرة إيطالية .

ولما انتهت الحرب بانتصار الحلفاء باتت ايطاليا تترقب تنفيذ المعاهدة بحذافيرها ولكن عاملا مهما جديداً كان قد ظهر فى الأفق بدخول الولايات المتحدة الحرب فى سنة ١٩١٧ وإعلان الرئيس ولسون مبادئه الاربعة عشر وحق الشعوب فى تقرير مصيرها قائلا « إن الأقاليم والشعوب لاتنتقل من يد إلى أخرى أو مملكة إلى أخرى كما لو كانت سلعا تتساوم بشأنها الدول ، بل تقوم التسويات الاقليمية بين الدول على أساس خير السكان أنفسهم ووفق رغباتهم »

فلما انعقد مؤتمر الصلح فى فرساى أقاموا على انقاض امبراطورية النمسا دولاً جديدة منها يوغسلافيا التى جمعت بين الصرب وكرواتيا والجبل الأسود والبوسنة والهرسك والشعب السلوفينى جنوبى البحر ، وبذلك أصبح المملكة الجديدة ساحل دلماسيا شرقى البحر الادرياتى . وعبثا طالبت ايطاليا بتنفيذ شروط معاهدة لندن بضم دلماسيا اليها واحتدم النزاع بين ايطاليا والحلفاء حتى غادر المندوب الايطالى مؤتمر الصلح غاضبا وعاد الى بلاده . غير أن الحلفاء سرعان مااسترضوا ايطاليا بضم أقليم فينزيا جوليا اليها فأصبحت تريستا إيطالية بعد أن ظلت أكثر من خمسة قرون تابعة لأسرة هابسبرج وقد كانت للنمسا كالرئة للجسم فجعلت تهتم بشئونها وتجارتها حتى غطت أهميتها على البندقية وأصبحت سيدة البحر الأدرياتى غير منازعة

ثم نشأ بين إيطاليا ويوغوسلافيا خلاف شديد بشأن ميناء فيومى الذى كان تابعاً للمجر فقد قرر المؤتمر ضمه الى يوغوسلافيا ولكن « دانتزيو D'Annuzio » الشاعر

الإيطالى تطوع على رأس حملة أهلية لاحتلال فيومى وأقام فيها حكومة مؤقتة سنة ١٩١٩ مستنداً إلى أكثرية الطليان فى الميناء . وظل النزاع قائماً بين الدولتين بشأنها الى أن تولى الفاشيون الحكم فعقد مسولينى مع يوغسلافيا إتفاق روما سنة ١٩٢٤ و بمقتضاه أصبحت فيومى وزارا تابعتين لإيطاليا وأخذت يوغسلافيا ضاحية سوساك القريبة من فيومى. وقد احتفظت ايطاليا بجزر البحر الادرياتى واتخذتها قواعد ترقب منها أسطول يوغسلافيا وحركاته كما كانت فرنسا ترقب من جزيرة قورسقه حركات الأسطول الايطالى . وعلى ذلك أصبحت السيادة فى بحر الادرياتى بعد الحرب العالمية الأولى موزعة توزيعا غير عادل بين ايطاليا ويوغسلافيا ، إذ كانت القوات اليوغسلافية امام تفوق إيطاليا محصورة فى البحر الادرياتى كما كان الاسطول الايطالى نفسه كالمحصور فى البحر المتوسط امام تفوق بريطانيا وفرنسا فيه .

ولقد حاولت إيطاليا فى أول الامر أن تتقرب من دول البلقان لتسيطر على أسواقها وتتزعم شعوبها، وعقد مسولينى لهذه الغاية معاهدات صداقة مع حكومات البلقان المختلفة . غير أن السياسة التى سارت عليها تركيا واليونان والتى أفضت إلى تكوين ميثاق البلقان سنة ١٩٣٤ بين دوله الاربع تركيا واليونان ويوغسلافيا ورومانيا ـ هذه السياسة أفسدت على إيطاليا خطتها كما أفسدها أيضا انحياز يوغسلافيا إلى جانب فرنسا واطراد نمو العلاقات الاقتصادية بين ألمانيا ودول البلقان لذلك تراجعت ايطيا وعدلت سياستها نحو البلقان واكتفت بأن أوثقت علاقاتها بألبانيا حتى كادت تبتلعها ثم لم تلبث أن ابتلعتها فعلا قبل نشوب الحرب العالمية الثانية .

وكان مسولينى عظيم الاهتمام بسواحل البحر الارادياتى ولم يكتف بتحصين ميناء دراج وجزيرة ساسيمو عند مدخل خليج فولونا بألبانيا، بل اهتم كذلك بالساحل الغربى وهو بطبيعته ساحل قحل قليل الموانى فحصن ميناء برنديزى وانشأ فى « بارى » جامعة خصصها لاستقبال الطلاب القاصدين اليها من البلقان ومن بلاد المشرق، وأقام فيها محطة للاذاعة جعلها مصدراً للدعاية الإيطالية ضد بريطانيا فى الشرق العربى وكانت هذه الدعاية من العوامل التى أوغرت صدر بريطانيا ضد

إيطاليا قبل الحرب العالمية الأخيرة . وقد بلغ من اهتمام مسولينى بهذه المنطقة انه كان يعقد فيها فى كل عام مهرجانا يعرض فيه كل ما يتصل بشئون الشرق ، وكان يخطب الناس فى هذه المهرجانات . وقال فى أحدها مرة ان « بارى » هى الخاتم الذى يربط بين الشرق والغرب برباط الزواج المقدس فكأنه بذلك كان يجدد ذكرى الحفل الدينى الذى كانت تقيمه البندقية فى أوج مجدها ويقذف فيه دوقها بالخاتم إلى البحر .

ولما اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية كانت إيطاليا تتحكم فى البحر الادرياتى وكانت قد سطت قبل ذلك على ألبانيا فى صبيحة الجمعة الحزينة من عام ١٩٣٩ فشردت مليكها وحكومتها وضمت البلاد إلى تاج إيطاليا فاتخذت منها قنطرة تعبر عليها جيوشها الى بلاد اليونان . ولكن ذلك الشعب الأبى الصغير لم يلبث أن استرعى إعجاب العالم ببسالته واستماتته فى رد قوات الطاغية ودحرها حتى اضطر هتلر إلى المبادرة لنجدة حليفه وإرسال قواته لاختراق البلقان واحتلال اليونان وكريت وبحر إيجة .

ولما كانت قوات المحور فى أول سنى الحرب متفوقة فى الجو بحيث كانت تستطيع من قواعدها فى سردانية وصقلية وليبيا وكريت أن تتحكم فى ميناه البحر المتوسط وملاحته فقد اعتبر البحر المتوسط مغلقا دون الملاحة ، واضطر الحلفاء إلى تسيير سفنهم الى الشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح والمحيط الهندى والبحر الاحمر . أما البحر المتوسط فقد استمر مغلقا الى قرب نهاية الحرب . على أن الاسطول البريطانى لم يقف عاجزاً أمام الاسطول الايطالى ولكن الاسطول الأخير لم يكن ليجرؤ على الظهور خارج قواعده ، فكان الانجليز يستعينون بالسلاح الجوى فى الانقضاض على السفن الايطالية الحربية فى مخابئها فيحطمونها تحطيما وبذلك استطاع الانجليز أن يحملوا الايطاليين خسائر جمة فى موقعتى تارنتو (نوفمبر سنة ١٩٤٠) جنوبى ايطاليا وماتبان غربى اليونان (مارس سنة ١٩٤١) على أن هذه الانتصارات لم تؤد إلى فتح البحر المتوسط وتوابعه للملاحة ما دامت

قوات المحور محتفظة بقواعدها الجوية فى إيطاليا وجزر بحر ايجه .

ولما انتهت الحرب تغيرت الأوضاع على سواحل البحر الادرياتى فقامت فى يوغسلافيا وفى إلبانيا حكومتان سرعان ما قضتا على نظام الملكية فيهما واستندتا فى حكمهما على العناصر التى كانت تقاوم قوات المحوروالتى كانت تعتنق المبادىء الشيوعية بمساعدة حكومة اتحاد السوفييت . وقد سارعت القوات اليوغسلافية بزعامة الجنرال تيتو إلى احتلال اقليم فنيزيا جوليا الذى كانت ايطاليا قد ضمته فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . وفى مايو سنة ١٩٤٥ دخلت القوات البريطانية الأمريكية ميناء تريستا وعلى أثرهم دخل اليوغسلافيون وقد أثاروا بدخولهم ضجة هائلة . وتوترت على أثرها العلاقات بين الحلفاء واليوغسلافيين حتى خيف أن ينشب القتال بينهما فتعيد تريستا سيرة فيومى بعد الحرب العالمية الأولى ولكن الأزمة لم تلبث طويلا وخضع الميناء لأوامر الحلفاء .

ومن أهم العوامل التى تؤثر اليوم فى ميناء تريستا أن سكانها وسكان المدن والموانىء فى أقليم فنيزيا جوليا معظمهم من الطليان والأقلية فيها من السلوفين على عكس الحال بين سكان القرى والريف . والطليان فى هذه المنطقة هم أصحاب الأعمال والصناعات الكبرى ويشتركون مع أهل البلاد من السلوفين والكروات فى المذهب الكاثوليكى، ولكنهم على رغم كثرتهم ومكانتهم الاقتصادية ليست لهم فى المنطقة تقاليد أو أصول راسخة فان معظمهم من النازحين إليها فى طلب الرزق لذلك كان أكثرهم ممن يعتنقون المبادىء العالية الاشتراكية ويمقتون النظم الفاشية

من ذلك يتضح أن من حيث عدد السكان تعتبر تريستا إيطالية إذ أن مجموع سكان المنطقة يبلغ ٣٦٠٫٠٠٠ منهم نحو ٣٠٠٫٠٠٠ من الايطاليين. غير ان حاجة يوغسلافيا الاقتصادية إليها قد تكون أشد من حاجة الطليان الذين يملكون ميناء البندقية على البحر الادرياتى فضلا عن موانىء أخرى كبيرة على البحر المتوسط مثل جنوة ونابلى . ولكن الخلاف الايديولوجى فى حقيقة الأمر هو سبب اشتداد الأزمة فمن وراء يوغسلافيا روسيا واتباعها ومن وراء ايطاليا بريطانيا وأمريكا

من أجل ذلك لما اجتمع مؤتمر وزراء الخارجية فى عام ١٩٤٧ واعيتهم الحيل فى حل هذا المشكل رحبوا جميعاً باقتراح فرنسا وهو أن تصبح المنطقة دولية وقد حددوا مساحة المنطقة بثلاثين ميلا طولا فى ١٨ ميلا عرضاً . وقد قررت معاهدة الصلح التى أبرمت مع إيطاليا النظام الأساسى لمنطقة تريستا الحرة ، ونص هذا النظام على أن ينتخب مجلس الأمن حاكم المنطقة الذى يستمد سلطته من مجلس الامن رأساً فيكون مسئولا أمامه، وأن يترك للحاكم أن يدعو الأهالى للانتخاب بعد مضى أربعة أشهر على قيامه بالعمل على أن يكون الانتخاب للبرلمان نسبياً حتى يستطاع تمثيل جميع الطوائف فيه ، وحددت قوات الحلفاء بخمسة آلاف جندى لكل من بريطانيا والولايات المتحدة وللحاكم أن يقرر بعد تسعين يوما من تسلمه العمل الاستغناء عن قوات الحلفاء إذا أراد ،وله أن يعين أعضاء حكومته المؤقته من بين أهالى المنطقة بعد التشاور بين الحكومتين الايطالية واليوغسلافية .

وقد نصت المادة الثامنة عشرة من القانون النظامى لتريستا بأن يختار الميناء مدير أجنبى لا ينتسب إلى إيطاليا أو يوغسلافيا وأن يفضل أهل المنطقة الحرة فى التعيين للوظائف الأخرى . وأن تؤلف لجنة دولية تشرف على المصالح العليا للميناء وتمثل فيها عدا الدول الأربع الكبرى إيطاليا ويوغسلافيا ومنطقة تريستا والدول التى ترتبط مصالحها بالميناء وهى تشكوسلوفاكيا وبولنده والنمسا والمجر وسويسرا ، وتكون رياسة اللجنة لمندوب تريستا وأعضاؤها يتمتعون بمز التمثيل الأجنبى فلا تطبق عليهم قوانين البلاد . وقد أراد الحلفاء بذلك أن تصبح تريستا ميناء دوليا محايداً تفيد منه جميع الدول التى تلامس سواحلها البحر الادرياتى . أما يوغسلافيا فيكفيها ما ضمته فى نهاية الحرب الأخيرة بالقوة من إيطاليا ومنه شبه جزيرة استريا وميناءى فيومى وبولا وجزر البحر الادرياتى وقد كانت جميعاً تابعة لايطاليا .

وقـــد انقضى عامان والحكومتان الايطالية واليوغسلافية تتفاوضان بتكليف من مجلس الأمن بشأن انتخاب حاكم عام المنطقة فلم توفقا إلى شخص ترضاه إيطاليا من جهة ويحوز رضاء الاتحاد السوفيتى من جهة أخرى . ولما أخطر المجلس بفشل هذه المساعى اقترحت الدول الغربية الثلاث بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا على روسيا أن ترد منطقة تريستا الحرة إلى إيطاليا . وكان ذلك فى نهاية شهر مارس سنة ١٩٤٨ حين كان الايطاليون على أبواب المعركة الانتخابية التى نشبت يوم ١٨ ابريل من ذلك العام . وقد تحولت الانتخابات فى إيطاليا أخيراً من ظاهرة وطنية محلية إلى ظاهرة عالمية مذهبية وقف فيها حزب الديمقراطيين المسيحيين ومعه أحزاب اليمين أمام جبهة الاشتراكيين والشيوعيين وكأنما المعركة قائمة فى حقيقة الأمر بين الدول الديمقراطية الغربية والدول الشرقية الشيوعية وقد انتهت المعركة بخيبة الحزب الشيوعى وفوز الديمقراطيين المسيحيين بزعامة دى جاسبرى رئيس الوزارة الايطالية .

وليس فى تطور الأمور على هذه الصورة شيئاً غريباً بعد ما ظهر من نشاط

الأحزاب الشيوعية أخيراً فى المجر ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا وبعد ما وضح من نيات الولايات المتحدة بشأن تنفيذ مشروع انهاض أوربا اقتصادياً وهو المعروف بمشروع مارشال الذى أقره الرئيس ترومان فى أوائل شهر ابريل ١٩٤٨ وأصبح قانوناً تفيد منه دول أوربا اقتصادياً وسياسياً بل وحربياً أيضاً . وكان من حسن طالع إيطاليا أو قل من سوء طالعها أن تقف إيطاليا بحكم موقعها الجغرافى على حافة الجسر بين الكتلتين السلافية والغربية وأن تكون تريستا واسطة هذا الاتصال بين الشرق والغرب . ولذلك كان النضال بشأنها عظيما بين اتحاد السوفيت من جهة وبين الدول الغربية الكبرى من جهة أخرى . وكلما اشتد النزاع من الكتلتين كلما حمى التنافس بين الفريقين فى سبيل كسب إيطاليا . فلا عجب أن تتيه إيطاليا اليوم بدلالها على المحبين من الكتلتين وأن يأتيها المدد سريعاً من المعسكرين . واذا كان المندوب الروسى قد عاد أخيراً فى مجلس وزراء الخارجية الأربعة الذى انعقد فى باريس فى سبتمبر سنة ١٩٤٨ وفى الجمعية العمومية لهيئة الأمم واقترح أن توضع جميع المستعمرات الايطالية القديمة تحت وصاية هيئة الامم فليس معنى ذلك أن روسيا تناهض إيطاليا

وها هى ذى الدول الغربية الثلاث تقترح على روسيا إعادة منطقة تريستا إلى ايطاليا دون شرط أو قيد مع أنه لم يمض على توقيع معاهدة الصلح سوى عام واحد . وها هو ذا وزير خارجية فرنسا يسارع إلى تورين لمقابلة وزير الخارجية الإيطالية ويوقعان معاً على اتفاق جمركى وسياسى سيكون من أثره حتما أن يوثق الروابط بين البلدين اللاتينيين . ولن يمضى وقت طويل حتى نرى إيطاليا عضواً فى هيئة الأمم المتحدة وخاصة بعد أن سوت إيطاليا مع اتحاد السوفيت

ماعليها نحوها من التعويضات وارتبطت الحكومتان بمعاهدة تجارية أوثقت الصلات بينها .

فاذا تحققت لإيطاليا هـــذه الغايات جميعا ودخلت تريستا فى حوزتها ثانيا واستطاعت إيطاليا الجديدة أن تكسب صداقة الدول الغربية من جهة ورضاء اتحاد السوفيت وصاحباته من جهة أخرى فان إيطاليا ستمسك بميزان القوى بين الكتلتين وستقف عندتريستا كالديدبان تحرس البوابةالكبرى بين الشرق والغرب وهى التى ان فتحت وجدت الشيوعية طريقها الى الغرب والبحر المتوسط سربا . فهل تصمد إيطاليا أم سيغرقها الطوفان ؟

الفصل السابع

بوابات البحر المتوسط

قنــاة السويس

قال هيرودوت فى تاريخه يصف مصر «أنها بلاد مصطنعة والنيل هو الذى اصطنعها هدية». ونحن نقول أن المسألة المصرية فى تاريخها الحديث إنما هى من صنع قناة السويس حتى ان السياسيين الآن ليتحيرون أيهما أكثر أهمية وأعظم خطراً بالقياس إلى السياسة العالمية — مصر كلها أم القناة وحدها .

ومع ذلك فالقناة فى أول أمرها لم تكن سوى أحد المشروعات الهندسية الكبرى التى حفل بها النصف الثانى من القرن التاسع عشر وجاءت فى أثر حركة الانقلاب الصناعى فى أوربا معاصرة للسكك الحديدية والسفن البخارية وانشاء شركات الاستعمار والاستغلال التى جاوزت حدود أوربا وعبرت البحار إلى البلاد التى شاءت أن تساير النهضة الصناعية فى العالم . وهذه الأعمال جميعها كانت تبدأ تجارية عمرانية تستثمر أموالها لصالح الشركات حتى إذا أصابت نجاحاً جاء دور حملة الأسهم فاذا كانت كثرتهم من الحكام أو الحكومات فما أسرع ما تتدخل السياسة وتصطبغ الأعمال باللون السياسى الذى يوافق أغراض الحكومة صاحبة الكثرة . أما إذا كان حملة الأسهم من عباد الله القانعين الذين لا تمتد أمانيهم إلى أبعد من أرصدتهم فى المصارف فان الروح التجارية تظل غالبة فى هذه الأعمال ولا يصيبها من التدخل السياسى إلا مقدار ضئيل .

وشركة قناة السويس التى كونها فرديناند دلسبس De Lesseps فى سنة ١٨٥٨ باسم: الشركة العالمية Compagnie Universelle du canal martime de Suez لقناة السويس البحرية، هى شركة مصرية تألفت بناء على عقد امتياز أصدره سعيد باشا

والى مصر فى ذلك الوقت لوصل البحرين فى داخل أرض مصر . ومع أن مؤسس الشركة قد أعلن أن مشروعه مفتوح لاكتتاب المساهمين من جميع أقطار العالم على اختلاف جنسياتهم ولم يترك وسيلة إلا اتخذها لاذاعة فضائل الشركة والتبشير بمستقبلها، فان حكومة واحدة لم تشترك فيها بنصيب كبير او صغير . بل ان هناك دولا كانجلترا التى كانت ولا تزال فى مقدمة البلاد التى أفادت من القناة لم يساهم أحد من مواطنيها فى تأسيس الشركة . وقد سئل بالمرستون Palmerston الوزير الانجليزى فى مجلس العموم فى يونيه سنة ١٨٥٧ عن أسباب اعتراضه على مشروع القناة فقال بصراحته المعتادة : . . . . « ان حكومة جلالة الملكة قد استخدمت منذ خمسة عشر عاماً حتى اليوم كل نفوذها فى القسطنطينية لتمنع تنفيذ هذا المشروع، وانى أعتقد أنه أحد تلك المشروعات الخيالية التى تفرض من حين إلى حين على الاغرار من أصحاب رؤوس الأموال . وأعتقد أنه لا سبيل إلى تنفيذه من الوجهة المادية إلا بنفقات تزيد كثيراً على ما يرجى منه من النفع ؛ ولذلك فانى اعتقد أن الذين قد يضعون أموالهم فى هذا المشروع سيجدون أنفسهم فى آخر الأمر مخدوعين خائبى الأمل . . »

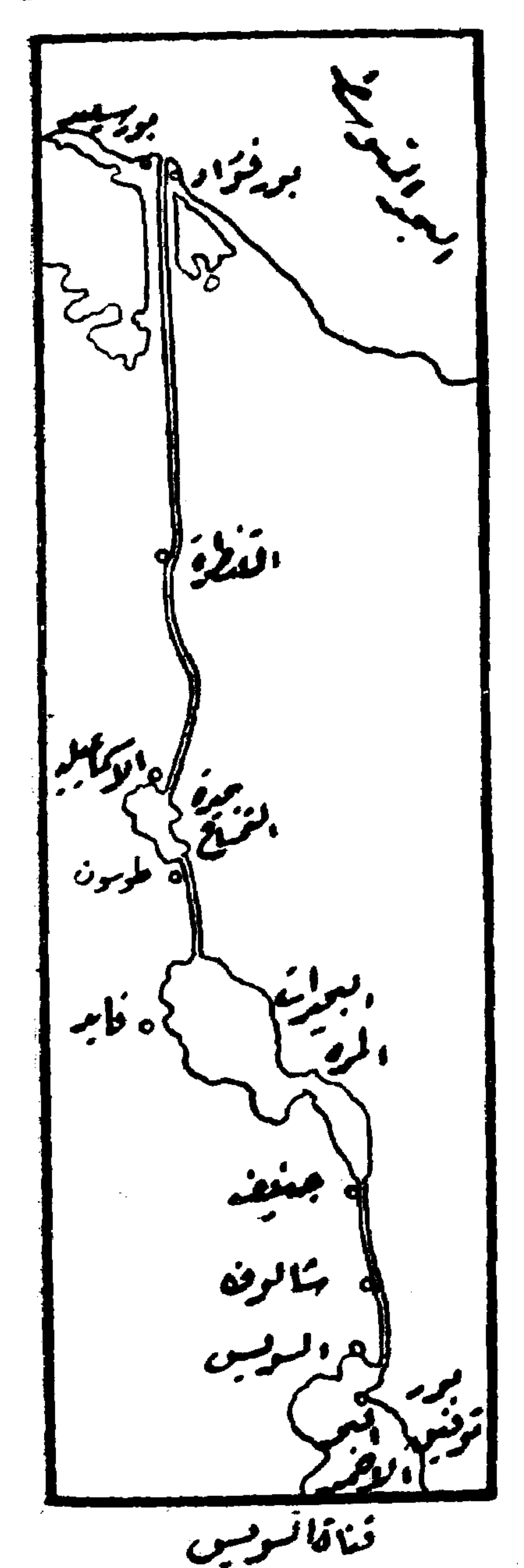
ولما أقفل باب الاكتتاب فى أسهم الشركة كان عددها ٤٠٠٫٠٠٠ سهم قيمة كل سهم ٥٠٠ فرنك وفى يونيه سنة ١٩٢٤ نصّف كل سهم من غير زيادة فى رأس المال وبذلك أصبح عدد الأسهم ٨٠٠٫٠٠٠ قيمة كل منها الاسمية ٢٥٠ فرنكا. وأكثر من نصف هذه الأسهم بيد الفرنسيين وتأتى مصر فى المكان الثانى بعد فرنسا سنة ١٨٥٦ ، فتمتلك أقل من نصف الأسهم ولكن باسم الوالى لا باسم الحكومة وتليها اسبانيا وإيطاليا وهولنده .وعلى ذلك بدأت الشركة عملها وليس لها صبغة سياسية خاصه تتميز بها دولة دون أخرى اللهم إلا فى مجلس إدارتها وموظفيها فقد كانت الجنسية الفرنسية متغلبة تبعاً لجنسية أكثر المساهمين وبذلك خلصت أعمال الشركة لخدمة صالح القناة ولتحقيق الأغراض التجارية الكبرى التى قصدت إليها باحداث ذلك التغيير الهائل فى جغرافية مصر الطبيعية

بل فى جغرافية العالم كله . وظل طابع الخدمة العامة الشعار الذى امتازت به الشركة إلى اليوم .

وكان عقدا الامتياز اللذين منحهما سعيد للشركة فى سنتى ١٨٥٥ و ١٨٥٦ مجحفين بحق مصر اجحافاً عظيما . وأهم ما فيهما تصريح سعيد باشا عن نفسه وعن خلفائه من بعده ان الملاحة فى القناة بين السويس وبلوز أو الفرما على البحر الأبيض المتوسط حرة لجميع سفن العالم بدون تمييز أو تحفظ بشرط دفع الضرائب المطلوبة . ومنهـا أنه لا يجوز للشركة أن تمنح أى فرد أو أية شركة امتيـازات لا يتمتع بها الجميع وأن توزع أرباح الشركة على النحو الآتى : ١٥ ٪ للحكومة المصرية و ١٠ ٪ لمؤسسى الشركة و ٢ ٪ للمديرين والباقى لحـاجات الشركة والمساهمين . وأن مدة عقد الشركة ٩٩ سنة ابتداء من افتتاحها ، وبعد انتهاء هذه المدة تصير القنـاة ملـكا للحكومة المصرية .واشترط فى نهاية العقد لزوم موافقة الباب العالى قبل مباشرة العمل .

ولما توقف الباب العالى عن اقرار عقد الامتيـاز بايحاء من الحـكومة الانجليزية اعتمد دلسبس على تقرير اللجنة الدولية التى تـكونت من كبار مهندسى العالم وزارت مصر سنة ١٨٥٦ لبحث الموضوع على الطبيعة ، وفيه اتفق رأيها على أن حفر القناة بين السويس وخليج بلوز هو الحل الوحيد لمسألة وصل مياه البحرين الأبيض والأحمر، وان تنفيذ هذا المشروع ممكن ونجاحه مضمون . وعلى ذلك أخذ دلسبس على عاتقه بمساعدة الوالى مهمة البدء فى العمل فى ابريل سنة ١٨٥٩ دون انتظار لموافقة الباب العالى، وقد تحمل سعيد باشا فى سبيل تنفيذ هذا العقد التزامات ثقيلة منها أنه اضطر إلى شراء ما تبقى من الاسهم دون توزيع وبلغ عددها ٥٨٥٥٦ اسهم وبذلك بلغ مجموع الأسهم التى اشترتها مصر ١٧٧٦٤٢ . ومنها تعهده بأن يكون أربعة أخماس ما يلزم من العمال مصريين . ومن الشروط الفادحة تخويل الشركة الحق فى امتلاك الأراضى التى قد تحتاج إليها على ضفتى القناة وتخويلها الحق كذلك فى حفر الترعة الحلوة — كل هذا قد دعا الباشا إلى التورط فى عقد أول قرض مالى أجنبى كان فاتحة الأزمة المالية التى أودت باستقلال البلاد .

ولما اعتلى اسماعيل العرش بعد وفاة عمه فى سنة ١٨٦٣ أعلن أنه موافق على انشاء القناة بشرط أن تكون «القناة لمصر لا مصر للقناة» . وعلى ذلك عمل بموافقة الباب العالى على تخليص مصر من الالتزامات التى لا تلائم سيادة البلاد واستقلالها فطالب بالغاء السخرة واسترداد حق إنشاء الترعة الحلوة وعودة الأراضى التى وضعت الشركة يدها عليها إلى الحكومة . فاعترضت الشركة واتفق على عرض الموضوع أمام الامبراطور نابليون الثالث للتحكيم فأجاب الإمبراطور اسماعيل إلى طلباته مقابل دفع تعويض للشركة قدره ٨٤ مليون فرنك (٣٫٣٦٠٫٠٠٠ ج) فقبل اسماعيل الحكم إيثاراً منه لمصلحة البلاد وعقد مع الشركة اتفاقاً احتفظ فيه للحكومة بحق بناء الثكنات والاستحكامات اللازمة لحماية البلاد فى منطقة القناة كما تقرر أن يكون جميع سكان هذه المنطقة خاضعين لقوانين البلاد وادارتها .



قناة السويس

وعلى أثر دفع التعويض تحسنت مالية الشركة وعادت إليها الحياة فاستأنفت عملها بنشاط ملحوظ وانضم إلى دلسبس عدد من شبان فرنسا الذين تخرجوا فى الهندسة فساعدوه واضطلعوا بمعظم الأعمال الفنية واستخدمت الشركة الآلات والروافع التى اخترعت حديثا لتنظيف القناة وحمل الأثقال فأمكن الاستغناء عن كثير من العمال ولم يسع الباب العالى بعد ذلك إلا أن يصدر فرمانه

بالموافقة على إنشاء الشركة فى مارس سنة ١٨٦٦ فثبتت قدم الشركة فى مصر وفى نظر الدول وتفرغت لانجاز المشروع فتقدم العمل بسرعة ولم يأت عام ١٨٦٨ حتى اختلطت مياه البحرين وفى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ افتتحت القناة وارتبط الشرق والغرب بأقصر الطرق .

غير أنه لم تكد تمضى ست سنوات على افتتاح القناة حتى طرأ على الشركة حادث كان له أكبر الأثر فى مركز القناة ومستقبلها ، ذلك أن الحكومة الانجليزية اشترت من الخديو اسماعيل أسهم القناة التى كانت لمصر وعددها إذ ذاك ١٧٦٦٠٢ سهماً بمبلغ أربعة ملايين من الجنيهات تقريباً وهى تساوى الآن نحو ٤٤ مليونا وبذلك أصبح ما يقرب من نصف أسهم الشركة بأيدى الحكومة الانجليزية وأضحت انجلترا تتمتع فى القناة بنصيب الأسد ، وجعل الناس يتوقعون لهذا الامتياز أخطر النتائج ، فقال بعضهم فى إحدى المجلات الفرنسية « ان شراء انجلترا لأسهم القناة عمل سياسى بحت . وإذا لم يكن معناه استحواذ انجلترا على أرض مصر فهو الخطوة الأولى فى سبيل تحقيق هذا الغرض ، إذ يستحيل على انجلترا بعد الآن أن تترك مصر وشأنها » . أما دالسبس فقد اغتبط بإتمام هذه الصفقة وقال « ان انجلترا الآن تأخذ نصيبها فى القناة وهو ما كنا قد احتفظنا به لها منذ البداية . وانى لاعتبر هذا الارتباط الوثيق الذى انعقد بين رأس المال الانجليزى والفرنسى حادثا سعيداً ستفيد منه القناة فى جهودها السلمية لصالح التجارة والصناعة فى العالم .

ولكن اغتباط منشىء القناة لم يحل دون اثارة الريب والظنون فى أذهان الدول الأخرى ، فها هى ذى دولة كبرى — هى سيدة البحار فى العالم — قد تسلطت أخيرا على مصير القناة ، ولم تعد الدول تطمئن إلى مصاير مصالحها لا فى القناة وحدها بل فى الشرق كله .

ومع أن انجلترا قد اكتفت فى أول الأمر بثلاثة مقاعد فى مجلس إدارة الشركة إلى جانب واحد وعشرين مقعداً كانت لفرنسا ، وهى كل مقاعد المجلس

إذ ذاك (ويبلغ عدد أعضاء مجلس الادارة الآن ٣٢ عضواً منهم ١٩ فرنسياً و ١٠ بريطانيين ومصريان وهولندى واحد) ؛ فإن النفوذ الانجليزى بدأ يتغلغل فى الحكومة المصرية رويداً رويداً حتى تسلط على مالية البـــلاد ، ومن المالية مد أخطبوطه إلى الادارة فالوزارة . وكان فى بدايته نفوذاً ثنائياً مع فرنسا ثم تحول فى سنة ١٨٨٢ على أثر الثورة العرابية إلى نفوذ انفرادى فاحتلال بريطانى لعبت فيه القناة دورهـــا الخطير لصالح القوات المغيرة . إذ أراد الجنرال ولسلى Wolseley قائد الحملة الانجليزية أن يفاجىء العرابيين بإرسال قواته صوب القاهرة عن طريق القناة بدلا من طريق كفر الدوار وغرب الدلتا كما توقع العرابيون واستعدوا له فأعلن إنه أغلق القناة أربعة أيام وكانت هذه المدة كافية لتسيير قواته إلى الاسماعيلية ومنها إلى الموقعة الحاسمة عند التل الكبير .

وجال بخاطر العرابيين إذ ذاك أن يردموا القناة حتى يحولوا دون دخول الانجليز بسفنهم وقواتهم من جهة الشرق ؛ ولكن دلسبس تمكن بدهائه أن يوهم عرابى بأن عقد الامتياز يمنع انجلترا من القيام بعمليات حربية فى داخل القناة أو على سواحلها فغير عرابى رأيه ولم يفطن إلى خطئه إلا بعد فوات الفرصة .

وعلى أثر هذا الحادث بدأت أهمية القناة فى نظر الدول تتضاءل من الوجهة التجارية وتعظم كثيراً من الوجهتين السياسية والاستراتيجية ،ووضح للدول بصفة قاطعة ضرورة تأمين مصالحهم فى القناة بمقتضى اتفاق دولى تقره الدول صاحبات المصالح فى القناة . وكان سفراء الدول قد اجتمعوا فى مؤتمر رسمى فى القسطنطينية للبحث مع تركيا فى موضوع احتلال مصر وظل المؤتمر منعقداً حتى رسخت أقدام الانجليز فى البلاد ، وفى النهاية اكتفوا بأن أصدروا فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٨ اتفاق القسطنطينية الخـــاص بالقناة .

وقد ظل هذا الاتفاق هو الاداة الدولية الوحيدة التى تحكم شئون القناة منذ ذلك التاريخ فلم يلحقه تعديل ما حتى بعد الحرب العالمية الأولى ، فقد تأيد فى معاهدة فرساى بمقتضى المادة ١٥٢ أن ألمانيا توافق على « أن تئول إلى حكومة جلالة الملك

جميع الحقوق التى كانت لجلالة سلطان تركيا بمقتضى اتفاق القسطنطينية المنعقد فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٨ بشأن حرية الملاحة فى قناة السويس. وكان من بين التحفظات الأربعة التى احتفظت بها الحكومة الانجليزية بمقتضى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ تحفظ خاص بقناة السويس باسم تأمين طريق الأمبراطورية فى مصر . وظلت الحال كذلك إلى أن أبرمت مصر معاهدة التحالف مع بريطانيا فى سنة ١٩٣٦ .

ويقضى اتفاق القسطنطينية بأن تبقى القناة حرة مفتوحة فى الحرب والسلم لجميع السفن التجارية والحربية من غير تمييز دولة وأخرى ، وقد اتفق المتعاقدون نتيجة لذلك على ألا يتدخلوا فى حرية استعمال القناة لا فى زمن الحرب ولا فى زمن السلم . وأن يحظر حصرها بحرياً كما يحظر تحصين سواحل القناة أو القيام بأعمال حربية فيها أو على مسافة ثلاثة أميال من سواحلها .

وقد نص فى المادة الثانية عشرة من هذه الاتفاقية على مبدأ المساواة التامة بين الدول كأساس من الأسس المتفق عليها ، وتطبيقاً لهذا المبدأ اتفق المتعاقدون على ألا تحاول دولة منهم أن تكسب لنفسها فى منطقة القناة امتيازات إقليمية أو تجارية أو سياسية أياً كانت .

وتعترف هذه الاتفاقية صراحة بحق مصر الطبيعى فى القناة ، فنص فى المادة التاسعة على أن تتخذ الحكومة المصرية الاجراءات اللازمة لتأمين تنفيذ شروط الاتفاق فى حدود الفرمانات الممنوحة لها وفقاً لشروط الاتفاق وذلك على الرغم من وجود قوات الاحتلال الانجليزى بالبلاد فان الدول لم تعترف فيما يتصل بنظام القناة إلا بحق الخديو والسلطان .

وقد وافقت على هذا الاتفاق الدول التى يهمها أمر القناة وهى بريطانيا وفرنسا وألمانيا وهولنده وايطاليا وأسبانيا وروسيا وتركيا والنمسا . ولم تكن مصر — وهى صاحبة الشأن الأول والأخير فى القناة — بين هذه الدول لأنها من الوجهة الدولية كانت تابعة لتركيا . فلما زالت السيادة التركية عن مصر عقب الحرب العالمية الأولى حاولت انجلترا أن تأخذ لنفسها حق السيادة التى كانت لتركيا ولكن محاولتها

ذهبت عبثا، فان تركيا لم تتنازل رسمياً عن حقها إلا فى سنة ١٩٢٣ بمقتضى معاهدة لوزان، وأنها حين نزلت عن حقها لم يذكر فى المعاهدة أنها نزلت عنه لبريطانيا بل تركته مبهماً حتى لاتسىء إلى مصر. ومهما يكن من أمر فان مصر كانت قبل ذلك قد أعلنت على الملأ استقلالها فى سنة ١٩٢٢ وعلى ذلك أصبحت السيادة الشرعية لمصر وحدها رغم احتفاظ انجلترا فى تصريح سنة ١٩٢٢ بتأمين مواصلاتها ورغم انفرادها دون سائر الدول بمقتضى معاهدة سنة١٩٣٦ بمعاونةمصر مؤقتاً فى الدفاع عن القناة .

وكانت موافقة بريطانيا على اتفاق القسطنطينيه بتحفظ اشترطته وهو ألا يقيد هـــذا الاتفاق حريتها فى العمل بمصر ما دام الاحتلال البريطانى باقياً . على أن الحكومة المصرية رغم هذا التحفظ احترمت حرية القناة ونفذت شروط الاتفاق بكل دقة فى أثناء السلم وفى أثناء الحرب اللهم إلا فى الفترتين اللتين نشبت فيهما الحربان العالميتان الأولى والثانية فان انجلترا بحكم مركزها كانت قد تسلطت على حركة الملاحة بها . أما فيما عدا ذلك فكانت القناة مفتوحة للجميع ففى الحرب الأمريكية الاسبانية سنة ١٨٩٨ مرت السفن الحربية الأسبانية فى القناة قاصدة جزر الفلبين للدفاع عنها . وفى سنة ١٩٠٥ مر الأسطول الروسى قاصداً البحر الأصفر لمحاربة اليابان. وفى سنة١٩١١ حين نشبت الحرب الايطالية التركية فتحت القناة للمتحاربين جميعاً ولم تفد تركيا من سيادتها على مصر والقناة شيئاً يميزها عن عدوتها ايطاليا . ولما نشبت الحرب الايطالية الأثيوبية سنة ١٩٣٥ مرت السفن الايطالية والحربية والتجارية قاصدة غزو الحبشة دون أى اعتراض متحدية فى ذلك بريطانيا ومن ورائها عصبة الأمم. ولم تخرق حيدة القناة إلا مرة فى أثناء الثورة العرابية فى أغسطس سنة١٨٨٢ قبل عقد اتفاقية القسطنطينية حين استخدمها الانجليز فى نقل قواتهم إلى الاسماعيلية ومنها إلى التل الكبير فالقاهرة كما ذكرنا. ومرة أخرى فى ٣ فبراير سنة ١٩١٥ حين حاول الجيش التركى عبور القناة فى أثناء الحرب الكبرى ، وكان الأتراك قد عبروا الصحراء الشرقية من سورية

وفلسطين قاصدين غزو مصر ولم تدم المعركة عبر القناة أكثر من ساعات معدودة ارتد على أثرها الجيش التركى .

على أن انجلترا قد سحبت تحفظها عند ما أبرمت مع فرنسا الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ ولم تستبق منه إلا شرط عدم التقيد بنص المادة الثامنة التى تقضى بتكوين لجنة من ممثلى الدول بمصر لمراقبة تنفيذ شروط الاتفاق ، وهى لجنة لم يقدر لها أن ترى النور .

ويظهر أن الدول كانت تريد باتفاق القسطنطينية أن تسرى شروطه على القناة فى مختلف الظروف ، فنص فى المادة الرابعة عشرة على أن الدول الموقعة على الاتفاق توافق على أن التزامات هذه المعاهدة لن تكون رهناً بمدة عقد الامتياز الممنوح للشركة . فاذا انتهى عقد الامتياز فى نوفمبر سنة ١٩٦٨ ظلت شروط الاتفاق سارية .

ومن ينعم النظر فى شروط اتفاق سنة ١٨٨٨ لا يرى فيه أثراً لنظام الدولية فى القناة على رغم ماجاء فى المادة الثامنة منه ، وفيها أن الدول الموقعة على الاتفاق ستعهد إلى ممثليها فى مصر أن يراقبوا شروط الاتفاق وأن يكون اجتماعهم برياسة أقدمهم أو برياسة مندوب خاص من قبل سلطان تركيا أو من قبل خديو مصر . غير أن هذه المادة كما قلنا قد ولدت ميتة لحسن الحظ ولم يقدر لها التنفيذ .

ولما ضاق بعض الساسة المصريين ذرعا بتشدد بريطانيا فى ضرورة بقائها بمصر لحماية قناة السويس لأنها — فيما تزعم — الشريان الحيوى لأمبراطوريتها هان على هؤلاء الساسة فى سبيل تحقيق استقلال البلاد أن يقترحوا على انجلترا أن يوكل إلى عصبة الأمم أمر الدفاع عن القناة ، وكان حزب العمال يميل إلى تنفيذ مثل هذا الاقتراح قبل أن يلى وزراؤه الحكم فى وزارتهم الأولى فى سنة ١٩٢٤ فلما تمرسوا بالأعمال لم يجدوا بدأ من الاحتفاظ بكل مقومات الأمبراطورية البريطانية وفى مقدمتها شركة قناة السويس . فأعلن مستر أرثر هندرسون وزير الخارجية إذ ذاك : أن اتفاق سنة ١٨٨٨ يحدد حرية الملاحة فى قناة السويس ، ولا ترى

حكومة جلالة الملك أن هناك من الأسباب ما يدعو إلى تغيير هـــذا الوضع ، وحسناً فعلت انجلترا حين رفضت هذا الاقتراح. ولو أنه نفذ وقتئذ لـكانت القناة اليوم فى حالة شبيهة بنظام « طنجة » مباءة للمنافسات والخلافات الدولية .

ولما انتهت مصر من عقدمعاهدة سنة ١٩٣٦ مع بريطانيا قدرت شركة القناة مايجب أن تتمتع به الحـكومة المصرية من نصيب أوفى فى أعمال الشركة فاتفق الطرفان فى سنة ١٩٣٧ على أن يكون لمصر عضوان مصريان فى مجلس إدارة الشركة وأن يعين ثالث إذا اقتضى الأمر زيادة عدد أعضاء المجلس وتعهدت الشركة بدفع مبلغ ٣٠٠٠٠٠ جنيه سنوياً للحكومة وتوظيف عدد من المصريين فى كل عام حتى يصبح عددهم ثلث عدد الموظفين جميعاً ، وعلى ذلك تحسنت العلاقات بين الشركة والحـكومة المصرية . وكان قد وقع شىء من الجفاء بينهما على أثر طلب تقدمت به الشركة فى سنة ١٩١٠ طالبة مد عقدها ٤٠ سنة أخرى مقابل مبلغ كبير تدفعه الشركة فرفضته الجمعية العمومية وأصبح فرضاً على مصر أن تعد نفسها من يومئذ للاضطلاع بمهمة إدارة شئون القناة متى حان الوقت .

واشتد قلق إيطاليا بعد استيلائها على الحبشة وزاد خوفها وسخطها على أثر ابرام معاهدة الصداقة بين مصر وبريطانيا سنة ١٩٣٦ — وقد نص فيها على أن لانجلترا أن تساعد مصر فى حماية القناة ورخص لها بصفة خاصة أن يكون لها بمنطقة القناة حامية عددها ١٠٠٠٠ جندى و ٤٠٠ طيار .

وقد جاء فى المادة الثامنة من المعاهدة بشأن منطقة القناة ما يأتى : —

« بما أن قناة السويس التى هى جزء لايتجزأ من مصر هى فى الوقت نفسه طريق عالمى للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للامبراطورية البريطانية فالى أن يحين الوقت الذى يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على القناة وسلامتها التامة ، « يرخص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن يضع فى الأراضى المصرية بجوار القناة . . . قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن

القناة . . . ولا يكون لوجود تلك القوات صفة الاحتلال، بأى حال من الأحوال، كما أنه لا يخل بأى وجه من الوجوه بحقوق السيادة المصرية» .

وقد احتجت إيطاليا ورأت فى ذلك مخالفة صريحة لاتفاق سنة ١٨٨٨ وطالبت باعادة النظر فى شأن القناة وضرورة جعلها دولية حتى يتسنى لايطاليا أن تأخذ مكانها إلى جانب بريطانيا وفرنسا فى مجلس إدارة القناة . وقد رد وكيل شركة القناة إذ ذاك على هذه المطالب بأن تعيين أعضاء مجلس إدارة الشركة متوقف على رغبة أعضاء الأسهم فى جمعيتهم العمومية . أما تعديل نظام الشركة وقوانينها فلابد فيه من أخذ رأى مصر صاحبة الشأن الأخير فى القناة ، وكذلك رد رئيس الحكومة المصرية إذ ذاك المرحوم محمد محمود باشا قائلا فى جواب له على سؤال وجه إليه بمجلس النواب أنه لا يمكن اجراء أى تغيير فى نظم الشركة الأساسية ما لم توافق عليه الحكومة المصرية لأن القناة تجرى فى أرض مصرية ولأن مصر هى التى منحت عقد الامتياز ولأن القناة سوف تعود إلى مصر بعد انتهاء أجل ذلك العقد .

ولم يعد المصريون منذ ابرام معاهدة سنة ١٩٣٦ مع بريطانيا يتحدثون عن « دولية » القناة . فنظام الدولية فضلا عن مخالفته لحقوق الشركة وأصحاب الأسهم فيها يتنافى مع حق مصر فى السيادة التامة على أرضها وفى داخل حدودها ، ولا يشرف مصر أن يقوم نظام دولى مهما يكن نوعه على أرض مصر أو أن تتعاون طائفة من الدول للدفاع عن جزء من أرضها ، بل أن واجبها الوطنى ليقتضيها منذ الآن أن تضطلع وحدها بقواتها وأسلحتها المختلفة بمهمة الدفاع عن القناة بالاصالة عن نفسها وبالنيابة عن الأمم المتحدة . وظاهر أن هذا لا يمنع أن يكون اضطلاع مصر بواجباتها نحو القناة أمراً مكفولا بموافقة الدول فهذا شىء آخر يختلف تمام الاختلاف عن جعل منطقة القناة منطقة دولية .

وليس فى ميثاق الأمم المتحدة الذى أقره مؤتمر الدول فى سان فرنسسكو فى يونية سنة ١٩٤٥ ما يشير إلى اعتبار منافذ البحار مناطق استراتيجية تشرف عليها

الأمم المتحدة فقد نصت المادتان ٨٢ و ٨٣ من الميثاق المذكور على أنه « يجوز أن تحدد مناطق استراتيجية . . . فى الأقاليم التى تخضع لنظام الوصاية وان مجلس الأمن هو الذى يباشر جميع مهام الأمم المتحدة الخاصة بهذه المناطق الاستراتيجية » وتنص المادة ٧٨ على أنه « لن يطبق نظام الوصاية على الأقاليم التى أصبحت أعضاء فى هيئة الأمم المتحدة » . على أن هذا لا يمنع الدول من إعادة النظر فى الاتفاقات الدولية التى تحكم بمقتضاها منافذ البحار ومن بينها اتفاق سنة ١٨٨٨ الخاص بالقناة .وعندئذ يتعين علينا أن ننبه الدول إلى أن قناة السويس منفذ بحرى صناعى لا طبيعى كمضيق جبل طارق أو الدردنيل أو باب المندب وأنه محفور فى أرض مصرية بأمر من حكومة مصر . وقد تقاضانا حفره أرواحاً وأموالا كثيرة ، وان أمره الآن بيد شركة مساهمة مصرية قانوناً وسيصبح قريباً ملكا للدولة .وقد نص فى المادة الثانية من ميثاق هيئة الأمم على أنه « ليس فى هذا الميثاق ما يبيح للامم المتحدة أن تتدخل فى شئون دولة ما إذا كانت هذه الشئون من مستلزمات سلطانها الداخلى »

وليس فى شروط اتفاقية سنة ١٨٨٨ نص صريح على حيدة القناة . وليس معقولا أن تتمتع القناة بنظام الحيدة مع أنها جزء لا يتجزأ من مصر ، ولم تكن مصر أو تركيا يوما دولة محايدة كسويسرا مثلا . غير أننا نلاحظ أن اتفاق سنة ١٨٨٨ تضمن جميع مستلزمات الحيدة تقريباً فنص فى المادة الأولى منه على حرية القناة وأنها مفتوحة لجميع السفن على اختلاف أنواعها فى الحرب وفى السلم كما نص على عـــدم إقامة الحصون على ضفاف القناة وعلى بعد ثلاثة أميال من سواحلها . كذلك نص فى عقد الامتياز سنة ١٨٥٦ على أن القناة وموانيها مفتوحة كطريق محايد comme passage neutre لجميع السفن على السواء . فإذا كانت الحيدة بمعنى الحرية فانها مكفولة بشروط اتفاق سنة ١٨٨٨

أما نظام الحيدة المعروف دولياً والذى تخضع له سويسرا أو كانت تخضع له بلجيكا فقد أصبح بعد انشاء عصبة الأمم عقب الحرب الأوربية الأولى وبعد

إقرار ميثاق الأمم المتحدة فى هذا العهد نظاما عتيقاً بالياً إذ لا بد لكل دولة تحترم نفسها وتؤمن بمستقبلها ومكانتها بين الأمم أن تأخذ مكانها إلى جانب زميلاتها وأن تتعاون معهم فى نصرة المبادىء الديمقراطية ونشر رواق السلم ورد عدوان الدولة أو الدول المعتدية على حرية السلام ولو اقتضى ذلك استخدام القوة . وظاهر أن مبدأ استخدام القوة لا يتفق مع نظام الحيدة .

أن الحيدة كما قررها علماء القانون الدولى هى انتقاص لاستقلال البلاد وحدّ من حريتها فى التوسع والتحالف السياسى مع من تشاء من الدول . ونحن نعرف أن مصر مقبلة على طور جديد وخطير فى حياتها الدولية فقد أنشأت مع أخواتها جامعة الدول العربية للذود عن صالح الأمم العربية . وقيام هذه الجامعة العربية وحده ينافى تماما مبدأ الحيدة ، ولاتزال أمام مصر أهداف سياسية وإقليمية تسعى لإدراكها ولا أمل فى بلوغها مع التواكل والقناعة والاستسلام وجميعها مرادفات لمعنى « الحيدة »

* * *

ولما عرضت مصر قضيتها أمام مجلس الأمن فى خريف سنة ١٩٤٧ كان موضوع الدفاع عن القناة فى مقدمة المسائل التى أختلف عليها الرأى . فقد دافع الوفد المصرى عن حق مصر فى الانفراد بحماية القناة اكتفاء باشتراكها فى هيئة الأمم المتحدة وباستنادها فى الأزمات الدولية إلى ميثاقها . واتهم الوفد الحكومة الانجليزية بأنها بادعائها حق الدفاع عن القناة دون سائر الدول قد نقضت اتفاق القسطنطينية الدولى الذى ابرم فى أكتوبر سنة ١٨٨٨ والذى تنص المادة الثانية عشرة منه على « ان مبدأ المساواة بين الدول فى حرية استعمال القناة هو من الاسس التى تقوم عليها المعاهدة . وان الدول المتعاقدة تطبيقا لهذا المبدأ متفقة على أنه لن تحاول أية واحدة منها أن تحصل فيما يخص القناة على اية أمتيازات أو أن تدخل فى تدبيرات دولية تؤدى إلى مثل هذه الامتيازات » . فقال المندوب البريطانى فى رده أن الحكومة الانجليزية فى موقفها بشأن القناة لم تتجاوز

نطاق اتفاق سنة ١٨٨٨ وانها لم تفعل أكثر من تنفيذ المادة التاسعة من الاتفاق المذكور . وهذه المادة تقول « أن الحكومة المصرية تقوم فى حدود السلطات المخولة لها بالفرمانات السلطانية باتخاذ الاجراءات اللازمة لتأمين تنفيذ نصوص هذا الاتفاق . فاذا لم تتوافر لدى الحكومة المصرية الوسائل اللازمة لجأت إلى الحكومة العثمانية وعلى هذه الحكومة أن تستجيب إلى دعوتها وتخطر الدول بذلك.

واستنتج المندوب البريطانى استنادا إلى هذه المادة أن المسئول عن القناة دولتان هما مصر أولا ثم بريطانيا ثانيا بعد ان حلت مكان الدولة العثمانية ، ونسى المندوب البريطانى ان انجلترا كانت فى ذلك الوقت تحتل مصر وتعمل فيها كأنها باقية بها إلى ماشاء الله ولو أرادت الدول أن يكون لبريطانيا نصيب فى الدفاع مهما يكن ضئيلا لجاء النص مبينا ذلك ولما وجدت الدول غضاضة فى ذكره مادامت بريطانيا محتلة البلاد . ولكن الدول تعمدت عدم ذكر الدولة المحتلة حتى لا تتحول مصر والقناة إلى مستعمرة بريطانية . ونصت المادة قصدا على ذكر تركيا .

وإذا كانت بريطانيا قد أرادت فى معاهدة فرساى أن تسبغ على مركزها فى مصر والقناة صفة شرعية فجعلت المانيا توافق على المادة ١٥٢ من المعاهدة المذكورة التى نصت على أن تئول إلى حكومة جلالة الملك جميع الحقوق التى كانت لجلالة سلطان تركيا بمقتضى اتفاق القسطنطينية ، فأنه يكفى فى نقض هذه المادة من أساسها أنه لا تركيا ولا مصر كانت بين الدول التى دعيت إلى مؤتمر فرساى أو التى وافقت على قراراته . وإذا اعترضتنا انجلترا مرة ثانية بدعوى أن تركيا قد أقرت ذلك التنازل أولا فى معاهدة سيفر سنة ١٩٢٠ التى لم يصادق عليها وثانيا فى معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ وقد نزلت تركيا عن حقوقها فى مصر والسودان بمقتضى المادة السابعة عشرة ونص فيها على أن يصبح التنازل نافذا من ٥ نوفمبر سنة ١٩١٤ وهو تاريخ دخول تركيا الحرب العالمية الأولى ضد الحلفاء — فأنه

الباحث المنصف لايلبث أن يقتنع بأن الحقوق التى نزلت عنها تركيا يجب أن تئول قانونا لمصر صاحبة هذه الحقوق الاصيلة وما كان ينبغى أن تنزل تركيا عنها لفريق ثالث إلا برضاء مصر وموافقتها .

على أن حق مصر تأيد كاملا بأعلان استقلالها فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ على حين كان أبرام معاهدة لوزان فى ٢٤ يوليه سنة ١٩٢٣ أى بعد أعلان الاستقلال بستة عشر شهراً ، وبذلك تكون تركيا حين وقعت على معاهدة لوزان لم يكن لها حق ولا شبه حق على مصر حتى تنزل عنه لفريق ثالث لأن حقوق مصر كانت قد ردت إليها كاملة عند دخول تركيا الحرب ضد الحلفاء فى سنة ١٩١٤ وتأيد ذلك بإعلان استقلال البلاد فى سنة ١٩٢٢ .

وأما أن انجلترا قد احتفظت بتأمين مواصلاتها الأمبراطورية فى مصر عند ما أعلنت مصر استقلالها فهو قول مردود لأن اعلان التحفظات فضلا عن كونه افتئاتا على سيادة مصر فانه كان بمقتضى تصريح من جانب واحد لم تشترك مصر فى اعلانه أو توقيعه . وأما إذا اعترضتنا انجلترا للمرة الثالثة بدعوى أنها قد جعلت من ذلك التحفظ أمراً قانونياً أو ضمنته معاهدة سنة ١٩٣٦ فى المادة الثامنة كما سبق القول فان مصر ما فتئت تنادى منذ أن انتهت الحرب العالمية الثانية ببطلان هذه المعاهدة لان كيانها لا يتفق ونصوص ميثاق هيئة الأمم المتحدة من جهة ولأن المعاهدة من جهة أخرى تتناقض ونص اتفاق القسطنطينية الدولى الذى لا يزال قائماً ولم يستبدل به اتفاق دولى جديد إلى الآن .

على أن مخالفة انجلترا لنصوص معاهدة سنة ١٨٨٨ لم تقتصر على استئثارها بحق الدفاع عن القناة بل أن التجارب القاسية فى الحربين العالميتين قد برهنت على أن حرية المرور فى القناة المكفولة لجميع الدول فى السلم والحرب إنما هى فى حقيقة الأمر مجرد خرافة فى زمن الحرب فان بريطانيا بحكم تفوقها فى البحر وفى مصر

كانت تسارع بالتحكم فى القناة كما تشاء فتسمح بالمرور لسفنها وسفن حلفائها دون الآخرين، وقد جاءت الحرب، العالمية الأولى فأكدت خرافة حرية المرور وحيدة القناة فى أثناء الحرب . فقد استطاعت قوة تركية بقيادة جمال باشا على رأس ٣٠ ألف جندى مزودة بكل ما تحتاج إليه من مؤن ومياه وسفن وجسور متحركة أن تهاجم القناة فى ٣ فبراير سنة ١٩١٥ عند محطة طوسون بين البحيرات المرة والقنطرة ، وقد أفلح فريق من المهاجمين فى عبور القناة ولكن الحلفاء استطاعوا احباط هذه المحاولة الجريئة بمساعدة سفينتين حربيتين فرنسيتين كانتا راسيتين فى القناة فارتد المهاجمون ولم يلحق بهم الحلفاء . ولو قدر للحملة التركيةالألمانية النجاح لتغير وجه الحرب قطعاً . وقدوضح فى الحرب العالمية الثانية وضوحا جلياً أن القناة قد تعرضت فى أثناء الحرب لاخطار من جانب العدو كادت تشل حركتها تماما بما كان يتساقط عليها من الجو من مختلف القذائف . و بذلك زالت الحصانة التى كانت للقناة فى الماضى كما زالت حصانة الصحراء أمام الكشوف العلمية الحديثة التى انتجت السيارات والطائرات والقنابل الطائرة والرادار والقنابل الذرية للفتك بكل ما يعترض سير الجيوش الحديثة من موانع بشرية كانت أو طبيعية .

هذه الدروس جميعا يجب ان تبصرنا بمصيرنا إزاء القناة . فقد استخدمت انجلترا القناة فى سنة ١٨٨٢ للتدخل فى شئون مصر وقمع حريات الشعب المصرى والاعتداء على استقلاله . وفى سنة ١٩١٥ استطاعت دولة أن تسير جيشا عرمرما عبر القناة لغزو مصر . وفى الحربين العالميتين هوجمت البلاد ووطئت أرضها الجيوش المحاربة ضد إرادتها وذلك بسبب القناة . وأكبر الظن أن مثل هذه العمليات قد تتكرر فى المستقبل أن لم يكن من جانب الانجليز فمن جانب غيرهم مادامت الحيدة أو حرية المرور فى القناة مكفولة للجميع فى اثناء الحرب . ومن حق مصر إذن أن تطالب بحقها فى تحصين قناة السويس و تسليحها كما تحصن الولايات

المتحدة قناة بناما وتسلحها وكما تفعل تركيا فى البسفور والدردنيل وكما تحصن انجلترا الصخرة المنيعة فى جبل طارق وتسلحها . فاما أن تكون حرية البحار ومنافذها مكفولة فى كل مكان وحينئذ يتعين تجريدها ونزع سلاحها جميعا وأما أن يسمح لمصر بتحصين القناة وتسليحها كغيرها من المضايق الطبيعية والمصطنعة وتكون وحدها المسئولة عن الدفاع عنها فى حدود ميثاق هيئة الأمم المتحدة [١].

---

(١) فى مارس سنة ١٩٤٩ اتفقت الحكومة المصرية مع شركة القناة على زيادة المبلغ الذى تدفعه الشركة للحكومة سنويا فيكون بمقدار ٧ ٪ من الأرباح وجعل حده الأدنى ٣٥٠٠٠٠ جنيه وكذلك تقرر أن يزيد عدد المصريين فى مجلس ادارة الشركة تدريجيا فيصبح فى النهاية سبعا بدلا من اثنين . واتفق الطرفان أيضا على زيادة نسبة الموظفين المصريين وجعلها ٩من١٠ فى الوظائف الادارية و ٤من٥ فى الوظائف الفنية . كما اتفق على اجراء تحسينات فى مجرى القناة نفسها .

الفصل الثامن

جـــزر البحر المتوسط

لو نظرت فى خريطة افريقية الشمالية إلى رأس « بن » ثم تابعت النظر من هذا الرأس إلى جزيرة صقلية عبر الجزر الصغيرة المتناثرة هنا وهناك أذن لأدهشك أن ترى كأن عنقا من أفريقية تريد أن يستطيل حتى يلامس رأس العنق الآخر المقابل فى صقليه . وحينئذ لا يبقى فى ذهنك أقل شك بأن القارتين كانتا فى الازمنة الجيولوجية القديمة متصلتين ، فالمسافة بين الرأسين لاتزيد على ٧٥ ميــلا ومظاهر الطبيعة والحياة فى المنطقتين واحدة فهى جميعا بيئة البحر المتوسط بشمسه الدافئة وزيتونه وأعنابه ونخيلة وأشجاره ذات الأوراق الخضراء الداكنة وبماشيته ونسيمه وشفقه وأصيله ذى الألوان البنفسجية الرائعة .

وعند هذا الملتقى المـائى ينقسم البحر المتوسط إلى قسمين عظيمين شرقى وغربى لكل منهما جزره وخصائصه ومميزاته وعنده أيضا تتقابل أو تتعـارض مصالح أكبر الدول شأنا فى البحر المتوسط ، فافرنسا تونس ولايطاليـا صقليه وجزيرتا بنتاليريا ولمبدوسا ولبريطانيا مالطه وجوزو .

مالطه :

وكانت جزيرة مالطه إلى وقت قريب تعتبر أهم قاعدة استراتيجيـة فى البحر المتوسط إذ تستطيع الدولة التى تمتلـكها أن تتحكم فى ملاحـة البحر المتوسط شرقيه وغربيه ، ولـكن تطور السلاح الجوى فى السنوات الاخـيرة التى سبقت الحرب العالمية الثانية وفى اثنائها قـد قلل من أهمية الجزيرة شيئاما، إذ أصبحت هدفا قريبا ميسرا للهجوم الجوى من إيطاليـا ومن شمالى افريقية وهو أمر دعا

انجلترا قبيل الحرب العالميـــة الثانية إلى نقل أسطولها من مالطه وحشده في الاسكندرية وحيفا .

على أن الحرب الأخيرة قد كشفت أيضا عن جانب عظيم من الأهمية وهو أن جزر البحر المتوسط تستطيع إذا أحكم الدفاع عنها جويا أن تكون معاقل وحصونا لاتغلب ، فقد ثبتت جزيرة مالطه ثبوت الصخرة الراسخة أمام هجمات الاعداء التي لم تنقطع طوال المدة التي استغرقتها الحرب في شمالى افريقية ، كما ثبت الألمـان في جزيرة كريت وثبت الطليان والألمان في جزر الدوديكانيز.ولم يستطع أحد الجانبين المتحاربين أن ينال من مناعة هذه القلاع والرواسى .

ولقد كان صمود مالطه امام الاعداء عجيبا إذ كانت انجلترا تعتمد في تموين مالطه واستكمال الدفاع عنها على فرنسا وماكان لها من قواعد في تونس وغيرها في شمالى افريقية، فلما انهزمت فرنسا وخرجت من الميدان وتولت الأمر حكومة فيشى أغلقت تونس وشمالى افريقية فيوجه بريطانيا وأصبح بين مالطه وأقرب قاعدة صديقة لبريطانيا ٨٠٠ ميل على الأقل على حين لم يكن بين مالطة وأقرب قاعدة جوية للعدو سوى ٦٠ ميلا تقريبا، هذا فضلا عن أن مالطه قد أصبحت بعد خروج فرنسا من الميدان القاعدة الوحيدة التي تعتمد عليها بريطانيا بين جبل طارق وقناة السويس.

وقد تفاقمت الحال حين أقام الألمان قواعدهم الجوية في صقليه تمهيداً لهجوم القائد الألمانى رومل نحو الشرق وشمالى أفريقية سنة ١٩٤١ وقد وضح بجلاء امام الألمان أنه لأجل تيسير عمليات التموين والنقل بين إيطاليا وشمالى إفريقية يجب القضاء على مالطه التي اصبحت مطارا مكبراً أو على حد قول بعضهم حاملة طائرات لاسبيل إلى إغراقها . حينئذ بدأ الهجوم الجوى الجنونى على مالطه وقد أصاب الفريقين خسائر جمة ، ولولا متاعب ألمـانيا في الميدان الروسى لاستطاع الألمـان القضاء على مالطه ، لـكنهم كانوا لحسن الحظ يحاربون على جبهتين متسعتين عظيمتى الخطر فلم يستطيعوا تركيز جهودهم في أحداها وكانت النتيجة أنهم خسروا المعركة في الميدانين . وهكذا انقذت مالطه من خراب محقق بعد أن انقذت هى

بدورها مصير الجيش الثامن الأنجليزى الذى كان يقاتل فى الموقعة الحاسمة على أبواب الأسكندرية .

غير أن صمود مالطة أمام هجمات العدو لم يكن معناه أن انجلترا قد أستردت تفوقها فى البحر المتوسط ، فان طرق الملاحة التجارية والحربية قد تحولت منذ دخول إيطاليا الحرب من حوض البحر المتوسط إلى طريق رأس الرجاء الصالح فالبحر الأحمر فقناة السويس . واستمرت هذه الحال حتى طرد الألمان من شمالى إفريقية وعبر الحلفاء إلى جزيرة صقلية وأرض إيطاليا وحينئذ عقدت إيطاليا الهدنة مع الحلفاء فى سبتمبر سنة ١٩٤٣ .

وليس من شك فى أن انجلترا وقد انتهت الحرب بانتصار الحلفاء ستتشبث بأمتلاك هذه الجزيرة مستندة إلى الأسباب نفسها التى دعت إلى احتلالها منذ قرن ونصف تقريبا . ذلك لان التيارات السياسية والاقتصادية التى تجذب انجلترا نحو الشرق لاتزال على قوتها ، ومصالح انجلترا كدولة بحرية عالمية نقتضيها أن يكون لها قواعد ومحطات على طول طريقها إلى الشرق تشرف منها على حركة الملاحة وتلوذ بها عند الحاجة .

وكان أحتلال أنجلترا المالطة فى سنة ١٨٠٠ بعد أن فاجأ بونابرت انجلترا ودول أوربا بحملته على مصر واستطاع وهو فى طريقه أن يحتل مالطه ويستخلصها فى أيام قلائل من أيدى فرسان القديس يوحنا الذين ظلوا يحكمون الجزيرة منذ سنة ١٥١٣ . ويعتبر نابليون أول من دل على أهمية الجزيرة من الوجهة الاستراتيجية فى البحر المتوسط . على أن الفرنسيين لم يبقوا فى الجزيرة إلا تسعة أشهر اساؤا الحكم فيها وكان حكما عسكريا صارما فاستنجد الأهالى بملك صقلية وكانت الجزيرة تابعة له اسميا واستأذنوه فى أستقبال الأسطول الأنجليزى لانقاذهم، فجاء نلسون واحتل الجزيرة بارادة الاهالى واتخذت منها انجلترا منذ ذلك اليوم قاعدة متوسطة بين جبل طارق ومصر التى كانت وقتئذ مفتاح الطريق البرى إلى الشرق ، وقد تأيد أمتلاك انجلترا للجزيرة بمقتضى قرارات مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ .

وقد سارت انجلترا فى حكم الجزيرة فى أول الأمر على عادتها من حيث عدم التدخل فى شئون الأهالى الدينية أو اللغوية فتركوا الناس يتعلمون اللغة الايطالية ويستخدمونها فى المحاكم، مع أن أكثر من ٨٥ ٪ من سكانها لايتكلمون اللغة الطليانية ولغتهم المتداولة هى اللغة المالطية وهى خليط من اللغتين العربية والفينيقية القديمة. وهم مع ذلك شديد والتمسك بمذهبهم الكاثوليكى وبعلاقاتهم بالبابا ولذلك وللروابط التاريخية والجغرافية التى تربطهم بصقلية تأثرت مالطه بالطابع الطليانى. ولم تفطن انجلترا إلى خطر هذه السياسة إلا بعد أن تمت حركة الوحدة الايطالية وبدأت إيطاليا المتحدة تتشبه بالدول الكبرى وتطالب بأن يكون لها مستعمرات فى شرقى إفريقيه ثم شماليها. ولما كانت العناصر الموالية لإيطاليا فى الجزيرة تتمتع بنفوذ دينى وثقافى ظاهر فقد خشيت انجلترا على سلامة مركزها فى البلاد فجعلت اللغة الانجليزية لغة رسمية وأصلحت اللغة المالطية وجعلتها لغة صالحة للتعليم فى المدارس.

ولما أنتهت الحرب العالمية الأولى وكان أهل البلاد قد أبلوا فيها بلاء حسنا إلى جانب انجلترا، تطلع الأهالى إلى تغيير نظام الحكم الاستعمارى ليستبدلوا به نظاما يحقق المبادىء التى أعلنها الرئيس ولسون ونادى بها الحلفاء فى اثناء الحرب. ولما لم يروا الاهالى تغييرا ثاروا ضد الانجليز فعجلت الحكومة الانجليزية بتحقيق أمانيهم السياسية ومنحتهم فى سنة ١٩٢١ دستورا جعل السلطة التنفيذية بيد وزارة مسئولة أمام برلمان مكون من مجلسين. واحتفظ للحاكم العام الانجليزى بحق أصدار القوانين فى شئون الدفاع والعلاقات الخارجية والعملة والتجارة الخارجية، فهدأت الحال بضع سنين ثم قامت بين الأحزاب التى كانت تتناوب الحكم منازعات داخلية حول أستعمال اللغة الإيطالية فى التعليم وحقوق رجال الكنيسة.

وفى سنة ١٩٢٧ أبطلت اللغة الإيطالية بالمدارس الأبتدائية وعلى أثر ذلك أصدر رجال الدين قرارا بالحرمان ضد جميع الذين يقبلون هذا التشريع وغيره من القوانين التى أصدرتها حكومة لورد ستركلند Strickland الوزير المالطى

الايرلندى الأصل ورئيس الحزب الدستورى بمالطه فأوقف الحاكم العام العمل بالدستور ثم ألغاه فى سنة ١٩٣٣ وعادت مالطه إلى نظام الحكم القديم كمستعمرة تابعة للتاج .

ولما اشتد مسولينى فى عدائه لانجلترا وجعل يمهد لغزو الحبشة بدعايته وعيونه وصنائعه فى البلاد التى يسكنها الايطاليون ومنها مالطه أخذت انجلترا تحتاط ضد إيطاليا فأبطلت استعمال اللغة الطليانية فى محاكم مالطه سنة ١٩٣٤ وأبعدت عن الجزيرة العناصر التى تتوجس منها الشر ، والتى كانت تعمل لمصلحة ايطاليا وانشأت بالجزيرة مطاراً عظيما وحصنت قاعدتها البحرية ، ثم عملت على استمالة العناصر الوطنية فأوسعت فى سنة ١٩٣٩ نطاق مجلس الحاكم حتى شمل عشرة أعضاء ينتخبهم الأهالى وفق دستور سنة ١٩٢١ من غير رجال الدين وهذا العدد يعادل نصف أعضاء المجلس .

وقد أوثقت الحرب الأخيرة روابط الصداقة بين الانجليز والأهالى بقدر ما أضعفت من نفوذ الموالين لايطاليا . وقد أظهرت مالطه من البطولة فى أثناء حصارها فى الحرب الأخيرة ما أعاد إلى الأذهان قصة بطولتها فى سبتمبر سنة ١٥٦٥ حين ارتد عنها الأتراك بعد حصار دام خمسة أشهر وكان زعيم الدفاع عن مالطه إذ ذاك الفارس الصليبي « لافاليت La Valette » الذى يرجع إليه فضل انشاء التحصينات العجيبة التى عرفت بها الجزيرة والذى سمى باسمه ميناء « فالتا » الشهير الذى تقوم به عاصمة الجزيرة .

واعترافاً بهذه البطولة قرر البرلمان الانجليزى أخيراً منح الجزيرة عشرة ملايين من الجنيهات لتعمير ما خربته الحرب كما أنعم عليها الملك جورج بوسام لثباتها وبسالتها فى الحرب .

وأهالى مالطه يعتزون بلغتهم وباستقلال جنسهم عن الطليان وغيرهم ويفخرون بماضيهم المجيد وبكفاحهم فى عصور التاريخ المختلفة فى سبيل الحرية والاستقلال

وأكبر الظن أنه لن يمضي وقت طويل حتى تسترد مالطه استقلالها الذاتى داخل نطاق المجموعة البريطانية للأمم الحرة .

وتبلغ مساحة جزيرة مالطة ٩٥ ميلا مربعاً وجزيرة جوزو ٢٦ ميلا وجزيرة كومنيو ميلا مربعاً واحداً . ويبلغ عدد سكان هذه الجزر جميعاً ٢٦٧ر٠٠ نفس (١٩٤٠)

وعلى مقربة من مالطة وفى وسط المسافة بينها وبين تونس جزيرة صغيرة اسمها « بانتاليريا » وهى تابعة لايطاليا ولا تزيد مساحتها على ٣١ ميلا مربعا وسكانها ١٠ر٠٠٠ نفس . وقد كانت فى الماضى منفى للمجرمين من الطليان ولكن الحكومة الفاشية جعلت منها سنة ١٩٣٦ قاعدة بحرية وجوية وحظرت على الأجانب دخولها والطيران فوقها وقد كان الظن أنها ستصبح قاعدة استراتيجية خطيرة تفيد منها ايطاليا وقت الحرب ولكن الحرب الأخيرة اثبتت ضآلة أهميتها ولم يجد الحلفاء صعوبة تذكر فى احتلالها فى يونيه سنة ١٩٤٣ . وليس بالجزيرة ميناء صالح ولكنها مخبىء جيد للغواصات .

وعلى مقربة من هذه الجزيرة أيضاً جزر صغيرة أخرى أهمها لمبدوسا وقد احتلها الانجليز ولا يزالون بها إلى الآن .ويظهر ان انجلترا تعتزم أن تؤمن مركزها فى البحر المتوسط بانشاء قواعد أخرى لها أو لأصدقائها إلى جانب مالطه فى هذه الجزر الصغيرة التى ذكرناها وربما فى صقلية أيضاً وقد بعثت فى الأهالى أخيراً رغبة جديدة فى التحرر من نير ايطاليا الشمالية .

جزر البليار :

وتتكون هذه الجزر من أربع جزر كبيرة هى منورقه ومجورقه أو ميورقه وابيزه أو يابسه وفورمنتيرا . وإلى جانب هذه الجزر عدة جزيرات صغيرة . وتنحصر أهمية هذه الجزر فى أنها تقع فى منتصف الطريق بين فرنسا وبلاد الجزائر على حين لا تقل المسافة بينها وبين ساحل اسبانيا صاحبة هذه الجزر عن المسافة

بينها وبين ساحل جزيرة سودانيه التابعة لايطاليا ، وتقع هذه الجزر كذلك فى الطريق بين جبل طارق ومالطة . لذلك أصبح لها أهمية استراتيجية عظيمة الخطر فى نظر دول البحر المتوسط، فاذا وقعت هذه الجزر أو أحداها فى يد دولة معادية لانجلترا أو لفرنسا استطاعت هذه الدولة أن تكيد لهما فى الحرب كيدا عظيما إذ تقطع عليهما خط مواصلاتهما فى البحر المتوسط وتضطرهما إلى إتخاذ طريق المحيط الاطلسى . ولما كان اتصال فرنسا بأملاكها فى شمالى أفريقية امراً حيويا يتوقف عليه امدادها بالمؤن والرجال لذلك كان اهتمامها عظيما بشأن هذه الجزر وبشأن علاقاتها بحكومة أسبانيا .

ولما قامت الحرب الأهلية فى أسبانيا فى سنة ١٩٣٦ بين الجمهوريين والوطنيين قامت هـــذه الجزر بأعظم دور فى العلاقات بين دول البحر المتوسط .فقد كانت إيطاليا الفاشية والمانيا النازية تعضدان الجنرال فرانكو واتباعه الوطنيين وتحتلان جزيرتى ميورقه وابيزه وتتخذان منهما قواعد جوية لمهاجمة قوات الجمهوريين فى برشلونه ومدريد وكانت تؤيدهم روسيا وفرنسا. أما جزيرة منورقه فظلت بيد الجمهوريين واتخذت بعض الدول من هذه الجزر مخابىء لغواصاتها فكانت تسطو على سفن المحايدين وغيرهم سطواً جعل الملاحة فى البحر المتوسط فى ذلك الوقت أمرا محفوفا بأشد الأخطار . وكانت إيطاليا تهدف بمساعدتها الوطنيين الى أن تمد نفوذها غربا فتحتل أحدى جزر البليار ثمنا لمساعدتها وتقف حجر عثرة فى طريق كل من فرنسا وانجلترا .

ولكن الدول كانت إذ ذاك شديدة الحذر من نيات إيطاليا فقر الرأى فيما بينها رسميا على عدم التدخل بين المتحاربين، ثم اجتمع مؤتمر «نيون Nyon» فى سنة ١٩٣٧ لتأمين الملاحة فى البحر المتوسط وأعلنت كل من إيطاليا وبريطانيا أنهما يؤيدان بقاء الحالة الحاضرة فى البحر المتوسط، ويعتبران حرية الملاحة فى ذلك البحر امراً حيويا لها . وكذلك أعلن الجنرال فرانكو أنه لن ينزل عن شبر من

أرض اسبانيا لاية دولة أجنبية وبذلك عاد السلام والطمأنينة فى حوض البحر المتوسط

ولم يكن لهذه الجزر شأن يذكر فى أثناء الحرب العالمية الثانية إذ كانت أسبانيا على الحياد فى الحرب، وقد كان التنافس شديداً بين المتحاربين بشأن حيدة أسبانيا لاهمية هذه الجزر من جهة والمعادن التى كانت تصدرها أسبانيا وتنتفع بها دول المحور من جهة أخرى. ولما كانت ميول حكومة فرنكو فى أسبانيا تتجه نحو المحور كان سخط الحلفاء على حكومة فرانكو ومقتهم له من أهم الأسباب التى دعت إلى، أهمال شأن أسبانيا دوليا بعد نهاية الحرب إلى الوقت الحاضر.

وتاريخ جزر البليار لا يختلف كثيراً عن تاريخ أسبانيا نفسها فقد كانت تابعة لقرطاجة القديمة ثم صارت جزءا من الدولة الرومانية ثم استولت عليها قبائل الوندال والقوط الغربيين ثم اخضعها العرب وبقيت بحوزتهم خمسة قرون ونصف اتحدت بعدها مع اسبانيا فى القرن الرابع عشر. وحدث فى حرب الوراثة الاسبانية أن أحتلت انجلترا جزيرة منورقه سنة ١٧٠٨ وعاصمتها بورت ماهون من أحسن موانىء البحر المتوسط. ولم تصبر فرنسا أو أسبانيا على هذا الاحتلال طويلا فلم تلبث فرنسا أن انتزعتها من يد انجلترا سنة ١٧٥٦ ولم يسع انجلترا فى ذلك الوقت إلا أن تحكم بالأعدام على القائد الانجليزى المنهزم أمير البحر بنج Byng. ثم أستردتها انجلترا فى صلح باريس سنة ١٧٦٣ وظلت تتراوح بين انجلترا وفرنسا ومعها أسبانيا إلى أن ثبتت فيها اسبانيا نهائياً سنة ١٨٠٢ بمقتضى صلح أمين Amiens بين فرنسا وانجلترا. وكان كل هم انجلترا أن تحول دون أمتلاك فرنسا لهذه الجزيرة خوفا على مواصلاتها بين جبل طارق ومالطة.

وتبلغ مساحة البليار ١٩٣٥ ميلا مربعا وعدد سكانها جميعاً ٤١٠٫٠٠٠ نفس وهم على صلات عنصرية وتجارية متينه بالشعب الكتالانى الذى يسكن برشلونه وبلنسيه على ساحل أسبانيا الشرقى وأكبر هذه الجزر وأهمها ميورقه أو ملورقه وعاصمتها «بالما».

قورسقة وسردانية :

هاتان الجزيرتان من أكبر جزر البحر المتوسط ولا يفصلهما بينهما سوى مضيق لايزيد عرضه على تسعة أميال ، والسكان فى كلتا الجزيرتين يتكلمون اللغة الايطاليه وينتمون إلى جنس واحد ، ولكن الجزيرتان تتبعان دولتين متنافستين فقورسقة لفرنسا وسردانيا لايطاليا . ولكل من الدولتين قواعد محصنة على سواحل الجزيرتين تستطيعان بها عند الحاجة أن تقفا وجها لوجه فى قوى متكافئة . والمسافة بين ساحل قورسقه والساحل الايطالى أقرب منها بين الجزيرة وساحل فرنسا إذ لا تزيد المسافة بين قورسقه وساحل إيطاليا على ٥٢ ميــــلا . ولذلك تعتبرها إيطاليــا نافذة تطل منها فرنسا على حركات إيطاليا فى البحر ومنها تستطيع أن تهددها بحرا وجوا ، ولذلك كان من برنامج الدعاة الفـاشية أن تضم قورسقه إلى ايطاليــا .

ومع أن قورسقه لم تنضم إلى فرنسا إلا سنه ١٧٦٨ حين باعتها جمهورية جنوه الضعيفة إلى فرنسا خشية أن تؤول فى النهاية إلى بريطانيا فان الشعور الفرنسى بين الأهالى قد طغى على كل علاقة بين أهل قورسقه وايطاليا ، وذلك بسبب الكبرياء الوطنية التى تحملهم جميعاً على الزهو برجلهم العظيم نابليون بونابرت الذى نشأ شابا عاديا فى الجزيرة ثم لم يلبث أن تولى عرش الأمبراطورية الفرنسية واصبح أعظم قائد حكم فى أوربا فى العصر الحديث . فقـــد أضحى كل شىء تقريبـا فى اجاكسيو عاصمة الجزيرة يحمل أسمـا عزيزاً يتصل بنابليون والثورة الفرنسية وأهل الجزيرة بذلك كله معتزون فخورون .

أما سردانية فكانت علاقتها السياسية فى الماضى باراغونه التى انضمت إلى قشتاله وكونتا مملكة أسبانيـا الحديثة ، واستمرت هذه الرابطة الاسبانية نحو ثلاثة قرون . وفى سنة ١٧٢٠ انضمت إلى دوق سافوى ومن سردانيه أخـــذ أمراء سافوى لقب الملك ، وأستمروا كذلك حتى توحدت إيطاليا الشمالية فى سنة ١٨٦١

فأصبح فكتور عمانويل الثانى دوق سافوى وملك سردانيه ملكا على ايطاليا .

وتعتبر سردانيه الآن جزءا من إيطاليا والشعور فيها ايطالى بحت وليست لها مشاكل سياسية أو دولية .

جزر شرقى البحر المتوسط

هذه جزر متناثرة بغير حساب معظمها فى بحر أيجه ،منها ماهو آهل بالسكان ومنها ماهو صغير مهجور إلا من أكواخ يسكنها النساك أو يقيمها بعض صائدى الأسماك،ومنها ماتقوم عليه آثار بعض معابد الأغريق القدماء فتجعلها فى صمتها وعزلتها كأنها صور ابدعتها يد الزمن على صفحة التاريخ القديم .

وتسطع شمس البحر المتوسط الدافئة على هذه الجزر جميعاً فتغلى حولها المياه غليانها فى المراجل وتلفحها رياح السيروكو العاتية فتدوى أصداؤها فى جنبات الارخبيل وتعصف الطبيعة الغاضبة بالفلك التى تجتاز المسالك المائية بينها وحينئذ لايعصمها من الدمار الذى يتربص بها إلا أن تلوذ بأحضان المرافىء والخلجان الطبيعية التى تفتر عنها ثغور هذه الجزر السحرية الغامضة .

من ذلك اشتقت هذه الجزر اهميتها الاستراتيجية، فمن كانت له الكلمة العليا فى هذه المنطقة استطاع فى وقت الحرب أن يجد منها مخابىء لغواصاته وأوكارا لسفنه الخفيفة وقواعد يمتار منها ويلوذ بها إذا أصابه عطب،أو يتخذها عتبات يقفز منها جوا إلى الميادين القريبة سواء فى أوربا أو بلاد المشرق أو فى شمالى أفريقية .ولولم تقع هذه الجزر فى أيدى الألمان عقب غزوهم اليونان مااستطاعوا تموين جيش روميل وتهديد بلاد المشرق طوال المدة التى انقضت بين سقوط كريت فى ١٩٤١ ونزول الحلفاء فى صقليه فى صيف ١٩٤٣ .

ولذلك كان هم روسيا بعد خروج إيطاليا من ساحة الحرب الأخيرة أن تنشىء قاعدة لها فى حوض البحر المتوسط باحتلال جزر الدوديكانيز باسم الحلفاء أو

بالوصاية عليها نيابة عن هيئة الأمم المتحـدة ، ولـكن انجلترا وأمريـكا لم تمكنا لها .

ومما يشعر باهتمام انجلترا بموضوع هـذه الجزر أنهـا لما قررت مع فرنسا فى اثناء الحرب العالمية الأولى أن تضمن بقاء روسيا إلى جانبها باغرائها بالاستحواذ على القسطنطينية والمضايق بعد أنهزام تركيا ودول الوسط فى نهاية الحرب راعت انجلترا أن تحتفظ بجزيرتين من جزر بحر إيجه هما «تبندوس» «وامبروس» وكلاهما تتحكمان فى مدخل الدردنيل .

وعندما قرر مؤتمر لوزان فى سنة ١٩٢٣ حق تركيا الجديدة فى السيطرة على المضايق مع حيدة معظم هذه المنطقة تركت الجزيرتان المذكورتان بيد تركيا ، كما ترك لليونان مع جزر الارخبيل جزيرتان أخريان هما لمنوس وسامتراكى وكلتاهما تقومان قرب مدخل الدردنيل .

ولما قرر مؤتمر منترو فى سنة ١٩٣٦ أن يكون لتركيا مطلق الحرية فى تسليح منطقة المضايق وتحصينها لم تتوان تركيا فى تحصين الجزيرتين اللتين تحتلهما . ولتوثق العلاقات بين تركيا واليونان ، ولما يتكلفه التحصين من نفقات تركت اليونان جزيرتيها دون تحصين اكتفاء بما عملته تركيا وتدليلا على ما تكنه اليونان لتركيا من عواطف المودة وتبادل الثقة بينهما . وليس من شك فى أنه إذا أحكم تحصين هـــذه الجزر أمكن الوقوف أمام أساطيل روسيا أو غيرها من دول البحر الأسود التى قـــد تخاطر باختراق المضايق إلى ميـاه البحر المتوسط .

ولمـا أكـــفهرجو السياسية الدولية فى أوربا على أثر اعتـداء إيطالـيا على على الحبشة وتحدى مسولينى لعصبة الامم وبريطانيا توثقت العلاقات بين بريطانيا وتركيا واليونان وعقدت بينها معاهدات لتبادل المساعدة عند الخطر فكان الاسطول الانجليزى فى البحر المتوسط ينتقل بحرية وسط مياه بحر إيجه ويفىء إلى موانيه

وخلجانه عند الحاجة، وكثيراً مالقى الأسطول من خليج سودا فى كريت ومدروس فى جزيرة لمنوس ومن خليج فولو بين أثينا وسلانيك ملاذا رحبا وحفاوة من الأغريق . وفى صيف سنة ١٩٣٦ كان ملك انجلترا أدوارد الثامن يطوف فى هذه المياه على يخته الخاص ويقابل الرئيس أتاتورك وقريبه الملك جورج الثانى ملك اليونان لتوكيد الصداقة بين بريطانيا وتركيا واليونان .

جزر الايونيان

وأكبر مجموعة من جزر شرقى البحر المتوسط هى جزر الايونيان وتتكون من كورفو وكتالونيا وزنطى. وأهمها جزيرة كورفو التى تقع فى مواجهة ثلاث دول مختلفة فجزؤها الشمالى يواجه البانيا وتتطلع اليها إيطاليا من الغرب وتواجه اليونان من الجنوب والشرق. وسكان هذه الجزر من اليونانيين ولكن أثر الطليان فيها يمتد إلى أكثر من خمسة قرون، فقد خضعت هذه الجزيرة لجمهوريه البندقية من سنة ١٢٥٠ إلى سنة ١٧٩٧ حين هاجم نابليون إيطاليا ، واحتلت القوات الفرنسية هذه الجزر إلى سنة ١٧٩٩ ثم جلا عنها الفرنسيون ثم لم يلبثوا أن عادوا إليها فى سنة ١٨٠٧ وظلوا بها إلى سنة ١٨١٤ حين احتلها الانجليز واقر مؤتمر فينا بقاءهم بها وأستمروا إلى سنة ١٨٦٣ حين نزلت عنها انجلترا لليونان لمناسبة ارتقاء الأمير جورج الدنمركى عرش اليونان وكان صهرا للأسرة المالكة الانجليزية .

وليس لهذه الجزر مشكلة سياسية أو عنصرية سوى ان إيطاليا كانت ترنو ببصرها نحو جزيرة كورفو فهى أقرب إليها من جزيرة كدانيه وهى فى الوقت نفسه أغنى جزر اليونان وأهمها. ولقد سنحت لمسولينى فى سنة ١٩٢٣ فرصة احتلالها قسرا على أثر حادث الاعتداء على أعضاء اللجنة الايطالية التى كانت تشترك فى تعيين الحدود بين اليونان والبانيا . ولكن مجلس العصبة سارع بالتدخل وحسم الخلاف بين الحكومتين فاضطر مسولينى إلى سحب اسطوله وقبول تعويض من

اليونان ، ولا يزال أهل كورفو يذكرون ذلك الاحتلال الفاشى ويحسبون حسابا لمطامع إيطاليا فى جزيرتهم .

أما أهمية هذه الجزر من الوجهة الاستراتيجية فقائمة على أنها حصون طبيعيه تحمى خليج باتراس وقناة كورنث وكلاهما داخل فى صميم أرض اليونان. وكذلك تقع جزيرة كورفو عند مدخل مضيق اترنتو وتتحكم فى ملاحة البحر الادرياتى .

كريت

ومن أكبر جزر شرقى البحر المتوسط جزيرة كريت .وتبلغ مساحتها ٢٩٥٠ ميلا مربعا وعدد سكانها ٣٣٦٫٠٠٠ نفس وأكثرية سكانها كباقى جزر هذه المنطقة من الأغريق . وقد كانت تابعة للبندقية حتى بدأ الأتراك يحتلونها فى منتصف القرن السابع عشر .ولما قامت حرب الاستقلال اليونانى فى سنة ١٨٢١ وتدخل محمد على الكبير بحملته على شبه جزيرة المورة أخضع المصريون جزيرة كريت فى سنة ١٨٢٤،ولما قررت الدول فى سنة ١٨٣١ استقلال اليونان عن تركيا لم يشمل قرار الاستقلال جزيرة كريت فظلت الجزيرة تابعة لمصر حتى بعد أن قررت الدول قصر محمد على على حكم مصر بالوراثه فى سنة ١٨٤٠ . فقد بقى مصطفى باشا حاكم الجزيرة الألبانى الأصل متوليا الحكم فيها إلى سنة ١٨٥٢

ويعتبر هذا العهد الذى خضعت فيه الجزيرة لمحمد على الكبير وواليه مصطفى باشا العهد الذهبى لأهل الجزيرة فقد استتب فيها الامن وانشئت الطرق وانقذت البلاد من أيدى قطاع الطرق، هذا إلى أهتمام الحكومة بشئون الزراعة والبوليس والعدالة. وما كاد عهد مصطفى باشا ينقضى حتى أخذ الأتراك بمقاليد الأمور فاختل النظام وبدأت فى سنة ١٨٥٦ أول ثورة ضد الأتراك .مابرحت العلاقات بين الأتراك وأهل الجزيرة تهدأ حينا وتتوتر أحيانا وكان الحكم التركى فى الجزيرة دستوريا حينا ، فرديا حينا آخر ، وظل ذلك شأنها تحت سلطان الأتراك حتى سنة ١٨٩٨ حين قررت الدول أنسحاب القوات التركية واليونانية وأعتبار الجزيرة متمتعة بالحكم الذاتى .

وفى سنة ١٩٠٢ أرسلت كريت نوابها إلى مجلس النواب اليونانى وفى سنة ١٩١٣ أعتبرت الجزيرة جزءاً من الوطن اليونانى وكان زعيم حركة الاندماج فنيزيلوس الزعيم الوطنى . وقد أتخذ منها الألمان فى أثناء الحرب الأخيرة قاعدة جوية وبحرية استطاعوا منها أن يتسلطوا على ساحل أفريقية الشمالى فى أثناء الفترة التى كان روميل يزحف فيها شرقا قاصدا مصر وقناة السويس . وليس لهذه الجزيرة مشكلة سياسية أو دولية تنفرد بها دون باقى بلاد اليونان .

قبرص

أما جزيرة قبرص فان الأهالى لايزالون ينظرون إلى أمهم اليونان بعين العطف مشوقين إلى الارتماء بين أحضانها . ولولا الصداقة التى جمعت بين بريطانيا واليونان قبل الحرب الأخيرة وبعدها لتفاقمت الحال فى قبرص وأندلعت فيها نيران الثورة على مثال ما كان فى كريت قبل انضمامها إلى اليونان .

وكانت الجزيرة فى أول أمرها تابعة كغيرها لجمهورية البندقية ثم أخذها الأتراك فى سنة ١٥٧١ وظل شأن الجزيرة خاملا إلى الربع الآخير من القرن التاسع عشر حين افتتحت قناة السويس وبدأ الخطر الروسى فى البلقان والشرق الأوسط يشغل بال السياسيين الانجليز . وكان اسم هذه الجزيرة يقترن فى ذكرياتهم بتاريخ ملكهم رتشارد الملقب «بقلب الأسد» وهو الذى ضمها إلى التاج البريطانى فى أثناء الحرب الصليبية سنة ١٠٩١ قبل أن ينتزعها ملوك أورشليم ثم البنادقة فى القرن الخامس عشر .

فلما قامت الحرب بين روسيا وتركيا فى سنة ١٨٧٧ وأنعقد مؤتمر برلين الدولى سنة ١٨٧٨ لانقاذ تركيا بدأت المفاوضات بين تركيا والحكومة الانجليزية

بشأن تأجير جزيرة قبرص لانجلترا لتشرف منها على قناة السويس من جهة ولتكون من جهة أخرى على مقربة من أملاك تركيا فى غرب آسيا إذا ما هددتها روسيا يوما بحرب جديدة . وكان دزرائيلى (لورد بيكنسفيلد) رئيس الحكومة الانجليز إذ ذاك يعمل على توطيد أركان الأمبراطورية البريطانية فنادى بالملكة فكتوريا أمبراطورة على الهند وأشترى للحكومة الانجليزية أسهم قناة السويس التى كانت بيد الخديوى اسماعيل، ثم استكمل دزرائيلى للحكومة الانجليزية قواعدها بأخذه قبرص سنة ١٨٧٨ فصار لها فى البحر المتوسط جبل طارق ومالطه وقبرص

غير أن أهتمام انجلترا بقبرص مالبث أن تناقص حين هيأت لها الظروف مكانا ممتازا فى مصر وقناة السويس بعد احتلالها البلاد فى سنة ١٨٨٢ . ثم كادت تزول هـذه الأهمية عند ما أنهزمت روسيا أمام اليابان فى أوائل القرن التاسع عشر وعقدت حلفا مع بريطانيا فى سنة ١٩٠٧ وبدأ الخطر الألمانى يظهر فى أفق السياسة الدولية .

وفى سنة ١٩١٥ أثناء الحرب العالمية الأولى كانت الحكومة الانجليزية مستعدة للنزول عن قبرص لليونان لو أن ملكها قسطنطين قد انحاز وقتذاك إلى جانب الحلفاء فى الحرب، ولكن قسطنطين كان قد انتهج خطة موالية لصهره أمبراطور المانيا فاضطر الحلفاء إلى التدخل وعزل قسطنطين وضاعت بذلك فرصة ضم قبرص إلى أمها اليونان . وقد تأيد مركز بريطانيا فى الجزيرة على اثر ظهور الحركة الفاشية فى إيطاليا فقد كانت مطامع إيطاليا لا تقتصر على شرق البحر المتوسط بل تشمل البحر الأبيض كله، وكان لايطاليا قواعد بحرية وجوية فى جزر الدوديكانيز فكان من الحتم على انجلترا أن تحتفظ بقبرص حتى ترقب حركات ايطاليا فى مياه البحر المتوسط الشرقية وتشرف على أنابيب البترول فى حيفا وطرابلس الشام .

ولقد سار الانجليز فى حكمهم جزيرة قبرص وفق سياستهم التقليدية فتركوا لأهل الجزيرة حرية الاعتقاد والتعليم ولم يقوموا فيها باصلاحات تلفت النظر كما فعل الطليان فى جزيرة رودس مثلا . لذلك لم يجد رجال الدين صعوبة فى إثارة

الأهالى ضد الحكم البريطانى وفعلا نشبت الثورة فى سنة ١٩٣١ وطالب الثوار بزعامة المطران الارثوذكسى الإنضمام إلى اليونان وقام الأهالى فحرقوا قصر الحاكم فى نيقوسيا ، واشتدت انجلترا فى قمع الثورة فنفت من الجزيرة المطران كيرلس وعدداً من زملائه الأساقفة وغيرهم من قادة الثورة وراقبت بدقة حركة الدعاية السياسية ، ولا تزال الدعوة إلى الانضمام لليونان قائمة ومستولية على نفوس أهل الجزيرة وهم لا يفتأون يوازنون بين حالهم وحال أهل جزيرة كريت الذين جنوا بإنضمامهم إلى اليونان فوائد كثيرة .

ومع أن الحرب الأخيره قد انتهت بخروج إيطاليا من ميدان التنافس الحربى فى البحر المتوسط فقد حرصت انجلترا على التمسك بقواعدها لمراقبة روسيا التى تسعى إلى تأمين حدودها جنوباً من ناحية البحر المتوسط والمضايق فهى فى نظرها الجهة الوحيدة التى قد ينفذ منها عدوها ويعرضها للخطر سواء من الشرق أو من الغرب . ولا ننس انه لا يفصل جزيرة قبرص عن أرض تركيا جنوبى الأناضول سوى ٥٤ ميلا. وأكبر الظن انه متى استقرت الأحوال فى بلاد اليونان والشرق الأوسط فان انجلترا ستنزل لليونان عن قبرص كما نزلت فى الماضى عن جزر الأيونيان ولكنها قد تحتفظ فيها ببعض قواعد جوية وبحرية بالاتفاق مع اليونان إذا استمرت الصداقة بينهما أسوة بما فعلته انجلترا فى شرق الاردن. وتبلغ مساحة قبرص ٣٥٧٢ ميلا مربعاً وسكانها ٣٨٣٫٠٠٠ نفس منهم ٦٥٫٠٠٠ تركى.

روودس والدوديكانيز :

فى سنة ١٩١٢ فى أثناء الحرب الايطالية التركية احتلت ايطاليا هذه الجزر عقب قتال يسير مع القوات التركية واتخذت منها قاعدة بحرية قريبة من برقة وطرابلس.ومع انه قد نص فى معاهدة الصلح مع تركيا سنة ١٩١٢ على أن تجلو إيطاليا عن جزر الدوديكانيز متى تم خروج الاتراك من ليبيا فقد بقيت ايطاليا فى هذه الجزر إلى نهاية الحرب الأخيرة . وكانت تحتج إذا طولبت بالجلاء عنها بأنها باقية بها إلى أن يجلو الانجليز عن قبرص أو عن مصر . والكثرة فى هذه الجزر كغيرها فى شرق البحر المتوسط من الإغريق ولهذا كان العداء مستحكما

فى السنين الأخيرة بين إيطاليا والإغريق . وكان لإيطاليا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى مطامع فى آسيا الصغرى وفق ماجاء فى معاهدة لندن السرية سنة ١٨١٥ التى استطاع بها الحلفاء إغراء إيطاليا على هجر دول الوسط والدخول فى الحرب الى جانبهم، ولذلك احتفظت إيطاليا بجزر الدوديكانيز غير أنها حين رأت بوادر الحركة الكمالية فى تركيا لم تتورط كفرنسا وانجلترا فى معاداة تركيا الجديدة بل راعت جانب الكياسة والاعتدال وظلت بمنأى عن الحلفاء ولذلك استحقت شكر الكماليين وتقديرهم فى أول الأمر فلم يطالبوا بإقصائها عن هذه الجزر وجاءت معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ فأقرت احتلال إيطاليا لها .

وقد كان الحكم الإيطالى فى هذه الجزر بداية لإصلاح حالها بعد إن كانت مهملة فى عهد الأتراك الذين اعتادوا اقطاعها مالياً لجماعات من أهل الجزر. فلما وليها الطليان انشأوا جامعة فى رودس اشتهرت بكليتها فى الطب وخططوا مدينة رودس وأنشأوا بها الطرق والفنادق وشيدوا قاعدة بحرية جوية فى جزيرة ليروس وحرموا زيارتها على الأجانب .

واسم الدوديكانيز يدل على أن عدد هذه الجزر اثنتا عشرة جزيرة على حين يبلغ عددها فى الحقيقة الأربعين أكبرها رودس وتليها اثنتا عشرة جزيرة أخرى. وهناك جزيرة أخرى فى نهاية تلك المجموعة من الجنوب الغربى اسمها «كاستلريزو» وهى تابعة لإيطاليا منذ الحرب العالمية الأولى .

ولتركيا فى هذه الجزر مصلحة وأقلية محترمة يبلغ عددها ربع السكان فى جزيرة رودس . ولا تزيد المسافة بين هذه الجزيرة وسواحل الأناضول على عشرة أميال، وليس من صالح تركيا ان تستولى إحدى الدول الكبرى على هذه الجزر بل تفضل ان تستقل الجزر استقلالا ذاتيـــاً أو تضم إلى اليونان. ووجه الاهتمام بهذه الجزر من الوجهة الاستراتيجية انها واقعة فى وسط المسافة بين اسطنبول والشرق الأوسط ولذلك اتجهت سياسة روسيا بعد الحرب الأخيرة إلى احتلال إحدى هذه الجزر . وقد قررت معاهدة الصلح مع إيطاليا سنة ١٩٤٧ أن تضم هذه الجزر إلى اليونان

الفصل التاسع

بريطانيا فى البحر المتوسط

لم يكن الانجليز السكسون يوما من الشعوب التى سكنت حوض البحر المتوسط وليس لهم فى هذا البحر مصالح تفوق مصالح الشعوب الأوربية أو الشرقية التى لها سواحل تلامس مياه هذا البحر ، ومع ذلك فقـــد حرصت بريطانيا منذ صار لها ممتلكات واسعة فى الهند على أن تكون لها السيادة فى هذا البحر .

وليس معنى السيادة هنا أن تكون للدولة جيوش وأساطيل وقواعد ومطارات فحسب فقد توفر لفرنسا من هذه الوسائل فى البحر المتوسط أكثر مما توفر لبريطانيا، وكان لايطاليا منها فى بدء الحرب الأخيرة شيء كثير . ولكن الدولتين لم يفيدا من ذلك فتيلا . ذلك لأن للبحر المتوسط بوابتين رئيسيتين تحكمان اغلاقه ، احداهما عند قناة السويس شرقا والأخرى عند جبل طارق غربا . وانما تكون السيادة للدولة التى تملك مفتاحى البوابتين أو احدهما على الأقل . ولكن بريطانيا لم تكتف بالقبض على مفتاحى البوابتين بل انشأت على طول طريق البحر محطات أو نقطا بوليسية للحراسة تشرف منها على حركة الملاحة فى البحر وتلوذ بها عند الحاجة . وفى امتلاك انجلترا لكل من هذه المحطات دلالة على تطور خاص فى سياسة بريطانيا أزاء الموقف الدولى العام .

أما معقل جبل طارق فاحتلته انجلترا سنة ١٧١٣ بمقتضى معاهدة أترخت التى انتهت بها حرب الوراثة الاسبانية . وكانت انجلترا قد خشيت عاقبة انضمام قوات فرنسا واسبانيا ضدها بعد أن صار فيليب الخامس حفيد لويس الرابع عشر ملكا على اسبانيا فسارعت باحتلال هذه النقطة الحصينة ، أمعانا فى أيلام عدوتها أسبانيا من جهة ولكى تشرف منها على طريق الملاحة إلى الشرق : طريق البحر المتوسط وطريق رأس الرجاء الصالح. وكانت انجلترا فى ذلك الوقت قد بدأت تنشر نفوذها

فى الهند فأنشأت شركة الهند الشرقية وباتت الملاحة بين انجلترا واملاكها فى الشرق تتطلب الحماية والتأمين .

وأما احتلال مالطه فكان فى سنة ١٨٠٠ وكان نابليون بونابرت قد لفت بحملته على مصر أنظار الدول إلى أهمية موقع مصر الحربى والجغرافى وإلى عظم شأن الطريق البرى إلى الشرق . فرأت انجلترا أن تكون لها قاعدة متوسطة بين جبل طارق ومصر، ولم تجد صعوبة فى الاستيلاء على الجزيرة من يد الفرنسيين وكانوا قد احتلوها وهم فى طريقهم إلى مصر . وقد تأيد امتلاك انجلترا لمالطة فى مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ .

ولما افتتحت قناة السويس سنة ١٨٦٩ وتحولت اليها طرق الملاحة بين الشرق والغرب لم تر انجلترا بدا من انشاء محطة قريبة من منطقة القناة تشرف منها على أملاك تركيا فى غرب آسيا وترقب منها القناة عن كثب . وكانت روسيا تعمل جاهدة فى ذلك الوقت على اضعاف تركيا وطردها من أوربا فأنبرت انجلترا الذود عنها فى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ وكان نصيب انجلترا فى مقابل ذلك أن تنازلت لها تركيا عن جزيرة قبرص .

ثم وقعت الأزمة المالية فى مصر فى أواخر عهد الخديو اسماعيل وقامت الثورة العرابية فتدخلت انجلترا فى شئون مصر المالية أولا واشترت نصيب مصر فى أسهم قناة السويس ثم مالبثت ان انفردت باحتلال البلاد سنة ١٨٨٢ وظلت بعد ذلك تسيطر على القناة بطريق ما .

ولما ظهرت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى بوادر الوعى القومى فى شعوب الشرق الأوسط العربى رأت انجلترا أن تحتفظ بفلسطين وشرق الأردن باسم الانتداب، لتقوى مركزها فى الدفاع عن القناة من جهة ، ولترقب من جهة أخرى حركة التقدم العربى عن كثب .

والسياسة التقليدية التى سارت عليها انجلترا فيما يخص حوض البحر المتوسط أن تحول دون قيام دولة بحرية قوية تناهض النفوذ البريطانى فى ذلك البحر وعلى

هذا الأساس ظلت انجلترا طوال القرن التاسع عشر تعرقل مساعى روسيا فى التسلط على المضايق والتسرب منها إلى المياه الدافئة فى البحر المتوسط . ولم تفتر عزيمة انجلترا وتسترخى قواها إلا فى أبان الحرب العالمية الأولى حين أراد الحلفاء أن يضمنوا بقاء روسيا إلى جانبهم فمنتها انجلترا وفرنسا بالقسطنطينية والمضايق إذا ما انتهت الحرب بهزيمة ألمانيا وحلفائها ،وكان ذلك بمقتضى معاهدة سرية عقدت بين روسيا وبريطانيا وفرنسا سنة ١٩١٥ . وقد جاءت الثورة البلشفية بعد ذلك فمحت فيما محت هذه المعاهدة وكل أثر للسياسة القيصرية العتيقة .

وعلى هذا الأساس أيضا حالت انجلترا دون تسلط فرنسا على الجزء الشمالى الغربى من مراكش حتى لا يتعرض مركزها فى جبل طارق لأى خطر وفضلت أن تكون اسبانيا الدولة الضعيفة نسبيا هى صاحبة النفوذ فى تلك المنطقة التى تواجه جبل طارق وفيها ثغران خطيران هما سبته وطنجه . وقد أفلحت انجلترا فى جعل طنجه ميناء دوليا محايدا لا يجوز تحصينه أو تسليحه .

وتطبيقا لهذه السياسة أيضا كانت وقفة انجلترا فى الماضى إلى جانب تركيا ضد محمد على الكبير حين آنست منه رغبة فى محالفة فرنسا ،وكان لمحمد على من القوة البحرية ما يجعله عاملا خطيرا فى تهديد مركز بريطانيا فى البحر المتوسط لو انضم إلى فرنسا . واقتضت هذه السياسة أيضا أن تعمل انجلترا قدر طاقتها على اضعاف النفوذ الفرنسى فى مصر والقناة حتى لا يفلت من يدها مفتاح البوابة الكبرى التى اصطنعتها الهندسة الفرنسية بانشاء قناة السويس وتحكمت بها فى الملاحة بين المحيطين الأطلنطى والهندى . وما فتئت انجلترا تعمل والظروف تؤازرها حتى أبعدت فرنسا عن الميدان ثم ما لبثت أن ارتبطت فرنسا مع انجلترا فى سنة ١٩٠٤ بالاتفاق الودى الشهير . ولو أن اتفاقا مثل هذا قد تم فى القرن التاسع عشر بين فرنسا وروسيا بدلا من انجلترا لتعرضت سيادة انجلترا فى البحر المتوسط لاعظم خطر .

وكانت هذه السياسة التقليدية التى اتبعتها انجلترا فى حوض البحر المتوسط انجيلا آمنت به جميع الحكومات الانجليزية التى تعاقبت على الحكم على اختلاف

آراء رجالها ومذاهبهم السياسية . ففى عهد حكومة « الهويج » أو الأحرار القدماء أيام الوزير بالمرستون استولت انجلترا على ميناء عدن وعلى جزيرة بريم . وكلاهما تتحكمان فى مدخل البحر الأحمر من ناحية المحيط الهندى ، وما البحر الأحمر فى حقيقة الأمر بعد شق القناة — سوى امتداد للبحر المتوسط . وفى عهد حكومة المحافظين أيام الوزير دزرائيلى (لورد بيكنسفيلد) اشترت الحكومة الانجليزية أسهم القناة التى كانت للخديو اسماعيل ثم احتلت جزيرة قبرص بالاتفاق مع تركيا . وفى عهد وزارة الأحرار برياسة غلادستون احتل الانجليز مصر واضطر المصريون إلى اخلاء السودان تمهيداً لاعادة فتحه بأيدى المصريين وبمساعدة الانجليز .

وظلت انجلترا معتزة بمركزها فى البحر المتوسط لا يؤرقها هم فاشى ولا يقض مضجعها كابوس نازى حتى أوشك فجر القرن العشرين أن ينبلج وعندئذ اختفى الخطر الروسى الذى كان وحده الشغل الشاغل للسياسة الانجليزية ، فقد انهزمت روسيا أمام اليابان براً وبحراً فى سنة ١٩٠٥ وانعقدت المحالفة الروسية الانجليزية سنة ١٩٠٧ وبدأت ألمانيا تتحدى انجلترا وتحل محل روسيا فى مناهضتها للسيادة البريطانية . وحاول الامبراطور وليم الثانى أن يمكن لالمانيا فى جزء من مراكش أو شمالى أفريقية اسوة بفرنسا أو ايطاليا التى كانت تنصب شباكها وقتئذ لاحتلال طرابلس

ولكن السياسة البريطانية كانت واقفة بالمرصاد فخبطت مساعى المانيا ولم تفد شيئاً من زيارة الامبراطور لميناء طنجه عام ١٩٠٥ ولا من ارسالها إحدى سفنها الحربية أمام ميناء أغادير سنة ١٩١١ . وكادت الحرب تنشب فى هاتين الأزمتين بين ألمانيا وفرنسا لو لم تسارع انجلترا إلى نجدة فرنسا واعلان عزمها صريحاً على منع ألمانيا من النزول بقواتها فى أى جزء من أرض أفريقية الشمالية .

ولما فشلت سياسية المانيا فى البحر المتوسط اتجهت نحو الشرق وركزت جهودها فى انجاز مشروع الزحف إلى الشرق من برلين إلى بغداد ومنها إلى الخليج الفارسى ، وكادت ألمانيا تصل إلى مبتغاها لولم تنشب الحرب العالمية الأولى

ولما قامت الحرب العالمية الأولى لم يكن يهدد مركز بريطانيا فى البحر المتوسط سوى خطر سلاح الغواصات الألمانية وكان خطراً داهما حقاً فاجأت به ألمانيا العالم لا فى البحر المتوسط وحده بل فى المحيط الاطلنطى أيضاً وحيثما وجدت الغواصات مسالك لها فى عرض البحار والمحيطات . وقد اضطرت انجلترا أمام هذا الخطر أن تحول ملاحتها من البحر المتوســـط والقناة إلى طريق رأس الرجاء الصالح وان تشدد التنكير على ألمانيا وحلفائها بما فرضته من الحصر البحرى على موانيها .

وكان خطر سلاح الغواصات من جانب ألمانيا ومبدأ الحصر البحرى من جانب بريطانيا على المحاربين والمحايدين جميعاً من أهم المسائل التى استرعت اهتمام ولسون رئيس الولايات المتحدة ، فما كادت تلوح بشائر النصر فى جانب الحلفاء على أثر انضمام أمريكا إلى صفوفهم حتى أعلن على رءوس الملأ مبادئه الأربعة عشر الشهيرة وكان مما أعلنه فى النطقة الثالثة أن حرية الملاحة مكفولة للجميع فى الحرب وفى السلم إلا إذا كان الحصر البحرى نتيجة قرار من هيئة دولية لتنفيذ ميثاق دولى.

ومع أن هذا المبدأ لم يواجه أى نقد أو اعتراض من جانب الحلفاء عندما كانت رحى الحرب تدور فان شروط الصلح قد أغفلته فلم تشر إليه بشىء ، وذلك لتمسك انجلترا بذلك الحق الذى تستمده من تفوقها البحرى الذى يتيح لها فى زمن الحرب فرصة مضايقة أعدائها بعدم توصيل المؤن والذخائر التى ترد إليهم من حلفائهم أو من الدول المحايدة ، ولما كانت انجلترا حريصة على التمســـك بهذا الحق لاعتمادها الكلى فى موارد غذائها على واردات مستعمراتها والبلاد الأجنبية ولاضطرارها فى مقابل ذلك إلى تصدير مصنوعاتها إلى الخارج ولأن الأسطول هو الوسيلة الوحيدة لربط شتات أجزاء امبراطوريتها الواسعة — لذلك كله فان الدول المجتمعة فى مؤتمر السلم رأت الا تثير الخلاف بين بعضها وبعض بسبب النص على مبدأ حرية البحار لا سيما أن تقرير مبدأ حرية البحار لا يهم الدول إلا فى أثناء الحرب أما فى أوقات السلم فلا مصادرة ولا حصرا

بحريا البتة، وعلى ذلك وضعت معاهدة فرساى وليس فيها قيد يحد من سيادة بريطانيا البحرية لا فى البحر المتوسط ولا فى غيره من البحار .

وخرجت انجلترا من الحرب العالمية الأولى وقد زادت مسئوليتها فى البحر المتوسط زيادة كلفتها دماً غالياً ونفقات طائلة فى سبيل صيانته والذود عنه . فقد حملت على عاتقها مهمة الانتداب على فلسطين وشرق الأردن رغم تعقد شئون فلسطين بسبب مشكلة الوطن القومى لليهود ،وجعلت من ميناء حيفا وطرابلس نهايتين لأنابيب البترول الذى تنتجه العراق من آبار الموصل وكركوك — الأولى لامداد السفن الانجليزية والثانية لامداد السفن الفرنسية .وكان هذا أهم ما أفادته انجلترا من انتدابها فى المشرق .

أما فيما عدا ذلك فلم تجن انجلترا من فلسطين سوى الحوادث الدامية والثورات المتعاقبة وقيام مشكلة قومية تعد من أعقد وأشد ما واجهه العالم من مشكلات الشرق الأوسط . ولو قدر الحلفاء بوعودهم للعرب فى أثناء الحرب العالمية الأولى فأقاموا اتحاداً عربياً مستقلا لما تفاقم خطر مشكلة الصهيونيين إلى الحد الذى نراه الآن، لأن اليهود الذين عاشوا مع العرب جيراناً وأصدقاء قروناً طويلة كانوا يستطيعون أن يتفاهموا مع العرب رأساً على شروط اقامتهم قبل أن يتجسم خطر الوطن القومى وتتعسر مشكلتهم بالمهاجرة المشروعة وغير المشروعة وحشر اليهود حشراً فى ذلك الأقليم الضيق المجدب من الأرض حتى أضحت فلسطين أخطر حلقة فى مجموعة دول الشرق الأوسط .

* * *

وظلت الحال كذلك فى حوض البحر المتوسط حتى أكفهر الجو السياسية الدولية سنة ١٩٣٥ وقامت إيطاليا الفاشية تتحدى بريطانيـــا وعصبة الأمم بهجومها على اثيوبيا وباتت الحرب متوقعة بين ايطاليا وبريطانيـــا . ولكن مسئوليني كان على يقين بان بريطانيا وحدها لن تستطيع التعرض لإثارة حرب

أوربية لم تتخذ لها عدتها ، وبأن الرأى العام البريطانى الجانح إلى السلم لا يرضى ان يخوض غمار حرب طاحنة من أجل سبب ثانوى فى أهميته كالحبشة . وعلى ذلك مضى مسولينى فى مشروعه غير مكترث بتوقيع العقوبات الاقتصادية ولا بالتهديدات الجوفاء التى كانت تتناقلها الصحف إذ ذاك كحشد الأسطول الانجليزى فى مياه الاسكندرية وامكان إغلاق القناة فى وجه إيطاليا . وقد اضطرت بريطانيا وسائر الدول فى النهاية إلى الاعتراف بالأمر الواقع وقيام الامبراطورية الإيطالية فى الحبشة .

ولكن الأزمة الحبشية قد فتحت عيون الانجليز على الهاوية التى تردت فيها سياسة التأمين الجمعى التى ابتدعتها عصبة الأمم ، فأدركوا انه لاسبيل إلى تفادى الحرب المقبلة حتما إلا بالاستعداد لها ، فقد كشفت الأزمة الغطاء عن ضعف بريطانيا وعظم استعداد إيطاليا وخاصة فى الجو والبحر إذ تضاعف عدد غواصاتها إلى أربعة أمثاله ، كما تضاعف عدد مدمراتها هذا فضلا عن السفن الحربية الصغيرة الخفيفة التى أنشأتها إيطاليا بكثرة خصيصاً للعمل فى البحار الضيقة كالبحر المتوسط وفضلا عن تحصينها جزيرة بيننلاريا بين مالطة وصقلية وساحل تونس .

وزادت الحال حرجا فى البحر المتوسط عند ماقامت الحرب الأهلية فى أسبانيا بين الوطنيين تؤيدهم إيطاليا وألمانيا ، والجمهوريين تشد أزرهم فرنسا وروسيا. وكان البحر المتوسط مسرحاً لعبت فيه القوى البحرية دوراً هاماً فاستطاعت إيطاليا ان تحتل جزيرتى « ميورقه » و « يابسة أو افيزه » من جزر البليار التابعة لأسبانيا ، وقيل فى ذلك الوقت انها تعتزم الاحتفاظ بميورقة حتى تقطع على فرنسا خط مواصلاتها مع أملاكها فى افريقية الشمالية . وكذلك احتلت المانيا ميناء فيرول فى شمالى أسبانيا الغربى وحصنت ميناء سبتة على ساحل مراكش الاسبانية فى مواجهة جبل طارق .

وقد نجم عن الحرب الأهلية فى أسبانيا واهتمام دول أوربا بنتيجة الكفاح

بين المتحاربين ان اضطربت مياه غربى البحر المتوسط ونشطت فيه أعمال السطو والقرصنة بواسطة الطائرات والغواصات والطوربيد وكلهـــا مجهولة الأصل ان اتفقت كل من بريطانيا وفرنسا وايطاليا فى مؤتمر نيون Nyon سنة ١٩٣٧ على توزيع مناطق المراقبة فيما بينهم على سواحل أسبانيا وجزر البليار . وقد أتت المراقبة بالثمرة المطلوبة فعاد الأمن فى البحر، ولـكن الحرب الأهلية فى أسبانيا مع ما اقترنت به من تحزب الدول الكبرى بين الفريقين المتحاربين كانت نذيراً بقرب اشتعال نار الحرب العامة .

وعلى ذلك لم يبق شك فى ان توازن القوى فى البحر المتوسـط قبيل الحرب الأخيرة كان قد اختل وأن سيادة بريطانيـا فى هذا البحر أو على الأقل فى القسم الغربى منه قد أصبحت مهددة باعظم الأخطار ،ولم يعد ثمة شك فى انه متى قامت الحرب فان فرنسا ستشغل بمصيرها فى أوربا وتترك بريطانيا وحدها تضطلع بمهمة الدفاع عن مراكزها فى البحر شرقا وغرباً

وكان أكثر ما تخشاه بريطانيـــا من الحرب فى البحر المتوسط ان تحرم من البترول الذى يرد إليها من العراق بالأنابيب التى تنتهى إلى حيفا وطرابلس ويبلغ مقدار ذلك ١ر٥٠/٠ من مجموع ما يرد إليها وان تنقطع عنها الخامات وسائر الواردات التى تصل إليهـا من الشرق عن طريق البحر المتوسط وتبلغ نسبة هذه الواردات ٢٠/٠ من مجموع واردات بريطانيـــا . فاذا قدر لفرنسا ان تختفى من الميدان فى أثناء الحرب لهزيمتها أو لأى سبب آخر فان مهمة بريطانيا تصبح باهظة وهيهات للاسطول البريطانى وحده ومعه السلاح الجوى أن ينال من قوى العدو مجتمعة فى بحر ضيق كالبحر المتوسط تكثر جزره وخلجانه وتستطيع الغواصات والطائرات المعاونة شل حركة الملاحة فيه بسهولة .

وفعلا ما كادت تندلع نيران الحرب العالمية الثانية وتنضم إيطاليا إلى حليفتها المانيا بعد كارثة فرنسا فى صيف سنة ١٩٤٠ حتى أصبح حوض البحر المتوسط فى عزلة تامة وخاصة فى قسمه الغربى واضطرت بريطانيا ان تحول خطوط ملاحتها حول

رأس الرجاء الصالح واستمرت كذلك حتى خرجت إيطاليا من نطاق المحور فى صيف سنة ١٩٤٣

ولقد كان لإنهزام فرنسا وقيام حكومة فيشى بالاتفاق مع المانيا أثر كبير فى ضياع النفوذ البريطانى فى حوض البحر المتوسط إذ خسرت بريطانيا أسطول حليفتها القديمة فرنسا كما خسرت قواعدها فى شمال افريقية وأصبح الطريق إلى مصر واليونان ممهداً أمام إيطاليا، وما لبثت المانيا ان انقضت على البلقان فاكتسحت أمامها يوغوسلافيا واليونان ثم هاجم جنودها كريت من الجو واستولوا عليها فجأة بفضل تفوقهم فى الطيران وباءت بريطانيا بخسائر فادحة رغم انتصارها البحرى الموقت على الأسطول الإيطالى فى موقعة رأس ماتابان غربى شبه جزيرة الموره حيث خسر الطليان خمس سفن حربية مقابل طائرة واحدة للحلفاء. واستغل الألمان تفوقهم الظاهر فى البحر المتوسط فانزلوا على سواحل ليبيا طائراتهم ودباباتهم وجيوشهم وعتادهم وزحفوا شرقاً مطاردين أمامهم القوات الانجليزية، وكانت آلهة النصر فى ذلك الوقت تؤثر الألمان وترفرف فوق رءوسهم وتقودهم من فتح إلى آخر حتى وقف هتلر وسط هالة من المجد يناضل بين خطتين كلتاهما تدفعه إلى عرش السيادة العالمية، إذ كان عليه أن يختار بين اختراق تركيا إلى العراق فخليج فارس فالهند أو مهاجمة روسيا من الغرب والزحف إلى اكرانيا فالقرم والقوقاز ومن ثم إلى خليج فارس فالهند وفى الحالين الالتقاء فى النهاية بقوات اليابان.

وشاءت الأقدار التى لا تغلب أن يختار هتلر روسيا — تلك التى أذلت نابليون من قبل، فأمر فى ٢٢ يونية سنة ١٩٤١ أن تضرب روسيا على جبهة يبلغ طولها الف ميل. ثم لم يمض بعد ذلك إلا أشهر قلائل حتى دخلت أمريكا الحرب فى ديسمبر سنة ١٩٤١ فأحدث دخولها انقلابا هائلا فى ميزان القوى المتحاربة. وظهر اثر ذلك جليا فى الصراع الذى كان دائراً فى شمالى أفريقية بين قوات المحور وبين الحلفاء. وكان أول ما أسترعى أهتمام الولايات المتحدة قبل دخولها الحرب وبعدها أن

تقنع حكومة فيشى الجديدة فى فرنسا أن تبقى على أسطولها البحرى حتى لا تستولى عليه المانيا أو إيطاليا فيختل ميزان القوى فى البحر المتوسط وفى المحيط الاطلنطى اختلالا يكون وخيم العاقبة على الحلفاء ، ومن حسن الحظ ان شروط الهدنة التى عقدها المارشال بيتان Pétain مع الالمان أبقت معظم الأسطول بيد الفرنسيين .
وظلت حكومة الولايات المتحدة متصلة بحكومة فيشى حتى تستطيع أن توفد رسلها وعيونها وتدبر مساعيها لنجاح حملة الحلفاء فى شمالى افريقية ولما أقتربت ساعة التنفيذ أعتمدت فى جهودها على أمير البحر الفرنسى دارلان Darlan الذى كان وقتذاك يتولى القيادة العليا لقوات فيشى فاصدر أوامره من الجزائر — وكان إذ ذاك يزور ابنه المريض — إلى القوات الفرنسية فى شمالى أفريقية للانضمام إلى صفوف الحلفاء ، كما أصدر أوامره إلى الأسطول الفرنسى الراسى فى ميناء تولون لمعاونة أساطيل الحلفاء التى كانت تحرس الحملة فى أثناء نزولها على البر فتردد الضباط فى أطاعة تلك الأوامر وأبوا الأنصياع لها وأعقب ذلك قتل دارلان نفسه فى ديسمبر من تلك السنة . وكانت انباء الحملة الامريكية قد وصلت إلى المانيا فسارعت باحتلال المنطقة الحرة فى فرنسا وحاولت أن تضع يدها على الأسطول الفرنسى فرأى الضباط الفرنسيون البواسل انهم أمام سياستين كلتاهما شر فأثروا الموت على العار والاستسلام وأغرقوا الأسطول خارج ميناء تولون فى أواخر نوفمبر سنة ١٩٤٢ .

وفى تلك الأثناء كانت قوات الحلفاء التى اوقفت هجوم روميل أمام العلمين قد احكمت خططها وجاءتها الأمدادات من أمريكا فاستطاع القائدان منتجومرى والأكسندر على رأس قوات الحلفاء أن يجمعا على جبهة الحرب نحو ثمانمائة دبابة مالبثت أن دكت قوات روميل دكا مريعا اضطر على أثره إلى الأرتداد فى أوائل نوفمبر على طول الساحل الشمالى والحلفاء من ورائه يطاردونه حتى قطعوا نحو ١٣٥٠ ميلا فى مدى ٨٢ يوما .

وكانت خطة الحلفاء تقضى بحصر قوات المحور بين قوتين أحداهما من الشرق

عمادها الجيش الثامن بقيادة منتجومرى Montgomery والأخرى من الغرب بقيادة الجنرال أيزنهور Eisenhower الأمريكى . فنى الأسبوع الأول من نوفمبر نزلت الجيوش الأمريكية والبريطانية على ساحل الاطلنطى عند كاسابلانكا ورباط وعلى ساحل الجزائر عند وهران. وتعتبر حملة شمالى أفريقية فى أثناء الحرب العالمية الثانية أكبر وأضخم حملة تحركت على مياه البحر المتوسط وسواحله إذ كانت تتألف من ٨٥٠ سفينة حربية وتجارية ولا يقل عدد قواتها عن ١٤٠ الف جندى .

واستطاع الحلفاء أن يوالوا انتصاراتهم على طول ساحل أفريقية الشمالية فكان إيزنهور الأمريكى القائد الأعلى لجيوش الحلفاء يزحف من بلاد المغرب والكسندر ومونتجمرى يطويان فيافى طرابلس متجهين غربا حتى قضوا فى النهاية على قوات المحور عند خط الدفاع الذى أقامه رومل على طول مرتفعات مارت فى تونس. وعلى أثر ذلك غادر رومل أفريقيه إلى المانيا وترك قوات المحور تتلقى ضربات الانكسار النهائى فى شمالى أفريقية ، فقد سقطت تونس ثم بنزرت ووقع فى الأسر ماتبقى من قوات المحور وعتادها وقد بلغ عدد أسراهم نحو ٢٥٠,٠٠٠ جندى . وقد أفاد الحلفاء من ذلك النصر فائدة عظمى إذ تحررت مواصلاتهم فى البحر المتوسط بين شرقية وغربية وأصبح الوثوب من تونس وبنزرت إلى جزيرتى بينتلاريا وصقليه ومنها إلى إيطاليا حقيقة متوقعة وقد كان منذ شهور قليلة حلما لا يصدقه العيان .

وقد كشفت الحرب الأخيرة عن أمر على جانب عظيم من الأهمية وهو أستخدام الطائرات لتكمل عمل الغواصات، فقد ظهر أن تنسيق الجمع بين السلاحين فى بحر ضيق المسالك كثير الخلجان كالبحر المتوسط لابد أن يتيح لصاحبه تفوقا ظاهرا . وقدبدت اثار ذلك جلية فى أثناء هذه الحرب فقد كان تفوق انجلترا فى شرق البحر المتوسط من أهم العوامل التى ساعدت الحلفاء على الاحتفاظ بسواحل بلاد المشرق وأحباط مساعى الالمان فى غربى آسيا .

* * *

وأخيرا يتضح من ذلك كله أن القول بأن البحر المتوسط مع قناة السويس هو بمنزلة الشريان للامبراطورية البريطانيـة وصف مبالغ فيـه كثيرا . والشريان إذا انقطع أو بتر أنعدمت الحيـــاة . وقد برهنت الحربان العالميتان على أن الامبراطورية البريطانية تستطيـع أن تعيش وتقوى رغم استغنائها عن أستعال هذا الشريان مدة بلغت فى الحرب الأخيرة أكثر من أربع سنوات . ذلك لأن هناك طرقا أخرى تربط انجلترا بأملاكها وحلفائها وأهمها طريق رأس الرجاء الصالح وهو لا يستغرق من الوقت الآن أكثر مما كان يستغرقه طريق البحر المتوسط فى بدء أفتتاح القناة .

وقد يظن البعض أنه باستقلال الهندستان والباكستان قد يضعف اهتمام بريطانيا بالبحر المتوسط ولو قليلا . وهذا وهم لا يؤيده الواقع . فلبريطانيا عدا علاقاتها التجارية والثقافية بالهند والباكستان صلاتها الوثيقة الباقية على الزمن باستراليـا ونيوزيلندة . وإذا كان اهتمام نيوزيلندة بطريق السويس قد يقل عن اهتمامها بقناة بناما فان مصالح استراليا فى البحر المتوسط والقناة ستبقى على الدوام مرتبطة بطريق السويس وتأمينه ضد الأعداء . ولا تنس بترول إيران والـكويت والبحرين الذى يمر فى سفنه الخاصة بطريق السويس إلى أوربا . فاذا كانت ثروة البحر المتوسط من ذلك السائل النفيس ومن الفحم والحديد قليلة لا تكاد تذكر فان مرور البترول من الشرق داخل القناة ووصول أنابيبه من العراق إلى ساحل فلسطين مما يجعل للبحر المتوسط أهمية فائقة فى نظر بريطانيا أولا وفى نظر سائر الدول الأوربية . وإذا كانت بريطانيا وحلفاؤها قد أوقفت فى أثناء الحرب جانبا كبيرا من ملاحتها فى البحر المتوسط واستعاضت عنه بطريق رأس الرجاء الصالح والمحيط الهندى فان بريطانيا لم يفتها الاحتفاظ بسيادتها فيه . فقد كانت تستخدم فى مواصلاتهـا البحر الأحمر وقناة السويس من ناحية الجنوب فى المحيط الهندى كما كانت تستخدم الطريق البرى داخل الصحراء بين بحيرة تشاد والخرطوم على النيل

ومع أن اليابانيين كانوا متفوقين فى سنغافورة والملايو وبورما فان الانجليز ظلوا على اتصال بحرى بايران وخليج فارس عن طريق القناة والبحر الأحمر .

على أن هناك صعابا لا تزال بريطانيا تواجهها فى حوض البحر المتوسط منها ان أسبانيا لم تنس جبل طارق وانه رغم مرور أكثر من قرنين ونصف قرن على احتلال انجلترا لهذه القلعة الحصينة فان الشعور الوطنى فى أسبانيا لا يستسيغ الاحتلال الأجنبى لجزء من أرض الوطن ولا بد أن تظهر آثار هذا الشعور يوماما

وهناك قناة السويس، فان عقد هذه الشركة سينتهى فى نوفبر سنة ١٩٦٨ وحينئذ تصبح القناة ملكا لمصر صاحبة الفضل وسيدة الأرض التى حفرت فيها. ومع أن القناة طريق بحرى حر لجميع الدول فى السلم وفى الحرب فلابد من تقرير هذه القاعدة فى معاهدات تبرم لهذا الغرض حتى يزول أثر المعاهدة المصرية الانجليزية المنعقدة فى سنة ١٩٣٦ والتى انفردت فيها بريطانيا بميزة الدفاع عن القناة إلى جانب مصر .

ويزعم بعضهم أن بريطانيا وأمريكا تفكران فى حفر قناة أخرى تصل بين العقبة فى شرق الأردن وغزة فى فلسطين وذلك حتى لا تتعرض مصالحهما للخطر متى آلت القناة لمصر نهائيا . وانا لنستبعد تحقيق هذا الزعم لا لضخامة المشروع وطول القناة وعظم نفقاته من غير مبرر فى وقت تشكو فيه بريطانيا من كثرة ديونها الداخلية والخارجية — بل لأن الحلفاء مقيدون بتنفيذ المادة السابعة من ميثاق الأطلنطى التى تقول « أن الصلح يجب أن يكفل الحرية للناس جميعا بأن يجتازوا البحار والمحيطات بدون عائق » . ومعنى هذا أن المستقبل كفيل بأن يجعل المضايق والمسالك المائية جميعا تحت رقابة مجلس الأمن ، فلا يعقل إذن أن تحفر قناة عالمية جديدة لتكون تحت سيطرة دولة بعينها . على أن مصر ستكون متى آلت اليها القناة حارستها نيابة عن مجلس الامن وهيئة الأمم المتحدة .

وليس فى مالطه الآن أثر للحركة التى كانت ترمى إلى الانضمام إلى ايطاليا . وأما فى جزيرة قبرص فالسكان موالون بوجه عام للانجليز ولكن الكثرة العظمى

تود الانضمام إلى اليونان امهم الـكبرى كما حدث فى رودس وجزر الدوديكانيز التى كانت تابعة لايطاليا .

أما عن جلاء الانجليز عن فلسطين واحتمال جلائها كليا عن مصر فذلك أمر قد وطدت بريطانيا العزم على مواجهته . وقد انتهى انتدابها فعلا على فلسطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ولـكنها قد عوضت خروج فلسطين من سيطرتها بتثبيت نفوذها فى برقة وطرابلس بعد أن اضطلعت فيهما بالحراسة الحربية من سنة ١٩٤٣ إلى الآن . حتى إذا اتحدت ليبيا واعترفت الدول باستقلالها فانها ستبقى فى حاجة إلى معونة انجلترا المادية والثقافية ولا يبعد ان تتوثق الصلات بين الاثنين بمعاهدة تعقد بينهما . على أن السياسة الانجليزية دائبة التطور والتغير طوعا لظروف السياسة العالميـــة فهى الآن تركز استعداداتها الحربية والجوية فى شرق افريقيه فى كينيا وزنجبار وتتخذ من هذه المنطقة قاعدة استراتيجية للمستقبل تعوضها عما قد تخسره متى تم جلاؤها عن مصر .

وعلاقات بريطانيا ودية مع جميع دول البحر المتوسط . وإذا كانت روسيا تعتبر صاحبة النفوذ الأول فى جزء من البلقان فان قوات بريطانيا الحربية لا تزال باقية فى اليونان برضاء حكومتها حتى تستقر الحال فيها . وبينها وبين تركيا معاهدة تبادل المساعدة منذ سنة ١٩٣٩ . وقد تأيدت هذه المعاهدة أخيراً على أثر مطالب حكومة السوفيت من تركيا بشأن المضايق . ولابد أن يؤدى هـــذا التنافس بين روسيا وبريطانيا إلى حدوث سوء تفاهم بين الحـكومة الانجليزية واحدى الدول التى تنتمى إلى اتحاد السوفيت كاحدث أخيرا بين انجلترا والبانيا بشأن كسح الألغام من خليج كرفو ، فقد اعترضت البانيا على قيام الأسطول البريطانى بعملية التطهير وكانت النتيجة ان اغرقت سفينتان حربيتان من سفن الأسطول البريطانى وفقد ٤٤ نفسا وانبنى على ذلك أن طالبت بريطانيا الحـكومة الألبانية بتقديم الاعتذار الـكافى ودفع تعويض على الاضرار التى لحقت بسفنها . وقد وصـــل الأمر

بين الدولتين إلى التجاء بريطانيا إلى مجلس الأمن ثم إلى محكمة العدل الدولية . وقد أصدرت المحكمة قرارهااخيرا بأدانة البانيا

وأخيراً يبدو ان روسيا منذ اختل التوازن السياسى فى حوض البحر المتوسط بخروج الطليان من مضمار التنافس البحرى قد بدأت تحاول تصحيح الميزان وتطالب لنفسها أو لصاحباتها بقواعد فى البحر المتوسط. فقدضاقت روسيا ذرعا بتجمد مياه البحار المحيطة بها فى معظم شهور السنة وتريدأن يكون لها منفذ على البحر المتوسط وقواعد فى مختلف أنحائه باسمها أو باسم حليفاتها، فإذا تشبثت تركيا بمفتاح البوابة الجانبية عند الدردنيل وصمم الحلفاء على اقصاء روسيا عن مياه البحر المتوسط فأكثر الظن أن روسيا ومعها الدول الصغرى لن تهدأ لها ثائرة حتى ترى مفاتيح بوابات هذا البحر محطمة ومنافذه جميعا قد أصبحت محايدة وحرة للجميع فى السلم وفى الحرب على السواء .

الفصل العاشر

فرنسا في البحر المتوسط

١ ـ فرنسا وبلاد المشرق

علاقات فرنسا بالشرق قديمة قدم امبراطورية شرلمان الذى وصل رسله إلى بلاط هارون الرشيد فى بغداد وتبودلت بينهما الرسائل والهدايا ، ويقول بعض المؤرخين ان الفرنجة نالوا من لدن أمير المؤمنين مزايا خصهم بها فى الأماكن المقدسة . وقد تجدد اتصال الفرنجة بالشرق فى أيام الحروب الصليبية، وكانت كثرة الصليبيين من الفرنسيين وكذلك كانت الأمارات الصليبية التى قامت فى بلاد المشرق فى آخر القرن الحادى عشر والتى ظلت باقية نحو قرنين فى الداخل وعلى الساحل ثم على الساحل وحده وكان الحكم فيها وفق النظام الاقطاعى الفرنسى . وما نسى الفرنسيون أنهم فى العصور الوسطى جهزوا أكثر من حملة صليبية إلى مصر بقيادة ملكهم لويس التاسع أو القديس لويس سان لوى St. Louis كما حلالهم ان يلقبوه وهو الذى انهزم أمام « المنصورة » فى عهد بنى أيوب واقتيد اسيراً فلم يفك اسره إلا بعد أن دفع دية عظيمة من المال ، وقد تركت تلك الحملات التى اقترنت باسم ملكهم أثراً نفسياً دينياً بقى بين الفرنسيين طويلا .

وفى مطلع العصور الحديثة كان الفرنسيون أول الشعوب الأوربية تحالفاً مع سلاطين آل عثمان ، فقد ارتبط فرنسوا الأول ملك فرنسا مع السلطان سليمان القانونى فى سنة ١٥٣٥ ضد الامبراطور شارل الخامس ، وكان من نتائج ذلك التحالف ان عقدت أولى معاهدات الامتيازات فنال بها الفرنسيون منذ ذلك الوقت فى أملاك الدولة مركزاً خاصاً ممتازاً دعا غيرهم من الأجانب إلى التشبه بهم . وكانت تلك المعاهدة أساساً للامتيازات الأجنبية التى قصد بها

أولا حماية الدولة لرعايا الدول الأجنبية ثم صارت بعد ضعف الدولة حقوقاً مكتسبة يتمتع بها الأجانب على حساب الدولة . وبفضل معاهدة سنة ١٥٣٥ أصبح لفرنسا فى أنحاء الدولة امتيازات أدبية وسياسية ودينية بقى أثرها كحامية للطوائف الكاثوليكية إلى وقت قريب .

وقرب نهاية القرن الثامن عشر قامت الثورة الفرنسية وعصفت بأوربا حروب نابليون بونابرت التى امتدت به إلى البندقية وساحل دلماسيا شرقى البحر الادرياتى ومن هناك حلق بها الخيال إلى مصر وبلاد المشرق حيث أمل أن تكون له دولة مترامية الأطراف فيقطع على انجلترا طريقها إلى مستعمراتها فى الشرق وفى الهند ويؤسس لفرنسا فى الشرق على حساب تركيا الضعيفة سلطاناً استعمارياً يعوض عليها ما فقدته فى أمريكا وفى الهند . وبدأ نابليون يعد العدة لتحقيق ذلك الخيال حتى كان يوم من صيف عام ١٧٩٨ حين تغفل بونابرت البحرية الانجليزية فأفلت من رقابة الأسطول الانجليزى وقام بحملته الشهيرة على مصر فنزل بها فجأة وسار توا من الاسكندرية قاصداً القاهرة وتقابلت القوات الفرنسية بفرسان المماليك عند موقعة امبابه فانهزم المماليك ولم تلبث القاهرة ان سلمت وأصبحت البلاد تحت حكم بونابرت .

فلما تنبه نلسون أمير البحر الانجليزى إلى حقيقة أغراض بونابرت سارع إلى تدبير أمره ، فحطم الأسطول الفرنسى الذى حمل نابليون ورجاله إلى الشرق وأخذت انجلترا تضيق الحصر البحرى على فرنسا من جهة وتؤلف المحالفات ضدها من جهة أخرى ، حتى يئس بونابرت من نجاح مشروعه العظيم فى الشرق وفر هارباً من مصر عقب ارتداده عن حصن عكا ثم لحقته البقية الباقية من الحملة الفرنسية بعد ثلاث سنوات وثلاثة أشهر من تاريخ نزولهم بالبلاد .

ومع ان الحملة الفرنسية كانت عقيمة من حيث نتائجها الحربية فانها من الوجهة السياسية تعتبر بداية عهد جديد تفتحت فيه أعين الدول إلى الاهمية الاستراتيجية والتجارية التى لبلاد الشرق الأوسط باعتبارها طريقاً إلى الاتصال بالهند

والشرق الأقصى : السويس والقاهرة والاسكندرية فى مصر ، ومن خليج العجم ونهر الفرات وحلب واسكندرونه فى سوريا والعراق .

أما انجلترا ففطنت على الفور إلى أن للشرق الأوسط مركزاً حيوياً بالنسبة لمستعمراتها فى الشرق وأيقنت أنها إذا لم تسارع إلى اتخاذ أهبتها فى مصر تعرضت مصالحها الاستعمارية للخسارة والضياع بتاتاً ، ولذلك لم تأل جهداً منذ ذلك الوقت فى انتهاز كل فرصة لتوطيد مركزها فى البحر الأبيض المتوسط بصفة عامة وفى شرقيه بصفة خاصة .

أما فرنسا فظلت طوال القرن التاسع عشر تحن إلى ذكرى الحملة الفرنسية وبطولة نابليون فى الشرق وتعمل على توثيق أواصر القربى الروحية والثقافية والاقتصادية بينها وبين شعوب الشرق الأوسط ، حتى جاء الاتفاق الفرنسى الانجليزى سنة ١٩٠٤ نخيب أمل المصريين نهائياً فى الاعتماد على الصداقة الفرنسية ثم جاءت الحرب العالمية الأولى فمهدت لفرنسا من جديد طريق التسلط السياسى فى شرق البحر الأبيض المتوسط .

وكانت فرنسا تعتبر نفسها نصيرة المسيحيين الكاثوليك فى بلاد الدولةالعثمانية كما كانت روسيا تعد نفسها حامية الكنيسة الارثوذكسية فيها ، وقد كان مظهر حماية فرنسا للكاثوليكية فى الشرق الأوسط بارزاً بصفة قاطعة فى لبنان ، حيث كانت الحروب الأهلية والمذابح لا تنقطع بين سكان الجبل من الدروز والمسيحيين والموارنة والمسلمين . وحدث فى عام ١٨٦٠ ان وقعت مذبحة قتل فيها عدد عظيم من المسيحيين فأرسلت فرنسا حملة حربية احتلت الجبل عاماً واضطر الباب العالى بضغط من الدول إلى اصدار دستور ينظم حكومة لبنان نص فيه على أن يكون حاكمها مشيراً مسيحياً يعاونه مجلس مكون من اثنى عشر عضواً يمثلون الطوائف الثلاث : المسيحيين والدروز والمسلمين .

وقد استقرت الأمور نوعا على أثر تنفيذ هذا النظام الشبيه بالاستقلال الذاتى وتحسنت موارد البلاد وزاد عدد سكانها ، غير انه لما كانت موارد البلاد الطبيعية

والصناعية تضيق على سكانها لجأت طائفة نشيطة من اللبنانيين إلى الهجرة إلى مصر والولايات المتحدة وجنوبى امريكا . وظلت فرنسا ترنو ببصرها نحو سـوريا ولبنان حتى وقف مسيو بوانكاريه رئيس الحكومة الفرنسية فى مجلس الشيوخ الفرنسى ذات يوم من أواخر سنة ١٩١٢ يقول : أن لفرنسا فى سوريا ولبنان مصالح قد عقدنا العزم على ضرورة احترامها والمحافظة عليها . مشيرا بذلك إلى خطر امتداد النفوذ الألمانى فى تلك الاصقاع وكان النفوذ الألمانى قد تغلغل فى الدولة العثمانية اقتصاديا وسياسيا بدرجة جعلت الدول تأخذ حذرها .

ولما قامت الحرب العالميـة الأولى ودخلت تركيا الحرب إلى جانب المانيا سارعت فرنسا إلى تأييد مطالبها فى الشرق الأوسط فاتفقت مع بريطانيا بمقتضى المعاهدة السرية المعروفة باسم المفاوضين الانجليزى والفرنسى على التوالى سيكس ـ بيكو Sykes-Picot فى عام ١٩١٦ على خطة مقتضاها ان تكون لبنان وسوريا بعد الحرب فى منطقة النفوذ الفرنسى، والعراق فى منطقة النفوذ البريطانى. ويتفق على نظام دولى خاص لفلسطين بشرط أن يكون لبريطانيا فيها ميناءا حيفا وعكا .

وتحرجت الحال فى سوريا فى أول سنى تلك الحرب إذ انتقم الأتراك من الوطنيين السوريين واللبنانيين الذين كانوا على اتصال دائب بفرنسا لتحقيق أمانيهم الوطنية واتهمتهم تركيا بالخيانة العظمى فاعدمت منهم عددا كبيرا كانت دماؤهم أول ماغذى شجرة الحرية والوطنية فى سوريا الحديثة .

وأخيراً قام الجنرال اللنبى ضد الأتراك فى الشرق فطاردهم حتى طردهم من فلسطين أولا ثم دخل سوريا وانضمت اليه قوات العرب بزعامة الأمير فيصل الذى دخل دمشق ظافرا واسس فيها سنة ١٩٢٠ حكومة ملكية عربية مستقلة. ولكن الحكومة الفيصلية ماكادت تضطلع بالأعمال حتى انبرت فرنسا تطالب بتنفيذ الاتفاق السرى بينها وبين بريطانيا فدخلت جيوشها سوريا واضطر الملك فيصل واعوانه إلى الجلاء عن البلاد . وفى سنة ١٩٢٢ وافقت عصبة الأمم على انتداب فرنسا لسوريا ولبنان .

وعلى الرغم من أن المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم قد نصت صراحة على أنه فى حالة الشعوب الراقية التى كانت تحت حكم الأتراك والتى وصلت فى رقيها إلى درجة تدعو إلى الاعتراف مؤقتا باستقلالها، فان مسئولية الدولة المنتدبة تقتصر على تقديم المشورة والمساعدة الادارية . كما أنها نصت فوق ذلك على وجوب استقصاء رغبات الشعوب كعامل مهم فى الدولة التى تنتدب لهم . على الرغم من ذلك كله فان الحلفاء قد فرضوا فرنسا فرضا على بلاد المشرق فلا فرنسا أعلنت استقلال البلاد مؤقتاً ولا استقصى الحلفاء رغبات الأهالى . حتى اللجنة الأمريكية التى تألفت من مستر كرين ومستر كينج والتى اقترحت صراحة استقلال بلاد المشرق وانتداب الولايات المتحدة عليها أو بريطانيا دون فرنسا إذا اقتضى الحال ، فان الحلفاء لم يأخذوا برأى اللجنة مادام أن أمريكا قد رفضت الموافقة على معاهدة فرساى ولم تشترك فى العصبة . وأخيراً اجتمع الحلفاء فى مؤتمر سان ريمو سنة ١٩٢٢ وقرروا وضع العراق وفلسطين تحت الانتداب البريطانى وسوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى وقد وافق مجلس العصبة على ذلك فى العام نفسه .

ومع أن نظام الانتداب قد غير الأساس الذى كان يقوم عليه الاستعمار قديما فجعل واجب الدولة صاحبة الانتداب هو العمل على مساعدة الشعب المنتدبة له وتهيئته لحكم نفسه وتقديم حساب عن كل ذلك إلى لجنة الانتدابات بالعصبة — مع كل ذلك سارت فرنسا فى سوريا ولبنان وفق سياستها الاستعمارية والتقليدية التى ترمى إلى خدمة فرنسا الكبرى بادماج العناصر الوطنية داخل دائرة الجنسية الفرنسية المرنة فتغذى بها ثقافتها وجيوشها لتخرج فرنسا من ذلك كله قوية عزيزة الجانب وقد اتخذت لها شعارا من المبادىء التى ورثتها عن الثورة الفرنسية : الاخاء والمساواة دون الحرية التى لم تسمح منها بقليل أو كثير للشعوب التى انتدبت لها أو التى وضعتها تحت حمايتها بل جعلتها خاصة بفرنسا وحدها — ودون الاستقلال أو الحكم الذاتى الذى لم تخط خطوة واحدة فى سبيل تحقيقه لبلد تحت سلطانها .

ولما دخل الفرنسيون سوريا راعوا قبل كل شىء مبدأ التفرقة بين الجماعات

الوطنية واكدوا فيها الفروق الدينية فكونوا جمهورية أكثرها مسيحية فى لبنان يمكن أن توازن بها دولة سوريا . واوجدوا دويلات محلية مستقلة عن سوريا كجبل الدروز واقليم العلويين وسنجق اسكندرونه . كل ذلك لأن الشعور بالاستقلال والوحدة العربية فى سوريا كان قويا وكانت فرنسا تخشاه بدرجة جعلتها تقسو فى مناهضة الحركة ففقدت بذلك المكانة الممتازة التى كانت لها قبل الحرب لا فى سوريا وحدها بل فى لبنان أيضا .

ومما زاد السخط على فرنسا سياستها الاقتصادية العقيمة التى انتهجتها فى تلك البلاد فقد كانت ثمة رؤس أموال كثيرة جاء بها السوريون واللبنانيون بعد الحرب من بلاد المهجر وخاصة من أمريكا ، وكان يمكن استغلالها فى إقامة المشروعات العامة وإنشاء الصناعات الكبرى التى تصلح فى تلك الأصقاع مثل صناعة الجلود والصابون والاسمنت والحرير وحفظ الفواكه واستخراج العطور ، ولكن فرنسا عرقلت هذه المساعى ولم تعمل على حمايتها أو تشجيعها ، بل على العكس من ذلك فتحت الأبواب لبضائعها واختصت رجالها وشركاتها وجمعياتها التعاونية بكل موارد الرزق ومصادر الاستيراد واعفت بضائعها من الضرائب فضلا عن احتكار الفرنسيين للسكك الحديدية ولميناء بيروت ، وعن شركات الاحتكار للماء والاضاءة وتعسفها فى فرض الأسعار وتكوين البنوك برءوس أموال معظمها فرنسى وربط عملة البلاد بالفرنك الفرنسى رغم تقلباته وعدم استقراره .

وقد ظنت فرنسا بذلك أنها تستطيع أن تطبق على شعوب شرقى البحر الأبيض المتوسط نفس الأساليب والقواعد التى سارت عليها فى أملاكها بآسيا أو أفريقية ، ونسيت أن شعوب البحر الأبيض المتوسط شعوب راقية لها لغة وأديان إلهية وفنون وأدبيات ولها تاريخ مجيد ومدنية كان لها على المدنية الأوربية الحديثة فضل كبير زادها نوراً وعرفاناً ، ولها على ماضيها المجيد شواهد وآثار تحفزها إلى العمل على استرداد ذلك المجد الغابر . وقد كافحت هذه الشعوب أفرادا وجماعات عندما أعلن العرب ثورتهم على الأتراك وضحوا وأبلوا بلاء حسناً لينعموا

بالاستقلال الذى وعدوا به لاليشقوا بالاستعمار الفرنسى .

لذلك لم يكن غريباً أن تقوم الثورات ضد المستعمرين آونة بعد آونة وأن تفشل الدولة الحاكمة فى محاولتها الحصول على موافقة الشعب على بقاء الانتداب الفرنسى .

وكانت فرنسا جرياً على عادتها تعين حكاماً عسكريين على هذه البلاد فلما قامت ثورة الدروز سنة ١٩٢٥ وانضم إليهم السوريون تحرج مركز الفرنسيين حتى اضطروا إلى ضرب دمشق بالمدافع مدة ثمانية وأربعين ساعة، وعلى أثر ذلك ثار الشعور العربى بل والغربى أيضاً ضد تصرفات فرنسا فدعا ذلك لجنة الانتدابات فى عصبة الأمم أن تنحى باللائمة عليها ولذلك عدلت فرنسا عن الحكام العسكريين وعينت من السياسيين ده جوفنل de Jouvenel وبونسو Ponsot ده مارتل de Martel واستطاعت بذلك أن تهدىء حركة الثوار مؤقتاً ولكنها فشلت فى تنفيذ المادة الأولى من وثيقة الانتداب التى تقضى بإصدار دستور نظامى لحكم البلاد .

وفى سنة ١٩٣٦ اكفهر جو السياسة الدولية فى أوربا وقامت اضطرابات جديدة فى بلاد المشرق تضامن فيها السوريون واللبنانيون على أساس أن تحترم سوريا إستقلال لبنان وحدوده .وكانت هذه الاضطرابات على أثر الحركة التى ظهرت فى مصر سنة ١٩٣٥ وانتهت بتكوين الجبهة الوطنية المصرية وعقد المحالفة مع بريطانيا ،فقبلت فرنسا أن تنظم علاقاتها مع سوريا ولبنان على أساس إستقلالها وارتباط كل منهما بمعاهدة تشبه المعاهدة التى تربط بريطانيا بالعراق أو بمصر .

وقد عرضت فرنسا المعاهدتين على البرلمان الفرنسى لاقرارها فلم توافق عليهما لجنتا الشئون الخارجية فى مجلسى الشيوخ والنواب على أساس أن المعاهدتين لاتحققان مصالح فرنسا، وأن فكرة تكوين دولة مستقلة موحدة فى سوريا فكرة خاطئة لتعدد الطوائف فيها وتباين عقائدها وأغراضها . ونتيجة لذلك عادت الاضطرابات ثانية فى سوريا . وقد ساعد على تفاقم الحال أن فرنسا من تلقاء

نفسها ومن غير أن تستشير سوريا نزلت لتركيا عن سنجق اسكندرونة (١٩٣٨ — ١٩٣٩) عربوناً للودة بينهما بحجة أن ٤٠٪ من سكانها من الأتراك وباقى السكان خلط من العرب وغيرهم . وكانت اسكندرونة داخلة منذ سنة ١٩١٨ فى حدود سوريا الشمالية الغربية ويعد ميناؤها من أهم موانىء البحر الأبيض المتوسط . وقد عز على سوريا أن يقتطع منها هذا الميناء على غير رضا منها وبعد أن ضمت إليها جبل الدروز وإقليم العلويين وكانت فرنسا قد فصلتهما عن سوريا أولا . ولا تزال سوريا تئن من هذا الجرح الأليم الى اليوم

ولما قامت الحرب العالمية الثانية كانت فرنسا قد عينت لسوريا ولبنان قائدا من أحسن قوادها هو الجنرال ويجاند Wiegand ووطدت مركزها فى الشرق بعقد المعاهدة الانجليزية التركية الفرنسية فى ١٩٣٩ وقد هدأت مخاوفها عندما التزمت إيطاليا الحيدة فى الشهور الأولى من الحرب . ولكن الحال تغير عندما انهارت فرنسا وأصبحت الحكومة المركزية تحت رحمة المانيا . وكان من دواعى الاطمئنان نوعا ما إن الهدنة بين المانيا وفرنسا لم تمس حالة أملاك فرنسا فى عرض البحار . ولكن بريطانيا وحلفاءها كانوا يعلمون أهمية سوريا ولبنان من الوجهة الحربية فقد كانت دولتا المحور تهددان مصر من جهة حدودها الغربية وكان الحلفاء يستمدون من حيفا وطرابلس البترول الذى تنقله الأنابيب الممتدة من آبار الموصل وكركوك بالعراق . لذلك أعلنت انجلترا أنها لن تسمح بأن يستخدم الأعداء بلاد المشرق وسيلة للهجوم على النقط الاستراتيجية فى قناة السويس وخليج العجم .

وكانت ألمانيا قد اكتسحت بلاد البلقان وبدأت تتصل بأعوان حكومة فيشى فى سوريا ولبنان لتستخدم قواعدهما الجوية لمساعدة الثوار فى العراق فأجمع الحلفاء نيتهم على تحرير سوريا ولبنان من قوات حكومة فيشى . وتكونت قوة مؤلفة من الجنود البريطانية وجنود فرنسا الحرة بقيادة الجنرال ميتلند ولسون ومعه القائد العام الفرنسى الجنرال كاترو Catroux لضم بلاد المشرق إلى الحلفاء وزحفت

هذه القوة فى خريف عام ١٩٤١ فلم تجد صعوبة فى كسر مقاومة جنود حكومة فيشى وقد سبق قيام الحملة وأعقبها أعلان من حكومة فرنسا الحرة ومن الحكومة الانجليزية بموافقتها على استقلال سوريا ولبنان وانتهاء الأنتداب الفرنسى عليها واعتبار كل منهما دولة ذات سيادة . فاطمأن الأحرار فى الدولتين وساعدوا الحلفاء ضد أعوان حكومة فيشى .

وبدخول الأنجليز منتصرين بلاد المشرق بدأت فى البلاد سياسة جديدة فقد أصبح للانجليز المكانة الحربية الأولى فى البلاد وتأخرت منزلة فرنسا ، وبرفع الحصر البحرى عن البلاد دخلت أعمالها وتجارتها فى دائرة المعاملات الانجليزية الاسترلينية . وكان الوطنيون قد انتهزوا فرصة انكسار حكومة فرنسا المركزية فقرروا فى دخيلة أنفسهم أن يقطعوا الأسباب السياسية التى كانت تربطهم بها وكأنهم وجدوا فى أرتباطهم بفرنسا بعد انكسارها شيئاً من المهانة والذلة فلم يعودوا يأبهون بحاجات فرنسا أو طلباتها ولوكان أعلان الاستقلال الذى أصدرته حكومة ديجول de Gaulle يشير إلى ضرورة تسوية الروابط بين الطرفين فى معاهدة حرة تعقد بينهما بعد الحرب. ولكن الوطنيين أبوا الأعتراف بحق الأنتداب نفسه وقالوا أن حكومة فيشى قد أنفصلت عن عصبة الأمم فى ١٩٤١ فلم يعد للانتداب على بلادهم أصل قانونى وهم خليقون لذلك أن يتمتعوا بالأستقلال وكل مظاهره من حكم نيابى ديمقراطى وتمثيل أجنبى وقوات سورية أو لبنانية أصلية دون أى تدخل أو اعتراض من جانب فرنسا .

وأضطرت فرنسا إلى الخضوع فى أول الأمر، وأنضم الدروز والعلويون إلى سوريا وجرت انتخابات جديدة فى سوريا سنة ١٩٤٣ أنتخب على أثرها الزعيم شكرى القوتلى رئيساً للجمهورية كما جرت أنتخابات جديدة فى لبنان فى تلك السنة نفسها وأنتخب الزعيم بشاره الخورى رئيسا للجمهورية، وكان الحزب الذى يتزعمه الرئيس اللبنانى يناصر حركة الوحدة العربية ويؤيد الاستقلال اللبنانى التام فما عتم المجلس الجديد أن قرر تعديل الدستور اللبنانى وحذف ماكان فيه للدولة

المنتدبة من ميزات وألغى اللغة الفرنسية كلغة رسمية فى البلاد فخنق المندوب السامى هلو Helleu وأصدر قرارا بالغاء الدستور وفض المجلس النيابى وقبض على رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة وبعض الوزراء وأعتقلهم خارج بيروت فى نوفمبر ١٩٤٣ فكان ذلك إيذانا بميلاد روح جديدة شملت البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، لا روح ثورة وعنف ولكن روح إيمان بحق الوطن والثقة بالنفس فتعاون اللبنانيون على أختلاف أحزابهم ودبروا أمرهم وأيقنوا أن حق الوطن عليهم يقتضيهم أن يغسلوا تلك الاهانه التى لحقت مسيحييهم ومسلميهم جميعاً لا بالحرب ولكن بتصفية نفوسهم وتجريدها من أدران الطائفية وكل أثر من آثار التبعية الفرنسية . وكأنما أيقنوا بتأييد العالم العربى لهم ضد فرنسا وبمشاركة بريطانيا لهم فى شعورهم فتذرعوا بالأناة والصبر وفعلا لم تكد تمضى أيام قلائل حتى تدخلت انجلترا وتدخلت مصر وأخواتها الدول العربية ، ولم يسع اللجنة الفرنسية الحرة التى كانت تقوم إذ ذاك فى الجزائر إلا الخضوع، ففك أعتقال الوطنيين وعاد الأبطال إلى أوطانهم منصورين .

ولما أنتهت الحرب وتحررت فرنسا عادت الحكومة الفرنسية إلى باريس وعادت معها بقايا الروح الاستعمارية القديمة، وكأنما عز على الفرنسيين أن يفقدوا أملاكهم وجاههم فى عرض البحار بسبب المانيا فطلبوا — وتشبثوا بطلبهم — توكيد أستقلال سوريا ولبنان بمعاهدتين سياسيتين على النسق القديم ، ونسوا أن الروح القومية الجديدة التى نشأت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية والتى فتحت أعين الشباب فى أثناء الحرب على مبادىء ميثاق الاطلنطى ومن بعده على ميثاق سان فرنسسكو لم تعد تقر الدول الاستعمارية على نظريتها فى ضرورة أرتباط الدول الصغيرة مع الدول الكبيرة بمعاهدات سياسية حربية تبيح للدول الكبيرة فرادى ما كفله ميثاق سان فرنسسكو للجميع من حيث رد عدوان البغاة والدفاع عن السلم بالوسائل التى يقرها مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة . وعبثا حاولت إنجلترا أن تبرهن لفرنسا على أيثارها وتجردها من المصالح الخاصة فى بلاد المشرق

كما حاولت عبثاً أن تؤكد للسوريين واللبنانيين انها — مع اعترافها باستقلال بلادهما وبسيادتهما — تعترف أيضا لفرنسا بمركزها الخاص فى تلك البلاد . فان الوطنيين لم يأبهوا لذلك وشجعهم فى موقفهم أن روسيا وأمريكا كانتا قد اشترطتا حينما اعترفتا باستقلال البلدين الا يكون لأية دولة أجنبية صفة خاصة فيهما .

وقد ازداد مركز الوطنيين قوة على اثر اعلانهم الحرب على ألمانيا واليابان فى فبراير سنة ١٩٤٥ واشتراك الدولتين فى مؤتمر سان فرنسسكو جنباً إلى جنب مع ممثلى الدول الكبرى . وكانت جامعة الدول العربية قد تألفت واجتمع مؤتمرها الأول فى مارس من تلك السنة فلقيت الشعوب العربية من الجامعة أكبر سند فى كفاحها مع الدول المستعمرة ووجدت هذه من الجامعة صفاً متراصاً يشد بعضه بعضا فبدأت تحسب له ألف حساب

وفى الوقت الذى كانت فيه المفاوضات جارية بين حكومة فرنسا وحكومتى المشرق بشأن إنشاء الجيش الوطنى وتسليم بعض المصالح المشتركة التى كانت تباشرها فرنسا إلى الحكومتين الوطنيتين كانت فرنسا تعزز قواتها سراً وعلانية فى سوريا ولبنان وأهمة انها تستطيع بذلك متى جاء الوقت المناسب أن تملى ارادتها بالقوة على الجمهوريتين فثار الشعور الوطنى ضد تصرفات فرنسا ، وسرعان ما أعاد الفرنسيون مأساة سنة ١٩٢٥ فتعرضت دمشق وحلب والمدن السورية الأخرى لقذائف المدافع الفرنسية من جديد كأنما كان الحلفاء يسلحون الفرنسيين الأحرار لتكون لهم الحرية فى الاعتداء على الامم البريئة .

ومن سوء طالع فرنسا أن جاء اعتداؤها على استقلال البلدين فى الوقت الذى كان فيه ممثلوهما يؤكدون استقلالها وسيادتهما بالاشتراك على قدم المساواة مع مندوبى الأمم المتحدة فى سان فرنسسكو لا فرق بين كبيرها وصغيرها . وقد جاء الميثاق فى النهاية معززاً لحق الدول الصغيرة حامياً لها من افتئات الدول الكبرى فنصت المادة السابعة من الميثاق على أنه « ليس فى هذا الميثاق مايتيح للامم المتحدة أن تتدخل فى شئون دولة ما إذا كانت هذه الشئون من مستلزمات سلطانها الداخلى »

ومن شأن هذا النص أن يدحض حجة فرنسا فى التدخل بشأن إنشاء القوات الوطنية.
وجاء فى المادة ٧٨ « لن يطبق نظام الوصاية على الدول المشتركة فى هيئة الأمم المتحدة وستكون العلاقة بينها قائمة على احترام مبدأ المساواة فى السيادة »وفى هذا صيانة صريحة لحق دولتى المشرق من فرنسا التى طالما تذرعت بحقوق الانتداب . لذلك لجأت الدولتان الشرقيتان بشكواهما من فرنسا إلى مجلس الامن وهما واثقتان من قوة حقهما فلما عرض الموضوع لزمت فرنسا الحجة ومن ثم اتفق الطرفان فيما بينهما وجلت القوات الفرنسية والانجليزية عن سوريا ولبنان فى صيف وخريف سنة ١٩٤٦ على التوالى جلاء ناجزاً خالصاً من المعاهدات الحربية ولجان الدفاع المشتركة وغيرها

وليس من شك فى أن قيام جامعة الدولة العربية وامتحان الشعوب العربية وغيرها من شعوب جنوبى آسيا وشرقى البحر المتوسط وجنوبه فى أتون الحرب الماضية قد بعث فى هذه الشعوب روحاً متوثبة جديدة لابد أن تقودها عاجلا إلى آفاق جديدة فى ميادين السياسة والقوة والعلم ، وستضطر معها الدول الغربية حتما إلى النزول عما تزعم من حق لها فى الوصاية أو القوامة على هذه الشعوب .

ولابد أن يكون الكفاح بين هذه الشعوب وبين الدول صاحبات المصالح عظيما ،ففى هذه الأقاليم التى تتقابل فيها القارات الثلاث وتتحكم شعوبها فى أهم مراكز المواصلات العالمية وطرقها فوق ما تجنه أرضها من كنوز معدنية وعيون زيتية وما على ظهرها من أسواق تجارية وثقافية رائجة — فى هذه الأقاليم لا يمكن أن تنفرد دولة كبرى بالنفوذ مهما بلغت ولن تستطيع تحقيق مطامعها لاسيما وأن روسيا قد نزلت إلى الميدان وهى أقرب الدول الكبرى إلى تركيا وبلدان الشرقين الأوسط والأقصى ويهمها أن ترعى مصالحها كغيرها — فلابد أن تتضارب فى تلك الأصقاع مصالح بريطانيا والولايات المتحدة وروسيا . وستكون هذه البلاد حقولا للتجارب تفيد منها شعوبها إذا صمدت وتمسكت بوحدتها ومصالحها — حقولا تنبت فيها أغصان الزيتون أو أسنة الرماح حسب اختلاف الخطة التى ستسلكها الدول الكبرى والسياسة التى ستنتهجها هيئة الأمم المتحدة ...

الفصل الحادى عشر

مشكلة أسكندرونه

سبق لنا القول أنه فى ربيع عام ٣٣٤ قبل الميلاد عبر الاسكندر الأكبر مضيق « الهلسبونت » بين أوربا وآسيا على رأس جيش مدرب من المقدونيين والأغريق وطلع به فوق هضاب آسيا الصغرى ثم سار فى محاذاة ساحل البحر قاصدا فتح الشرق وتقويض دولة الفرس . وبعد نزال وجلاد مع جنود الفرس الذين كانوا يحتلون تلك البلاد أرتد الفرس نحو الشرق وأستمر الأسكندر بزحفه شرقا ويحتل فى طريقه المدن والأقاليم التى يجلو عنها العدو حتى التقى بدارا الثالث ملك الفرس. جاء يقود جيشا عرمرما تجمعت كتائبه من أطراف أمبراطوريته الواسعة وتقابلا فى موقعة « أسوس » عند رأس الخليج الذى يفصل بين جبال الطورس وسهول سوريا وهناك انتصر الأسكندر على الفرس أنتصارا حاسما فتح له الطريق إلى سوريا وفلسطين ومصر ثم عاد الأسكندر يطارد دارا شرقا ومازال به حتى دانت له بلاد ميديا وبابل وما بين النهرين وبلاد فارس نفسها وشمالى الهند إلى ما وراء نهر السند شرقا .

وقد تم للأسكندر هذا النصر العريض الذى أمتدت به فتوحه من البحر الأدرياتى غربا إلى نهر السند شرقا والذى فاق به الاوائل والأواخر من الفاتحين فى مدى لايتجاوز عشر سنوات كان فيها الأسكندر كالشهاب الثاقب لم يكد يضىء ويبهر أنظار العالم الشرقى بأسمه وبأسه وفتوحه حتى تهادى وأفل نجم حياته فجأة وأختطفته الحمى وهوفى الثالثة والثلاثين من عمره . فلا عجب إذا كان العالم على أختلاف أجناسه وأديانه قد خلد أسم الأسكندر فى قصصه وأساطيره وكتبه وآثاره .

ومن الآثار التى بقيت على الزمن تلك المدن التى أختطها الاسكندر نفسه أو التى أقامها خلفاؤه تخليداً لذكرى فتوحه وأنتصاراته، وقد أطلقوا عليها جميعاً أسم الأسكندر أو نسبوها إليه نسبة صحيحة أو محرفة على أختلاف اللهجات اللسانية التى كانت تنطق بها الشعوب التى أخضعها الاسكندر.

وعلى الساحل الشرقى للبحر الابيض المتوسط قامت مدينتان تحمل كل منهما أسمه الاسكندرية التى أسسها الاسكندر نفسه قرب مصب الفرع الغربى للنيل والتى لم تلبث أن أصبحت أهم الموانىء التجـــارية فى البحر الابيض المتوسط، «واسكندرونه» التى أنشئت على قرب من المكان الذى وقعت فيه معركة «أسوس» ولما كانت الاسكندرية أعظم شأنا وأقرب منالا إلى الاغريق فقـــد عرفوا الاسكندرونة بصيغة التصغير فقالوا Alexandretta وعرفها الاتراك باسكندرونه ولست أدرىَ على وجه الدقة ماذا يقال فى اللغة العربية لتصغير الاسكندرية. وقد لاتكون فى اللغة العربية صيغة لتصغير أعلام المدن البتة. ولـكن الشىء الذى أعرفة يقينا أن أسم «اسكندرونه» قد زال الآن أو كادمن المعاجم والخرائط الحديثة، فقد أغنتنا تركيا أخيراً عن البحث عن قياس عربى لتصغير أسماء المدن والبلدان فمحت اسم اسكندرونة كله محوا وأطلقت على المكان اسما آخر قديماً هو «هاتاى Hatay» ليعيدوا — أولا — إلى اذهان الناس مجد «الحيطيين» القدماء الذين ينتسب اليهم الاتراك والذين استوطنوا اسيا الصغرى وفيها ازدهرت مدنيتهم قبل عهد الاسكندر بألف عام، وثانياً — ليزيلوا كل أثر عربى أو إغريقى قد يعلق باسم الميناء أو الاقليم أو السنجق بعد أن نزلت عنه فرنسا لتركيا فى سنة ١٩٣٩، ولا ننسى أن الأتراك الـكماليين قد غيروا اسم القسطنطينية وأبدلوا به اسم اسطنبول التركى حتى يقضوا نهـائياً على الخرافة القائلة باعادة الدولة البيزنطية لزعامة الإغريق أو غيرهم.

ولـكن حق الأتراك فى التمسك باسطنبول يقـوم على العوامل الجغرافية والتاريخية. وهذه العوامل نفسها هى التى تحول دون «تتريك الاسكندرونة»، وإليها

يستند السوريون فى المطالبة بردها إليهم فهى داخلة جغرافيا فى حدود سوريا الشمالية وهى الميناء الطبيعى لمدينة حلب وأقليمها ، وحلب هى المدينة السورية التى تلى دمشق فى الأهمية .

ولقد كانت اسكندرونة ذات أهمية تجارية عظيمة القدر بالنسبة إلى سوريا قبل فتح قناة السويس حين كان طريق التجارة البرى بين آسيا وأوربا يمر بخليج فارس والبصرة ونهر الفرات وحلب واسكندرونة ومنها إلى موانىء أوربا ، ثم عادت لها أهميتها على أثر جهود الألمان قبل الحرب العالمية الأولى فى إنشاء الخط الحديدى الذى كان سيصل برلين ببغداد فقد مد الألمان خطا فرعيا ربط اسكندرونه بالخط الأصلى فى الأناضول فبرزت مكانتها فجأة بعد أن تدهورت على أثر حفر القناة .

ثم نشبت الحرب فقضت على أحلام الألمان وقامت الثورة العربية ضد الأتراك حلفاء ألمانيا يقودها أنجال الشريف حسين وتؤازرهم قوات الحلفاء حتى إذا كانت سنة ١٩١٧ زحف القائد الانجليزى اللنبى Allenby ففتح فلسطين وأخذت المدن السورية ترفع أعلام النهضة وتفتح أبوابها للفاتحين من العرب والانجليز . وكانت اسكندرونة من هذه المدن فسرى عليها ما سرى على الأقاليم العربية التى كانت تابعة لتركيا وتحررت فى نهاية الحرب . ومن الانصاف أن نذكر هنا أن السير هنرى ماكماهون Mcmahon المندوب البريطانى فى مصر الذى خاطب الشريف حسين قبل ثورة العرب نيابة عن الحكومة البريطانية كان قد استثنى من الدولة العربية المنتظرة أقليم اسكندرونة وجهات أخرى غربى سوريا بحجة أن كثرتها ليست عربية . ولكن الشريف حسين فى رده لم يقبل هذا الاستثناء ولو أنه قبل الاستثناء فى جهات أخرى .

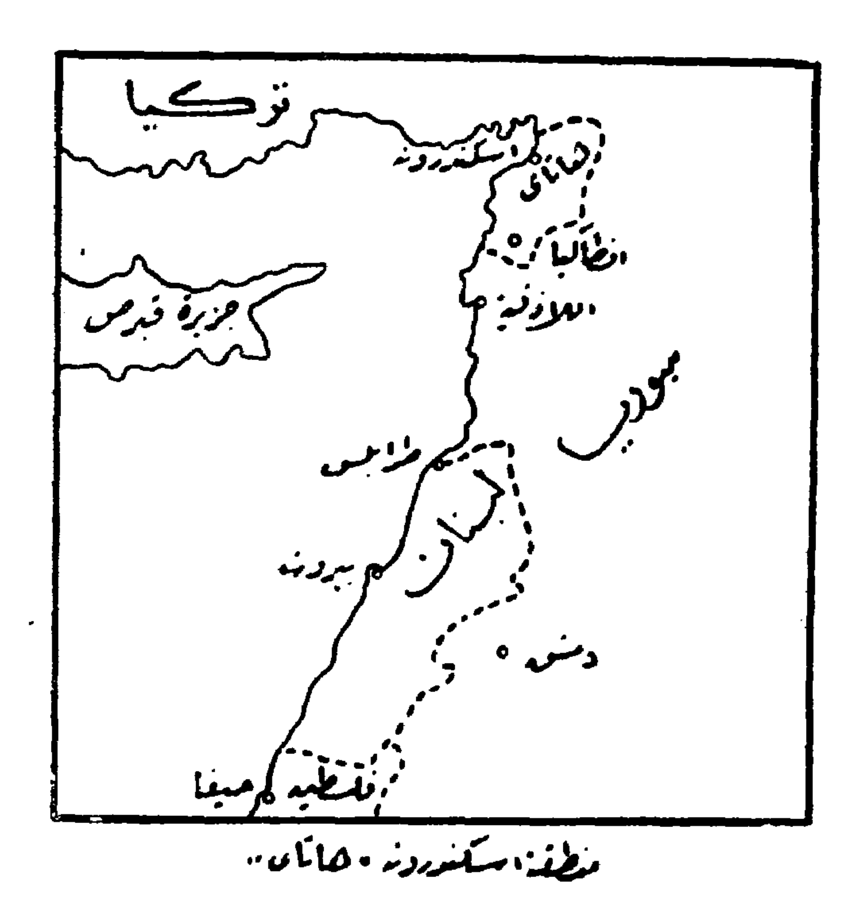
ولكن يظهر أن فرنسا قبل الحرب الكبرى وبعدها كانت تطمع فى ضم سوريا ولبنان إلى امبراطوريتها الواسعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، فلما خاب أملها فى الضم ولم تفز إلا بالانتداب على هذين الاقليمين عولت على أن تتبع

فى حكم هذه البلاد سياسة عقيمة أرهقت بها الأهالى بدرجة نفرت أصدقاءها قبل أعدائها على نحو ما فصلناه فى الفصل السابق . فقد سارت فرنسا فى سوريا ولبنان وفق سياستها الاستعمارية التقليدية عاملة على إسعاد الفرنسيين بالوظائف والمكاسب وإضعاف الوطنيين سياسياً واقتصادياً بكافة الطرق .

وكان مبدأ التفرقة بين الطوائف والجماعات الوطنية أول معول استخدمته فرنسا لقتل الروح الوطنية القومية بين أهل البلاد وجعلوا أساس التفرقة المذهب الدينى ليزداد التجافى والتشاحن بين الأهالى ولتظفر فرنسا بمنزلة الحكم المتسلط عليهم جميعاً . وعلى هذه القاعدة أقاموا فى لبنان جمهورية أكثريتها مسيحية لتوازن بها دولة سوريا المسلمة ، وأوجدوا دويلات محلية اصطناعية جعلوها مستقلة عن سوريا كجبل الدروز فى الجنوب وأقليم العلويين وسنجق اسكندرونه فى الشمال الغربى ولم يكن يفصل بين اسكندرونة وحدود الأناضول سوى اثنى عشر ميلا .

وتبلغ مساحة هذا السنجق ١٩٣٠ ميلا مربعاً وعدد سكانه ٢٢٨ر٠٠٠ منهم ٨٥ر٠٠٠ تركى و ٢٣ر٠٠٠ من المسلمين السنيين و ٦٢ر٠٠٠ من العلويين و ٤٩ر٠٠٠ من المسيحيين على اختلاف مذاهبهم . وتدخل فى هـذا السنجق مدينة انطاكية ذات الشهرة التاريخية

وإنما دفع فرنسا إلى انتهاج هذه السياسة علمها بأن الشعور القومى بين الاهالى كان قويا وأن السوريين كانوا فى طلعة المجاهدين الذين لبوا نداء الثورة العربية وكافحوا وبذلوا أرواحهم فى سبيل الاستقلال والوحدة العربية — تلك الوحدة التى كانت تقض مضجع فرنسا فتعمل جاهدة على قمعها إذ كان نجاحها لابد أن يؤدى إلى تفوق النفوذ الانجليزى أولا ثم إلى تقويض دولة فرنسا لا فى شرق البحر المتوسط فحسب بل فى جنوبه وغربه حيث أهل المغرب والجزائر وتونس الذين تربطهم وشائج نسب وقربى بالعرب فى مختلف الأقطار



منطقة اسكندرونه "هاتاى"

ولم يكف فرنسا أنها قطعت أوصال سوريا وسدت عليها منافذ البحر بما أقامته من الحكومات المستقلة فى لبنان وبه ثغر بيروت العظيم ، وقد ضمت اليه ثغر طرابلس ، وفى اقليم العلويين وبه ميناء اللاذقية ، وسنجق اسكندرونه وبه ميناؤه الكبير — لم يكفها هذا فراحت تحاول محاولة أخرى ، وحين رأت نجاح الحركه الكمالية فى تركيا وبهرها ما أصابه الكماليون من تفوق ونصر مطرد على اليونانيين وتوقعت أن يكون لتركيا الجديدة من السطوة والسؤدد فى البلقان والشرق الأوسط مايدعوها إلى اكتساب مودتها فسارعت وأرسلت فى سنة ١٩٢١ إلى تركيا مندوبا من قبلها هوفرنكلين بويون Franklin - Bouillon ليبلغ الحكومة الجديدة فى أنقرة اعتراف فرنسا بها ورغبتها فى توثيق أواصر المودة بينهما . وكأن فرنسا قد خشيت أن يتجه الكماليون وهم فى نشوة النصر نحو الجنوب فيستردوا بعض مافقدوه فى سوريا فأسرعت بالتنازل لهم عن بعض الأراضى على الحدود بين سوريا والأناضول وقررت إرضاء للشعور التركى أن يكون لسنجق اسكندرونه استقلال إدارى خاص ، ولم يكن لفرنسا بمقتضى

صك الانتداب أن تنزل لدولة أخرى عن شيء من أرض البلاد التى انتدبت لها إلا بموافقة العصبة ،ولـكنها فعلت — ثم جاء مؤتمر لوزان سنة ١٩٢٣ لتصفية ما بين الحلفاء وتركيا فأقر حدود تركيا الجديدة واعترفت تركيا بزوال سيادتها عن الأقاليم العربية التى كانت تحت حكمها ومنها سنجق اسكندونه

واستمر أقليم اسكندرونه يعانى مع باقى الاجزاء السورية متاعب الانتداب الفرنسى وما تبعه من ثورات وحروب وأزمات إلى عام ١٩٣٥ - ١٩٣٦ وفيه تلبد الجو الدولى السياسى فى أوربا واضطربت أحوال العالم جميعه من جراء عدوان إيطاليا على الحبشة وتحديها بريطانيا ومعها الـكثرة العظمى من الدول الممثلة فى عصبة الامم . وكان أول ماظهر من بوادر هذه الاضطرابات فى الشرق حيث قامت فى مصر حركة وطنية انتهت بتكوين الجبهة الوطنية المصرية وعقد معاهدة التحالف مع بريطانيا سنة ١٩٣٦ . ومن مصر انتقلت شرارة الثورة إلى فلسطين ثم إلى سوريا وكانت الحال فى أوربا قد ازدادت حرجا ، فاندلعت الثورة الاهلية فى أسبانيا ورفعت النازية فى ألمانيا رأسها تهدد أوربا بشر مستطير، وتوالت نذر الحرب العالمية الثانية وحينئذ لم تجد فرنسا إلا أن تقبل مرغمة تنظيم علاقاتها مع سوريا ولبنان على أساس استقلالها وارتباط كل منهما بفرنسا بمعاهدة تشبه المعاهدة التى ربطت بريطانيا بدولتى العراق ومصر

وكان أول مقومات هذا الاستقلال أن تعود الدويلات التى اقتطعتها فرنسا من جسم سوريا اليها . وأن تتعاون سوريا ولبنان على المصالح المشتركة بينهما بشرط احترام استقلال لبنان وعدول سوريا عن مشروع اتحاد سوريا بلبنان وتكوين دولة كبرى واحدة . وفعلا تضامنت الحكومتان مخلصتين فى سياستهما الوطنية إزاء الدولة المنتدبة ،وأخذ البلدان يعملان لادراك أهدافهما الوطنية وجعلت فرنسا تعطى حيناً وتمنع أحيانا ، وتجود وتبخل وتعجل وتبطىء ولم تزل فى ترددها هذا حتى اكفهر الجو الدولى واستهدف العالم للحرب العالمية الثانية قبل أن تقر فرنسا معاهدتى الاستقلال بينها وبين الدولتين العربيتين .

وفى هذه الاثناء قامت الاضطرابات فى إنطاكية ، وعزّ على تركيا أن يؤدى استقلال سوريا وانتهاء الانتداب الفرنسى إلى عودة اسكندرونة إلى سوريا مع أن الجالية التركية فى هذا الاقليم تناهز ٤٠ ٪ من سكانه وهم من أقوى العناصر التى استوطنت الاقليم ، فقام الاتراك يطالبون باستقلال اسكندرونه وفصلها عن سوريا توطئة لضمها إلى تركيا فى الوقت المناسب

عند ذلك رأت فرنسا أن مصالحها الحقيقية تحملها على تحقيق رغبات تركيا . على حين تأبى عليها هـــذه المصالح أن تساعد على تقوية الجامعة العربية بضم اسكندرونه اليها وهى عالمة أنها بذلك تستهدف لسخط الوطنيين فى سوريا ولبنان ولـكنها اثرت مصلحتها فقررت عرض الموضوع على مجلس عصبة الامم ، وندبت العصبة لجنة لبحث الحالة فى اسكندرونه.وكانت النتيجة أن قررت العصبة أن توافق الحكومتان على احترام استقلال اسكندرونه الذاتى تحت إشراف العصبة وأصدر المجلس قانونا ينظم حكومة السنجق فتتولى السلطة التشريعية جمعية منتخبة بطريق التصويت العام على درجتين ويمثل القوة التنفيذية مندوب فرنسى تعاونه قوة بوليسية مؤلفة من ١٥٠٠ فرنسى وبيده حق الفيتو أو وقف تنفيذ القوانين التى لا يوافق عليها . وعلى ذلك تقررت حيدة اسكندرونه وأصبحت اللغتان العربية والتركية فيها رسميتين

ولـكن هذا النظام لم يرق فى نظر العرب ولا فى نظر تركيا فاتصلت فرنسا بتركيا رأسا دون وساطة العصبة واتفقتا فى أغسطس سنة ١٩٣٨ على أن يكون لتركيا فى اسكندرونه قوة مساوية للقوة الفرنسية وعلى هذا عقد بين الحكومتين معاهدة صداقة وتعاون . وعلى أثر ذلك أجريت الانتخابات للجمعية التشريعية بعد أن مهدت لها تركيا ، فنال الأتراك ٢٢ مقعداً من ٤٠ واجتمعت الجمعية الوطنية فى انطاكية فى ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٨ وقررت إطلاق اسم « هاتاى » على السنجق وانتخبت رئيسا تركيا للدولة الجديدة كما اختارت الجمعية رئيسها ورئيس الوزراء وكلاهما من الأتراك واتخذت الجمعية علما للسنجق لا يختلف عن العلم

التركى إلا فى النجم الذى يتوسط الهلال فجعلوه نجما مفرغا لا يغطيه البياض ولكن يحيط به ، ومنذ ذلك الوقت بدأ الأتراك « يتركون» المنطقة فجعلوا اللغة التركية وحدها اللغة الرسمية ولغة التعليم ، وأبعدوا الموظفين العرب سواء منهم المسلمون والمسيحيون، وهاجر من المنطقة عدد كبير من الأرمن أنشأوا لهم قرية بين بيروت ودمشق، أوى إليها نحو ألفين منهم . وفى يونية سنة ١٩٣٩ وقد ظهرت بوادر الحرب تخلت فرنسا لتركيا عن اسكندرونة من تلقاء نفسها ومن غير أن تستشير سوريا ومنذ ذلك اليوم أصبحت اسكندرونة جزءا من تركيا . وقد عز على سوريا أن يقتطع منها هذا الأقليم على غير رضا منها فنقم السوريون على فرنسا تصرفها فى أرض لا تملكها وجعلوا يترقبون الفرص لاسترداد حقوقهم فى هذا الأقليم .

ولقد أبرزت الحرب الأخيرة بصفة خاصة أهمية اسكندرونة لا من الوجهة الاستراتيجية فحسب حيث تقوم اسكندرونة على رأس خليج عميق الغور تحوطه الجبال فتكون له بمثابة حصن يقيه هجمات الأعداء ومن هبوب الرياح الشمالية الباردة بل من الوجهة الاقتصادية أيضا فقد وجد فى المنطقة معدن الكروم وزيت البترول فأصبح الخلاف بشأنها شديدا وبلغ كفاح السوريين من أجلها منتهى القوة . وقد سبق لنا القول أن اسكندرونة لا غنى لسوريا عنها لأنها تجد بها العوض عن ثغرى بيروت وطرابلس الشام ولأنها الميناء الطبيعى لجزء مهم من الشام وهو قسم حلب . ليست حاجة تركيا إليها بأشد من حاجة سوريا الحيوية . وإذا كان الأتراك يقرعون حجة السوريين بحجة أخرى هى أن جاليتهم كبيرة فى هذا الاقليم وعددهم يزيد على من عداهم من الطوائف الأخرى فان مجموع العرب — إذا أضفنا المسلمين السنيين إلى العلويين والمسيحيين — يفوق عدد الأتراك فضلا عن الشواهد الجغرافية والتاريخية التى تؤيد دعوى السوريين .

والآن تقف اسكندرونة حجر عثرة فى سبيل الاتفاق بين العرب من جهة وتركيا من جهة أخرى إذ لا يخفى أن هناك ميثاق « سعد أباد » السياسى الذى

أبرم سنة ١٩٣٧ وبه ارتبطت تركيا والعراق وأفغانستان وإيران للتشاور والتعاون معا وأعضاء هذا الميثاق يهمهم وقد انتهت الحرب أن يجددوه وأن يلائموا بينه وبين أغراض جامعة الدول العربية وليس هذا مستطاعا ما دامت مشكلة اسكندرونة قائمة .

ولو أن موضوع الخلاف عرض على هيئة دولية فأكبر الظن أن روسيا لن تؤيد تركيا فى طلبها ، كما يغلب على الظن أن بريطانيا صديقة تركيا وسوريا ستقف محايدة فلا يبقى إلى جانب تركيا إلا فرنسا التى خلقت هذه المشكل من أول الأمر . أما الولايات المتحدة فأكبر الظن أنها تقف مع انجلترا على الحياد من هذا النزاع . وقد تقترح الجامعة العربية على الدول — كما اقترحت بشأن ليبيا — اجراء استفتاء شعبي محايد فى المنطقة . وحسنا تفعل الجامعة وتفعل هيئة الأمم المتحدة إذا لجأت جميعا فى حل مشكلاتها الأقليمية إلى احترام إرادة الشعوب وخاصة إذا اقترن ذلك بالضمانات التى تكفل صحة التعبير عن هذه الارادة بالصراحة والحرية الكاملتين . وإذا كانوا فى الماضى يقولون أن الملوك والبابوات لا يخطئون فقد جاء الوقت الذى ينبغي أن يعترف فيه الجميع بأن حق الشعوب فى تقرير مصيرها هو حق إلهى لا يغلبه باطل القوة ، وان صوت الشعوب من صوت الله .

الفصل الثانى عشر

فرنسا فى شمال أفريقية

يحق لفرنسا أن تباهى بممتلكاتها فى شمال أفريقية فهى منها على مسافة قريبة لا يفصلها عنها سوى مياه البحر المتوسط الذى تلاطم أمواجه سواحل فرنسا الجنوبية كما تلامس سواحل أفريقية الشمالية، ولا تزيد المسافة بين تولون قاعدة فرنسا البحرية فى الجنوب وبين بونة إحدى قواعد بلاد الجزائر على اربعمائة ميل أو أكثر قليلا يقطعها المسافر على متن الجو أو البحر فى ساعات قليلة. وتمتد ممتلكات فرنسا هذه على ساحل البحر المتوسط من تونس شرقا إلى ساحل المحيط الأطلسى غربا ومن وراء ذلك فى داخل الصحراء الكبرى إلى بحيرة تشاد جنوبا ولا يقل عدد سكان هذه الأقاليم عن عشرين مليونا من الأنفس. هذا عدا ما لفرنسا من مصالح مادية وثقافية فى بلاد المشرق ومصر وما لها من الزعامة بين الطوائف الكاثوليكية فى جميع هذه الأرجاء.

لذلك كان اعتزاز فرنسا بأملاكها وملحقاتها فى شمال أفريقية عظيما وكان تصميمها على الاحتفاظ بسلطانها حكما لا يقبل طعنا أو نقضا مهما اختلفت الحكومات فى فرنسا وتنوع نظم الحكم فيها. فى عهد الملكية أرسلت حكومة شارل العاشر فى سنة ١٨٣٠ حملتها الحربية لاحتلال الجزائر فى عهد الامبراطورية الثانية توطد سلطان فرنسا فى الجزائر واستطاعت أن تقضى على الحركة الوطنية التى قامت بزعامة الأمير عبد القادر لمناوئة الحكم الفرنسى. وفى عهد الجمهورية الثالثة أعلنت الحماية على تونس سنة ١٨٨١ ومنها زحفت فرنسا غربا إلى مراكش فى أوائل القرن العشرين.

وها هى ذى فرنسا فى عهد الجمهورية الرابعة تولى أفريقية الشمالية من الاهتمام

ما هو خليق بالأرض الطيبة التى فتحت أبوابها لايواء الفرنسيين الأحرار حين احتل الألمان فرنسا وضيقوا عليهم الخناق فى أوربا فاستقبلت أفريقية الشمالية جمعيةالتحرير الوطنى الفرنسية وأكرمتوفادتها وأضافتهاحتى تم تحريرفرنسانهائيا .

وأول ما امتلكته فرنسا فى شمال أفريقية بلاد الجزائر وقد بررت فرنسا احتلالها بأن أهانة وجهها حاكم الجزائر إلى قنصل فرنسى سنة ١٨٢٧ إذ لطمه على وجهه بمذبة كانت بيده على أثر منافسة حادة شجرت بينهما بشأن رسالة كان الوالى قد بعث بها إلىالحكومة الفرنسية ولم يصله جوابها ،فسير الوزير الفرنسى بولنياك Polignac فى سنة ١٨٣٠ حملة لغزو بلاد الجزائر . وكانت البلاد إذ ذاك تابعة إسميا لتركيا وتمسك بأزمة الحكم فيها أسرة عرف امراؤها بلقب « الداى » .

وكانت تركيا وقت ذاك متخمة بأملاكها شرقا وغربا كما كانت انجلترا مهتمة بحركة الاصلاح النيابى فى بلادها ، لذلك لم تلق فرنسا صعوبة تذكر فى الاستيلاء على الجزائر ، ولم تكد تركيا تحس بفقدان هذه البلاد لطول عهدها بالانقطاع عنها . وكذلك لم تعر انجلترا احتلال فرنسا لتلك المنطقة فى ذلك الوقت أهمية خاصة إذ لم يقع فى وهمها أن فرنسا ستتخذ من بلاد الجزائر قاعدة تزحف منها شرقا وغربا وجنوبا فتنشر سلطانها على طول ساحل أفريقية الشمالى ومن الساحل تتسرب قواتها إلى الداخل جنوبا حتى تصطدم بمصالح انجلترا فى وسط أفريقية . ومنالجزائر نفسها فيمابعدقامت بعثة الضابط الفرنسى مارشان Marchand جنوبا إلى قلب أفريقية وحوض النيل حيث وقف وجها لوجه أمام القوات المصرية يقودها كتشنر فى حادث فاشودة المشهور سنة ١٨٩٩ .

وقامت الحملة الفرنسية إلى الجزائر من ثغر تولون فى مايو سنة ١٨٣٠ مؤلفة من أربعة وثلاثين ألف رجل و٦٠ سفينة حربية ونحو أربعمائة سفينة للنقل وغير ذلك وكان بين رجال هذه الحملة كثير من العلماء والأدباء والفنانين والخبراء فكأنما أراد الفرنسيون بتلك الحملة ان يعيدوا تمثيل حملة بونابرت على مصر منذ ثلاثين سنة مضت . وقد حاول الوالى أن يرد الغزاة ولكنه كان حاكما متعجرفا

مكروها من الأهالى فضاعت جهوده سدى . وسرعان ما استولى الفرنسيون على مدينة الجزائر وغادر الوالى وجنوده البلاد فسقطت فى أيدى الفرنسيين إلا فى المناطق الداخلية من الجنوب والغرب حيث قام الزعيم عبد القادر بجمع العرب والبربر حوله لمقاومة الفرنسيين وتقويض دعائم حكمهم ، وقد عظم شأن الزعيم عبد القادر وأيده سلطان مراكش مولاى عبد الرحمن فجعل يمده بالمال والرجال حتى تحرج مركز الفرنسيين أمامه وأضطروا إلى مفاوضته . وأخيرا وبعد جهاد دام سبعة عشر عاما استسلم الأمير المجاهد للفرنسيين فى سنة ١٨٤٧ بعد أن انقلب عليه سلطان مراكش ولم يجد أمامه مخرجا سوى التسليم . والفرنسيون يعتبرون بلاد الجزائر اليوم جزءاً من فرنسا فهى لاتتبع فى ادارتها وزارة الخارجية ولا وزارة المستعمرات بل تتبع وزارة الداخلية رأسا .

أما تونس فاقل عمراناً ومدنية من الجزائر ولكنها أشد تمسكا بتقاليدها واعقد مشكلات منها . ومركز فرنسا فى تونس مركز الدولة الحامية ولا تزال بها حكومة وطنية اسمية بيد الباى وهو أمير تونسى . ويرجع دخول الفرنسيين تونس إلى سنة ١٨٨١ . وحماية فرنسا لها هى أول كسب سياسى أصابته فرنسا بعد انهزامها أمام البروسيين فى سنة ١٨٧١ . ويظهر أن بسمرك أراد أن يصرف انظار الفرنسيين عن الالزاس واللورين وعن فكرة الانتقام من البروسيين ، فترك لهم هذه القصعة يتبلغون بما فيها ويتلهون آملا أن تتولد بينهم وبين جيرانهم الطليان على الأيام بذور البغضاء والعداوة وبذلك يضمن انضمام إيطاليا إلى جانب ألمانيا إذا دعت الحال . ومع أن سياسة بسمرك لم تتحقق سريعا لأن إيطاليا رغم تحالفها مع ألمانيا فى أول الحرب العالمية الأولى لم تلبث ان انضمت إلى الحلفاء فلا شك فى أن ماشاهدناه فى تونس قبل الحرب العالمية الثانية من اضطرابات وانحياز بعض القوات إلى جانب المحور كان نتيجة محتومة لما نصبه بسمرك من شباك سياسية اصطدمت بها مصالح الدولتين اللاتينيتين الكاثوليكيتين .

ولم يكن غريبا أن يقوم النزاع بين فرنسا وإيطالياً بشأن تونس فالمسافة بين

صقلية وتونس لا تزيد على ٧٠ ميلا . وكانت تونس محط أنظار الساسة الطليان منذ احتلال فرنسا للجزائر وتدخلها هى وانجلترا فى شئون مصر وقناة السويس . والإيطاليون على عكس الفرنسيين والانجليز سريعو الاندماج مع شعوب البحر الأبيض المتوسط ومستوى معيشتهم يدانى مستوى هذه الشعوب . لذلك كان الايطاليون أسبق من الفرنسيين إلى التغلغل فى داخل تونس حتى أنهم أبرموا معاهدة مع الباى فى سنة ١٨٦٨ تصون مصالح الايطاليين فى تلك البلاد وتحفظ لهم جنسيتهم فلما دخل الفرنسيون تونس لم يروا من الشهامة أن يحرموا جيرانهم الضعفاء مزايا تلك المعاهدة بعد أن حالوا بينهم وبين تحقيق بغيتهم ، فعقدوا معهم معاهدة سنة١٨٦٨ وتركوا الايطاليين محتفظين بجنسيتهم داخل تونس كما احتفظوا لهم بمدارسهم ولغتهم وشهاداتهم . ومما دعا فرنسا إلى رعاية جانب الايطاليين والعطف عليهم ما أصابهم فى نهاية القرن التاسع عشر من ذلة الانكسار على أثر هزيمتهم فى الحبشة فى واقعة عدوه سنة ١٨٩٦ . وكان هذا أيضا من الأسباب التى جعلت فرنسا توافق على احتلال إيطاليا لطرابلس فى سنة ١٩١١

ولكن إيطاليا بعد الحرب العالمية الأولى وتحت حكم الفاشيين لم تكن مثلها قبل الحرب ، فقد أخذت تعد العدة لاستعادة سابق مجدها الاستعمارى فى حوض البحر المتوسط وكانت تونس فى مقدمة الأقطار التى ترنو إليها . ولما كان الايطاليون حتى قبل الحكم الفاشى قوما يعتقدون أن من حقهم المباهاة بين الأمم بكثرة النسل فقد أخذ عدد الايطاليين فى تونس يزداد مع الزمن حتى يلغ حدا اضطر فرنسا أن تعيد النظر فى قانون التجنس ، ففرضت الجنسية الفرنسية على الأطفال الذين يولدون فى الجزائر كما شجعت بمختلف الوسائل على التجنس بالجنسية الفرنسية ، فضجت إيطاليا واعتبرت هذا نقضا للمعاهدة ، وقاومت هذه التدابير بأن كانت تنقل الايطاليات الحوامل على سفن إيطالية إلى حيث يضعن أطفالهن على أرض إيطالية وبذا يصبح المواليد ايطاليين لا فرنسيين كما أرادت فرنسا .

ثم نشأت مشكلة الحبشة فى سنة ١٩٣٥ فرأى مسولينى ضرورة التقرب من فرنسا حتى تقف إلى جانب إيطاليا فى عصبة الأمم ولا تعرقل مساعيها فى فتح الحبشة. فدعا لافال Laval وزير خارجية فرنسا إلى روما لتسوية الخلافات بين فرنسا وإيطاليا، وكأنما أراد لافال أن يصرف نظر إيطاليا عن شمال أفريقية وتولى وجهها نحو شرق أفريقية فرحب مسولينى بالفرصة وتم الاتفاق بين الاثنين وظهر للعالم كأن الدولتين اللاتينيتين قد تفاهمتا أخيراً. وكان فحوى هذا الاتفاق أن يصبح الإيطاليون الذين يولدون فى تونس فرنسيين وأن تصبح المدارس الايطالية فى تونس خاضعة لفرنسا وألا تعتبر فى التوظف أو فى مزاولة المهن الحرة إلا الشهادات والدرجات العلمية الفرنسية. ولكن متى؟ لقد نجح مسولينى فى جعل موعد تطبيق قانون التجنس الفرنسى إبتداء سنة ١٩٦٥ وقانون الشهادات الفرنسية إبتداء سنة ١٩٤٥. وبذا ضمن موسولينى كسب فرنسا إلى جانبه فى أزمة سنة ١٩٣٥ وأفلح فى أرجاء تطبيق القوانين الجديدة حتى تسنح الفرصة له فيعدل المعاهدة أو يتنكر لها كما حدث فعلا.

والمهم من حيث المركز السياسى فى تونس أن فى البلاد ثلاثة معسكرات متعارضة المعسكر الوطنى. وقد تنبه الوطنيون أخيراً وكونوا حزبا قوياً يعرف بحزب الاصلاح يؤيد مبادىء غاندى أحيانا ويسير وفق منهج المصريين بصفة عامة ويقتدى بسياستهم وخططهم ويتغذى بآدابهم وكتاباتهم ويطالب فرنسا بالاعتراف باستقلال تونس على أساس معاهدة تحالف وصداقة تعقد بينهم وبين فرنسا. ويبلغ عدد التونسيين نحو ٩٢٦,٠٠٠ نفس منهم نحو ١٠٨,٠٠٠ فرنسى و ٩٤,٠٠٠ إيطالى و ٨٠٠٠ مالطى. وهناك المعسكر الفرنسى وهم يشعرون فى قرارة أنفسهم بما قد تتعرض له تونس من أخطار ولذلك تراهم لايأبهون كثيراً بمصالح تونس ولايميلون الى إجابة مطالب التونسيين خوفاً من إثارة أهل الجزائر ضدهم وصونا لمصالح جيش كبير من الموظفين الفرنسيين المقيمين فى البلاد. أما الايطاليون وعددهم فى تونس يقارب عدد الفرنسيين أو يزيد فكانوا قبل الحرب الأخيرة

يهددون الفرنسيين من ناحية صقلية شرقا وشمالا ومن ليبيا غربا . وقد أسقط الآن حسابهم مؤقتاً كعامل سياسى فى شمال أفريقية .

أما مراكش فهى — على أنها أقل مدنية من تونس والجزائر — أكثر منهما ثروة وأعز نفراً وأشد حرصاً على تقاليدها القومية . ومع أن اتصالها بأوربا لم ينقطع على مر الأزمان والدهور وخاصة بأسبانيا وفرنسا فهى حتى اليوم أقل البلاد العربية تأثراً بالمدنية الأوربية وأشدها حفاظا على تراث الماضى . ويرجع تاريخ دخول الفرنسيين مراكش الى نهاية القرن التاسع عشر حين بدأ سلاطين مراكش يصلحون من أحوال بلادهم وخاصة فى الجيش على أيدى ضباط من الفرنسيين . وكانت مطامع فرنسا الاستعمارية فى شمال أفريقية قد لفتت انظار الدول وكان التنافس قد اشتد بين فرنسا وانجلترا حتى كاد الخلاف يفضى إلى إعلان الحرب بين الدولتين على أثر حادث فاشودة سنة ١٨٩٩ . ولكن ماكاد الملك أدورد السابع يعتلى عرش انجلترا بعد والدته الملكة فكتوريا حتى حل الاتفاق الودى بين الشعبين محل العداء والكراهية وتركت انجلترا تنفذ برنامجها فى وادى النيل على أن تترك فرنسا حرة فى مراكش بشرطين : الأول أن تكون المنطقة الشمالية الغربية المواجهة لجبل طارق بيد أسبانيا والثانى أن تكون طنجة ميناء دوليا محايداً . وقد جاء فى المادة الثانية من الاتفاق الودى «أن الحكومة الفرنسية تقرر أنه ليس فى عزمها أن تغير الحالة السياسية فى مراكش . وتعترف الحكومة الانجليزية من جهة أخرى بحق فرنسا بصفة خاصة فى مراعاة استتباب الهدوء والنظام فى تلك البلاد التى تتاخمها إلى حد كبير ولها أن تقدم لها المساعدات الحربية والمالية والادارية التى قد تحتاجها .

وعقدت فرنسا مع أسبانيا معاهدة كالاتفاقية التى تمت مع انجلترا . وقد اعترفت فيها أسبانيا بمركز فرنسا الخاص فى مراكش كما اعترفت فرنسا بمركز اسبانيا فى المنطقة الشمالية الغربية . وقد تأيدت هذه المعاهدة واعلنت فى سنة ١٩١٢ وعلى أثر ذلك تشجعت فرنسا فلم تبال باعتراضات المانيا وأخذت تتغلغل

فى الداخل . وكان السلطان مولاى الحسن ١٨٧٣ — ١٨٩٤ أول من أوجد حكومة موحدة للبلاد فى تاريخها الحديث وأول من اهتم بادخال الاصلاحات الحديثة تشبها بالخديو اسماعيل فى مصر . ومن أعماله أنه عين عددا من الضباط الفرنسيين لتعليم فنون الحرب الحديثة فى جيشه . وجاء بعده ابنه عبد العزيز فاشتط فى حكمه وأسرف فعزل فى سنة ١٩٠٨ وتولى العرش بعده مولاى عبد الحفيظ وفى عهده ثارت القبائل حول مدينة فاس فطلب النجدة من فرنسا ودخل الفرنسيون فاس سنة ١٩١١ وقامت الأزمة بين فرنسا وألمانيا وهى الأزمة التى انتهت باعتراف ألمانيا بمركز فرنسا الخاص فى مراكش . وعقد الفرنسيون مع مولاى الحفيظ معاهدة الحماية فى ٣٠ مارس سنة ١٩١٢ وعين الجنرال ليوتى Lyautey مقيما عاماً فى مراكش فوجه السياسة الفرنسية على نمط يغاير سياسة فرنسا فى الجزائر وتونس إذ احتفظ للمراكشيين بكل مظاهر قوميتهم فى الادارة والتشريع والتعليم والجيش مع الاحتفاظ لفرنسا بالسلطة النهائية فى جميع الأمور. وقد أبعد مولاى عبد الحفيظ عن العرش وخلفه ابنه يوسف ثم اعتلى العرش فى سنة ١٩٢٧ السلطان الحالى مولاى محمد بن يوسف .

وفى ١٩٢٣ ثارت قبائل الريف فى الشمال الغربى بزعامة الأمير عبدالكريم ضد الاسبان ،وكان قد اجتمع للبربر فى أثناء الحرب العالمية الأولى كثير من السلاح والمال مما كان الألمان يوزعونه سرا لاثارة القبائل ضد فرنسا فاستخدمه المغاربة بعد الحرب ضد اسبانيا وأوقعوا بقواتها عند بلدة مليله هزيمة منكرة كاد الاسبان على أثرها يجلون نهائياً من مراكش. ولكن الحكومة الفرنسية تدخلت وأنقذت سمعة الاستعمار الأوربى فى شمال أفريقية بتجهيز حملة قوية ضد عبدالكريم فتضافرت القوتان الفرنسية والاسبانية ضد قوات الزعيم عبد الكريم فلم يسعه سوى الاستسلام للفرنسيين فى عام ١٩٢٧ ونفى إلى جزيرة ريونيون Reunion فى المحيط الهندى. وظل المغاربة يتغنون ببطولة عبد الكريم ويشيدون ببسالته فى أغانيهم واسمارهم ، وما فتئت

ذكراه تفعل فى نفوس المراكشيين سواء فى المنطقة الاسبانية أو الفرنسية فعل السحر حتى استصرخوا أخيراً جامعة الدول العربية فتقدمت إلى الحكومة الفرنسية بطلب اطلاق سراح الزعيم المغربى فقبلت على شرط أن يقيم فى فرنسا وبينما هو فى طريقه من المنفى فى صيف ١٩٤٧ إذ نزل ببورسعيد لاجئاً سياسياً فى حمى الفاروق ملك مصر .

وقد اضطلع ليوتى بمهمته فى مراكش مـــدة طويلة استطاع فى أثنائها أن يحتفظ لفرنسا بمكانتها الاستعمارية المتفوقة حتى فى أعصب أوقات الحرب العالمية الأولى واختط ليوتى لنفسه خطة إدارية مستنيرة جعلته فى نظر الفرنسيين يضارع اللورد كرومر فى مصر فى نظر الانجليز . وقد استجاب المراكشيون فى الحرب العالمية الثانية لداعى الحلفاء فلم يغدروا بفرنسا المهزمة وعاونوا الحلفاء فى حملتهم على طول الساحل فى شمال أفريقية . وأفادت فرنسا نفسها كثيراً حتى فى أيام الاحتلال الالمانى من منتجات شمال افريقية التى كانت تصدر إلى فرنسا فيفيد منها الألمان والفرنسيون على السواء . وبات المراكشيون الآن فى مقدمة أهل المغرب يترقبون الفرص للحصول على استقلالهم والتحرر من الضغط الفرنسى . وقد تأثر المراكشيون كغيرهم من الشعوب العربية بالروح القومية العامة التى سرت بين الشعوب الشرقية العربية بعد الحربين العالميتين كما أخذت فكرة الجامعة الاسلامية تزداد قوة بين القبائل وخاصة قبائل الريف الخاضعين للحكم الاسبانى . ويبدو أن دور مراكش على مسرح السياسة وفى الميدان الاقتصادى لم يبلغ مداه بعد ، ومتى استكمل فان مراكش بثروتها المعدنية وموقعها الجغرافى الخطير وشدة بأس رجالها ستلعب مع جيرانها أهل الجزائر وتونس دوراً هاماً فى عالم البحر المتوسط .

* * *

ومع أن الامبراطورية الفرنسية الواسعة قد نشأت واتسعت وازدهرت تحت سمع دول أوربا وبصرها لم تتحرك الدول بصفة جدية طوال القرن الماضى لمناهضة فرنسا أو مقاسمتها ذلك الغنم الكبير. أما انجلترا فكانت قد تحالفت مع فرنسا سنة ١٩٠٤ وخلا لها الميدان للعمل فى مصر والسودان ،وأما إيطاليا فقد رضيت بنصيبها فى طرابلس وبرقة،وأما روسيا فكانت تتمخض عن ثورتها البلشفية الكبرى فلم تكن تتطلع إلى مد نفوذها ولم تنشأ لها مطامع فى البحر المتوسط إلا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . وكانت فرنسا على اتفاق مع أسبانيا كما كانت على اتفاق مع انجلترا .

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى وانتصر الحلفاء خسرت ألمانيا جميع مستعمراتها وخرجت نهائيا من ميدان المنافسة الاستعمارية تاركة فرنسا تتمتع بأكبر نفوذ استعمارى فى حوض البحر المتوسط جنوبيه وشرقيه .

* * *

وقد سارت فرنسا فى سياستها الاستعمارية فى شمال أفريقية وفق خطة منظمة صريحة أساسها أن يبقى الحكم مركزا بيد الحكومة الفرنسية وأن تهيأ المستعمرات أولا وأخيرا لخدمة فرنسا بالذات . فمن الوجهة الاقتصادية يجب أن يكون معظم صادراتها ووارداتها لمصلحة فرنسا، فكانت فرنسا تشترى قبل الحرب من مجموعة صادرات كل من الجزائر وتونس ومراكش ما يعادل ٨٤ ٪ و ٥٦ ٪ و ٤٥ ٪ على التوالى وتبيع إلى تلك البلاد من مجموع الواردات ما يوازى ٧٥ ٪ و ٦٢ ٪ و ٣٥ ٪ . وكان يهم فرنسا من الوجهة الحربية وهى تعانى اطراد النقص فى مواليدها أن تلتمس العوض من ذلك بتجنيد رجال المستعمرات دون أى تفرقة بين الفرنسى أو الأوربى أو الوطنى ،وبذلك استطاعت فرنسا أن تحتفظ بمكانتها كدولة كبرى أمام منافساتها من الدول التى تباهى بكثرة سكانها ووفرة مواردها .

وفى مقابل ما تجنيه فرنسا من مستعمراتها من خير وما تستخدم من رجال كان مذهب الحكومة الفرنسية فى خارج بلادها كما كان شأنها فى الداخل أن تنشر المبادىء الانسانية الكبرى التى ورثتها عن الثورة الفرنسية بشأن حقوق الانسان . فهناك كما فى فرنسا أعلنت الاخاء والمساواة بين الجميع، ولكنها حرصت على أن تحتفظ بالمبدأ الثالث مبدأ الحرية السياسية للمواطنين الفرنسيين دون غيرهم . وليس فى برنامج السياسة الفرنسية الاستعمارية كما قد يكون أحياناً فى السياسة الانجليزية مكان ملحوظ لتهيئة الوطنيين لحكم انفسهم وتقرير مصايرهم . كما أنه لم يكن لظهور مبدأ الانتداب فى ميثاق عصبة الأمم بدلا من نظام الاستعمار القديم أثر ما فى طريقة حكم فرنسا لمستعمراتها فى شمال افريقية أو فى المشرق حيث كانت فرنسا منتدبة . لذلك كانت الحكومات الفرنسية تتعثر وترتبك وتخطىء وتمعن فى الخطأ كلما ثار بعض هذه الشعوب على الحكم الفرنسى وقاموا يطالبون بالاستقلال أو الحكم الذاتى . وكانت فرنسا ولا تزال تقابل مثل هذه الحركات بأعنف وسائل القمع . ذلك لانها تعتقد مخلصة عن خطأ أو عن صواب أنها مبعوثة المدنية والثقافة الاوربية إلى هذه الشعوب، وأنها دون دول أوربا جميعا تؤمن بمبادىء المساواة والاخاء وتطبقها دون تمييز بين الاجناس والألوان أو العقائد ، وأن غايتها العليا من حكمها انما هى « فرنسة » هذه الشعوب كما كانت تفعل روما قديما ومنحها جميعاً نفس الحقوق التى يتمتع بها الفرنسى فى بلاده وياله من أمل تتطاول إليه الاعناق وترخص فى سبيله المهج والأرواح .

وما دمنا قد ذكرنا موضوع الفرنسة أو الأدماج وهى السياسة التى يعبر عنها بالفرنسية والانجليزية بكلمة Assimilation فيجدر بنا أن نفرق بين السياسة التى تتبعها فرنسا فى بلاد الجزائر والسياسة التى تتبعها فى مراكش وتونس . ففى هذين البلدين لا يزال عهد الفرنسيين حديثا ولا تزال السلطة الشرعية فى البلاد قائمة وما برح ولى الأمر الشرعى يصدر المراسيم ويعين الوزراء . ولكن كل هذا لا يتم إلا بمشورة المقيم الفرنسى إذ هو وحده المسئول أمام الحكومة الفرنسية

رأساً عن حكومة البلاد وأمنها، ويساعد المقيم الفرنسى طائفة من الموظفين وقوات حربية كافية لحراسة البلاد وحفظ النظام بها .

أما فى الجزائر فان عهد الفرنسيين فيها يرجـــع إلى نحـو مائة وعشرين عاما وتعتبر البلاد — ماعـدا اقليم الصحارى — فى حقيقة الأمر جزءا من فرنسا وهى مقسمة على النظام الفرنسى إلى دوائر انتخابية وكان لها ثلاثة شيوخ وعشرة نواب يمثلونها فى البرلمان الفرنسى فى عهد الجمهورية الثالثة ويحكمها حاكم عام يساعده مجلسان استشاريان .

وفى بلاد الجزائر بصفة خاصة اتبعت فرنسا سياسة « الفرنسة » أو الادماج وتقضى هذه السياسة بان ينشأ الأهالى على اختلاف أجناسهم وألوانهم على النظم الفرنسية فى التربيـة والتعليم والمعاملات وأن يطبق القانون الفرنسى عليهم جميعاً على السواء فليس ثمة مانع من أن يتجنس البربر والعرب واليهود بالجنسية الفرنسية فيخدموا فى الجيش والاسطول ويعينوا فى الوظائف الحربية والمدنية ويشتركوا فى جميع الحقوق التى يتمتع بها المواطن الفرنسى ومن ذلك حق التصويت والانتخاب للبرلمان الفرنسى

ولم يستعص على هذه السياسة إلا المسلمون فقد عجز نظام «الفرنسة» أو الادماج عن هضمهم أو تمثيلهم فى الوطن الفرنسى ونشأت عن ذلك مشكلة سياسية ذات خطر عظيم. ذلك أن المسلمين فى الجزائر يؤلفون الكثرة العظمى فلو سمح لهم بالتمتع بالحقوق السياسية كغيرهم من المواطنين الفرنسيين لاصبحت لهم الغلبة فى الانتخابات واكتسحوا الدوائر البرلمانية كلهـا أو جلهـا. فسكان الجزائر يبلغون الآن ثمانية ملايين من الانفس منهم مليون واحد من المواطنين الفرنسيين ، أو المتفرنسين والباقى مسلمون

وإنما نشأت هذه المشـكلة لأن الحـكومة الفرنسية — وهى أول حكومة علمانية فى أوربا ليس للدولة فيها دين رسمى — قد تعهدت حين دخولها الجزائر بأن تترك لأهالى البلاد المسلمين حرية العبادة والا تتدخل فى شئونهم الدينية . ولمـا كانت المعاملات بين المســلمين تجرى وفق الشريعة السمحة وفيها من القواعد

والنصوص الشرعية مايخالف القانون الفرنسى العام وخاصة فى شئون الميراث والزواج والطلاق فقد تعذر على أولى الأمران يخولوا المسلمين جميع حقوق المواطنين الفرنسيين وما داموا لا يخضعون للقانون الفرنسى فى مسائل تعتبرها الحكومة الفرنسية ذات أهمية بالغة فقد ترتب على ذلك أن سياسة « الفرنسة » أو الادماج التى اتبعتها الحكومة فى الجزائر قد شملت كل شىء تقريبا إلا أن يتمتع الوطنيون المسلمون بالحقوق السياسية التى يتمتع بها غيرهم من مواطنيهم .

وحاولت الحكومة أن تعالج هذه المشكلة فأصدرت فى سنة ١٨٦٥ قانونا يبيح لكل وطنى مسلم ان يتمتع بحقوق المواطن الفرنسى اذا تقدم بطلب ذلك وفى هذه الحالة يصبح خاضعا للقانون المدنى الفرنسى فى جميع أحكامه . ومعنى ذلك أن الوطنى إذا أراد أن يباشر حقوقه السياسية فعليه أن ينزل عن القواعد والحقوق التى اشترعها الاسلام وجرى بها الشرع والعرف بين المسلمين فى جميع الأنحاء على اختلاف العصور . لذلك لم يكن غريبا أن يؤثر المسلمون دينهم على أن يصيبوا من الحقوق السياسية شيئا لا يغنى عن عذاب الآخرة فتيلا .

ثم حاولت الحكومة الفرنسية إصلاح هذا القانون فى سنة ١٩١٩ فاشترطت للتمتع بحق المواطن الفرنسى أن يكون الوطنى عزبا أو متزوجا من واحدة فقط كما اشترطت الا تقل سنه عن ٢٥ سنة وأن يكون قد أدى الخدمة العسكرية فى الجيش أو يكون ملما بالقراءة والكتابة باللغة الفرنسية أو موظفا عاملا فى الحكومة أو بالمعاش . ولكن هذه الشروط أيضا لم تغر الوطنيين على طلب التمتع بحقوق المواطن الفرنسى ولم يكن مما يشرف الوطنى أن يخالف قومه وعشيرته فيطلب لنفسه مزايا قد تحط من قدره وتعرضه للوم والسخط فى نظر مواطنيه .

ولما تعذر على فرنسا تطبيق مبدأ « الفرنسة » بحذافيره اضطرت أمام ضخامة المشروع وعظم خطره أن تعمد إلى سياسة أخرى أقل عمقا من سياسة الادماج وهى سياسة المشاركة Association . ولا تتطلب هذه السياسة أن ينزل الوطنى

السلم عن قانون أحواله الشخصية لكي يصبح مواطنا فرنسيا بل تركت له أن يجمع بين الميزتين . وقد أملت فرنسا بهذا النظام أن تجتذب الصفوة الممتازة من الأهالى فتحملهم على التفرنس وتترك سواد الشعب يتقدم على مهل مع العمل على تعميم اللغة الفرنسية وتحسين مستوى الشعب الاجتماعى بقدر ما تسمح به الظروف .

ووجه الخطر من سياسة المشاركة هذه أنها سبيل إلى التفرقة بين أبناء الشعب الواحد وانقسامه فتظهر فيه أقلية ضئيلة تتمتع بمزايا وحقوق ليست ميسرة لسائر الشعب ، ويظل الشعب محروما من قادته وزعمائه ومن جهود صفوة أبنائه

وسواء اتبعت فرنسا فى خطتها الاستعمارية سياسة الادماج أو مبدأ المشاركة فان الأمر الذى لاشك فيه أنها لم تستهدف يوما فى برنامجها استقلال الشعوب الخاضعة لها أو تأخذ بيدها مخلصة فى هذا الطريق . لذلك كان من المتوقع أن تغرى هزيمة فرنسا فى سنة ١٩٤٠ وتدهور كيانها السياسى شعوب افريقية الشمالية على الثورة والانتقاض على المستعمرين . ولكن هذه الشعوب تمسكت أمام محنة فرنسا بفضيلتى الكرم وضبط النفس فأخلدت إلى السكينة والهدوء وظلت موالية لفرنسا حتى انقشعت عنها الغمة وزال الخطر . ويظهر أن كراهة الوطنيين لايطاليا كانت من أقوى العوامل التى ساعدت على توثيق الروابط بين الوطنيين والمستعمرين ، فتاريخ إيطاليا الفاشية فى ليبيا وما قاساه السنوسيون من التشريد والتعذيب والتقتيل كان يحفظه الوطنيون فى صدورهم فخافوا أن يبدلوا استعمارا بآخر وأن يتخلصوا من فرنسا فيقعوا آخر الأمر بين براثن الطليان .

ولما تألفت حكومة الجنرال ديجول المؤقتة فى سنة ١٩٤٤ رأت أن تكافىء أهل الجزائر على حسن ضيافتهم للفرنسيين الأحرار فأصدرت فى مارس سنة ١٩٤٤ قانونا يمنح الفرنسيين المسلمين فى بلاد الجزائر جميع الحقوق التى يتمتع بها الفرنسيون غير المسلمين دون أى مساس بحق تمتعهم بقانون أحوالهم الشخصية إلا الذين يعلنون فى صراحة أنهم يريدون أن يخضعوا فى أحوالهم الشخصية للقانون الفرنسى أما الحقوق السياسية فقد تركت الحكومة للجمعية التأسيسية أن تنظر فى منح

الوطنيين جميعا حق المواطنين الفرنسيين وان كان عدد منهم لايزيد على ٣٥٠ر.. قد استوفى شروطا معينة تخوله التمتع بهذه الحقوق . وقد صدر الدستور الجديد للجمهورية الفرنسية الرابعة فى أواخر عام ١٩٤٧ وفيه ماسمى بالاتحاد الفرنسى . ويجمع الاتحاد بين فرنسا والأقاليم الفرنسية فيما وراء البحار والدول المشتركة مع فرنسا ، وقد خول الدستور جميع المواطنين حقوقا متساوية واحتفظ بحق اصدار قوانين خاصة لتحديد شروط استعمال حق المواطن . وليس فى احتفاظ المواطن بقانون أحواله الشخصية مايمنعه من التمتع بحقوقه كمواطن فرنسى .

ويبدو أن الوطنيين فى الجزائر لاترضيهم سياسة الادماج أو سياسة المشاركة فهم كاخوانهم فى تونس ومراكش يريدون أن يكون لهم كيان وطنى مستقل يستعيدون به سابق مجدهم أيام خيرالدين بربروسا فى غربى البحر المتوسط وفى المحيط الأطلسى وبحر الشمال حين كان رؤساؤهم وقراصنتهم يسيطرون على البحار ويلقون الرعب فى قلوب الملاحين من جميع الأمم إلا من افتدى نفسه أو أدى لهم الجزية . وأنهم ليتغنون حتى اليوم بمواقف بطلهم الوطنى الريس حميدو فى القرن التاسع عشر ويسمرون بقصصه ومفاخره . والوطنيون يعلمون تمام العلم أن سياسة الاستعمار القديمة قد أصبحت بالية بعيدة عن روح العصر وأنها لاتلائم سياسة الوصاية التى جاء بها ميثاق الأمم المتحدة كما أنها لاتتلاءم مع مظاهر النهضة العربية الحديثة التى ادهشت العالم الغربى وفرضت عليه الاعتراف بقوتها وحقها فى الاستقلال والحريه . وشعوب شمالى أفريقية تربطهم بالشعوب العربية وشائج نسب وقربى وتجمعهم لغة وديانة وأدبيات ومشاعر واحدة. ويلوح أن الاتجاه الاشتراكى الجديد للحكومة الفرنسية الذى أوحى اليها أن تتفق مع السوريين واللبنانيين بعد تشدد وعناد يؤذن بأن فرنسا ستتجنب العثرات منذ اليوم فى طريقها الاستعمارى. وأمامها المثل ظاهرة للعيان فهناك مجموعه الأمم الحرة البريطانيه التى تتمتع باستقلال ذاتى لاشك فيه ، وهناك أملاك الولايات المتحدة المستقلة

استقلالا ذاتياً فى جزر الفلبين وكوبا . وها نحن أولاء نشهد مسلك بريطانيا تجاه الهند وبورماوسيلان . فاذا كانت فرنساوالدول الاستعمارية تصبوحقا إلى التماسك فما أجدرها أن تعلم بأن التماسك بين الشعوب لايقوم على الماديات وحدها ، فهناك الترابط المعنوى والأدبى والثقافى الذى يقوم على حسن التفاهم وتبادل الثقة والمنافع وهو رباط لا يقل فى قيمته عن الرباط المادى ان لم يفقه لان الرباط المعنوى يستتبع الرباط المادى ولا عكس . وليس هناك سبيل إلى توثيق هذا الرباط المعنوى إلا إذا راجعت الدول الكبرى سياسة الاستعمار وقلبتها من أساسها فاعترفت بادىء ذى بدء بحق الشعوب التى أخضعتها الدول الغربية قهراً وعدوانا وعلى كره منها فى أن تحيا الحياة التى ترضاها، وأن تعيش حرة كريمة فى نفسها وبين أصدقائها .

الفصل الثالث عشر

ايطاليا والبحر المتوسط

سخر مسوليني مرة — كما كان يسخر كثيراً من انجلترا — من قول شاعرها « إن الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقيا أبد الدهر » . فقال تعقيباً على كلمة الشاعر الانجليزى : ما هذا إلا سخف وقول هراء ؛ فقد جمعت روما قديماً بين الشرق والغرب فى دولة واحدة وتحت قانون واحد ، وكان البحر المتوسط هو واسطة هذه الوحدة التى استمرت عدة قرون . وقد كان البحر المتوسط خليقاً بأن يظل يربط بين الشرق والغرب لولا الاختراعات العلمية والكشوف الجغرافية الحديثة التى أوجدت طرقاً أخرى للملاحة وأنشأت أسواقاً جديدة للتجارة ، فخمل شأن البحر المتوسط وقامت فى العالم مدنية غربية جديدة موسومة بطغيان المادة . وكان مسولينى يؤكد أن الحكومة الفاشية كفيلة بأن تبعث فى إيطاليا روحاً جديدة تعيد إلى البحر المتوسط أهميته كعامل يربط الشرق والغرب ، تحدياً لبريطانيا وشاعرها .

والحق أن الحكومة الفاشية فى إيطاليا ما فتئت تعمل وتنشر دعايتها عن البحر المتوسط طوال عهدها ، حتى وقر فى النفوس ورسخ فى أذهان القوم أن البحر المتوسط مقترن باسم إيطاليا وقوتها ، وأنه جدير بأن يسموه فى كتبهم وخطبهم « بحرنا » . ولم يكتف الفاشيون بالاعلان والدعاية المجردة ، بل رسموا سياستهم الخارجية وخططهم الدفاعية على أســـاس القوة البحرية حتى أصبح للبحر المتوسط منذ العهد الفاشى فى إيطاليا كيان سياسى قائم لم تلبث الدول أن خصته بأكبر نصيب من اهتمامها وجعلت له مكاناً هاماً فى خططها الحربية والدفاعية.

وتمتاز إيطاليا بأنها شبه جزيرة تغمرها المياه من جميع جهاتها تقريباً ، وأن

البحر المتوسط يلامس سواحلها الشمالية والغربية والجنوبية على حين تطل سواحلها الشرقية على البحر الادرياتى الذى يتصل بالبحر المتوسط بمضيق أترنتو الذى تبلغ سعته ٤٦ ميلا . ولذلك كانت إيطاليا تقول إن حقها فى البحر المتوسط لا تدانيها فيه أية دولة أخرى ، فليس لفرنسا على البحر المتوسط سوى ساحل صغير فى الجنوب . أما انجلترا فليس لها فيه أية حقوق ثابتة إذا ما أسقطنا من حسابنا المصالح الاستعمارية التى تدعيها بريطانيا وفرنسا فى أجزائه المختلفة . ومع ذلك فقد ظلت إيطاليا وما زالت إلى اليوم تعتبر نفسها دولة سجينة فى البحر المتوسط ، وسجانوها هم منافسوها من الانجليز والفرنسيين . فبينما نرى لانجلترا وفرنسا منافذ ومسالك تجارية عدة تعبر المحيط الأطلنطى عن غير طريق البحر المتوسط تستطيع كلتاهما أن تلجأ إليها عند الحاجة ، لا تجد إيطاليا أمامها منفذاً آخر غير البحر المتوسط إذا بدا لها أن تولى وجهها نحو الشرق أو الغرب، ولا مندوحة لها إذا أعوزتها الظروف إلى التماس منفذ آخر عن طرق إحدى البوابتين اللتين تتحكمان فى مدخل البحر فإما قناة السويس شرقا وإما جبل طارق غرباً وكلتاهما تقف على حراستها انجلترا وفى يدها دون غيرها المفتاح . لذلك ركزت إيطاليا الفاشية جهودها وسياستها لتحقيق غرض نهائى واحد هو أن تفلت من ذلك الحصر أو السجن البحرى . ولا تستطيع أن تبلغ ذلك إلا عن طريق التفوق البحرى والتوسع الخارجى .

أما القوة البحرية فان مسولينى لم ين عن تذكير الشعب الإيطالى بماضيه البحرى وتفوق جنوة والبندقية فى مياه البحر المتوسط طوال العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة ، وكان يردد دائماً قوله إن مصير إيطاليا مرتبط منذ القدم بالبحر وسيظل مرتبطاً به ، ولا يحق لأحد أن يزعم أن إيطاليا مقلدة فى ذلك أية دولة أخرى . وقد شفع القول كدأبه بالعمل . فأقام المصانع الكبرى لبناء السفن فى جنوة وتريستا ونابلى ، فلم تمض إلا سنوات قليلة حتى صار لإيطاليا أسطول كبير به من الغواصات الصالحة للعمل فى البحر المتوسط وفى المحيطات مايزيد عدده على

المائة ، فضلا عن البوارج والمدمرات وسفن الطوربيد والقوارب المسلحة إلى السفن الحربية الصغيرة التى تلائم حاجة الملاحة والهجوم فى البحر المتوسط والتى زادت إيطاليا إنتاجها إلى درجة فاقت كل تقدير .

وقد حاول مسولينى أن يجرب حظه فى البحر قبل أن يكتمل استعداده ، فأمر باحتلال جزيرة كورفو من جزر الأيونيان التابعة لليونان ، ولكن الدول اضطرته إلى التراجع . فقد حدث أن اعتدى اليونانيون فى أغسطس ١٩٢٣ على الرئيس الايطالى للجنة الدولية التى كانت تعين الحدود بين اليونان وألبانيا فاغتالوه ومن معه من الطليان ، ولما تباطأت اليونان فى الاعتذار ودفع الغرامة التى طلبها مسولينى وحدد لها أجلا ، أمر فتحرك الأسطول الايطالى واحتل جزيرة كورفو بالقوة فلجأت اليونان إلى عصبة الأمم فتدخل مجلس العصبة فى الأمر وفرض على اليونان أن تدفع التعويض الذى طلبته إيطاليا وقدره ٥٠ مليون ليره إيطالية ، فقبلت اليونان التحكيم وسحبت إيطاليا قواتها من كورفو بعد أن تعلم مسولينى الدرس الأول وهو أن إيطاليا بمفردها لا تستطيع أن تتحدى الدول مجتمعة مالم تنهض بقواتها إلى مستوى يفوق مستوى فرنسا ويدانى مستوى انجلترا منافستها فى البحر المتوسط .

وعلى ذلك اضطلعت الحكومة الفاشية بحركة الإصلاحات الشامله التى تناولت جميع المرافق فى إيطاليا ، وفى مقدمتها تقوية أسلحة البر والبحر والجو ، حتى إذا اكتملت معدات الهجوم أو كادت لاحت أمام مسولينى أهدافه الكبرى قريبة المنال ، ليفلت من البحر المتوسط ويتوسع ماشاءت له أطاعه بالسطو على البلاد المستقلة الوحيدة التى تركها الاستعمار الأوربى دون أن يحتجزها لإحدى الدول وهى بلاد الحبشة ، حتى إذا ماتم له الاستيلاء عليها أصبحت إيطاليا بمنأى عن خنانق البحر المتوسط من جهة وعلى مقربة من بوابة المحيط الهندى وأرض اليمن المبولة الصديقة لإيطاليا من جهة أخرى . وقدر مسولينى فى نفسه أن بريطانيه ومن ورائها عصبة الأمم ستقف لإيطاليا بالمرصاد وتعمل جاهدة على إحباط

المشروع الإيطالى ، ولكنه أمعن فى درس موضوعه واستجلاء العوامل الدولية والسياسية التى تحيط به ماظهر منها وما بطن ، فأدى به الدرس والتحليل إلى أن القوات التى تتسلح بها الدول فى الميادين المختلفة لا يقتصر قياسها وتقدير قيمها على حسب عددها وأنواعها ومدى مفعولها ، بل لا بد إلى ذلك من حسبان عامل معنوى آخر على درجة عظيمة من الخطورة وهو مقدار استعداد الدولة صاحبة الشأن لاستخدام تلك القوات ومبلغ قوة إرادة الشعب الذى تستند إليه الحكومات فى ذلك الشأن . وقد هداه النظر فى هذه الاعتبارات إلى أن قوات انجلترا سواء فى البحر أو الجو أو البر ليس لها خطر ولا ينبغى أن تدخل فى حسابه مادامت الحكومة الانجليزية إذ ذاك تبذل غاية جهدها لتفادى الحرب ، وما دام الشعب الانجليزى على اختلاف طبقاته يمقت الحرب ويؤمن بميثاق العصبة ونظرية السلام العام .

وعلى هذا الأساس رمى مسولينى بسهمه وهو واثق من إصابة الهدف ، فتحدى بريطانيا ومعها العصبة ، واعتدت قواته على استقلال الحبشة ووطئت أرضها جيوش إيطاليا بمعداتها وطائراتها وغازاتها السامة مخترقة قناة السويس التى كانت تسيطر عليها بريطانيا ، وتم ذلك كله تحت سمع عصبة الأمم وبصرها .

ومع إجماع بريطانيا وسائر دول العصبة على توقيع العقوبات الاقتصادية على إيطاليا فلم تقف إلى جانبها من بين الدول المشتركة فى العصبة إلا ألبانيا والنمسا والمجر وإلا ألمانيا التى كانت خارجة على العصبة منذ سنة ١٩٣٣ فان إيطاليا لم تتعثر فى طريقها أو تتردد فى مواصلة عدوانها معتمدة على الحالة النفسية التى ذكرناها وعلى مابدا من خلاف فى الرأى بين انجلترا وفرنسا عقب زيارة الوزير الفرنسى لافال لمسولينى فى روما سنة ١٩٣٥ . وكان تنفيذ العقوبات الاقتصادية على إيطاليا من أقوى العوامل التى استغلها مسولينى فى إثارة حماسة الشعب الايطالى ضد الدول ، وفى تقوية عزمه على المضى فى تنفيذ خططه الحربية مهما كلفه ذلك من تضحية وحرمان .

وعلى ذلك بدأت الحرب بين إيطاليا والحبشة فى أكتوبر سنة ١٩٣٥ ولم تستطع الحبشة أن تقاوم طويلا أمام جحافل إيطاليا ووسائلها الحربية الحديثة المشروعة فيها وغير المشروعة ، فتم لايطاليا النصر بعد ستة أشهر وأعلن مسولينى ضم أثيوبيا إلى التاج الايطالى ، وأعلن ملك إيطاليا نفسه إمبراطوراً عليها . ولم يسع الدول بعد ذلك سوى تجفيف عرق الخجل ومواجهة الأمر الواقع فاعترفت واحدة تلو الأخرى بالامبراطورية الجديدة التى أنشأتها إيطاليا فى شرق أفريقية والتى وقفت فيها على قرب المحيط الهندى تهدد النفوذ الفرنسى فى جيبوتى فى الصومال الفرنسى من جهة وتهدد بريطانيا فى السودان المصرى من جهة أخرى .

وما كاد مسولينى يخرج ظافراً من حلبة النزاع الايطالى الحبشى حتى اندلعت شرارة الحرب الأهلية فى أسبانيا بين الوطنيين برأسهم الجنرال فرنكو والجمهوريين الشيوعيين تناصرهم روسيا وفرنسا وفئات من المتطوعين الانجليز وغيرهم . فرأى مسولينى فى محنة أسبانيا فرصة يغتنمها فيقف عند بوابة جبل طارق حائلا دون نفعها بالاستيلاء على إحدى جزر البليار ، وبذلك تقف إيطاليا حجر عثرة فى طريق مواصلات انجلترا فى البحر المتوسط من جهة وتهدد الخط الحيوى الذى يربط فرنسا بمستعمراتها فى شمال أفريقية من جهة أخرى . فضلا عما تفيده إيطاليا إذا انتصر الوطنيون الأسبان من كبح جماح الشيوعية فى غرب أوربا وتثبيت نفوذها فى داخل أسبانيا .

وكانت ألمانيا فى سبيل مناهضة الشيوعية قد عقدت مع اليابان فى سنة ١٩٣٨ ميثاق مناهضة الشيوعية الدولية المعروف بالأنتيكمنترن Anticomintern Pact والحد من نشاطها فرحبت بالتدخل فى أسبانيا إلى جانب الوطنيين ، وكانت هى أيضاً تضمر الافادة بما تستغله من المعادن فى شمال أسبانيا وبتحصين ميناء سبتة المواجه لجبل طارق فى بلاد المغرب الأسبانية . وبذلك استحالت الحرب الأهلية فى أسبانيا إلى ميدان دولى تختبر فيه الدول والحكومات المتنازعة مخترعاتها وأسلحتها وتهيء فيه لقواتها الفرص للمرانة والتدريب .

وفى الوقت الذى كانت الدول تقرر فيه رسميا عدم التدخل فى الحرب الأهلية كانت الشعوب والحكومات توالى إرسال المتطوعين والمساعدات إلى الفريقين المتحاربين . وقد بلغ ما أرسلته إيطاليا من المتطوعين فى جيش فرنكو نحو ١٠٠,٠٠٠ جندى،واختصت ألمانيا بارسال الطائرات والدبابات والمدافع والخبراء الفنيين فى مختلف فنون الحرب وصناعاتها ، على حين أنشأت فرنسا فرقة دولية للمتطوعين لمساعدة الجمهوريين ، وسمحت لهم الحكومة باختراق الحدود إلى أسبانيا ، وكانت حكومة السوفيت تزودهم بالطائرات والمعدات . ولكن إيطاليا وألمانيا كانتا أسرع وأكرم فى معاونة فرنكو ؛ ولذلك تفوقت قواته فسقطت برشلونة ثم مدريد بعد حصار دام سنتين ونصف سنة ، وانتهت الحرب فى أبريل سنة ١٩٣٩ وقد أيقنت كل من إيطاليا وألمانيا بتفوق معداتهما على معدات فرنسا وروسيا .

ولكن سياسة عدم التدخل والاحتفاظ بالحالة الحاضرة التى أقرتها الدول رسمياً قد حرمت إيطاليا تحقيق مآربها فى احتلال إحدى جزر البليار . ووجد مسولينى نفسه مضطراً فى مقابل اعتراف انجلترا بالامبراطورية الايطالية فى الحبشة إلى تحسين علاقاته مؤقتاً مع انجلترا ، فتفاهما ووقعا اتفاق « الجنتلمان » أو اتفاق الرجل الشريف فى سنة ١٩٣٨ واعترفت فيه الدولتان باهمية البحر المتوسط لكل منهما ، وتعهدتا بأن تحترم كل منهما مصالح الأخرى مع إقرار بقاء الحالة الحاضرة فيه دون تغيير . ولكن اتفاق « الجنتلمان » لم يفد كثيراً ؛ فما لبثت العلاقات بين بريطانيا وإيطاليا أن توترت على أثر مقاطعة إيطاليا لحفلة تتويج الملك جورج السادس ومعاودتها حملة الطعن والتشهير على انجلترا من محطات الاذاعة الايطالية ، وخاصة محطة بارى التى كانت تذيع باللغة العربية ، ثم لم تلبث نيات إيطاليا أن ظهرت فيما بدا من الصلة بين هتلر ومسولينى ؛ فقد زار هتلر روما فى مايو سنة ١٩٣٨ ورد مسولينى له الزيارة فى أغسطس من تلك السنة .

ويظهر أن مسولينى قد اعاد إلى ذهنه تجربة سنة ١٩١٥ حين قررت إيطاليا

إهمال المحالفة الثلاثية التى كانت تربطها بألمانيا والنمسا والانضمام إلى صفوف الحلفاء ، فوازن فى دخيلة نفسه بين ماتكسبه إيطاليا من انحيازها لهتلر وبين ماتستطيع أن تصيبه من جانب الحلفاء ، فآثر فى النهاية أن ينضم إلى ألمانيا إذ كانت إيطاليا تهدف بعد فتح الحبشة إلى ضم تونس وجزيرة قورسقه ونيس فى جنوب فرنسا ، والحصول على مقعد لها فى مجلس إدارة شركة قناة السويس بعد أن أصبحت مصالح الأمبراطورية الجديدة مرتبطة إلى درجة عظيمة بمصير القناة . ولما كان تحقيق هذه الاهداف يتعارض تعارضاً تاما مع مصالح بريطانيا وفرنسا فى البحر المتوسط فقد رجحت فى نظر مسولينى كفة محور روما — برلين لا سيما أنه كان لايزال ينقم على انجلترا والعصبة توقيع العقوبات الاقتصادية على إيطاليا ، ويتحرق لهفة للانتقام وانتهاز أول فرصة تسنح للقضاء على أعدائه أو اعداء نظامه الفاشى . وما كان مسولينى لينقاد بسهولة إلى شهوة الانتقام لو لم تقنعه الحقائق الواضحة لكل ذى عينين بأنه أمام فرصة يحسن اغتنامها ، فقد كان يعارض بشدة فى ضم النمسا إلى ألمانيا ، ولكنه حين زار برلين فى خريف سنة ١٩٣٨ راعه مارآه من هول الأداة الحربية الألمانية وما عرفه عن قوة استعداد ألمانيا إلى درجة تقرب من حد الاعجاز البشرى ، فاقتنع اقتناعاً ملك عليه عقله وإحساسه ومنطقه بأن ألمانيا هى حقا فوق الجميع وأنها لا يمكن أن تقهر بأية حال . ومن ثم قبل على مضض اندماج النمسا فى ألمانيا ، وفوّق السهم للمرة الثانية إلى هدف جديد ، فانضم إلى جانب ألمانيا وسايرها فى مناهضة الشيوعية الدولية وفى التشريع ضد اليهود ، ثم فيما هو أهم من ذلك كله وهو الخروج من عصبة الأمم وعقد المحالفة الدفاعية الهجومية مع ألمانيا فى سنة ١٩٣٩ .

وكانت أول ثمرة للمحالفة الجديدة أن سطت إيطاليا على ألبانيا فى يوم الجمعة الحزينة لعام ١٩٣٩ وشردت ملكها ومليكتها النفساء وضمت البلاد إلى التاج الإيطالى ، وكانت ألبانيا هى المجاز الذى قررت إيطاليا متى اندلعت شرارة الحرب أن تثب منه على عدوتيها يوغوسلافيا واليونان . ومع أن مسولينى قد التزم الحيدة

حتى بدء نشوب الحرب لهول الصدمة التى تلقاها باعلان التحالف بين ألمانيا وروسيا ، فانه لم يلبث أن انساق لتنفيذ الخطة الموضوعة . وقد خاب فأله فى هذه المرة وجافاه التوفيق ، إذ تنكر لمبدأ إرادة الشعب فى الحرب وهو المبدأ نفسه الذى استند إليه مسولينى نفسه فى أثناء الأزمة الحبشية فأفلح . فقد كانت كثرة الشعب الايطالى فى هذه الفترة تكره أن تنساق وراء ألمانيا فى حروبها ، وتود لو أن أيطاليا لزمت الحيدة وحافظت على موقفها من الحلفاء مادامت بأيديهم مسالك البحار والمحيطات حتى لاتتعرض إيطاليا لخطر الجوع والحرمان . ولكن مسولينى أغمض عينيه وأصم أذنيه وكأنما عميت بصيرته وغفل عن كل مايراه ويسمعه وماقد تجره الحرب على بلاده من ويلات ، واغتر بثقة الشعب به وإيمانه بأنه الزعيم الذى لا يمكن أن يخطىء . فجرفه تيار الحرب وربط مصير بلاده بعجلة آلة الحرب الألمانية ، وانتهز فرصة انهيار فرنسا أمام ألمانيا فى يونيه سنة ١٩٤٠ فهاجمها من الخلف . وبدأت منذ ذلك الوقت محنة إيطاليا وارتفع الستار عن مأساتها الأخيرة .

لقد خان زعيم إيطاليا أمانة السلم والأمن التى كانت فى عنقه لبلاده ، فغامر بمستقبل الأمة التى عبدته والتى أفنى أكثر من ربع قرن فى تجديدها وتنشئتها خلقاً جديداً ، إذ أكرهها على دخول الحرب إلى جانب الشعب الذى كان الايطاليون يخشونه ويرهبونه ويضمرون له فى قرارة أنفسهم إلى ذلك مقتاً شديداً . ولذلك لم يكن غريباً أن تتابع الكوارث الحربية على إيطاليا ، فمن تقهقر أمام اليونان فى البلقان إلى ضياع للامبراطورية الايطالية فى أثيوبيا وشرق إفريقية ثم إلى ارتداد وخذلان وفرار من ليبيا والجبهة الشرقية فى شمال إفريقية .

وقد حاول الألمان فى أول الأمر إصلاح حال حليفتهم ، فلما استعصى العلاج ونفد الصبر وضع الألمان أيديهم على أداة الحرب فى أيطاليا ، ولم تمض إلا ثلاث سنوات على دخول إيطاليا الحرب حتى فقدت البلاد تماسكها وتحكم الأجنبى فى مصايرها . ثم جاءت الساعة الحاسمة ، فما كاد الحلفاء يعبرون البحر المتوسط من

تونس إلى جزيرة بنتالاريا وصقلية حتى زالت الغشاوة التى كانت ترين على أبصار الشعب الايطالى فى السنين الأخيرة . فبدلا من أن يستميت فى المقاومة كما نصح مسولينى ، مد الطليان أذرعتهم لاستقبال مخلصيهم من طغيان الفاشيين ومن النظام الألمانى الصارم، ووضح للملك ولأعوان مسولينى وللناس جميعاً أن مسولينى قد خسر الموقعة الأخيرة ، فاجتمع المجلس الأعلى للفاشية وقرر فى ٢٤ يوليه ١٩٤٣ بأكثرية تسعة أصوات ضد سبعة أن يتولى الملك قيادة القوات الايطالية ، وكان معنى ذلك إبعاد مسولينى ، وعين الملك المارشال بادوليو Badoglio رئيسا للهيئة التنفيذية فحل الحزب الفاشى وقبض على مسولينى وأبعد الفاشيين من إدارات الحكومة ، وبدأ يفاوض الحلفاء على شروط الهدنة فتقررت فى سبتمبر سنة ١٩٤٣ وانضم الطليان إلى جانب الحلفاء ، ثم أخذ الحلفاء يزحفون ببطء داخل إيطاليا حتى استطاعوا دخول روما فى يوليه سنة ١٩٤٤ .

وكان الألمان قد خطفوا مسولينى من معتقله بالطائرة فلما ارتد الألمان أمام زحف الحلفاء الأخير فى الشرق والغرب والجنوب حاول مسولينى الهرب إلى سويسرا ، ولكن مواطنيه الطليان باغتوه وقبضوا عليه وقتلوه فى ٢٨ أبريل سنة ١٩٤٥ ومثلوا به شر مثلة . وفى أوائل مايو استسلم القواد الألمان ، فانتهت بذلك الحرب فى ميادين أوربا . وخرجت إيطاليا من الحرب ذليلة مهيضة الجناح منكسة الرأس يلطخ العار جبينها ويغض أبصارها ، لا لانكسارها الحربى فحسب فقد سبق أن انهزم الطليان أمام الأحباش هزيمة منكرة فى موقعة عدوه كما أذاقهم العرب والترك من قبل فى طرابلس وبرقة طعم الهزيمة فى مواقع عدة ، ولكنهم لم يجازفوا فى مرة من تلك المرات أو يقامروا باسم بلادهم وشرف زعمائهم كما فعلوا فى هذه المرة . فقد أذعنوا أو سلموا قيادهم لمسولينى وكان قويا بهم مع أنهم كانوا يعلمون علم اليقين أنه على خطأ فيما جرهم إليه ، وأن دخول إيطاليا الحرب وهى لا تزال مكلومة من حرب الحبشة سينتهى بها حتما إلى الهاوية . ثم لم تكد الهزيمة تكشر عن أنيابها ويتحرج مركز الزعيم المعبود حتى انقلبوا عليه وأنزلوه من

حالق فهوى إلى مواطىء النعال، فداسوه وداسوا معه المبادىء التى طالما آمنوا بها ودعوا إليها . وكأنما كان معبود إيطاليا العتيد تمثالا من طين عبدوه فترة من الزمن وأحرقوا من حوله البخور ودقوا له الطبول ، ثم ما لبثوا أن كفروا به فهشموه حتى أحالوه تراباً .

على أن إيطاليا التى جالدت خطوب الزمن وصارعت أحداثه آلاف السنين لم تفقد يوماً حيويتها ولم تعدم وسيلة لتلائم بين ظروفها وحاجاتها . فما كاد الحلفاء يسلمون زمام الأمور فى البلاد للهيئة الحاكمة الجديدة حتى بدأ الايطاليون يعوضون ماخسروه فى الحرب من إنتاج وأسواق فأقاموا كثيراً من مصانعهم ، واستعاضوا عن الوقود الذى قل فى أوربا جميعها والذى فقدته إيطاليا بعد ضياع شبه جزيرة استريا باستخدام الكهرباء من مساقط الماء وخاصة فى القسم الشمالى حيث جبال الألب والأنهار السريعة الجريان . وقد أبقت الحرب على كثير من محطات القوى المائية التى أقيمت بكثرة فى العهد الفاشى فلم ينلها عطب يذكر .

واغتنمت إيطاليا فرصة خروج ألمانيا واليابان من ميدان التنافس التجارى فنهضت بانتاجها الصناعى والزراعى ، واستبدلت بمنتجاتها الخامات من بريطانيا وأمريكا ومصر والهند ، ولم يبق مغلقاً أمامها إلا أسواق شرق أوربا ؛ فاذا سويت مسألة التعويضات بينها وبين روسيا انفتحت لها أسواق روسيا والبلقان، واستطاعت إيطاليا أن تسترد كثيراً مما فقدته بسبب الحرب . وإذا كانت مالية البلاد قد تضعضعت إلى حد الافلاس — إذ بلغ العجز بين الايراد والمنصرف فى سنة ١٩٤٥ أكثر من ١١٥ ألف مليون ليرة كما بلغ الدين الوطنى ٨٥٠ ألف مليون ليرة عدا القروض الأجنبية — فان القرارات الأخيرة بشأن تخفيض قوات إيطاليا المسلحة إلى أدنى حد ممكن سيكون من شأنها أن ترفع عن كاهل البلاد جانباً ثقيلا من التبعات المالية التى كانت ترهق ميزانية البلاد قبل الحرب الأخيرة ، كما سيكون لإبعاد إيطاليا عن مستعمراتها أحسن الأثر فى تركيز ثروة البلاد وإعفائها من تحمل تبعات الدفاع عنها واستتباب النظام فيها، هذا إلى أن الايطاليين الذين يرغبون عادة فى الهجرة من بلادهم قوم فقراء تعوزهم رءوس الأموال اللازمة للتثمير والتعمير ، وقد دلت

التجربة القاسية فى ليبيا والحبشة على قلة استعداد الطليان لحكم المستعمرات على رغم حسن قابليتهم للاندماج مع الأهالى والعيش على الكفاف .

وإذ كانت إيطاليا أول دول المحور استسلاماً وطلبا للصلح والانضمام إلى جانب الحلفاء ، جاءت قرارات الصلح الذى أبرم فى مارس سنة ١٩٤٧ مع حكومة إيطاليا الجمهورية الجديدة أخف وقعاً مما كان ينتظر . وتنحصر التعديلات والتغييرات الأقليمية التى اقتضاها الصلح فى تصحيح فرنسا لحدودها الشرقية باضافة بعض مساحات صغيرة إليها من الأراضى الأيطالية ، وقد أصرت فرنسا على ضرورة ذلك عقاباً لايطاليا على هجومها المفاجىء فى يونية سنة ١٩٤٠ ومع ذلك فقد اشترط الحلفاء على فرنسا أن تحترم مصالح الايطاليين فى تلك المناطق ، وأن تحتفظ للطليان بمحطات القوى التى أنشئت بها . وأما جزر الدوديكانيز فقد كانت حجة أيطاليا فى الاستمساك بها بالغة منتهى الضعف ؛ إذ كانت تلك الجزر تابعة فى الأصل لتركيا ، وهى من حيث الجنس واللغة والدين والتقاليد تنتسب إلى اليونان ، وقد تسلمتها اليونان فعلا فى مارس الماضى . وأما مستعمراتها فى افريقية فقد أرجىء تقرير مصيرها عاماً منذ تاريخ إقرار الصلح مع إيطاليا حتى تستطيع اللجنة التى ألفها الحلفاء أن تدرس الحالة وتقدم مقترحاتها . ولايزال النزاع بشأنها شديداً بين حكومة اتحاد السوفيت من جهة والحكومات الديمقراطية من جهة أخرى . ويكاد أمل إيطاليا فى استرداد شىء منها يكون فى حكم المستحيل بعد الذى عاناه أهالى المستعمرات من الحكم الفاشى قبل الحرب الأخيرة .

بقيت مشكلة تريستا ومنطقة فنيزيا جوليا وشبه جزيرة أستريا Istria وهى الحاجز الذى يفصل بين شرقى أوربا وغربها والذى تصطدم فيه مصالح يوغسلافيا بمصالح إيطاليا . وقد كانت هذه المنطقة منذ الحرب العالمية الأولى مصدر نزاع بين الدولتين ، وقد أصرت يوغسلافيا بعد الحرب العالمية الثانية على استرداد تلك المنطقة من إيطاليا ، ووجدت من جانب حكومة السوفيت سنداً لها ، فضمت معظم المنطقة ما عدا تريستا التى احتلها الحلفاء ولا يزالون بها حتى الآن ، وقد دعا

هذا إلى تحرج الموقف بين حكومات الغرب والشرق . وليس خافياً أن الموقف فى البحر الادرياتى لا يحتمل وجود دولة كبيرة كايطاليا إلى جانب دولة متوسطة كيوغسلافيا ، وأن كتلة الدول الشرقية حريصة على تكبير شأن يوغسلافيا وصبغ المنطقة جميعها باللون الأحمر . وبما ان إيطاليا بحكم تقاليدها وميولها قد اتجهت بسياستها نحو الدول الغربية فقد اشتد النزاع بين الجانبين بشأن تريستا وتقرر فى النهاية أن تكون منطقة دولية محايدة تخـــدم مصالح أوربا الوسطى جميعاً . أما يوغسلافيا فقـــد وضعت يدها على جزر البحر الأدرياتى وعلى ميناء فيومى وبولا ومنطقة فنيزيا جوليا ، ولم يعد لايطاليا فى البحر الأدرياتى ســـوى البندقية ثغرها القديم وفيه ستركز إيطاليا الجديدة نشاطها البحرى والتجارى فى البحر الأدرياتى .

وبذلك تكون إيطاليا قد قصت أجنحتها البحرية فى البحر المتوسط والبحر الأحمر ، إذ خسرت مستعمراتها فى ليبيا وأرتريه والصومال والحبشة ، وضاعت عليها جهود ساستها فى مدى خمسين عاماً أو أكثر ، كما فقدت قواعدها فى جزر الدوديكانيز وفى البحر الأدرياتى . وتقضى معاهدة الصلح أن تهدم تحصيناتها فى جزيرة سردانية وبنتيلاريا وغيرها من الجزر الصغيرة التى كانت فى موقعها من وسط البحر المتوسط تهدد القواعد الانجليزية والفرنسية وتعلن عن قوة إيطاليا فى البحر الذى كانت تدعوه بحرها .

ولكن إذا كانت إيطاليا قد تركت — إلى حين — سياسة البحر المتوسط فان هذا البحر لن يتركها ، وسيظل من أهم العوامل الطبيعية التى تؤثر فى بعثها ونهضتها ،وهاهى ذى الآن وهى لم تزل فى محنتها تحرص على إحياء صناعة السفن من جديد فتشيدها وتجريها لمنفعة غيرها . وتحاول حكومة الجمهورية الجديدة بكل قواها أن تعيد إيطاليا إلى مكانتها الدولية ، فأخذت تتبادل الممثلين السياسيين مع ســـائر الدول وتطلب الاشتراك فى هيئة الأمم المتحدة ، ونجحت فى الانضمام إلى مشروع مارشال والحلف الأطلنطى وتريد أكثر من ذلك أن تنهض من كبوتها فتستأنف العمل على بسط نفوذها التجارى والدينى والثقافى فى

منطقة البحر المتوسط دون أن يكون لها فى الوقت الحاضر من النفوذ السياسى أو الحربى ما يؤدى بها إلى الهاوية مرة ثانيــة . وإنها لتفضل وهى فى حالتها الحاضرة أن تنسى ما ضيهـا القريب وتـكسب صداقة الدول الديمقراطية من جهة ورضاء حكومة السوفيت وصاحباتها من جهة أخرى ، وبذلك تطمع أن تـكون أداة الوصل بين الشرق والغرب . وإن لدى إيطاليا من قوة رجالهـا واطراد زيادة عدد سكانها مع ما عرفوا به من الوطنية والـكد وقوة الاحتمال والبناء لصفات لو أضيفت إلى تالد مجـــدهم وموقع بلادهم الجغرافى فى وسط البحر المتوسط لـكفلت لهم جميع المزايا التى تؤهلهم قبل مضى وقت طويل إلى اجتياز طور النقاهة سريعاً ، ثم الانخراط فى سلك الدول العظمى .

الفصل الرابع عشر

الحركة الوطنية فى ليبيا

لما اشتدت الأزمة السياسية فى إيطاليا وأثيوبيا فى سنة ١٩٣٥ ، عرض أحد مندوبى الصحف الأمريكية على مسولينى حلا يقترح فيه اقتطاع جزء صحراوى من أثيوبيا لايطاليا لعله بذلك ينصرف عن نية إعلان الحرب التى كان يبيتها حينذاك ضد الأحباش . فرمق مسولينى محدثه بنظرة حادة كلها سخرية وزارية وأجابه قائلا : « ومن قال لك انى من هواة جمع الصحارى فى العالم ؟ » يشير بذلك إلى أنه يكفى إيطاليا أن تكون لها ليبيا وهو الإسم الذى أطلقه الطليان أخيراً على إقليمى برقة وطرابلس جميعاً .

والحقيقة أن هذه البلاد ما هى إلا جزء من الصحراء الكبرى المشهورة التى تمتد فى شمال أفريقية من النيل شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ، ومن ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى نهر النيجر جنوباً . ولشدة طغيان الصحراء فى هذه البلاد اقتصر العمران فيها على طائفة من المدن الساحلية الصغيرة القليلة العدد والسكان مما دعا القدماء إلى أن يطلقوا عليها اسم « تريبوليس » أو طرابلس ومعناها المدن الثلاث . ولما كانت الزراعة فى هذه البلاد مقصورة على بعض الواحات وأجزاء من السهول الساحلية التى تجود عليها الرياح الغربية أحياناً بفيض من أمطارها فى فصل الشتاء ، فقد انصرف معظم الأهالى إلى الرعى وتربية الماشية، ولكن عدداً كبيراً من سكان هذه البلاد وما جاورها من شمالى أفريقية قد برموا بحياة الفاقة والشدة والامحال التى تفرضها عليهم طبيعة بلادهم الصحراوية ، فانصرفوا عن الصحراء وولوا وجوههم نحو البحر مجاهدين فى سبيل الله لعلهم واجدون فيه وعلى سواحله فيئا ورزقاً طيباً ؛ وما لبثوا أن انتظموا فى سلك

قراصنة البحر وقطاعه من جبابرة الملاحين الأتراك والروم من أهل جزر بحر إيجه الذين اعتنقوا الإسلام واتخذوا البحر المتوسط مهاداً ومعاشاً ، وسعوا فى مناكبه بالبطش والجبروت ، فكانوا يفرضون سلطانهم على السفن التى تمخر عبابه ويقررون على أصحابها من الأوربيين الجزية والضرائب والعطايا يدفعونها صاغرين، وإلا سلبت تجارتهم وأسر مواطنوهم وبيعوا بيع الرقيق ودمرت سفنهم تدميراً . وقد ظل سلطان قراصنة البحر قائماً فى شمال افريقية منذ القرن السادس عشر ، وبلغ أشده وعنفوانه فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . ثم أخذ يتناقص شيئاً بعد شيء حتى احتلت فرنسا بلاد الجزائر فى سنة ١٨٣٠ ومن ثم بدأ أثر القرصنة يزول فى تلك الأرجاء .

كان طورغود القائد البحرى التركى أول من أقام للقراصنة دولة فى طرابلس فى منتصف القرن السادس عشر ؛ فقد خلص البلاد من حكم الفرسان الصليبين سنة ١٥٥٣ وأتبعها الدولة العثمانية ، وجعل يبنى السفن ويسلحها ويحصن القلاع والمرافىء حتى شيد لطرابلس أسطولا بحرياً من سفن القرصنة أنزل به الرعب فى قلوب الملاحين والتجار من شعوب أوربا . وقد أصبحت التبعية التركية بعد طورغود اسمية وآل أمر حكومة البلاد إلى أيدى رؤساء الجنود من الانكشارية الذين جاءوا مع طورغود وأثروا من الأسلاب والغنائم التى كانوا يستولون عليها.

وظل زعماء الانكشارية هؤلاء يتنافسون ويقتتلون فى سبيل الحكم حتى تسلم كبيرهم أحمد القرمنلى حكومة البلاد فجعلها وراثية فى أسرته منذ سنة ١٧١٤ معتمداً فى موارده على ما تصيبه الحكومة من أموال الغنائم وما كانت تدفعه بعض الحكومات من الرسوم والعطايا لتأمين تجارتها وسفنها التى كانت تمر فى شرق البحر المتوسط ، فكانت حيناً تتفق مع حكام طرابلس — أو الدايات كما كانوا يعرفون — فى معاهدات تعقدها معهم رأساً دون حاجة إلى الرجوع إلى القسطنطينية ، وأحياناً ينشب النزاع بين هؤلاء الحكام والحكومات الأجنبية ، ويشتد التشاحن حتى يصل إلى لون من ألوان الحرب . وقد سيرت الولايات

المتحدة ذات حين طائفة من بحارتها لاحتلال ميناء درنة فى أوائل القرن التاسع عشر ، وحاصروا طرابلس وضربوها بالمدافع ، وفقد الأمريكان حينذاك إحدى سفنهم الحربية ، وأسر بحارتها . ولما لم يطق الأمريكيون صبراً على الاقامة فى درنة آثروا أن يتفقوا مع الحاكم بعد أن افتدوا أسراهم بمبلغ عظيم من المال . وهكذا كانوا كلما اشتط الحاكم معهم فى تقدير الضريبة التى يدفعونها أرسلوا إليه سفناً من أسطولهم ترغمه على قبول مطالبهم .

وقد امتد سلطان أسرة القرمنلى على الساحل من غربى ميناء طرابلس إلى بنغازى ، وكانت الحكومة العثمانية تحتفظ بها كاحدى قواعدها فى البحر المتوسط . أما القبائل التى كانت تقيم فى داخل البلاد فلم تتأثر كثيراً بنظام الحكم وظلت مشتغلة بمنازعاتها الداخلية فيما بينها على ما عرف عنها إلى الآن. وقد طبعت القراصنة أخلاق أهل البلاد بصفات المخاطرة والجلاد والكفاح مع الأعداء والمنافسين أيا كانوا ومهما نالت منهم الخطوب والأحداث .

ولما ضعف سلطان تركيا فى أواخر القرن الثامن عشر ، وتعاقبت انهزاماتها أمام روسيا وأمام ولاتها فى البلقان وفى الشرق ، طمعت الدول الأوربية فى ضم أجزاء من الامبراطورية العثمانية إلى أملاكها ، فكانت حملة بونابرت على مصر ، وأعقبتها بعد عشرين عاماً ثورة الأغريق ، ثم تجاسرت فرنسا وأرسلت حملتها لاحتلال بلاد الجزائر فى سنة ١٨٣٠ . فكانت هذه الأحداث جميعاً سبباً فى كسر شوكة القراصنة فى شرقى البحر المتوسط وإضعاف دايات طرابلس ، كما كانت عاملا قويا فى تنبيه الباب العالى إلى ضرورة التيقظ للاحتفاظ بالبقية الباقية من نفوذ تركيا فى شمالى أفريقية .

لذلك انتهز السلطان محمود الثانى فرصة تفاقم النزاع فى طرابلس بين المطالبين بالحكم من أسرة القرمنلى فأرسل فى سنة ١٨٣٥ قوة بحرية مكونة من ٢٢ سفينة وعليها وال من قبله لتسلم الحكم فى ولاية طرابلس الغرب ، وقد عرفت بالغرب لتمييزها عن طرابلس الشام وأصبحت تركيا منذ ذلك الوقت تحكم البلاد رأساً . وكأنما أحست

بأن هناك دولا أوربية ترنو ببصرها نحو طرابلس وتطمع فى السطو عليها ، فجعلت تستميل الأهالى إليها بانشاء المدارس، وإصلاح شؤون القبائل والادارة ، وتعيين بعض أهل البلاد فى وظائف الحكومة ، وأخذت تقوى الثغور والحصون وتسلحها؛ حتى إذا أعلنت فرنسا حمايتها على تونس فى سنة ١٨٨١ ، واحتل الانجليز مصر فى سنة ١٨٨٢ لم يبق شك فى أن ايطاليا تعد عدتها للانقضاض على طرابلس لتحرز نصيبها من الغنيمة وهى البلاد التى بقيت فى شمالى افريقية بل فى افريقية كلها عدا الحبشة غير خاضعة لسلطان إحدى دول أوربا .

وكان بسمرك المستشار الألمانى قد ارتضى أن ينصرف اهتمام فرنسا وتفكيرها عن الالزاس واللورين إلى شمالى افريقية ليوقع الشقاق بينها وبين انجلترا من جهة وبينها وبين إيطاليا التى كانت لها مطامع فى تونس من جهة أخرى . وأرادت فرنسا بدورها أن تشترى سكوت إيطاليا فاتفقت معها سراً على أن تكون لها طرابلس مقابل عدم اعتراضها على مشروعات فرنسا فى مراكش .

وعلى ذلك باتت إيطاليا تترقب الفرصة المناسبة للنزول بأرض طرابلس ، وقد سنحت لها الفرصة فى سنة ١٩١١ وكانت تركيا إذ ذاك قد دخلت فى طور جديد من حياتها الدستورية والسياسية على أثر ثورة جمعية الاتحاد والترقى فى سنة ١٩٠٨ وإقصاء السلطان عبد الحميد عن عرشه ، وإثارة الشعور الإسلامى فى العالم أجمع حول الخلافة العثمانية ضد أوربا . وكان وليم الثانى إمبراطور ألمانيا إذ ذاك يشجع حكومة تركيا بالمال والرجال؛ ويعاونها على تنفيذ المشروعات الاقتصادية الكبرى وفى مقدمتها مشروع السكة الحديدية من برلين إلى بغداد ، ومد فرع منها إلى الحجاز . فخشيت إيطاليا لو انتظرت أكثر من ذلك أن يقوى مركز تركيا فى طرابلس على الأيام بمساعدة ألمانيا، ويستعصى عليها بعد ذلك إخضاع البلاد التى سمحت الأقدار بأن تكون نصيبها من التركة . لذلك سارعت إيطاليا فى سبتمبر سنة ١٩١١ بارسال إنذار نهائى إلى تركيا بشأن طرابلس ، وأعلنت الحرب بعد ٢٤ ساعة من تسلم الانذار .

ولم يجد الأسطول الايطالى صعوبة تذكر فى اخضاع المدن الساحلية : طرابلس وبنغازى ودرنة ، ولكن القوات الايطالية لم تجرؤ على التوغل فى الداخل على حين قد تسرب الضباط الأتراك بين القبائل ووحدوا صفوف الأهالى وقادوهم ضد الطليان كلما لاحت لهم فرصة للهجوم . وقد حاولت إيطاليا فى أول الأمر أن تضغط على الأتراك فتهاجم أسطولهم البحرى فى شرق البحر المتوسط ، وتخترق المضايق . ولكن النمسا كانت لها بالمرصاد ، فأنذرتها بعدم الاقتراب من مياه البلقان ، فلم يسع إيطاليا سوى إرضاء حليفتها النمسا وألمانيا ، واكتفت باحتلال جزيرة رودس وسائر الجزر الاثنتى عشرة أو الدوديكانيز Dodecanese . ثم أرادت أن تتعجل بالنصر إرضاءً للرأى العام الايطالى من جهة وخوفاً من اكفهرار الجو الدولى من جهة أخرى ، فأرسلت أمداداً برية جديدة إلى طرابلس أحرزت بعض انتصارات على قوات المقاومة .

وكانت دول البلقان تستعد لتوحيد كلمتها وجمع قواتها ضد تركيا ، فسارعت هذه باجراء مفاوضات الصلح بينها وبين إيطاليا فى أوشى لوزان بسويسرا فى اكتوبر سنة ١٩١٢ ، ونزلت تركيا عن سيادتها على طرابلس إلى إيطاليا ووافقت على إخلائها من قواتها، على أن تبقى لها السيادة الروحية . وقد أراد الأتراك قبل مغادرتهم البلاد رسميا أن يداروا خجلهم أمام الأهالى ، فأعلنوا أنهم رغبة منهم فى إعادة الطمأنينة والسلام إلى البلاد ، قد خولوا الأهالى حق التمتع بالاستقلال الذاتى . وكان هذا التصريح من أهم العوامل التى ساعدت على تثبيت أقدام المجاهدين فى حركتهم فصمموا على المقاومة إلى النهاية .

وهنا لابد لنا من الاشارة إلى فضل الحركة السنوسية التى جمعت شمل القبائل ، وجعلت منها وحدة قوية خشيتها إيطاليا وفرنسا وانجلترا ، وهى الدول التى كانت تشترك مصالحها فى الصحراء الكبرى والسودان الغربى .

ولم تكن الحركة السنوسية فى مبدئها إلا طريقة من الطرق الصوفية التى تدعو إلى تقوى الله والعمل الصالح والعودة بالاسلام إلى سابق مجده وقوته ، بالسير على سنن السلف الصالح ، ونبذ الخرافات والبدع المستحدثة . ولكن أهميتها جاءت

عن طريقين : الأول مراكز التبشير ونشر الدعاية السنوسية . فقد أنشأ مؤسس الطريقة السيد محمد على السنوسى ، الذى استقر به المقام فى بنغازى سنة ١٨٥١، كثيراً من الزوايا فى مختلف البقاع لتكون مراكز للعبادة والتعليم ، وكان على رأس كل منها شيخ يجمع حوله الأهالى ويقضى بينهم فى منازعاتهم ويرشدهم ويبصرهم بشؤونهم الدينية والدنيوية ، وكان عليه أن يجمع رسوما محدودة يصرف منها على الزاوية والمدرسة ، وما يعود على الجماعة بالخير وعلى البلاد بالعمران ، كحفر الآبار وزراعة الأشجار ، ويحتفظ بجزء منها ثم يرسل ما يفيض بعد ذلك إلى الشيخ الكبير . فكان نظام السنوسيين فى مراكزهم شبيها بحكومة داخل حكومة ، وهو ما يطلق عليه الغربيون imperium in imperio

أما الطريق الثانى الذى زاد أهمية الحركة السنوسية فهو انتشار الطريقة من برقة وتحولها فى عهد السيد المهدى السنوسى الذى خلف أباه فى سنة ١٨٥٩ من حركة دينية صرفة إلى حركة نظامية تكاد تفرض لها سيادة إقليمية فى بعض المناطق . ولا شك فى ان ضعف تركيا فى ذلك الوقت قد ساعد على اشتداد ساعد هذه الطريقة وذيوع سلطانها ، لافى برقة وطرابلس فحسب بل كذلك فى الصحراء الغربية كلها ، وفى السودان الغربى ووسط أفريقية ، فانتشرت زوايا السنوسيين من بلاد المغرب إلى اسطنبول ودمشق ومصر والهند . ومع ذلك فان السنوسيين لم يعمدوا إلى العنف والقوة فى أول أمرهم وتجنبوا كل أسباب العداء والاصطدام بتركيا خاصة وبغيرها من الدول عامة . فلما بدأت تركيا تتوجس خيفة منهم انتقل السنوسى الكبير من بنغازى إلى واحة الجغبوب جنوبى سيوه الغربى بمقدار ٣٠ ميلا ، وفى سنة ١٨٩٤ ترك المهدى السنوسى جغبوب إلى واحة الكفرة التى تبعد بمقدار ٧٠٠ ميل جنوبى بنغازى .وكان ارتحال السنوسيين جنوباً وتوغلهم فى أعالى السودان واتفاقهم مع سلطان واداى شرقى بحيرة تشاد سبباً فى اصطدامهم مع الفرنسيين الذين كانوا يعملون على تثبيت نفوذهم فى تلك الاقاليم . وقد ادى ذلك الصدام إلى استعمال القوة بين الجانبين فى سنة ١٩٠٠ وقد انهزم

السنوسيون ومات المهدى السنوسى سنة ١٩٠٢ بعد أن تعلم السنوسيون دروسهم الأولى فى الحرب واساليب القتال الحديثة .

وكأنما كانت هذه المعركة الحربية الأولى تدريباً عمليا للسنوسيين ليستعدوا لمواجهة الأحداث التى كانت تنتظرهم ، فما كاد شيخ السنوسيين يعود بهم إلى مقرهم فى الكفرة حتى واجهت البلاد الغزو الطليانى ، فكان السنوسيون روح المقاومة ومضرمى نارها وخاصة فى إقليم برقة الذى كانت لهم فيه السطوة والعصبية .

وكان الأتراك حتى بعد معاهدة أوشى لوزان قد تغلغلوا داخل البلاد واعتصموا مع المجاهدين فى مكامنهم وواحاتهم ، فلم تستطع إيطاليا نشر سلطانها إلا على المدن والسواحل . حتى إذا قامت الحرب العالمية الأولى ودخلت إيطاليا الحرب إلى جانب الحلفاء بعد تسعة أشهر من نشوبها ، تشجع الأهالى فى طرابلس وجاءتهم المؤن والذخيرة من تركيا بواسطة الغواصات الألمانية ، فقاموا واعلنوا استقلالهم وكونوا جمهورية اختاروا على رأسها أحد زعمائهم ، واتخذوا مصراته عاصمة لهم ، وكذلك أرسلت تركيا أميراً عثمانيا عينته قائداً عاما على شمالى إفريقية ، ولم يسع إيطاليا حينذاك إلا سحب قواتها من البلاد مكتفية باحتلال بعض الموانى وأهمها طرابلس وحمص .

ولكن سرعان مادب الخلاف فى صفوف المقاومين ، إذ كان فريق كبير على رأسه السيد أحمد الشريف السنوسى زعيم السنوسيين بعد وفاة عمه يؤازره الأتراك والألمان وبعض رجال العرب الذين انضموا إلى صفوف المقاومة ـ يريد انتهاز فرصة الحرب لمهاجمة الانجليز فى مصر من ناحية حدودها الغربية ، على حين كان فريق آخر يتزعمه السيد محمد الإدريسى بن المهدى السنوسى وخليفة الشيخ الكبير ، وكان يقيم بمصر ـ يعارض فكرة الهجوم على مصر حرصاً على مودة الانجليز الذين كان لهم فضل إيواء السنوسيين وحمايتهم من مهاجمة الفرنسيين لهم فى السودان والصحراء الغربية . وبمساعدة الألمان تغلب فريق الهجوم ، فقامت فى أكتوبر سنة ١٩١٥ قوة صغيرة مؤلفة من ٥٠٠٠ من السنوسيين ونحو ألف جندى تركى وجماعة من البدو يقصدون غزو مصر من الغرب من ناحية

السلوم وواحة سيوة . وكان الانجليز قد أرسلوا معظم قواتهم إلى تركيا للاشتراك في حملة غاليبولي ،ولذلك اضطروا إلى إخلاء السلوم وركزوا قواتهم في مرسى مطروح . وتقابل الفريقان في عدة معارك أهمها في سيوة وقرب السلوم . ولم يكن يرجى للمهاجمين نجاح لضآلة عددهم واستعدادهم من جهة ، ولانقسام الآراء بين صفوفهم من جهة أخرى . ولذلك انتصر الانجليز رغم حرج مركزهم وخاصة في مصر ، واضطر الجيش المهاجم إلى الارتداد إلى برقة .

أما السنوسيون فقد احتفظوا بالواحات مدة قصيرة إلى أن تألفت وحدات حربية جديدة مزودة بالسيارات المصفحة والجمال ،فاستردت الواحات سنة ١٩١٧ وبذلك تفرقت جموع السنوسيين وضؤل شأنهم . واضطر السيد الشريف السنوسي إلى مغادرة البلاد إلى تركيا ثم الحجاز تاركا زعامة السنوسيين إلى ابن عمه السيد إدريس السنوسي وهو الزعيم الحالي ، وقد تفاوض مع الطليان بعد الحرب وكانوا في حال لاتسمح لهم باستئناف القتال مع أهل البلاد ، فاتفقوا معه على أن تكون له السلطة داخل إقليم برقه وتكون له الإمارة أيضا بلقب صاحب السمو بشرط أن يعترف لهم بحق السيادة ، فتم الاتفاق في سنة ١٩٢٠ ، وقام أهل طرابلس في سنة ١٩٢٢ يدعونه لزعامتهم أيضاً ، وبذلك جمع في شخصه وحدة برقة وطرابلس . وبدا للناس أن كلمة البلاد قد توحدت في النهاية وأن زعيما وطنيا مجاهداً من أهلها سيقود البلاد في كفاحها ضد الغاصب الأجنبي .

ولكن ماكادت هذه الآمال تلمع في الأفق حتى جدت عوامل عجلت بخيبة الأمل ، فقد عارضت إيطاليا في حركة البيعة التي جاء بها الطرابلسيون للسنوسي ، ورجعت عن اتفاقها السابق معه وعادت تحارب حركة المقاومة بالإيقاع بين الزعماء تارة وبالغدر حينا وبالجيوش والدبابات والطائرات أحيانا . ولذلك لم يلبث السيد السنوسي أن غادر البلاد بعد بيعته إلى مصر وبقي متصلا بحركة المقاومة عن طريق أخيه الرضا أولا ثم بوساطة الزعيم عمر المختار الذي قاد الحركة بعد رحيل السيد ، واتخذ من الجبل الأخضر على ساحل برقة قاعدة له ومعقلا حصينا

لأتباعه من المجاهدين الذين جاءوا إليه من كل فج وصدقوا على ماعاهدوا الله عليه من بيع أرواحهم رخيصة فى سبيل الله والوطن .

وكانت الحكومة الفاشية بزعامة مسولينى قد وليت أمر إيطاليا فى خريف سنة ١٩٢٢ وفى مقدمة أغراضها السيطرة على حوض البحر المتوسط وإحياء مجد الامبراطورية الرومانية القديمة ، وأن تعيد إلى حوزتها أملاكها وولاياتها القديمة ومنها طرابلس، حتى يجد أهل إيطاليا الذين ضاقت بهم بلادهم فى هذه المستعمرات الجديدة متسعاً كافياً لجهودهم ولذراريهم التى كان مسولينى يباهى بها أمم أوربا جميعاً .

لذلك نشط الايطاليون فى العمل على استتباب النظام وإخضاع داخلية البلاد . ورأوا أن خير طريقة لقمع حركة المجاهدين أن يضيقوا عليهم الحصار من كل ناحية ، فطالبوا الحكومة الانجليزية بتحقيق وعودها لهم بشأن تعديل حدود ليبيا شرقاً ومساعدتهم لدى الحكومة المصرية فى إدماج واحة الجغبوب قرب سيوة فى المنطقة الايطالية فتم لهم ذلك فى سنة ١٩٢٥ . وكانت الجغبوب من أهم قواعد السنوسيين ، وفيها قبر منشىء الطريقة السيد محمد على السنوسى ، وباحتلالها تمكن الطليان من حراسة الحدود الشرقية وامتنع تسرب المؤن إلى المجاهدين ، وأقفل الطريق فى وجه اللاجئين منهم إلى مصر . وقد أحكم إغلاق الحدود بعد ذلك بوضع الأسلاك الشائكة على امتداد ٣٠٠ كيلو متر من البردية على الساحل إلى الجغبوب . أما جنوبى ذلك فقفار ووهاد لا سبيل إلى اختراقها أو عبورها إلا بالطائرة .

وأخيراً عين القائد الايطالى المشهور جراتزيانى Graziani حاكماً عاماً على برقة وطرابلس وأخذ يعمل على إخضاع حركة المقاومة نهائيا بترغيب طائفة من السنوسيين وإرهاب طائفة أخرى بمختلف وسائل التعذيب ، ومن أقساها وأشدها وحشية أخذ المجاهدين فى الطائرات والتحليق بهم فى الجو ثم إلقاء جثثهم فوق مواطنهم على مرأى من ذويهم وقبائلهم .

وأخذ الطليان يخضعون الواحات واحدة بعد أخرى حتى وصلوا إلى واحات

الكفرة ، وتقع جنوبى بنغازى بنحو ألف كيلو متر . وفى هذه الواحات كان السنوسيون قد أنشأوا قرية التاج وزاويتها ، وهى تعتبر أكبر معقل للسنوسيين وفيها شيدوا دروهم ومخازنهم ، فسير الطليان إليها أكبر حملة اخترقت صحراء برقة فى العهد الأخير ، إذ كانت تتكون من نحو ثمانية آلاف جمل وعشرين طائرة محملة بالقنابل . واشتبك الأهالى مع القوة الايطالية فى معركة دامت بضع ساعات تمكن فى أثنائها المجاهدون من التسلل وحداناً وجماعات فى الصحراء ميممين شطر مصر والسودان شرقاً ومعهم نساؤهم وأطفالهم وماخف من متاعهم ، ومضوا مشاة وركباناً يتخبطون ذاهلين من أثر الصدمة ناكسى رءوسهم مما أصابهم من الهزيمة ، يرافقهم الجوع ويتعقبهم العدو بطائراته وقنابله ويتخطفهم المرض والموت ، فكانوا يتساقطون على طول مسالك الصحراء وشعابها كأوراق الشجر أذواها الخريف . حتى إذا قاربوا حدود مصر وصل رائد منهم إلى الواحات الداخلة فى مصر ، وقص على مسامع أهلها وحكامها حكاية هؤلاء التعساء المنكودين، فسارعوا بانقاذ من أمكن إنقاذه منهم بعد مسيرة نحو شهرين قمريين .

وكان احتلال الكفرة كالصاعقة نزلت على رءوس المجاهدين ، إذ أيقنوا بقرب مصيرهم . وأراد الطليان أن يسدوا فى وجوههم جميع المسالك ، فأقاموا الأسلاك الشائكة على الحدود الشمالية الشرقية فانقطعت أمام السيد عمر المختار وأصحابه أسباب الاتصال بالخارج وأصبحوا مضيقاً عليهم من جميع الجهات . وذات يوم من ربيع سنه ١٩٣٢ وقع السيد عمر اسيرا فى أيدى الطليان فسجنوه ثم حاكموه عسكريا ونفذوا فيه حكم الاعدام ، فارتكبوا باعدامه إثماً لا يزال عاره يلطخ صفحة استعمارهم إلى اليوم . وبموته انطفأ آخر بريق لحركة المقاومة فى ليبيا ،وأخذ الناس يتناقلون فى جميع أنحاء العالم العربى أحدوثة البطولة التى اضطلع بها أهل برقة وطرابلس مدة عشرين عاماً ، والتى تمثلت فى جهاد السنوسيين واستشهاد عمر المختار ومن سبقه من المجاهدين والشهداء ، وقد راح ضحيتها نحو ثلث شباب برقة ونحو تسعة أعشار ماشيتها . فلم يبق من سكان البلاد اليوم أكثر من مليون نفس .

وقد ظن الطليان أنهم بقضائهم على حركة المقاومة قد مكنوا لحكمهم وتيسر لهم استعمار ليبيا ، ولكن سرعان ماخاب ظنهم ، فقد انتثر عقد المجاهدين حقا ولكنهم انتشروا بين الشعوب العربية فى كل صقع يرددون مأساتهم ، وما اقترفه الطليان فى بلادهم من ألوان الجور والغدر والوحشية ، حتى أضحى الحكم الفاشى فى نظر الأمم العربية مبعث الخوف والشقاء ، وجرثومة الفساد والانحلال التى يجب أن تستأصل إن كان مقدوراً للشعوب أن تعيش وترتقى فى مدارج المدنية .

وما كادت الحرب العالمية الثانية تنشب وتدخلها إيطاليا إلى جانب حليفتها ألمانيا ، حتى تجلت روح الكراهية والسخط ضد إيطاليا فى شمالى إفريقية ، وتقدم السيد إدريس السنوسى وأخطر الحكومتين المصرية والبريطانية باستعداده لمعاونة الحلفاء . وعلى أثر ذلك تألفت فرق القوة العربية الليبية من متطوعى برقة وطرابلس وأمدتهم انجلترا بالذخيرة والمؤن وبعض الضباط . وقد أبلى الليبيون بلاء حسنا فى المعارك التى تتابعت جيئة وذهابا فوق اديم ارضهم ، فتارة كان يتقدم الطليان فيصدهم الحلفاء ، وأخرى كان يرتد الطليان ويتقدم الحلفاء ، وآونة كان يزحف الألمان ومعهم الطليان ثم يردهم الحلفاء . وكانوا كلما ارتد الانجليز وحلفاؤهم وعاد الطليان إلى قواعدهم آثروا بمقتهم وغضبهم أهل ليبيا ، واختصوا من بينهم من كانوا يتعاونون مع الحلفاء فأنزلوا بهم سوء العقاب .

وفى ديسمبر سنة ١٩٤٢ خرج الحلفاء ظافرين من موقعة العلمين وأخذوا يطاردون فلول المحور غربا حتى قذفوا بهم إلى البحر ، فثبتت قدم الانجليز فى ليبيا وبدأوا يقيمون حكومة مدنية يشترك فيها أبناء البلاد . وكان النزاع القديم بين القبائل فى برقة وطرابلس قد بدأ يتحرك ، ولكن أحداث الحرب الأخيرة قد أوثقت الصلات بين الجانبين وتوحدت كلمتهم فى القرار الذى أصدروه فى أكتوبر سنة ١٩٣٩ ، ثم أيدوه بعد موقعة العلمين باعترافهم جميعاً بالأمير السنوسى زعيما لهم ، وبأن له وحده أن يتكلم باسمهم فى مختلف شؤونهم . وقد أعلنت الحكومة الانجليزية من جانبها بلسان وزير خارجيتها عقب انهزام قوات المحور

تصميمها على عدم السماح بعودة الحكم الايطالى إلى برقة أو فرنيقية بأية حال ولكنها لم تصرح بشيء عن نيتها نحو طرابلس حيث يكثر الطليان وتشتد المنافسة .

وقد نبتت عقب انتهاء الحرب الأخيرة مقترحات مختلفة بشأن إدارة البلاد فقد طالبت روسيا بدون جدوى أن تكون لها الوصاية على طرابلس حتى تحل محل إيطاليا فى حوض البحر المتوسط وتخرج من عزلتها فى البلقان إلى مياه البحر المتوسط ، ولتشرف على شئون الشرق الأوسط من كثب بعد أن أصبحت هذه المنطقة أشد مواطن العالم تنافسا بين الدول وأكثرها خطرا . وتقدمت مصر تقترح أن تتمتع ليبيا باستقلالها السياسى ، وإن كان لا بد من وضعها تحت الوصاية فترة من الزمن فان روابط الجوار واللغة والدين تجعل حق مصر فى ذلك أولى من غيرها .

وقد مضى الوقت الذى كانت مصر فيه مؤمنة بمناعة حدودها من ناحية الصحراء الغربية معتبرة خط الطول رقم ٢٥° درجة شرقى جرينتش آخر حدودها الغربية خطا وهميا ، فقد ذللت الصحراء للسيارات والدبابات وتقدم الطيران فألغى مسافة الصحراء زمانا ومكانا ، وأصبح جدبها وقيظها ووعثاؤها كل اولئك أموراً لا يحس بها العلم الحديث ولا تعترف بها السياسة . لقد أصبحت الصحراء عنصراً مهما فى جسم السياسة العالمية وزالت عنها الى غير رجعة تلك الحصانة الحربية الماضية . فقد أظهرت الحرب الأخيرة كيف استطاع العدو أن يتخذ من صحراء ليبيا ومن واحة الجغبوب التى اغتيلت منا حين كانت بريطانيا لا تزال تحسن الظن بايطاليا — أن يتخذ منها قاعدة حربية يحشد فيها قواته ويثب منها على حدودنا . ولو لم تكن بريطانيا محتفظة وقتئذ بتفوقها فى البحر المتوسط والبحر الأحمر لاستطاع العدو أن ينفذ خطة « الكماشة » الحربية التى دبرها ضد مصر والسودان بتسيير قواته شرقاً من ناحية ليبيا وغرباً من ناحية أرترية والحبشة .

من أجل ذلك كان فى مقدمة ماطلبته مصر فى مؤتمر الصلح الذى انعقد فى باريس فى صيف سنة ١٩٤٦ إعادة واحة جغبوب إلى حدود مصر كما كانت .

وقد رددت مصر هذا الطلب أمام الجمعية العمومية لهيئة الأمم فى دورتها الأخيرة فى مايو سنة ١٩٤٩ عند ما كانت تبحث فى مصير مستعمرات إيطاليا السابقة .

والناس فى برقة شديدو التمسك باستقلالهم ، وللسنوسيين بينهم مقام مرموق فلهم علمهم الخاص، وتجمع الضرائب وتصدر المنشورات باسمهم، وزعيمهم يجمع بين السلطتين الدينية والزمنية . أما فى طرابلس فالحال غير مستقرة ، وللطليان فيها قضاة وأطباء وفنيون منتشرون فى البلاد، والانجليز لا يزالون يحتلون البلاد حراساً على أموال الطليان ، وذلك إلى أن يصل الحلفاء إلى قرار حاسم بشأن مصير ليبيا . وقد قرروا أخيراً إرجاء بحث مصيرمستعمرات إيطاليا السابقة إلى دورة الجمعية العمومية لهيئة الأمم فى سبتمبر سنة ١٩٤٩

ولا تزال إيطاليا تطمع فى أن يجود عليها الحلفاء بشىء فى طرابلس ثمناً لمعاونتها لهم فى المرحلة الأخيرة من الحرب ضد ألمانيا واستمالة لها إلى جانب كتلة الدول الغربية .

وتواجه ليبيا بعد الحرب الأخيرة أزمة اقتصادية اجتماعية على درجة عظيمة من الخطورة ؛ فقد أرسلت إلى ليبيا عشرات الآلاف من الطليان وأقطعتهم الضياع والمزارع من الأراضى التى صادرتها من أرض المجاهدين ومن أراضى الزوايا السنوسية . وكانت الحكومة الإيطالية تمد المستعمرين لهذه الأراضى بالماشية والعدد والبذور مما جعل الحكومة المحلية فى ليبيا تهمل الاقتصاد العام للبلاد ، حتى بلغت قيمة وارداتها فى سنة ١٩٣٨ ثمانية أضعاف صادراتها ، وباتت البـــلاد بعد الحرب فى حاجة شديدة إلى رءوس الأموال وإلى الرجال الفنيين الذين يعالجون ما سببه الطليان من مغارم على البـــلاد وهى الفقيرة فى المعادن والزراعة .

ولما جلا الطليان عن البلاد غادرها كثير من مستعمرى تلك الأراضى. ولـكن

ما كادت تنتهى الحرب حتى ضجر أولئك بمقامهم فى إيطاليا وسئموا اضطراب الأحوال فيها ، وحفزهم الحنين إلى ضياعهم وسابق رغدهم فى ليبيا،فبدءوا يتسلون إليها سراً وعلانية كما ينسل اليهود إلى فلسطين ، بعد أن أصبحت ليبيا لأهل إيطاليا عامة ولأهل صقلية بصفة خاصة « أرض المعاد » .

وأمام أهل برقة وطرابلس جميعاً واجب قومى يدعوهم فى أثناء هذه الفترة إلى التضافر والعمل يداً واحدة على مناهضة كل حركة ترمى إلى اعادة مأساة الاستعمار ثانية بين ظهرانيهم ، ومما يدعو إلى التفاؤل أنه قد عاد أخيراً إلى البلاد رجال من الليبيين كانوا قد نشأوا وتثقفوا أثناء الاحتلال الايطالى فى جامعات ومدارس مصر وغيرها من بلاد الشرق العربى ، وقد حملوا معهم جميعا إلى ليبيا أمانى الجيل الجديد وأهدافه نحو الاستقلال وإنهم بهذا لجديرون .

الفصل الخامس عشر

مشاكل البلقان

لقد قست الطبيعة والظروف على شعوب البلقـان ففرقت بينهم فى الجنس واللغة والثقافة والمذهب الدينى ، كما فرقت بينهم سلاسل الجبال والمرتفعات التى تقطع شبه الجزيرة طولا وعرضا وجعلت المواصلات بين البـلاد بعضها وبعض أمرا بالغا منتهى الصعوبة ، اللهم إلا البـلاد التى جمع بينها نهر الدانوب وفرقتها يد السياسة .

ومعظم سكان البلقـان يلتقون تحت اسم السلافيين ولـكن فى هذه البلاد خليطا عجيبا من مختلف الشعوب والنحل، فمنهم الأتراك والأرنؤود أو الألبانيون والأغريق والمقدونيون والرومانيون والعرب والـكروات والسلوفين والبلغـار، ومن هؤلاء جميعا الأرثوذكس والكاثوليك والمسلمون واليهود . وكان من نتيجة هذه الخلافات الجنسية والدينية أن استفحلت أسباب العداوة والـكراهية المحلية بين هذه الشعوب ثم كان تنازع الدول الـكبرى فيما بينها لمـد سلطانها وبسط نفوذها على هذه الأقاليم فأودى نهائيا بطمأنينتها وأمنها وجعل منها كما يقولون برميلا جافا من البارود يوشك فى كل لحظة أن ينفجر ، ولا تقتصر ناره على الأرض المجاورة بل تتعدى الحدود وتتصل ألسنتهـا بالمحيط الدولى فتشتعل نيران حرب كبرى .

ولقد انفجر البـارود فى صيف سنة ١٩١٤ فى « سراجيفو » إحدى مدن الصرب فقامت على أثر ذلك الحرب العالمية الأولى . ومن ألبانيا اندلعت فى ربيع سنة ١٩٣٩ إحدى شرارات الحرب العالمية الثـانية حين هاجمها مسولينى فى يوم الجمعة الحزينة من ذلك العام وشرد مليكها وأسرته ووضع تاج ألبانيـا على رأس

ملك إيطاليا المثقل بالسنين والتبعات . وإذا سارت الحال فى البلقان على النهج الذى تفضى إليه سياسة الدول الكبرى فى هذه الآونة فأكبر الظن أن حربا بل حروبا أهلية وعالمية أخرى ستستعر من جديد وتأخذ سبيلها من هـــذه الأقاليم المنكودة .

وان الباحث ليدهش إذ يعلم أن البارود الذى ينفجر فى البلقان بين آونة وأخرى ليس من صنع أهل البلقان ولا هو من منتجات هذه الأقاليم التى يعيش معظم أهلها على الزراعة والصناعات الزراعية ، ولكن الدول الكبرى هى التى تصدرالبارود إلى هذه البلادحتى إذا انفجر وتناثر شرره استنكرته وأنحت باللائمة على شعوب هذه البلاد ونسبتهم إلى الشر والعدوان ! والحق أنه لا عيب فى هذه الشعوب إلا فقرها المدقع وجهلها المروع وحبها الملتهب للحرية والاستقلال .

على أن الدول لم تقتصر على تصدير البارود إلى شعوب البلقان بل كانت تصدره إليها كذلك التيجان والملوك كلما أفلح شعب منها بفضل مساعدة تلك الدول فى التخلص من نير الأتراك وأنشأ له حكومة وطنية . وعلى ذلك اعتلى عرش اليونان الملك جورج الأول من أمراء الدانمرقة وكانت أخته آنئذ زوجة ولى عهد انجلترا الذى خلف والدته الملكة فكتوريا باسم ادورد السابع . وحكم رومانيا الملك شارل الأول أمير أحد فروع أسرة هوهنزلرن الألمانية . وجلس على عرش بلغاريا أمير ألمانى آخر باسم الملك فرديننـد . وكذلك اختير لألبانيا فى أول عهدها بالاستقلال سنة ١٩١٣ الأمير ويد Wied الألمانى . أما مملكة الصرب وهى يوغسلافيا الحديثة فهى الدولة البلقانية الوحيدة التى لم تنتفع بهـــذه الواردات المتوجة ورفعت إلى عرشها أمير اختارته من بين أسرها العريقة وكان آخر ملوكها بطرس الثانى الذى نحى عن العرش فى سنة ١٩٤٥ .

ومن العجيب أن هذه الشعوب قد خضعت للحكم التركى أو الحكم النمسوى مدة تتراوح بين أربعة أو خمسة قرون، فلما همت فى القرن التاسع عشر أن تتحرك للثورة وطلب الاستقلال بدأت الدول تتدخل وتمدها بالنار والحديد وبالرجال

ثم بالتيجان حتى إذا ماتنسمت نسيم الحرية ونعمت بتحقيق أمانيها وظفرت بالاستقلال السياسى بدأت تحس ثقل تبعاتها وتشعر بالفراغ العظيم الذى أحدثه زوال الحكم التركى أو النمسوى من محيطها، فراحت تتخبط وتتعثر فى مختلف المشاكل والصعاب أما داخل حدودها وأما بين بعضها وبعض . ذلك أن كلا منها قد حرص فى عهد الاستقلال على توسيع حدوده على حساب جيرانه ثم وطن كل منها نفسه — فيما عدا تركيا واليونان طبعا — على الوصول إلى ميناء يطل على مياه البحر المتوسط من قرب أو بعد

لذلك ما كادت تنتهى حرب الاستقلال البلقانى ضد تركيا سنة ١٩١٢ حتى قامت الحرب البلقانية الثانية سنة ١٩١٣ بسبب توزيع الاسلاب بين المنتصرين فى الحرب الأولى فهاجمت بلغاريا حليفتيها الصرب واليونان وما لبثت أن تدخلت رومانيا وتركيا فى الحرب فاستردت تركيا أدرنه واحتلت رومانيا دبروجه وخسرت بلغاريا معظم ما كسبته فى الحرب الأولى . ومن ذلك نشأ العداء والكراهية بين بلغاريا وسائر دول البلقان — ذلك العداء الذى استحكم فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وكانت بلغاريا تحارب فيها إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء فكان جزاؤها ان حرمت المنفذ الذى طالما منت به نفسها على بحر إيجه كما فقدت جزءاً كبيراً من تراقيا لليونان ومن مقدونيا ليوغسلافيا .

وكان من بواعث الأمل على استقرار الحال نوعا فى البلقان عقب تلك الحرب أن روسيا كانت من غمرات ثورتها الكبرى فى شغل شاغل عن البلقان وعن أوربا عامة وكانت تركيا قد تراجعت إلى آسيا الصغرى فنقلت عاصمتها من اسطمبول إلى انقره ، واشتغلت هى كذلك بنهضتها الكمالية . وبذلك أتيحت لدول البلقان فترة استجمام ساعدتها على النهوض بشئونها الداخلية وترقية مرافقها الصناعية والعمرانية وجمع كلمة مواطنيها على رغم اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم . وقد ظهرت دلائل هذا التقدم جلية فى رومانيا ويوغسلافيا بصفة خاصة حيث كشفت منابع البترول وقامت فيها نهضة صناعية وحربية كبرى فارتفع مقام رومانيا إلى

مصاف الدول المهمة وأصبح ليوغسلافيا على البحر الأدرياتى موانىء وقواعد حربية تنافس بها إيطاليا .

وكذلك نهضت تركيا واليونان وسوت الحكومتان ماكان بينهما من خصومات وعداء مستحكم بفضل السياسة التى أنتهجها أتاتورك بعد هزيمة اليونان فى آسيا الصغرى وإنشائه تركيا الجديدة ، فقد قرر رأى الزعيم التركى على اقتلاع أسباب النزاع بين الشعبين المتجاورين من جذورها وذلك بتبادل الأقليات بينهما فتفتح اليونان أبوابها لمليون أو أكثر من الاغريق المتوطنين فى تركيا مقابل نصف مليون من الأتراك تستردهم تركيا من اليونان . وقد فعل هذا التبادل على رغم مالاقاه المتبادلون من صنوف الآلام والمتاعب الجسمانية والعاطفية — فعل السحر فى تحسين العلاقات بين الشعبين حتى أصبحا وكأنهما اسرة واحدة متفقة المصالح والأهداف .

وقد بدت آثار هذا التضامن بين الحكومتين فى سياسة البلقان الجديدة وذلك انه ماكادت تختفى روسيا من الميدان السياسى فى البلقان والبحر المتوسط عقب ثورتها حتى انبرت إيطاليا الفاشية تريد أن تحل من دول البلقان محل روسيا فتنشر نفوذها السياسى فى ربوع البلقان وشرق البحر المتوسط ، وفعلا بدأت تعقد معاهدات الصداقة بينها وبين دول البلقان . ولكن سرعان مابانت نيات إيطاليا التوسعية عندما احتلت جزيرة كورفو التابعة لليونان فى سنة ١٩٢٣ على أثر حادث وقع على الحدود بين البانيا وإيطاليا وقتل فيه رئيس البعثة الإيطالية فى اللجنة التى كانت تعين الحدود بين الدولتين . ولم تنسحب إيطاليا من الجزيرة إلا بعد تدخل مجلس عصبة الأمم وقيام اليونان بدفع غرامة فادحة لإيطاليا .

وقد تحققت مخاوف دول البلقان من ناحية إيطاليا عندما أذيعت شروط معاهدة تيرانا بين إيطاليا والبانيا سنة ١٩٢٦ وكان فحواها أن تصبح البانيا فى حقيقة الأمر إحدى ملحقات إيطاليا فتنشىء فيها الطرق والقلاع والموانىء لتثب منها عند الحاجة على يوغسلافيا أو اليونان ، وحتى تستطيع أن تتحكم فى مضيق أترنتو عند

مدخل البحر الادرياتى فيبقى الأسطول اليوغسلافى الحربى والتجارى فى ذلك البحر تحت رحمة إيطاليا .

عند ذلك تفتحت أعين دول البلقان وأدركت أنه إذا لم تتحد وتعتمد على نفسها فانها ستستمر العوبة فى أيدى الدول الكبرى تتقاذفها كيفما شاءت . وفجأة وضح لشعوب البلقان أن هناك مسائل ومصالح تهمهم جميعاً وانهم قد وصلوا من النضج السياسى إلى درجة خليقة بأن تجعلهم يقفون صفا واحداً أمام مطامع الدول وعدوانها عليهم ، وعلى ذلك أنشأوا بفضل مساعي تركيا واليونان الميثاق البلقانى سنة ١٩٣٤ بين تركيا واليونان ويوغسلافيا ورومانيا . ولم تشذ سوى البانيا وبلغاريا إذ كانت الاولى فى سياستها تابعة لإيطاليا وكانت الثانية تطمع فى إعادة النظر فى معاهدات الصلح، على حين قد نص الميثاق على حفظ الحالة الحاضرة فى البلقان . وكان عقد الميثاق أكبر صدمة سياسية أصابت سياسة الدول الطامعة بصفة عامة وإيطاليا بصفة خاصة ، فلأول مرة فى تاريخها وقفت دول البلقان على قدميها تنادى ان البلقان للبلقانيين .

وقد كان الميثاق خير درع احتمت وراءها دول البلقان فى أزمة الحبشة سنة ١٩٣٥ فوقفت كتلة واحدة إلى جانب العصبة وبريطانيا ضد الطغيان الفاشى وكذلك وقفت دول البلقان تناصر تركيا فى سنة ١٩٣٦ عندما دعت إلى مؤتمر الدول فى منترو ليقرر النظام الجديد للمضايق فى مصلحة تركيا . ولكن وااسفاه لم تمض إلا سنوات قليلة على الميثاق حتى قامت الحرب العالمية الثانية فالتزمت دول البلقان الحيدة فى أول الأمر، ثم لم تلبث فرنسا أن انهارت ودخلت إيطاليا الحرب.

وحسب مسولينى أن الفرصة قد سنحت أخيراً لتحقيق مطامع إيطاليا الفاشية غربا وشرقا فسير قواته من ليبيا ضد بريطانيا فى مصر وتحركت كتائبه من البانيا ضد اليونان فوقف الأغريق أمام المعتدين وقفتهم التى استرعت اعجاب العالم ، وتحرج مركز المحور فى البلقان فحولت ألمانيا وجهها من الغرب إلى الشرق وأنزلت جحافلها ودباباتها وطائراتها تكتسح دول البلقان واحدة تلو أخرى حتى لم يبق على حياده منها سوى تركيا .

وافتقد الناس ميثاق البلقان فجعلوا ينقبون عنه فلم يفوزوا بطائل وسط جلجلة المدافع وهزيم القنابل وضجيج الطائرات . وماذا يغنى الميثاق ؟ ولو أنه كان اتحاداً لا مجرد عهد ووعد لما أبقت منه الحرب الخاطفة التى حالفت الألمان فى سنى الحرب الأولى أى أثر ، وهى التى داست المواثيق والمعاهدات وبددت المحالفات ومزقت الجيوش شر ممزق !

وبذهاب ميثاق البلقان وانتهاء الحرب سارت دول البلقان سيرتها الأولى وعادت مسرحا لأسباب الكراهية المحلية والمنافسات الدولية . وقد تعقدت يشا كلها فى هذة المرة على أثر عودة روسيا أمهم السلافية الارثوذكسية الكبرى وظهورها على مسرح السياسة فى دور البطولة العالمية ، واذا ما اجتمعت الأم بفراخها فعسير عليها أن تدع لأحد منها حريته أو استقلاله ، بل أن غريزة الأمومة فيها لكفيلة أن تدعوها يوما إلى احتضانهم وضمهم اليها وحمايتهم ضد الأيدى التى تمتد اليهم حتى ولو كانت تمتد لاطعامهم !

وفى هذه المرة لاتريد روسيا أن يفلت منها زمام البلقان كما أفلت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى فهى تعتبر نفسها زعيمة الشعوب السلافية حقا وصدقا وتعتبر البلقان منطقة نفوذها الخاصة . وقد نزلت آخيراً عن عدائها للكنيسة ورجالها فاستعادت زعامتها الاولى للارثوذكسية التى تنتمى اليها الكثرة العظمى من شعوب البلقان . وتريد روسيا أن يكون مقامها فى البلقان شبيها بمكانة الولايات المتحدة من جامعة الجمهوريات الأمريكية مع فارق واحد هو أن جمهوريات أمريكا تتمتع باستقلالها وسيادتها أما حكومات البلقان فتريدها روسيا وفق نظامها الشيوعى وعلى هواها !

وتحتاج روسيا الى ألوف مؤلفة من عمال البلقان ليعوضوها عما فقدته من ملايين الشبان فى الحرب الأخيرة ، كما أنها تريد أن تعمل لكسب أسواق البلقان فى التجارة كما كسبتها منهم المانيا قبل الحرب الأخيرة حتى بلغ ما تصدره المانيا لرومانيا ويوغسلافيا ٤٠ ٪ من وارداتهما . ولا يتحقق لروسيا ذلك التفوق الاقتصادى إلا اذا نهضت بصناعاتها وانتجت مثل ما كانت تصدره المانيا للبلقان

من عدد وآلات ثقيلة وخفيفة ومصنوعات مختلفة . ولا سبيل الى هذه النهضة الا اذا توافرت لروسيا الأيدى العاملة التى لا يتم تدريبها الا بعد سنوات طويلة وفى هذه الأثناء إما أن تخضع روسيا لقيام مبدأ حرية التجارة فى البلقان وإما أن تأباه فتتعرض شعوبه وحكوماته لكارثة اقتصادية محققة .

وكما أن روسيا تريد أن ترث ألمانيا فى مركزها الإقتصادى فى البلقان فانها تعمل كذلك جاهدة على أن تكون وارثة إيطاليا فى البحر المتوسط حتى يصحح التوازن الدولى فى حوض هذا البحر بعد أن اختل بذهاب قوة إيطاليا البحرية فلا تطغى فيه بريطانيا وفرنسا دون مقابل . لذلك بدأت روسيا تطالب بنصيبها فى قواعده الاستراتيجية فلم تكتف بالجلوس إلى جانب انجلترا وفرنسا وأمريكا فى منطقة طنجه الدولية كما تقرر بصفة مؤقتة فى عام ١٩٤٥ بل جعلت تطالب بالوصاية على طرابلس أو جزر الدوديكانيز ، ورفضت أن تجدد معاهدتها مع تركيا حتى تجاب إلى طلبها فيما يخص المضايق . ويقولون أنها تطالب الآن بقاعدة حربية فى منطقة المضايق وبمقعد لها فى مجلس إدارة شركة قناة السويس كما كانت تريد أن تفعل إيطاليا الفاشية من قبل .

وتحقيقا لهذه السياسة أيضا وقفت روسيا تسند جمهورية يوغسلافيا الناشئة فى مطالبتها بضم تريستا ومنطقة فنيزيا جوليا على البحر الادرياتى بعد أن احتلت منها ميناء فيومى وما جاورها من الأراضى . ويبدو أن ما نال الطليان من الخزى فى الحرب الأخيرة سيقلل من أمل إيطاليا فى الاحتفاظ بهذا الاقليم . وكان مؤتمر الصلح ومجلس الأمن قد قرر أخيراً أن تحول منطقة تريستا إلى ميناء دولى حر للجميع تستفيد منه يوغسلافيا وسائر دول أوربا الوسطى ، ولكن الدول الغربية عادت فاقترحت أن تضم تريستا إلى ايطاليا .

وتهدف حكومة السوفيت فى مناصرتها ليوغسلافيا إلى السيطرة على البحر

الادرياتى الموصل للبحر المتوسط بعد أن أصبحت يوغسلافيا وألبانيا جمهوريتين تسيران على النهج الشيوعى .

وكذلك تقف حكومة السوفيت إلى جانب بلغاريا العزيزة عليها ، فعلى الرغم من أن بلغاريا قد تعاونت مع المانيا فان صلات الدم التى تربط بلغاريا وروسيا لم تنفصم عراها حتى فى أحلك ساعات الحرب عندما كانت المانيا تسيطر على بلغاريا . واستناداً إلى هذه الصلة تطالب بلغاريا من غير جدوى بتحقيق حلمها فى بحر إيجه وفى تراقيا على حساب اليونان . وها هى ذى روسيا تحاول أن تثير من جديد تكوين دولة مقدونية جديدة بزعامة بلغاريا حتى تنتزع المقدونيين الذين يخضعون الآن لليونان ويوغسلافيا التى انحرفت أخيراً عن الفلك السوفيتى . ولم تشأ بريطانيا بعد الحرب الأخيرة أن تجازف بترك اليونان حرة تتنازعها عوامل الشيوعية من جهة والرجعية من جهة أخرى فابقت فيها قواتها خوفاً على مصالحها الحربية فى البحر المتوسط . وقد احتضنت اليونان جزر الدوديكانيز ورودس ، ولكن انجلترا ستظل محتفظة بقبرص . وليس من شك فى أنه متى انجلت القوات البريطانية عن اليونان فان النفوذ الشيوعى قد يطغى على البلاد ويصبح مصير اليونان مربوطا بعجلة السوفيت ولذلك سارعت الولايات المتحدة بتقديم المساعدة المالية لحكومة اليونان الملكية حتى تقوى على درء الخطر الشيوعى . ولا شك فى ان المساعدة المالية التى ستقدمها أمريكا سيتبعها حتما وجود الخبراء الاقتصاديين والسياسيين من أمريكا

أما فى رومانيا فقد استردت روسيا إقليم بسارابيا وأصبحت الحكومة فيها موالية للسوفيت وكذلك فى البانيا قامت حكومة جمهورية موالية لروسيا برئاسة أنور خوجه بعد أن الغيت فيها الملكية عقب الحرب الاخيرة .

وأخيراً تبقى روسيا وجها لوجه أمام تركيا وهى بحكم موقعها عند أهم النقط الاستراتيجية فى البحر المتوسط ولأن حكومتها الفتية الحالية تمثل أقوى شعوب

البلقان وأشدهم مراساً وأكثرهم عدة وعدداً فى الحرب فضلا عن ارتباطها بأواصر الصداقة مع أمريكا وبريطانيا . وخاصة بعد أن سرى عليها مع اليونان قرار المساعدة المالية التى تسديها الولايات المتحدة اليها منذ ١٩٤٧ وبعد أن انتظمت الدولتان فى عداد الدول التى تفيد من مشروع مارشال منذ أبريل سنة ١٩٤٨ .

لهذه الأسباب جميعاً تعتبر تركيا المحور الذى يدور عليه مصير البلقان والشرق الأوسط الذى « تبلقن » أخيرا وشابه صنوه فى اخطاره ومنافساته ، فاذا لم تسو العلاقات بين تركيا وحكومة السوفيت بشأن المضايق وبشأن الحدود الشمالية الشرقية فان برميل البارود قد يزود هذه المرة بمواد أشد فتكا وأعم خرابا من البارود وحينئذ يتاح للدول أن تجد حلا نهائياً لمشاكل البلقان وغيرها .

الفصل السادس عشر

حيرة الترك بين الشرق والغرب

خطب مستر ترومان رئيس الولايات المتحدة فى ١٢ مارس من عام ١٩٤٧ أمام الكونجرس أو المؤتمر الأمريكى الذى يجمع بين شيوخ الدولة ونوابها ، وطلب إليه الموافقة على عقد قرض بمبلغ أربعمائة مليون دولار لمساعدة اليونان وتركيا وقد قال فى عرض خطابه : « إنه فى سبيل تقدم الشعوب فى ظلال السلم وإبعاد أسباب القهر والاستبداد ، نهضت الولايات المتحدة بدور رئيسى فى تكوين هيئة الأمم المتحدة . . . ولا يمكن أن نحقق أغراضنا إلا إذا عقدنا النية على مساعدة الشعوب الحرة فى المحافظة على نظمها الحرة وسلامة وطنها ضد الحركات العدوانية التى تحاول فرض نظمها الدكتاتورية عليها . . . فاذا أمسكنا عن مساعدة اليونان وتركيا فى هذا الوقت العصيب فسيكون لإمساكنا هذا آثار بعيدة المدى تصيب الغرب والشرق جميعاً . . . » وقبل ذلك بأسابيع قليلة تكلم مستر جيمس بيرنز الوزير الأمريكى السابق أمام لجنة الشئون الخارجية لمجلس الشيوخ الأمريكى فقال : « إن ما قد تعانيه أوربا فى المستقبل من قلق واضطراب سيكون مصدره على الأرجح بلاد البلقان » . والخطابان يعيدان إلى الذهن القول الذى اشتهر فى الربع الأول من هذا القرن والذى رددناه فى الفصل السابق بأن بلاد البلقان إنما هى مستودع البارود الذى قد ينفجر فى أى وقت فتندلع منه نيران الحرب .

وقد اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى فعلا من البلقان عند ما اغتال طالب صربى فى يونية سنة ١٩١٤ الآرشيدوق فرانس فردیننند ولى عهد النمسا وزوجته فى أثناء زيارة رسمية لمدينة سراجيفوا عاصمة البوسنة . واقتربت ساعة نشوب الحرب العالمية الثانية من غير شك حين اعتدت إيطاليا على ألبانيا فى أبريل

سنــــة ١٩٣٩ قبل الحرب بين ألمانيا والحلفاء بأقل من خمسة أشهر . وها هو ذا الرئيس الأمريكى ومعه وزيره السابق ينذران بأن البلقان سيكون من جديد موطن الداء ومصدر الشرر إذا ما تلبدت الغيوم فى جو أوربا السياسى وآذنت باقتراب عاصفة الحرب الهوجاء .

ولم يعمد الرئيس الأمريكى فى خطابه إلى الأسلوب الدبلوماسى المرن ولكنه جهر فى صراحة بأن المساعدة التى ستقدمها أمريكا لتركيا واليونان إنما يراد بهـا علاج مسألتين : الأولى فى اليونان وهى وضع حد لأعمال الإرهاب التى تقوم بها فئات مسلحة يقودهم الشيوعيون متحدّين فى ذلك سلطة الحكومة ومهددين حياة الدولة ذاتها . والثانية فى تركيا وهى مساعدة تركيا على الوفاء بمطالبها العسكرية التى لا غنى عنها للاحتفاظ بسلامة أراضيها ، تلك السلامة التى يتوقف عليها السلام العام فى الشرق الأوسط .

والمسألتان فى حقيقة الأمر متصلتان ويكمل بعضها بعضاً . فالضغط على اليونان من ناحية الشيوعيين سيؤدى بطبيعة الحال إلى إحراج مركز تركيا وإحاطتها من معظم جهاتها بسور شيوعى حديدى قد لا تقوى على دفعه . والضغط على تركيا من ناحية المضايق ومطالب روسيا بشأنها إنما يراد به الوصول إلى اليونان وبحر إيجه ثم البحر المتوسط . وتركيا واليونان بحكم موضعهما الجغرافى تقفان حارستين فى مفترق الطرق بين الشرق والغرب ، وكلتاهما تحتل منطقة على جانب عظيم من الخطورة الاستراتيجية فى البحر المتوسط والشرقين الأدنى والأوسط ، والاثنتان قد اتجهتا فى سياستهما وجهة غربية ديمقراطية جعلتهمـا غريبتين عن سائر بلاد البلقان التى اصطبغت جميعها باللون الشيوعى بعد الحرب العالمية الثانية وأصبحت موالية لحكومة الاتحاد السوفيتى التى تريد أن تأخذ طريقها ذلولا إلى البحر المتوسط ، فلا تقف تركيا أو اليونان حائلا بينها وبين ذلك البحر .

والحقيقة أنه لا يعترض طريق روسيا إلى البحر المتوسط فى زمن السلم أى حائل فى تركيا أو فى اليونان لا من حيث الملاحة التجارية ولا من حيث الملاحة

الحربية . ولكن الدول حتى بعد إقرار السلم وميثاق هيئة الأمم المتحدة لم تفتأ تفكر وتدبر خططها وسياستها بعقلية الحرب . فاذا نشبت حرب أخرى واشتبكت فيها روسيا فإن تركيا إن لم تكن متحالفة معها ستسيطر حتما على المضايق وتغلق فى وجهها بوابتى البسفور والدردنيل المؤديتين إلى البحر المتوسط . وقد تكون تركيا متحالفة مع الجانب المعادى لروسيا فتفتح البوابتين لأعدائها كما فتحتهما فى أثناء حرب القرم . وتتعرض بذلك أساطيلها وقواعدها فى البحر الأسود وقواتها فى جنوبى روسيا وغربى آسيا لأعظم الأخطار .

وليس فى وقوف تركيا موقف الحيدة فى زمن الحرب ما يجنب روسيا موارد التلف والخسران التى تتوقاها ، فقد كانت تركيا محايدة فى الحرب العالمية الثانية ؛ ونال روسيا بسبب ذلك الحياد من الضر والعنت ما جعلها تنقم على تركيا وتسىء اليها حتى الان . فقد سدت تركيا المضايق حقا فى وجوه المتحاربين جميعا ، ولكن ألمانيا لم تلجأ فى حربها مع روسيا إلى القوة البحرية بل كان جل اعتمادها فى مواصلاتها على الطرق البرية والجوية ، على حين كانت روسيا فى حاجة ملحة إلى فتح المضايق حتى تستطيع أن تتصل بحلفائها لإسعافها بالأسلحة المختلفة والمؤن والذخيرة فى أيام محنتها عن طريق البحر المتوسط بدلا من استخدام طريق البحر الشمالى وخليج فارس وكلاهما طويل موحش محفوف بالأخطار الحربية والطبيعية .

لذلك كان تشدد روسيا الان وعدم سماحها لتركيا بأن تستأثر بمفتاح البوابتين المؤديتين إلى البحر المتوسط . ولذلك أيضا كان تمسك تركيا بحقها الطبيعى تسندها بريطانيا والولايات المتحدة ، وكلتاهما تأبيان على روسيا أن تصبح لها قواعد فى البحر المتوسط توطد فيها نفوذها وتستطيع منها وقت الحرب أن تثب بسهولة إلى المواقع الاستراتيجية الحيوية فى منطقتى القناة والشرق الأوسط . ومن هذا يتضح أن المحنة الحالية التى توشك أن تتردى فيها كل من تركيا واليونان إنما سببها وقوعهما فى طريق عملاقين عظيمين يريدان أن يتسليا بلعبة سياسة القوة فى العالم . وإذن فويل للدول الصغيرة التى تعترض طريقهما

وتحاول أن تحول دون أن يأخذ بعضهما برقاب بعض . فهذه الدول إذا انحازت
إلى أحد الجانبين تعرضت لسخط الجانب الآخر ونقمته، وإن هي هادنت أو حايدت
الفريقين باءت بغضب الاثنين ، فهي في الحالين الضحية وكبش الفداء !

ولقد كانت ظروف الحرب العالمية الأولى مؤذنة بقرب تحقيق أحلام روسيا
والخلاص من عقدة المسألة الشرقية ، والموافقة على إقامة قيصر روسيا بعد انتهاء
الحرب على عرش الخلافة العثمانية في مدينة قسطنطين ووضع المضايق في يدها ،
فقد ارتضى الحلفاء الثلاثة بريطانيا وفرنسا وروسيا ذلك الموضع لروسيا بعد
الحرب ، وأكدوا ذلك بمعاهدة سرية بينهم عقدت في لندن سنة ١٩١٥ ولكن
لم تكد تمضى سنة واحدة على هذا الاتفاق حتى قامت الثورة الكبرى في
روسيا فأودت بكل ما خلفته حكومة القيصر من خطط ومواثيق ومعاهدات
سرية كانت أو جوهرية ، وأعلن الثوار على الملأ أنهم يؤمنون بالمساواة
بين الشعوب ، ويستنكرون اغتصاب الاقاليم التي ليست لهم ، وأنهم لايقرون
المعاهدات السرية ويبرأون منها ومن شروطها . وما لبثوا أن شفعوا القول
بالفعل ، فأعلنوا نزولهم عما وعدت به روسيا في معاهدة لندن وفضحوا سرية
المعاهدة فأعلنوا نصوصها وبذلك قضوا بأيديهم على الآمال التي كادوا يحققونها
بعد كفاح دام قرابة ثلاثة قرون . ألم تكن القسطنطينية والسيطرة على المضايق
هي أول أهداف السياسة الروسية منذ اعتلى بطرس الأكبر عرش روسيا ؟ وهل
كانت بيزنطة أو القسطنطينية التي وعد بها الروس إلا الأرض «المعاد» التي سيورثها
الله للأرثوذكس ولو بعد حين !

لقد أنكر الثوار الروس في سنة ١٩١٧ ذواتهم ومصالحهم ، وسيطرت
النظريات والمبادىء على تفكيرهم وعقولهم ، فأضاعوا الفرصة التي ظل الروس
يترقبونها قروناً طويلة . وكانت ثمرة الاخلاص وإنكار الذات ان توثقت
العلاقات بين تركيا وعدوتها التقليدية ، وارتبطتا بمعاهدة سنة ١٩٢١ وائتلفت

سياستهما الخارجية ، وجعلت تركيا منذ ذلك الوقت توجس خيفة من دول الغرب وتظن بها الظنون ثم تولى منها فراراً .

وكانت الثورة الكمالية قد قامت فى يوم من صيف سنة ١٩١٩ ودوت من هضاب الأناضول صرخة الأموات الذين بعثهم مصطفى كمال من قبورهم ، فكأنما نفخ فى الصور ، وكأنه يوم النشور ، فاذا الحياة تدب فى أجسام الموتى ، وإذا الهزيمة والجوع والضعف تتلاشى أشباحها أمام إرادة أمة قد صممت أن تحيا مستقلة عزيزة الجانب لا سلطان لأجنبي فوق أرضها وإن تألبت عليها جميع القوى الغاشمة .

وكانت الدول الغربية هى مبعث تلك القوى الغاشمة التى تآمرت فى معاهدة سيفر سنة ١٩٢٠ على تمزيق أوصال تلك الدولة ، فأخذت اليونان تراقيا وجزر بحر إيجة ، وتسابقت إيطاليا واليونان إلى أزمير وغربى الأناضول ، وأعلن استقلال الحجاز وأرمينية وكردستان وانفصال الولايات العربية . وتألفت لجنة دولية تشرف على القسطنطينية والمضايق ، وأخرى تشرف على الشئون المالية . وبذلك استحالت تلك الدولة التى كانت ملء الأسماع والأبصار قبل مضى سنة واحدة من إعلان الهدنة سلطنة حقيرة متخاذلة تحت حماية الدول ورحمتها .

فهل كان غريباً بعد ذلك أن تنأى تركيا بقضها وقضيضها عن دول أوربا الغربية ، وأن تجعل بينها وبينهم سداً منيعاً حتى لا تلدغ من جحرهم مرتين ؟ ولكن إذا كان الكماليون قد أشاحوا بوجوههم عن أوربا واستدبروا الغرب ، فانهم كذلك لم يأنسوا إلى الشرق ولم يأبهوا بمصاير العرب والإسلام . وقد كان فى مقدمة ميثاقهم الوطنى أن ينزلوا نهائيا عن الأقاليم التى تتكلم كثرتها اللغة العربية . وكان الاتراك فى قرارهم هذا معذورين، فقد ضاقوا ذرعا بمشاكل العرب وثوراتهم وناءوا تحت عبء الخلافة الإسلامية بأثقال شتت جهودهم واستنفدت أموالهم وعرضت مصالحهم الوطنية الخاصة للتلف والبوار . ولذلك نراهم اسقطوا من حسابهم بعد الانتصار سياسة الجامعة العربية أو الإسلامية التى استند إليها

سلاطين آل عثمان فى كفاحهم ضد أوربا ، وخاصة فى عهد عبد الحميد الثانى . فكانت أماناً لهم من تألب دول أوربا عليهم عدة سنوات .

وبينما كان الكماليون يأتمرون بالخلافة ويتربصون بها الدوائر كان المسلمون فى أنحاء العالم الاسلامى يظهرون سخطاً شديداً وقلقاً مستمراً خوفا على مصير تركيا والخلافة بعد الحرب . فكان موقف المسلمين إذ ذاك شبيهاً بموقف المواطنين الرومان المنتشرين فى معظم أنحاء العالم عقب غارات المتبربرين وسقوط روما فى القرن الخامس الميلادى ، فقد كانت الحياة من غير روما وحكمها أمراً لم تتحمله نصوص القانون الرومانى ولم تتصوره عقول الناس حينذاك . وكذلك ظن المسلمون بعد الحرب العالمية الأولى أن بنيانهم الدينى يوشك أن ينهار إذا ضاع استقلال تركيا أو ذهبت منها الخلافة . حقا لقد سكت المسلمون حين قامت حركة الثورة أو النهضة العربيـــة فى أثناء الحرب بزعامة الشريف حسين أمير مكة ضد الخلافة العثمانية ، ولـــكن ما كادت الحرب تضع أوزارها حتى علا الضجيج وارتفع صوت الاحتجاج عاليا من بين صفوف المسلمين ، وخاصة من الهند ، ضد ما كان قد بيته الحلفاء لتركيا غير مقدرين أن مصاب السلطنة والخلافة فى النهاية ان يكون عن طريق الحلفاء بل عن طريق الكماليين أنفسهم .

وكانت مفاجأة أليمة للعالم الاسلامى أن تصل أنباء إلغاء السلطنة العثمانية وإقالة السلطان محمد السادس فى نوفمبر سنة ١٩٢٢ ، ثم فراره قبيل اجتماع الدول فى لوزان سنة ١٩٢٣ لاقرار الصلح بين تركيا والحلفاء . وفى هذا الصلح نزل الاتراك من تلقاء أنفسهم عن الولايات العربية . وقد كانوا مستطيعين لو أرادوا بعد انتصارهم على الأغريق وإحباط مساعى الحلفاء ضدهم أن يحتفظوا ولو بالسيادة الروحية على ولاياتهم السابقة . ولكنهم آثروا أن يقطعوا مرة واحدة كل ما كان بينهم وبين العرب والمسلمين من اسباب .

وقد وجدت تركيا من روسيا — وهى تناضل أكبر سياسي المغرب فى

مؤتمر لوزان ــ أكبر نصير وأفصح لسان يترجم للمؤتمرين عن أصدق أماني تركيا بالاتفاق مع روسيا . وكانت نقطة الخلاف التي تهم روسيا والدول بطبيعة الحال هي مسألة المضايق . فقد أصرت بريطانيا وحلفاؤها على إعلان حرية المضايق في السلم والحرب ، حتى تستطيع عند الحاجة أن تخترق أساطيلها المضايق وتهدد روسيا . وبعد جلاد وجدال ودفاع مجيد قامت به روسيا لتأييد حق تركيا القديم في السيطرة على المضايق رئي أن تتجرد المضايق في معظم أجزائها وأن يترك لتركيا حق مرور قواتها داخل المضايق وحق تحصين القسطنطينية وإبقاء حامية بها تتألف من ١٢,٠٠٠ جندي ، وحظروا مرور السفن الحربية إذا كانت مجموع حمولتها تفوق حمولة السفن التابعة لأقوى دولة على البحر الأسود ، فاعترض المندوب الروسي وقال إن هذا لن يمنع تجمع اساطيل أكثر من دولة واحدة تريد أن تخترق المضايق ، فأبت الدول تعديل الشرط . ورأى المندوب التركي عصمت إينونو الرئيس التركي الحالي أن يساير الدول الغربية ويمالئها بعد أن أجابت تركيا إلى معظم طلباتها في أدرنة وتراقيا ومنطقة المضايق . وخرجت روسيا من المؤتمر غضبى من تركيا التي تخلت عنها في أحرج ساعات المؤتمر ، فأصرتها في نفسها ولم تنسها .

ولكن تركيا لم تبال وخرجت من المؤتمر موفورة القوة عزيزة الجانب مزهوة بانتصارها وبتودد الدول الغربية اليها . وما كادت تنتهي جلسات مؤتمر لوزان حتى جد الكماليون في انقلابهم مولين وجوههم دائما نحو الغرب ، فشفعوا إلغاء السلطنة بإلغاء الخلافه وإعلان الجمهورية التركية ، وساروا في طريقهم جميعاً تسربلهم البذلات الأوربية خالعين طرابيشهم مزينين رءوسهم بالقبعات الأفرنجية من كل رسم وصنف وعلى كل لون . وقد حرروا نساءهم وأنزلوهن حلقات الرقص ، واستصحبوهن إلى المقاهي والأسواق . ثم مالبثوا أن ألغوا الطرق الصوفية والتكايا ، وحرموا دراسة الدين . وبعد أن كان دين الدولة الاسلام أصدروا في سنة ١٩٢٨ قراراً بجعل الدولة مدنية

علمانية ،وأبدلوا بالحروف العربية الحروف اللاتينية،وسار كمال أتاتورك على رأس وزرائه وكبار موظفيه ومعه السبورة والطباشير ليعلموا الناس على اختلاف طبقاتهم وأعمارهم الكتابة بالحروف اللاتينية الغربية ، التى اعتبرها الجميع كأنها السحر الذى سيحل لهم طلاسم النهضة ويفتح لهم أبواب الثقافة الغربية على مصاريعها . ولم يتجه الكماليون فى وثبتهم هذه إلا مرة واحدة نحو الشرق ، وذلك حين نقلوا عاصمتهم من القسطنطينية التى صارت إسطمبول إلى أنقرة فى قلب الأناضول إمعاناً فى التبرؤ من آثار السياسة الرجعية القديمة .

ولم يطل التجافى بين تركيا وروسيا ، فقد قام خصام عنيف بين تركيا وبريطانيا بشأن الموصل ، وكانت تركيا فى مؤتمر لوزان قد اشترطت فى مقابل النزول عن الولايات العربية التى كانت تابعة لها أن تحتفظ بالعناصر المسلمة غير العربية، وكان الأكراد الذين يسكنون حول الموصل من أقوى هذه العناصر ، وكانت معاهدة سيفر التى لم يقدر لها التصديق والنفاذ قد منحت الأكراد استقلالهم فبات الاكراد يتربصون بالكماليين الدوائر ، فما ان اصدروا قرارهم بالغاء الخلافة حتى قامت بينهم فى سنة ١٩٢٥ ثورة جامحة لم يستطع الاتراك قمعها إلا بمشقة بعد ثلاثة أشهر . وأرادوا أن يأمنوا جانب الاكراد فى المستقبل فطالبوا بريطانيا بترك الموصل الذى كانت قد احتلته منذ ١٩١٨ وأدخلته فى حدود دولة العراق الجديدة . ولما استعصى حل الخلاف أحيلت المسألة إلى مجلس عصبة الأمم ، وقد تكونت لجنة دولية وقررت فى النهاية ضم الموصل إلى العراق مادام الانتداب البريطانى باقياً . وقد وقع هذا القرار على تركيا وقعاً أليماً ، وأيقنت أن الدول الغربية تعتبرها كروسيا دولة ثائرة خارجة عن نطاق الغرب .

وكان ارتياح روسيا لخسارة تركيا فى نزاعها مع دول الغرب عظيما ، فما كادت الأنباء تترامى به حتى أرسلت رسلها لعقد محالفة جديدة بينها وبين تركيا فى ديسمبر سنة ١٩٢٥ وبمقتضى هذه المعاهدة ضمن الفريقان بعضهما لبعض أن يلتزما الحياد

الودى إذا هاجم أحدهما فريق ثالث وأن يلجأ إلى المفاوضة بطريق ما لحل مشكلاتهما التى يتعذر تسويتها بالطرق الدبلوماسية . ومنذ ذلك الوقت استقرت الحال فى تركيا ، وقنعت بمعاهـــدتها مع روسيا غير ناظرة إلا إلى مستقبلها لا بالغرب تحتمى ولا إلى الشرق تنتمى . وبذلك استطاعت تركيا الجديدة فى مدى إثنى عشر عاما أن تفرغ لتنفيذ برنامج الإصلاح الكمالى الذى خلق من تركيا دولة فتية موطدة الأركان مرهوبة الجانب ، ومن الأتراك شعباً جديداً ناهضاً سرعان ما استرعى العالم بنهضته وحيويته .

وحين فرغت تركيا من تثبيت قواعد نهضتها الانقلابية فى بلادها وبدأت ثمار الإصلاح تنضج وتؤتى أكلها ، كانت آثار النظم الفاشية والنازية قد سادت أوربا وآسيا وأصبحت آثارها ماثلة أمام أنظار الساسة فى كل مكان ، فقد تنمرت اليابان على الصين واغتصبت منها منشوريا فى ١٩٣١ متحدية فى ذلك عصبة الأمم . وبدأت إيطاليا تتحرش بأثيوبيا غير عابئة بمعارضة انجلترا ومعها عصبة الأمم . وخرجت ألمانيا من عصبة الأمم فى سنة ١٩٣٢ ثم خرقت نصوص معاهدتى لوكارنو وفرساى . عند ذلك بدا للشعوب جليا أن المواثيق والمبادىء التى أعلنتها عصبة الأمم لن تغنى فتيلا عن الحرب .

وأيقن كمال أتاتورك أن بلاده وشبه جزيرة البلقان كلها قد أصبحت مستهدفة لعدوان إيطاليا عاجلا أو آجلا ، وأن مصلحة البلاد العليا تناديه بأن ينبذ سياسة الانطواء والعزلة التى سارت عليها تركيا فى الماضى . وكانت بريطانيا تمهد الطريق بين دول البحر المتوسط لمقاومة العدوان الفاشى إذا أعلنت إيطاليا خروجها على سياسة التأمين الجمعى التى يقوم عليها ميثاق عصبة الأمم ، فتوثقت العلاقات بين تركيا وبريطانيا ، ودخلت تركيا العصبة ووقفت وقفتها المشرفة الشهيرة فى دفاعها عن السلم فى السنوات القليلة التى سبقت الحرب العالمية الثانية .

وكأنما أرادت أن تستغفر لخطاياها القديمة ، فقررت أن تحدث حدثاً سياسياً يؤمن قضية السلام العام من جهة ، ويصون مصالح تركيا والشعوب الصغيرة التى

تكتنفها شرقاً وغرباً من جهة أخرى . وإنه لمن معجزات الزمن أن تقوم تركيا في شبه جزيرة البلقان ، التي طالما سالت في أوديتها الدماء أنهاراً من جراء الحروب والثورات التي اشتبكت فيها سلباً وإيجاباً ، بدور المصلح المخلص الداعي إلى الأمن والسلام بين هذه الشعوب التعسة. فبدأت تركيا بعقد معاهدة الصداقة مع الإغريق، ثم أقنعت سائر دول البلقان بأن خلاصهم متوقف على اتحادهم واعتمادهم على أنفسهم، وأنه لا فائدة ترجى لهم من الاستناد إلى واحدة من الدول الكبرى ، وأن مصلحتهم العظمى تقضي عليهم بألا ينساقوا أو ينزلقوا إلى منحدر المنافسات الدولية القائمة في أوربا الغربية إذ ذاك . وعلى ذلك تم الاتفاق على ميثاق البلقان سنة ١٩٣٤ بين تركيا واليونان ورومانيا ويوغسلافيا ، ولم يشذ عن الاتفاق سوى ألبانيا وكانت في سياستها تابعة لإيطاليا وبلغاريا وكانت لها مطامع لا يتيسر تحقيقها إذا حافظت الدول على الحالة القائمة .

ثم التفتت تركيا إلى الشرق وكانت علاقاتها مرضية بالدول التي استقلت عنها كبلاد العرب والعراق ومصر وإيران والأفغان ، ولم يسؤها أن ينفصل عنها الشام ولبنان وفلسطين وشرق الأردن تحت انتداب انجلترا وفرنسا ؛ فقد جاهدوا جميعا وكافحوا كما جاهد الكماليون وكافحوا لأجل استقلال بلادهم والتخلص من ربقة الحكم الأجنبي . وبعد أن كانت هذه الدول مجرد ولايات أو إمارات أو ممالك فقيرة متخاذلة متأخرة لا يؤبه لها كثيراً ، أصبحت في مدى خمسة عشر عاماً بفضل نهضاتها الثقافية الاقتصادية دولا فتية محترمة مرموقة الجانب تؤمن بمستقبلها السياسي والاقتصادي ، وتحسب الدول الكبرى حسابها .

وعند ذلك ألمّ الحنين بتركيا إلى الشرق ، وعادت بها الذاكرة إلى سابق مكانتها في قلوب المسلمين ، وأحست في قرارة نفسها بأن الشرق هو صخرة الأمان التي يجب أن تلوذ بها تركيا إذا اكفهر الجو في الغرب ولمعت بوارق الحرب حول المنطقة الخطيرة في المضايق التي تسيطر عليها . ولكن كبرياء الترك وكرامتهم أبتا عليهم أن يعترفوا بالحقيقة كلها ، فقرروا أن يكون اتحادهم شرقيا

صرفاً لا إسلامياً ولا عربياً فوثقت علاقاتها مع إيران الجديدة ، وجعلت تسعى بالصلح بين إيران والعراق وافغانستان . وأخيراً تم تأليف ميثاق سعد آباد قرب طهران فى سنة ١٩٣٧ بين تركيا والعراق وإيران والافغان على الأسس نفسها التى قام عليها ميثاق البلقان . وكان الأمل معقوداً باشتراك مصر والمملكة العربية السعودية فى الميثاق . ولو فعلتها مصر لكان مركزها ثانويا فى الاتحاد ولقضى على فكرة الجامعة العربية وهى فى المهد .

وانتهزت تركيا فرصة الاضطراب الدولى فى الأيام التى سبقت الحرب العالمية الثانية فدعت الدول لتعديل معاهدة لوزان فيما يخص المضايق، لتسترد كامل حقها فى تحصينها وتسليحها حتى لا يتعرض أمنها لعنت إحدى الدول المهاجمة كايطاليا . وقد أقرت الدول ذلك فى مؤتمر منترو سنة ١٩٣٦ . وكان من صالح روسيا آنئذ أن تحول تركيا دون تسرب أساطيل الأعداء إليها ، كما رأت انجلترا أن يكون أصدقاؤها فى البحر المتوسط مسلحين وعلى أهبة الاستعداد لرد هجمات العدو المشترك . وقد نص فى المعاهدة ، استمالةً لروسيا ، على أن لدول البحر الأسود حق مرور أساطيلها فى المضايق إذا اشتبكت فى حرب . ولكن المعاهدة أبقت حق التصريح والمنع بيد تركيا نهائياً تستعمله كما تشاء فى السلم أو فى الحرب ، وهو ما تعمل روسيا الآن لنقضه لجعل مهمة الدفاع عن المضايق محصورة فى أيدى دول البحر الأسود فحسب وفى مقدمتها طبعاً روسيا وتركيا ، إذ أن الدول الأخرى تابعة لروسيا فى سياستها .

ولما نشبت الحرب الأخيرة عانت تركيا منتهى العنت والشدة فى المحافظة على حيدتها ، ولكنها باءت من الحيدة بغضب روسيا وسخطها الشديد ، فقد نقمت عليها موقفها العدائى الجاحد فى إبان محنتها الكبرى ، فانقلبت الصداقة القديمة بينهما إلى عداوة أعادت إلى الذاكرة ما كان بين الدولتين قديماً من جفاء ومرارة وعداء مستحكم . وقد ظهرت آثار ذلك جلية فى إنذارها لتركيا بعدم تجديد معاهدة سنة ١٩٢٥ ثم برغبتها فى تعديل معاهدة منترو لا على أساسها الدولى الأول بل وفق مصالح روسيا وفى نطاق دول البحر الأسود فحسب.

ولما هاجمت إيطاليا وألمانيا شبه جزيرة البلقان فى صيف سنة ١٩٤١ وأخذت

دولها تتساقط واحدة تلو أخرى فى أيدى المحور، تلفت العالم ليرى أثر ميثاق البلقان بدخول تركيا الحرب إلى جانب الحلفاء ، ولكن سياسة الرئيس إينونو الرصينة الحصيفة أملت على تركيا سياسة الحذر والترقب. وحسناً فعلت تركيا، فلو أنها دخلت الحرب وقوات المحور فى دفعتها الأولى لاستطاع الألمان بسهولة أن يخضعوها ويتخذوا منها معبراً إلى منطقة الشرق الأوسط ، ثم إلى قناة السويس وخليج العجم.

وكذلك افتقد الناس ميثاق سعد أباد ونقبوا عن آثاره حين أغار الحلفاء على إيران وعزلوا الشاه رضا بهلوى ليتخذوا من إيران طريقاً إلى القوقاز فروسيا بدلا من طريق المضايق التى سدتها تركيا بحيدتها ، أو بالأحرى التى لم يستطع الحلفاء اختراقها لمناعة مركز الألمان فيها بعد إخضاعها اليونان وجزر بحر إيجه . وبحث الناس أيضاً عن بقايا الميثاق حين قام رشيد الكيلانى بثورته الحربية فى بغداد واضطر الملك والوصى على عرش العراق إلى الفرار . وعبثا حاول المنقبون أن يجدوا أثراً للمواثيق التى جاهدت تركيا فى إبرامها ، فقد أكلتها نيران الحرب المخربة ومزقتها سياسة الحرب فيما مزقت شذر مذر .

وكانت تركيا كلما دنت ساعة الحرب زاد اتصالها بدول الغرب ، فعقدت مع انجلترا فى سنة ١٩٣٨ قرضا ماليا كبيراً أعقبه بعد شهور قليلة قرض آخر من الولايات المتحدة . وفى سنة ١٩٣٩ عقدت تركيا محالفتها مع بريطانيا لمدة خمسة عشر عاما ، وبمقتضاها تعهدت بريطانيا بمساعدة تركيا إذا هاجمتها دولة أخرى ، على أن تقدم تركيا المساعدة لبريطانيا إذا هوجمت فى منطقة البحر المتوسط ومست فيها مصالح تركيا . وفى تلك السنة أيضاً تعاهدت تركيا وفرنسا ، وقد نزلت لها الأخيرة عن سنجق الاسكندرونة التابع أصلا لسوريا ، وذلك بعد نزاع دام بضع سنوات .

ولكن ما كادت تنتهى الحرب العالمية الثانية وتظهر بوادر النزاع بين تركيا وروسيا حتى عاد حنين تركيا إلى الجامعة الإسلامية أو الشرقية ، وبدأت تتحسر على الجاه والنفوذ الدينى الذى كان لها فى الماضى وبفضله استطاعت وهى حينذاك الدولة الضعيفة المتخاذلة أن تزعج روسيا وسائر الدول الاوربية

المسيحية . فكم كان يكون جاهها وتأثيرها اليوم وقد تجددت قواها لو أن معها أصوات مئات الملايين من المسلمين الناهضين فى كل مكان والذين كانوا يدينون لتركيا بالخلافة !

ويبدو أن دول الغرب نفسها ، قد اقتنعت أخيراً بأن تركيا يجب أن تطل دائما على الشرق ، وأن تعود كإحدى الدول العظمى حتى تقوى على مواجهة الضغط السوفيتى فى تلك المنطقة العظيمة الخطر بين الشرق والغرب . وهم يرون أن أى نظام دفاعى فى منطقتى الشرق الأدنى والأوسط لا ترتكز دعائمه على عزمات الجندى التركى المشهور سيكون حتما نظاما هزيلا مصيره إلى الفشل لامحالة . لذلك نسمع الآن تصريحات من الرئيس إينونو ومن وزرائه يرددون فيها رغبة تركيا المخلصة فى عقد معاهدات صداقة مع دول الجامعة العربية وسائر الدول الشرقية ، وأنهم فى سبيل هذه الصداقة مستعدون أن يمنحوا السوريين التسهيلات الاقتصادية المطلوبة فى سنجق الإسكندرونة . وقد بدءوا فعلا بعقد معاهدات مع العراق وشرق الأردن . وقد يكون مشروع سوريا الكبرى — إذ صح — أحد أركان هذه السياسة العليا التى تحتضنها بريطانيا وتشجعها أمريكا ماليا وسياسيا .

لكن الدول العربية الحديثة العهد باستقلالها هى لهذا السبب شديدة الحرص على حماية قوميتها واستقلالها ، وهى تخشى إذا قويت تركيا أن تعود إليها النزعة السلطانية ثانية ولا تلبث أن تزحف إلى الجنوب . وقد أصبح العرب الآن من الكفاية والنضج السياسى بحيث لا يجوز عليهم أساليب الخداع والسياسة القديمة التى تنتجها الدول الغربية لخدمة مآربها الخاصة . وخير لتركيا ولسائر الدول المتوسطة والصغرى أن تنبذ سياسة التكتل والمحالفات مادام السلم قائما وأن تحتذى حذو الممالك الاسكندناوية فى حيدتها وتماسكها وتمسكها بمصالحها بين الفريقين المتنافسين . ولم يخدم تركيا الحديثة خير من سياسة كمال أتاتورك الذى فك وثاق تركيا من الغرب والشرق جميعا وولاها الوجهة التركية الخالصة التى ترضاها فى ظل السلام العام .

الفصل السابع عشر

بين تركيا وروسيا

ما فتئت روسيا طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تتحرش بتركيا وتنقم عليها موقفها عند المضايق وعلى منفذ البحر الاسود تسد فى وجهها طريق الوصول إلى مياه البحر المتوسط الدافئة، ومازالت تستعدى عليها الشعوب السلافية التى كانت خاضعة لسلطان تركيا وتناصرها سرا وعلانية حتى توالت على تركيا الثورات والحروب وتعاقبت عليها الهزائم وأخذت الولايات المسيحية تنفصل عنها واحدة تلو الأخرى، وتداعى البنيان حتى أوشك أن ينهار كله وتصبح تركيا أثرا بعد عين لولا بقية من حيوية الجندى التركى الباسل ولولا دبيب الخلاف بين الدول الكبرى بسبب التنافس على أملاك الدولة . ولقد نشأ من ضعف تركيا إلى هذا الحد وبقائها على هـذه الحال البائسة زمانا ما عرف فى التاريخ بالمسألة الشرقية و « الرجل المريض » .

ولو قدر للطامعين فى ميراث الرجل المريض أن يتفقوا فيما بينهم على توزيع ذلك الميراث وتحديد مصير المضايق والقسطنطينية ما توانوا لحظة واحـدة فى الاجهاز على ذلك المريض ليقتسموا فيما بينهم تركته . وقد سبق فى نهاية القرن الثامن عشر أن أنست روسيا ضعفا حربيا من بولنده وهى جارتها من الناحية الغربية ورأت فيها تخاذلا شبيها بما كان فى تركيا فلم تتردد فى الاتفاق مع حليفتيها بروسيا والنمسا على تقطيع أوصال بولنده وتجزئتها مرة أخرى وثالثة حتى أتوا عليها جميعا وأمّحت بولنده من خريطة أوربا السياسية.

ولم يكن هناك ما يمنع من أن يكون هذا مصير تركيا أيضاً فى القرن التاسع عشر لولا رحمة من الله أدركت الرجل المريض فقد ظل الورثة مختلفين بشأنه

حتى قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ودخلتها تركيا إلى جانب ألمانيا فأيقن الورثة أن تركيا قد حان حينها وأن آخرة الرجل المريض قد دنت وأنه لا حرج من تقسيم التركة واعتبار المريض كأنه لا محالة قد مات .

ولم يطل اختلاف الورثة بشأن التركة فقد كانت رحى الحرب تدور طحونا وكان عشرات الآلاف من المحاربين يموتون فى كل يوم حتى لقد بدا أن الحرب قد لا تبقى على شىء يستحق أن يورث بعد الحرب ، وأن من صالح الحلفاء أن يتناسوا أحقادهم وأن يتساهلوا فى تقسيم التركة حتى يفرغوا لأنفسهم ويصمدوا جميعا لقتال العدو المشترك حتى يتغلبوا عليه . ولما كان إعلان معاهدات التقسيم والحرب لم تزل قائمة والرجل المريض لم يزل حيا يرزق ، مما يجافى أبسط قواعد الحياء فقد أحاط الحلفاء مفاوضاتهم بالكتمان وجعلوا اتفاقاتهم سرية حتى لا يظهر عليها أحد إلا بعد كسب الحرب .

وكانت روسيا أولى الدول التى خشى الحلفاء أن ينالها السأم قبل غيرها فأرادوا أن يقدموا لها طعما شهيا يستهويها ويجذبها نحو الحلفاء إلى نهاية الحرب فعقدوا معها أولى معاهدات التقسيم السرية فى لندن فى مارس سنة ١٩١٥ وبمقتضاها اتفقت كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا على أن تكون القسطنطينية والمضايق وما يجاورها من أراض من نصيب روسيا بعد الحرب ، وبذلك تتحقق لروسيا أعز أمانيها السياسية .وفى سبيل كسب الحرب ضحت كل من بريطانيا وفرنسا بما بذلتا من الجهود الدائبة فى أثناء القرن التاسع عشر لمنع الدب الروسى من التوغل جنوبا نحو البحر المتوسط .

وجاءت المعاهدة الثانية فى مايو سنة ١٩١٦ حين التفت الحلفاء إلى الجانب الشرقى من التركة فاتفقوا بمقتضى المعاهدة التى عرفت بأسمى المندوبين الانجليزى والفرنسى على التوالى سيكس بيكو Sykes-Plcot على أن تأخذ روسيا معظم بلاد أرمينيا وأن تكون بلاد المشرق تحت نفوذ فرنسا، وفلسطين والعراق تحت نفوذ بريطانيا . وكملت اتفاقات التقسيم بمعاهدة مع إيطاليا نالت بها جزر

الدوديكانيز وأزمير وجزءا كبيرا من الساحل الغربى للأناضول ، وباتفاق مع الشريف حسين أمير مكة على إعلان الثورة ضد الأتراك وتكوين دولة عربية تضم بلاد العرب وأجزاء أخرى داخلة فى نطاق معاهدة سيكس بيكو .

وبذلك لم يبق للرجل المريض مجال حيوى يعيش فيه حتى يلفظ نفسه الأخير سوى رقعة محدوده فوق هضاب الأناضول ابى كرم الحلفاء الا أن يحفظوها له لتكون فيه مقبرة جثته ومثواه الأخير .

ولكن عناية الله كانت تلحظ الرجل ، فأدركته الرحمة الإلهية على يد أقرب الوارثين إليه دارا وألد أعدائه خصومة فى الوقت نفسه وهى روسيا . ففى مارس سنة ١٩١٧ والحرب لا تزال فى عنفوانها قامت الثورة البلشفية فانسحبت القوات الروسية من الحرب وأعلن الثوار أنهم يؤمنون بالتعاون والمساواة بين الشعوب ويستنكرون اغتصاب الأراضى التى ليست لهم وفرض الغرامات الحربية على سكان البلاد المحتلة ، ولا يقرون المعاهدات السرية ويتبرأون منها ومن شروطها ، وكانت نتيجة ذلك أنهم نزلوا عما وعدوا به بمقتضى معاهدة لندن السرية سنة ١٩١٥ . فلما كسب الحلفاء الحرب فى سنة ١٩١٨ وسارت مواكب النصر فى طريقها إلى القسطنطينية لم تكن روسيا فى الموكب ولم يسمح لها القدر أن ترفع رايتها على معقل الأتراك وحصن الإسلام فى ذلك الوقت . فقد تألفت لجنة دولية لحراسة المضايق واحتلال القسطنطينية ، وتلفت الحلفاء يمينا وشمالا يبحثون عن دولة تصلح للانتداب على هذه المنطقة العظيمة الخطر فأبت فرنسا أن يكون الانتداب لانجلترا ، وتوجست انجلترا الشر من نيات فرنسا وكاد الأمر يستقر على الولايات المتحدة لو لم تجنح أمريكا فى ذلك الوقت إلى سياسة العزلة الدولية إذ نبذت سياسة ولسون ومعه ميثاق العصبة والانتدابات . وعلى ذلك لم يكن هناك مفر من بقاء الاحتلال العسكرى والاشراف الدولى على القسطنطينية والمضايق .

وكانت معاهدة « سيفر » المشئومة فى أغسطس سنة ١٩٢٠ وفيها أقر الرجل المريض الوصية التى أعدوها فى غيابه ، فقد استقل الحجاز وانفصلت الولايات

العربية وأخذ الأغريق تراقيا وجزر الأرخبيل وأخذت إيطاليا جزر الدوديكانيز وجزءا من آسيا الصغرى واستقلت أرمينيا وكردستان وتسابقت إيطاليا واليونان على أزمير وغربى الأناضول فاحتلها اليونان بمساعدة الحلفاء وظلت اللجنة الدولية التى تمثل الحلفاء تتحكم فى القسطنطينية والمضايق كما تألفت لجنة دولية أخرى للتصرف فى الشئون المالية .

وبينما الرجل المريض يعالج سكرات الموت، وشهادة الوفاة التى سجلت فى سيفر تتناقلها أيدى الحكومات للموافقة عليها إذا بروح جديدة تنبعث من جسم الرجل المريض الميت فتتقمص قائدا فذا من ضباط الجيش التركى فينسل من غرفة الموت ماضيا فى طريقه إلى هضاب الأناضول حيث قرر الحلفاء أن تكون بها مقبرة الجنس التركى . ومن هذه الهضاب دوى صوت الثورة الكمالية فى يوم من صيف سنة ١٩١٩ فكأنما نفخ فى الصور ، وكأنه يوم النشور فاذا الحياة تدب فى أجسام الموتى وإذا الهزيمة والجوع والعوز تتلاشى أشباحها أمام إرادة أمة قد صممت أن تحى مستقلة عزيزة الجانب لا سلطان لأجنبى عليها وان تألبت عليها جميع القوى الغاشمة .

عند ذلك ائتلفت الثورة الكمالية فى تركيا والثورة البلشفية فى روسيا ، وان لم يقر الترك مبادىء الشيوعية ، فكلتا النهضتين كانت بعثا جديدا لأمة مغلوبة خلقتها خلقا جديدا ، وكلتاهما قضت على عناصر الرجعية والاستبداد واستعدت لكفاح الأجنبى الذى كان يتمنى جاهدا لو استطاع القضاء على الثورتين . وكان نزول روسيا عن معاهدة لندن السرية فى سنة ١٩١٥ قد بعث الطمأنينة فى نفوس الأتراك الكماليين فتقاربت مساعى الدولتين، وسرعان ما اعترفت روسيا بحكومة أنقره الجديدة وحل محل العداوة القديمة بين الدولتين عهد صداقة وإخاء توطدت أركانه بعقد معاهدة الصداقة بينهما فى سنة ١٩٢١ إذ اتفق الحليفان على تسوية مسائل الحدود الشرقية بينهما ليفرغا لمواجهة القوات الأجنبية التى كانت تناوئها من الغرب فاحتفظت تركيا بقارص واردهان وارتفين على الحدود الشرقية

كما استردت روسيا باطوم وضمت جورجيا وأرمينيا إلى جمهوريات السوفيت .

ولما أمن الكماليون على حدودهم من ناحية الشرق سددوا ضرباتهم نحو الأجنبي فانجلى الفرنسيون من شرق الأناضول، وآثر الطليان الا يزجوا بأنفسهم فى حرب جديدة، وبقى الأغريق ولا نصير لهم سوى بريطانيا وكانت الدول المتحالفة قد سرحت جيوشها بعد عقد الصلح وكانت الشعوب قد سئمت الحرب واستنكرت محاربة الأتراك وهم فى عقر دارهم ولذلك لم يلق الأغريق من بريطانيا إلا معاونة بحرية لا تكاد تذكر إلى جانب الروح القومية المتدفقة التى كانت تسيطر على الكماليين والتى ظلت تقودهم من نصر إلى نصر حتى دحروا الأغريق فى معركة سقاريا الشهيرة وقذفوا بهم إلى البحر فانجلوا عن أزمير والأناضول من غير رجعة بعد ان أشعلوا النار فى المدن والدساكر وكل ما صادفهم فى منحدرهم إلى البحر .

بعد ذلك التفت الكماليون إلى القسطنطينية والمضايق وكادوا يهاجمون القوات البريطانية المرابطة بها بعد انسحاب الفرنسيين والطليان لو لم يسارع الحلفاء إلى مواجهة الحقائق ومفاوضة الكماليين فى الصلح . وكان جل أمانى الأتراك أن يمزقوا شهادة الوفاة التى خطتها يد الحلفاء ضد تركيا فى « سيفر » وأن يعلنوا للعالم ميلاد تركيا الجديدة . فقر الرأى على عقد مؤتمر الصلح فى يوليه سنة ١٩٢٣ فى « لوزان » البلد المحايد ، لا فى باريس ولا فى لندن .

وفى هذا المؤتمر لم يمل الحلفاء شروطهم كما أملوها على ألمانيا والنمسا فى فرساى وكما اعتادوا أن يملوها على تركيا من قديم، فقد أخذ عصمت باشا ممثل تركيا الجديدة مكانه فى المؤتمر مواجهاً لورد كيرزون Curzon ممثل انجلترا وجعل يعرض مطالب تركيا ويرد على اللورد حجة بحجة حتى كسب منه الصلح . ومن العجيب فى هذا المؤتمر أن يكون شبين المولود الجديد فى هذا المؤتمر هو شيشرين Chicherin ممثل حكومة السوفيت الجديدة ،وهى وان لم تكن تربطها فى ذلك الوقت بدول الحلفاء صلات سياسية أو اقتصادية قد دعيت لتبدى رأيها فى مناقشة مشكلة المضايق ، فكان ممثلها أقوى نصير لتركيا وكان هو محاميها الأول ضد الحلفاء عامة وضد بريطانيا بصفة خاصة .

وكانت بريطانيا التى ظلت طوال القرن الماضى تناضل عن استقلال تركيا وسلامة كيانها ضد روسيا ، وتنادى فى سبيل هذه الغاية بضرورة التمسك بحق السلطان فى اغلاق المضايق أمام جميع السفن الحربية منعاً لروسيا من التسلل بأساطيلها إلى البحر المتوسط — قد جاءت إلى مؤتمر لوزان تدعو الدول إلى اعلان حرية البحار وحرية الملاحة داخل المضايق وتطلب إلى تركيا عدم تحصينها ونزع سلاحها لتكون منطقة محايدة حرة للجميع . وظاهر أن هذه النظرية الجديدة لم تكن فى صالح تركيا ولا روسيا . فحيدة المضايق تحرم على تركيا تسليحها وتعرضها لهجوم الأعداء ، كما تيسر هذه الحيدة لبريطانيا وحلفائها اختراق المضايق بأساطيلها الحربية فى أى وقت تشاء وبذلك تظل روسيا أبداً مهددة بالعدوان .

لذلك ناضلت روسيا بقوة لدحض النظرية الجديدة ولكنها لم تفلح ولم يسع تركيا إزاء ما كسبته فى لوزان من استرداد أدرنه وتراقيا ومنطقة المضايق وعدم تقييدها بشروط حربية كالتى قيدت بها ألمانيا — لم يسعها أن تسترسل فى معارضة انجلترا فوافقت على سياسة الحيدة التى أرادوها للمضايق بعد ان اعترفوا بحقها فى تأمين نفسها بتحصين القسطنطينية وجعلها قاعدة بحرية بها حامية حربية قوتها ١٢٫٠٠٠ جندى وبقيت هذه الحالة قائمة أكثر من اثنى عشر عاماً استطاعت تركيا فى أثنائها أن تفرغ لتنفيذ برنامج الاصلاح الكمالى الذى خلق من تركيا دولة فتية موطدة الأركان عزيزة الجانب ومن الأتراك شعباً جديداً ناهضاً سرعان ما استرعى أنظار العالم بنهضته وحيويته .

ولم تنس تركيا لروسيا مؤازرتها لها فى أيام محنتها كما ظلت روسيا تذكر بكل خير صداقة تركيا وانضمامها إلى إيران والأفغان فى معاهدات ودية مع حكومة السوفيت فى الوقت الذى كانت فيه حكومات الغرب تعتبر مجرد التنويه بالبلشفية أو الشيوعية جريمة لا تغتفر وتآمرا على قلب نظم الحكم يعاقب عليه بالنفى والتشريد .

ولما فرغت كل من تركيا وروسيا من تثبيت قواعد نهضتها الثورية فى بلادها

وبانت ثمرات الاصلاحات الداخلية الشاملة فى البلدين كانت آثار النظم الفاشية والنازية قد ظهرت واضحة لكل ذى عينين وبدا للشعوب أن المواثيق والمبادىء التى أعلنتها عصبة الأمم سوف لا تغنى فتيلا عن الحرب المتوقعة وأيقن ستالين أن بلاده مستهدفة لعدوان النازية عاجلا أو آجلا ان لم يكن من ناحية هتلر فى الغرب فمن ناحية اليابان فى الشرق وقد تنمرت اليابان على الصين واغتصبت منها منشوريا فى سنة ١٩٣١ متحدية فى ذلك عصبة الأمم وبدأت بذلك خطة استعمارية جديدة .وكذلك أيقن كمال أتاتورك ان تركيا معرضة لخطر داهم من ناحية مسولينى والفاشية وأن مصلحة البلدين تركيا وروسيا تقضى عليهما بالخروج من العزلة الدولية التى فرضاها على نفسيهما حتى لقد بلغ حرص كمال أتاتورك على هذه العزلة أن يهجر اسطنبول نهائيا ويتخذ عاصمته فى أنقره وحتى لقد كادت الدول تعتبر الدولتين اسيويتين .

وعلى ذلك لم يكن مناص من أن تنبذ كلتا الدولتين سياسة العزلة . أما الروسيا فقد ظفرت فى سنة ١٩٣٤ بمكان دائم فى مجلس العصبة ثم دخلت مع كل من فرنسا وتشيكوسلوفاكيا فى معاهدة ، وكان الجميع يخشون عدوان ألمانيا على أراضيهم . وبدأ ستالين مشروع السنوات الخمس مرة بعد مرة حتى شهد العالم وهو مشدوه مبهوت إحدى معجزات القرن العشرين الاقتصادية حين رأى روسيا تتحول إلى بلاد صناعية تنتج ماتحتاج إليه البلاد حربيا واقتصاديا إلى جانب نهضة زراعية اجتماعية وثقافية أصبحت مضرب الأمثال فى مداها وكفايتها، فكأنما كان ذلك كله فى سرعته سحر ساحر لامجهود بشر !

وأما تركيا فواصلت نهضتها الصناعية والثقافية أيضاً واتجهت فى سياستها الخارجية خطة مبتكرة مالبثت أن رفعتها إلى مكان الزعامة بين دول البلقان والشرق الأوسط . وقد بدأت تركيا خطتها هذه بأن عقدت معاهدة صداقة مع الاغريق ثم اقنعت دول البلقان بأنه لافائدة ترجى لهم من الاستناد إلى دولة من الدول الكبرى وأن نضجهم السياسى وحرصهم على عدم الانزلاق فى منحدر المنافسات الدولية يحتمان عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم أولا وأن يتحدوا جميعا

ليكونوا صفاواحدا أمام كل عدوان. وعلى أساس هذه الخطة تكوّن اتحاد البلقان سنة ١٩٣٤ ولم تشذ سوى ألبانيا وكانت فى سياستها تابعة لإيطاليا ، وبلغاريا وكانت لها مطامع ترمى إلى تحقيقها من وراء عدم التمسك بالحالة القائمة .

ثم التفتت تركيا إلى الشرق الأوسط فوثقت علاقاتها مع إيران الجديدة وجعلت تسعى بالصلح بين أعضاء الأسرة الشرقية الاسلامية حتى تم تكوين ميثاق سعدأباد فى سنة ١٩٣٧ بين تركيا والعراق وإيران وأفغانستان على الأسس نفسها التى قام عليها ميثاق البلقان .

ولما شرعت إيطاليا تتحدى العصبة وتعتدى ظلما على أثيوبيا وتبعتها ألمانيا باحتلال إقليم الرين وتحصينه وإعلان الخدمة الإجبارية مخالفة بذلك نصوص معاهدة فرساى وميثاق لوكارنو، ولم تقو العصبة على رد عدوان إيطاليا أو كبح النزعات الجامحة فى ألمانيا ـ انتهزت تركيا الفرصة لتعديل معاهدة لوزان واسترداد كامل حقها فى تحصين المضايق وتسليحها حتى لايتعرض أمنها وسلامتها لعبث دولة مهاجمة كإيطاليا مثلا . وكانت العلاقات بين روسيا وتركيا لم تزل ودية فأيدت روسيا تركيا فى طلبها هذا لتكون حارسة على البواغيز فتمنع تسرب أساطيل الأعداء إليها . وكان من صالح إنجلترا كذلك أن يكون أصدقاؤها فى البحر المتوسط مسلحين ويأمن من هجمات العدو المشترك .

وعلى ذلك عقد مؤتمر منترو سنة ١٩٣٦ بين تركيا وبريطانيا وفرنسا واليابان وروسيا وباقى دول البلقان وقرروا إلغاء القيود الدولية التى وضعت فى مؤتمر لوزان بشأن الرقابة على المضايق ونص فيه على حق تركيا فى تسليحها وتحصينها كما تريد . ومع أنه قد نص فى المعاهدة على أن لدول البحر الأسود حق مرور أساطيلها فى المضايق فى وقت الحرب — ومن هذه الدول روسيا طبعا — فإن المعاهدة أبقت حق التصريح بالمرور ومنعه بيد تركيا نهائيا تستعمله كما تشاء سواء فى السلم أو فى الحرب ، وهذا مايضايق روسيا ويقض مضجعها الآن .

* * *

ولما اكفهر الجو الدولى فى أوربا وأوشكت تندلع شرارة الحرب العالمية الثانية كانت العلاقات بين روسيا وتركيا قد بدأت تتوتر فقد ارتابت روسيا من سياسة تركيا حين أوثقت الروابط بينها وبين إيران وتزعمت اتحاد سعد أباد فى حين كانت روسيا تطمع أن تبسط نفوذها على الأقاليم الإيرانية المتاخمة لجمهوريات السوفيت ، وترنو ببصرها إلى حقول البترول فى الشرق الأوسط ، لتـــدخر مواردها من بترول القوقاز ، وكذلك ساءها من تركيا أنها تزعمت دول البلقان وكادت تخلق اتحادا سلافيا إذا كان الغرض منه منع إيطاليا من العدوان فما لاشك فيه أنه سيقوى على مر الزمن ويقف حجر عثرة فى طريق روسيا نحو الجنوب . ومنذ نشأت هذه الريبة بين الدولتين سارت كل منهما على النهج الذى اختطته لنفسها فلم نعد نلحظ فى خططهما ذلك التناسق الذى كان يبدو جليا فى المـاضى . فبينما كانت تركيا ترتبط بمعاهدة الصداقة وتبادل المساعدة مع بريطانيا فى سنة ١٩٣٩ كانت روسيا لم تزل حائرة مترددة بين ألمانيا وبريطانيا . وكانت بريطانيا تعرض عليها الدخول فى الحرب متى بدأ العدوان النازى والفاشى وذلك فى الوقت نفسه الذى كانت فيه ألمانيا لاتريد منها سوى التزام الحيدة ، وعلى ذلك آثرت التعاقد مع ألمانيا .

ثم نشبت الحرب فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ فأعلنت تركيا حيدتها وأخذت تحوط نفسها بما يؤكد هذه الحيدة فعقدت مع روسيا معاهدة عدم الاعتداء كما عقدت مع انجلترا وفرنسا معاهدة تقضى بمساعدتها إذا هاجمتها دولة أوربية . ولما رجحت كفة ألمانيا فى أوائل الحرب عقدت معها تركيا سنة ١٩٤٠ معاهدة صداقة وتبادلتا أهم ما كان يلزمهما فأخذت تركيا عددا ومهمات حربية وأعطتها ألمانيا معدن الـكروم الذى كانت ألمانيا فى مسيس الحاجة اليه فى ذلك الوقت . وحاولت روسيا وقتئذ أن تقنع تركيا بفتح البواغيز لأساطيلها فأرسلت دعوة إلى رئيس الوزارة التركية لزيارة موسكو ولـكن تركيا تمسكت بتعهداتها الدولية ولم تستمع لنداء صديقتها القديمة .

ثم تطورت الحرب وانتقلت خطاها إلى الشرق ومضت ألمانيا تخضع حكومات

البلقان واحدة بعد أخرى فقيل للناس أن تركيا لابد داخلة الحرب إلى جانب الحلفاء تنفيذاً لميثاق البلقان. ولـكن دخول تركيا الحرب فى ذلك الوقت لم يكن فى صالح الحلفاء فقد كانوا فى حاجة قصوى إلى السلاح ولم تكن تركيا فى حالة تمكنها من مقاومة الألمان طويلا، فلو أنها دخلت الحرب لاستطاع الألمان بسهولة أن يأخذوها معبرا إلى روسيا ويهددوا قناة السويس وخليج العجم فى آن واحد .

لذلك قبضت تركيا على حيدتها وكانت فى موقفها كالقابضة على الجمر فإنها لترى بعينيها مصارع الشعوب التى داستها النازية بأقدامها الحديدية فتجفل وترتاع .

ثم دخلت الحرب فى أهم أطوارها فى صيف ١٩٤١ إذ هاجم الألمان روسيا وأصبح من صالح الحلفاء أن يمهدوا طريقا للاتصال بها حتى يمدوها بما تحتاجه فى كفاحها من سلاح وغذاء، وكان طريق المضايق إلى البحر الأسود هو أقرب السبل إلى روسيا فحاولوا اقناع تركيا بفتح الدردنيل والبسفور لسفنهم فأبت تركيا عليهم ذلك كما أبت على روسيا حين كانت تحارب إلى جانب ألمانيا ، واضطرت الحلفاء إلى الاتصال بروسيا اما عن طريق خليج العجم فإيران والقوقاز وأما عن طريق البحر المتجمد من الشمال وكلا الطريقين وخاصة الثانى منهما طويل محفوف بالأخطار. ثم اشتدالضغط الألمانى على روسيا وكادت ألمانيا تصل إلى آبارالبترول بالقوقاز وباطوم وكان مما ينقذ روسيا أن تدخل تركيا الحرب فتهدد الجناح الأيمن للجيش الألمانى الذى كان يستند إلى البحر الأسود ولـكن عبثاً حاول الحلفاء إقناع تركيا بالخروج عن حيدتها وبقيت كذلك إلى أن لاحت فى الجو بوادر النصر للحلفاء وبدأ رؤساءالدول يجتمعون فى مؤتمرات موسكو والقاهرة وطهران فى أواخرسنة١٩٤٣. وقد دعى الرئيس أينونو إلى التحدث معهم فى القاهرة وحينئذ قبل الأتراك أن يمنعوا تصدير معدن الـكروم إلى ألمانيا ولـكنها لم تعلن الحرب إلى جانب الحلفاء إلا ليتسنى لها أن تشترك مع سائر الأمم المحاربة فى مؤتمر سان فرنسسكو صيف عام ١٩٤٥

ونقمت روسيا على تركيا موقفها الجاحد فى ابان محنتها الـكبرى فانقلبت

الصداقة القديمة بينهما إلى عداوة أعادت إلى الذاكرة ما كان بين الدولتين فى العهد القيصرى من جفاء ومرارة وعداء مستحكم. لذلك لم يكن مستغربا أن تنذر روسيا تركيا فى مارس سنة ١٩٤٥ بعدم رغبتها فى تجديد معاهدة الصداقة إلا بشروطها كما أخطرتها برغبتها فى إعادة النظر فى معاهـــدة منترو، وان تتوتر العلاقات بين الحكومتين بدرجة استرعت اهتمام الدول. وتقضى المادة ٢٨ من معاهدة منترو بأن مدة المعاهدة عشرون سنة ولكن المادة ٢٩ تجيز للدول أن تطلب تعديل موادها فى كل خمس سنوات من تاريخ سريانها وعلى ذلك تكون المعاهدة قابلة للتعديل فى سنة ١٩٤٦ وقد انقضت عليها فترتان

ولن تستطع تركيا أو أية دولة أخرى بعد أن خرجت روسيا من الحرب وهى أقوى دولة حربية فى أوربا — أن تحرمها حق المرور فى المضايق بأساطيلها دون أن تستأذن فى ذلك تركيا ، فلم تعد روسيا تخشى مهاجمة الدول كما كانت فى الماضى بل أنها على العكس يهمها الآن أن تفتح أبواب المضايق لتتصل بسياسة البحر الأبيض المتوسط الذى برهنت الحرب الأخيرة على أنه المركز الرئيسى للنشاط الحربى العالمى . وقد بدأت روسيا تطالب بنصيبها فى قواعده الاستراتيجية فأخذت مكانها إلى جانب انجلترا وفرنسا وأمريكا فى منطقة طنجة الدولية وجعلت تطالب بقاعدة حربية فى منطقة المضايق نفسها .

ولن ترضى روسيا أن تستعيد تركيا مكانتها فى البلقان ، فما زالت تعمل على أن تكون لها الزعامة بين الشعوب السلافية ليكون مقامها بينها كمقام الولايات المتحدة من جامعة الجمهوريات الأمريكية بفارق واحد هو أن جمهوريات امريكا تتمتع باستقلالها وبسيادتها التامين . أما حكومات البلقان فتريدها روسيا وفق نظامها وعلى هواها .

وتركيا تلق الآن أشد العنت من جانب روسيا . فهى تهددها من ناحية البلقان وقد نشرت نفوذها على حكوماتها جميعا وخاصة بلغاريا التى لا تزال تحلم بادرنه . وتهددها كذلك من ناحية إيران فإن حدود تركيا من جهة الشرق تتاخم أذربيجان

وإذا نجحت روسيا فى فصل هذا الاقليم من جسم إيران كما تمنى نفسها فستكون روسيا سداً حائلا بين تركيا وإيران فلا يبقى بين الدولتين ذلك الاتصال الوثيق الذى ساعدعلى تأليف ميثاق سعد أباد ، وستبذل روسيا جهدها لمنع تجديد هذا الميثاق أو وصله بالجامعة العربية حتى لا تسترد تركيا زعامتها القديمة . وهناك أيضا الأقليات الكردية الموزعة بين تركيا وإيران والعراق والتى ما فتئت تعمل روسيا بفضل المساعى الشيوعية على جمع شملها .

وهناك أيضا جورجيا وارمينيا وكلتاهما من جمهوريات السوفيت وهما تطالبان تركيا بإعادة قارص واردهان وارتيفان اليهما وكانت روسيا فى سنة ١٩٢١ قد رضيت بانضمام هذه الأقاليم إلى تركيا بعد استفتاء أهلها، على أن هذه الأقاليم كانت تحت يد تركيا قبل سنة ١٨٧٨ حين استولت عليها روسيا، فاحتفاظ تركيا بها الآن لايعدو ان يكون استردادا لبضاعتها . والأتراك مصممون على الدفاع عنها شبرا فشبرا باعتبارها جزءاً من الوطن التركى ، وإذا أصرت روسيا على اقتطاع هذه الأقاليم وتعديل معاهدة منترو وفق مصلحتها وعلى غير ماترضى به تركيا فلن يمض وقت طويل حتى تظهر فى أفق السياسة العالمية « مسألة شرقية » جديدة تختلف من أجلها الدول وتناضل فيها تركيا وتقف منها كما وقفت فى سنة ١٩١٩ لا كما كان يقف الرجل المريض قبل ذلك التاريخ .

الفصل الثامن عشر

تطور سياسة روسيا الخارجية

يخطىء من يظن ان السياسة الخارجية لدولة ما رهينة بآراء وزرائها وحكوماتها تتشكل وتتلون وفق اهوائهم وميولهم وخططهم فحسب . فهناك اعتبارات جغرافية وتاريخية ثابتة تتحكم فى توجيه السياسة الخارجية لكل دولة ؛ واستمرار هـذه الاعتبارات هو الذى يجعل الناس يقولون مثلا أن السياسة التى تنتهجها حكومة العمال الانجليزية هى نفسها سياسة المحافظين والمؤتلفين من قبلهم ، وان اتجاه سياسة حكومة السوفيت بشأن المضايق ودول البلقان والشرق أن هو إلا صدى للسياسة التى سار عليها قياصرة الروس منذ عهد بطرس الأكبر وكترينه .

وعلى الرغم من أن ثورة سنة ١٩١٧ فى روسيا قد أوجدت هوة عميقة فصلت بين عهد القياصرة وعهد السوفيت فأن روسيا ما كادت تفيق إلى نفسها وتستعيد مكانتها الدولية حتى وصلت ما كان قد انقطع من خيوط السياسة الخارجية التى استمسكت بها الحكومة الروسية قبل الثورة .

ومن أهم الحقائق الجغرافية التى لم تستطع روسيا أن تتنكر لها رغم تغير نظم الحكم فيها انه بسبب تجمد مياه بحارها فى معظم شهور السنة بحاجة إلى منافذ تيسر لها الاتصال بالمناطق الدافئة النشيطة فى حركتها وتجارتها ، وعلى ذلك لا بد لها من السيطرة على ساحل بحر البلطيق غربا ومن التحكم أو التدخل فى مضايق البسفور والدردنيل لتتصل بالبحر الأبيض المتوسط والشرق .

ومن الحقائق التاريخية التى لا ينفك ذكرها عالقا باذهان الروس ان هناك شعوبا من الجنس السلافى أو الصقلبي الذى اليه تنتسب روسيا يسكنون فى شبه جزيرة البلقان وأن روسيا ما فتئت طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تحنو عليهم

وتدربهم وتحرضهم وتخوض الحروب من أجلهم حتى اطرد نموهم وكمل استقلالهم وأصبحت روسيا تعتقد ان من حقها عليهم أن يخصوها بالامتياز والنفوذ الأول بين الدول .

هذان مثالان من تأثر السياسة الخارجية فى روسيا بالاعتبارات الجغرافية والتاريخية وسيتبين هـذا الأثر مع العوامل الأخرى فى سياق الحديث عن تطور هذه السياسة .

* * *

لمـا قامت الثورة البلشفية فى روسيا فى مارس سنة ١٩١٧ وكانت رحى الحرب العالمية الأولى لا تزال تدور وتطحن شباب الدول المتحاربة اعلن الثوار أن مبادىء النظام الجـــديد انمـا تقوم على التعاون والمساواة والاخاء بين الشعوب وانهم لا يعتقدون فى تفوق جنس على آخر أو تسلط دولة على أخرى . ورأى زعماء الثورة ان مواصلة الحرب بعد انهيار النظام فى صفوف الجنود والبحارة قد يجر روسيا إلى هزائم حربية لا تلبث ان تفت فى عضدها فتعوق سير الاصلاحات الداخلية فيهـا وقد تقضى على الثورة نفسها وهى لا تزال فى المهد ، لذلك جنحت حكومة الثوار إلى السلم وسارعوا فى اعلان سياستهم الجديدة وتتلخص فى نشر السلام العاجل وحق تقرير المصير للشعوب واستنكارهم ضم اراضى الغير أو دفع الغرامات الحربية وتبرؤهم من المعاهدات السرية وشروطها .

وقد اعقب ذلك ابرامهم معاهدة « برست لتفسك » Brest-Litovsk مع المـانيا وحلفائها فى مارس سنة ١٩١٨ وبمقتضاها فقدت روسيا فنلنده واقاليم بحر البلطيق ونزلت لالمانيا والنمسا عن بولنده الروسية فى الغرب . وكانت نتيجة هـذه المعاهدة ان نزلت مكانة روسيا حربيا ودوليا إلى الحضيض .

ومع أن معاهدة فرساى سنة ١٩١٩ قد ألغت معاهدة برست لتفسك وابطلت شروطها فان الحلفاء لم يدعوا روسيا للاشتراك فى مؤتمر الصلح ذلك لأنهم كانوا

يكرهون حكومة البلشفيك فى روسيا ومبادىء الشيوعية أكثر من كراهيتهم للعسكرية الالمانية . ولذلك لم يترددوا فى اقامة جمهوريات بحر البلطيق لتفيا واستونيا ولتوانيا والاعتراف باستقلال فنلنده وبولنده ليدرأ كل هؤلاء عن أوربا الغربية خطر الشيوعية وليقفوا سدا منيعا فى وجه حكومة السوفيت إذا ما تحركت جحافلها أو مبادئها نحو الغرب .

أما فى البلقان فقد نزلت روسيا عن « بسارابيا » لرومانيا واستطاعت بجهودها أن تتغلب على أعداء الثورة البلشفية فى أكرانيا وروسيا البيضاء فضمتهما إليها بالقوة غير مكترثة بمبدأ تقرير المصير .

أما فى الشرق فان استنكار روسيا للمعاهدات السرية وما ترتب على ذلك من نشرها شروط المعاهدة السرية التى تمت بينها وبين انجلترا وفرنسا فى سنة ١٩١٥ بشأن استحواذها على القسطنطينية والمضايق بعد الحرب ونزولها طبعا عن المطالبة بتنفيذ هذه الشروط — قد أوجد الطمأنينة فى نفوس الأتراك الكماليين وأقام بين تركيا وروسيا بدلا من العداوة القديمة صداقة وعهد أخاء توطدت أركانه لتشابه ظروف الدولتين واشتراكهما فى مقت الحكومات الغربية وأساليبها فى تحريك الشعوب والحكومات ضدهما .

وعلى ذلك سرعان ما اعترفت روسيا بحكومة أنقرة الجديدة وعقدت معها معاهدة الصداقة فى سنة ١٩٢١ وكانت تركيا قد استولت على قارص واردهان وارتيفان من أرمينيا فاحتفظت بها واستردت روسيا باطوم كما ضمت جورجيا وأرمينيا إلى جمهوريات السوفيت، ثم سوت روسيا مشاكلها مع بولندة وعقدت مع ألمانيا معاهدة رباللو Rapallo سنة ١٩٢٢ وبها كسبت ألمانيا فوائد اقتصادية وحربية لم تخطر على بال الحلفاء الذين استمروا فى عدائهم وجفائهم لنظام الشيوعية فى روسيا .

بذلك استتب لروسيا الهدوء والسكينة فعمدت إلى ثورتها تثبت أصولها وتطبق نظرياتها وتقمع أعداءها حتى تضمن لها الحياة والبقاء ، واستمرت هذه الفترة

الأولى من حياة روسيا الجديدة إلى يناير سنة ١٩٢٤ حين مات لنين زعيم البلشفية وقلبها النابض وعقلها المفكر وخلفه ستالين .

وبتسلم ستالين مقاليد الحكومة السوفيتية الناشئة دخلت روسيا فى طورها الثانى من حياتها السياسية .

ولم يكن ستالين كلنين من قادة الفكر النظريين فلم يدرس فى جامعات أوربا مثل لنين ولم يتعرف على مفكرى الغرب أو كتبهم أو آرائهم . بل كان ستالين رجلا حربيا عمليا مدركا للحقائق مؤمنا بمستقبل روسيا فى ظل المبادىء الشيوعية ولم يحلق به الخيال يوما أو يمتد به الأمل إلى الدرجة التى تجعله يضحى من صالح روسيا فى سبيل تحقيق الغرض العالمى الذى إليه قصد ماركس ولنين من بعده ثم تروتسكى من بعدهما فى سبيل تعميم الثورة الشيوعية فى العالم بطريق العنف والقوة .

بل كان من رأى ستالين أن تعمل روسيا أولا على تدعيم خطته « الاشتراكية فى بلد واحد » بانهاض روسيا صناعيا . وقد مهد الطريق لتنفيذ برنامجه بتطهير الحكومة السوفيتية من عناصر الشيوعية العالمية وتشريد القائلين بها .

ومن حسن طالع ستالين أن أوربا كانت تجنى فى هذه الفترة أحسن ثمار عصبة الأمم ، فقد دخلت ألمانيا العصبة فى سنة ١٩٢٦ وسادت بلاد العالم موجة من حب السلام جعلت روسيا تشترك من صميم قلبها فى اللجنة التحضيرية لمؤتمر تخفيف التسليح الذى انعقد بعد ذلك فى جنيف رغم أن روسيا لم تكن عضوا فى العصبة وقد كان مندوبها لتفنوف Litvinov أقوى من رفع صوته فى المؤتمر مناديا بوحدة السلام فى العالم وبتخفيف التسليح بل وبنزعه كلية فى مدى أربع سنوات .

ولما لم يفد مؤتمر نزع السلاح شيئاً وباءت عصبة الأمم بخيبة أمل مريرة تنبهت روسيا إلى موقفها أزاء الدول وأدركت أنها إنما تقف وحدها فى عزلة عن دول العالم حربيا وسياسيا ورأت روسيا أن مسابقة التسليح بين الدول ستعود حتما سيرتها الأولى وان مصيرها أصبح معرضا للضياع إذا لم تنهض بسد حاجاتها

الحربية والصناعية بنفسها وعلى ذلك بدأ ستالين فى سنة ١٩٢٩ مشروع السنوات الخمس الشهير .

ولما كان مركز روسيا المالى لا يسمح لها بالاقتراض اضطرت إلى مضاعفة الانتاج وتطبيق مبدأ إنكار الذات بكل دقة حتى تستطيع أن تسدد أثمان العدد والآلات الضخمة وتوفى أجور الخبيرين الأجانب الذين جاءوا من مختلف البلدان الغربية لتشغيل هذه الآلات وتمرين العال والمهندسين الروس عليها ، حتى إذا ما انتهت السنوات الخمس، شهد العالم مبهوتاً مشدوها أكبر معجزات القرن العشرين الاقتصادية إذ تحولت روسيا — وكأن ذلك بعصا سحرية أو بمصباح علاء الدين — إلى بلاد صناعية تنتج كل ما تحتاج إليه حربياً واقتصادياً وذلك إلى جانب نهضة زراعية اجتماعية وحركة عمرانية ثقافية أضحت مضرب المثل فى مداها وكفايتها ، وأصبح ستالين صاحب هذه النهضة الكبرى ومبدعها معبود القوم وملاذهم الأعلى فى السلم وفى الحرب .

ولما كمل استعداد روسيا داخلياً بدأت تلعب دورها على مسرح السياسة الدولية وكانت الحركة النازية فى المانيا قد أخذت تقوى وتتغلب حتى استأثرت بالحكم وأصبح هتلر فى سنة ١٩٣٣ على رأس ألمانيا يحركها كيف شاء فلم يتطرق الشك إلى ذهن ستالين أن روسيا قد استهدفت للعدوان عاجلا أو آجلا ان لم يكن من ناحية هتلر والغرب فمن ناحية الشرق وقد تنمرت اليابان على الصين واغتصبت منها منشوريا فى سنة ١٩٣١ متحدية فى ذلك عصبة الأمم .

وقف ستالين يرنو ببصره إلى الأفق الدولى علهأن يجد لروسيا حليفاً يخلص لها ويصدقها الوعد عند الحاجة فلم يجد أمامه سوى حليف واحد قد مد ذراعيه لاستقبالها هو عصبة الأمم التى أولته مقعداً ثابتاً فى مجلس العصبة سنة ١٩٣٤. وسارعت فرنسا وتشكوسلوفاكيا إلى محالفة روسيا لتعرضهما جميعاً لخطر النازية. ولقد حاولت روسيا بكل ما لديها من قوة أن توقظ الدول الغربية من سباتها لتأخذ الأهبة لدرء الخطر النازى فلم تفلح إذ أن الحكومة الانجليزية كانت تعتقد

أن مجرد الاستعداد للحرب كاف لاثارة سخط ألمانيا ودفعها إلى اعلان الحرب وهو ما كانت ترهبه الدول الغربية وتعمل جاهدة على مفاداته .

ثم نمى إلى حكومة السوفيت أن دول الغرب لا يضيرها أن تقع الحرب بين هتلر وروسيا فيقضى هتلر على الشيوعية فى روسيا خدمة للانسانية جمعاء وتخرج المانيا من هذا النضال ضعيفة مهيضة الجناح فلاتعود تهدد دول الغرب،فزاد ارتياب ستالين فى نيات الدول الديمقراطية وبدأ مشروع السنوات الخمس الثانية حتى يكمل استعداد روسيا حربياً ولا تكون تحت رحمة الغير .وفعلا أعلن ستالين سنة ١٨٣٩ أن روسيا ستعتمد على نفسها وانها وحدها كفيلة بسحق أية قوة تعتدى عليها وأنها لن تكون لعبة فى يد الدول .

وأخيراً وضح الخفاء وقامت إيطاليا تتحدى العصبة بانقضاضها على الحبشة وتبعتها ألمانيا تحتل اقليم الرين وتحصنه وتعلن الخدمة العسكرية الاجبارية مخالفة بذلك نصوص معاهدة فرساى ثم توالى عدوان هتلر على النمسا والسوديت وتشكوسلوفاكيا . ولم يعد خافيا ضعف الحكومات الغربية وهزالها وتخلخل أوصالها أمام هتلر فعول ستالين على أن ينتقم لنفسه من دول الغرب وذلك بأن يوجه ضدها دفعة هتلر الأولى ريثما يتم له الاستعداد الكافى فأبرم مع هتلر معاهدة عدم الاعتداء فى أغسطس سنة ١٩٣٩ وأهمل مساعى انجلترا المملة الطويلة فى هذا السبيل . ثم احتاط للمستقبل فأبرم معاهدة الحيدة مع اليابان فى ابريل سنة ١٩٤١ ودل بذلك على حنكة سياسية مدهشة فلم يكن يساور روسيا أقل شك فى أن هتلر سينقلب عليها عندما يفرغ من اخضاع غرب أوربا

وفعلا بدأ هتلر هجومه ضد روسيا فى يونيه سنة ١٩٤١ وظهرت معجزة روسيا الحربية بعد معجزتها الاقتصادية . فبينما كان ثقات الحربيين والنقاد فى جميع أنحاء العالم يؤكدون هزيمة روسيا فى مدى لا يزيد على ستة شهور إذ بروسيا تقف وقفتها الشهيرة أمام أكبر وأضخم قوة حربية تحركت على سطح الأرض منذ الخليقة فتصدها صداً باسلا عنيفاً لمعت فيه عبقرية ستالين الحربية . ثم تحوله

الدفاع إلى هجوم كاسح كاسر تعالت فيه ألوية النصر بفضل الصلابة التى اشتقها الجنود والمجندات من « رجل الصلب» ستالين الذى على رأسهم وبفضل المعونة التى تلقتها روسيا من الحلفاء عن طريق إيران والبحار الشمالية وأخيراً بفضل الانتاج الحربى المتزايد المتواصل المنبعث من المصانع الروسية المستورة من بطون الكهوف والوهاد، والجبال التى اعتصم بها الروس عندما أوغل الأعداء داخل البلاد .

خرجت روسيا من هذه الحرب الضروس وهى عالمة تمام العلم فى دخيلة نفسها أن النصر قد رفعها مع الولايات المتحدة فوق دول العالم جميعاً وأن موقعها من الدول بعد هذه الحرب يشبه كثيراً موقف روسيا فى سنة ١٨١٤ عقب هزيمة نابليون بونابرت فقد كان القيصر اسكندر الأول روح المقاومة الشعبية ضد نابليون وهو الذى أوصى بسياسة « المحالفة المقدسة » التى تولاها الوزير النمسوى مترنخ وجعلها شعاراً للرجعية فى سياسة أوربا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

ويخيل إلينا أن روسيا الآن تريد أن تتقاضى ثمن النصر كما تقاضته عقب انكسار نابليون ولا تريد أن تغبن كما غبنت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

وأول ماترمى إليه روسيا من أهدافها الخارجية أن تحيط مساحاتها الشاسعة بسياج حصين من الأمان فتعود إلى قواعدها فى بحر البلطيق وقد أوثقت صلاتها ببولنده وضمت اليها فعلا جمهوريات البلطيق السابقة وكانت جزءاً من أراضيها قبل الحرب العالمية الأولى رافضة حتى ان تفاوض حلفاءها بشأنها .

وتريد روسيا من الجنوب أن تكون لها الزعامة بين شعوب البلقان الصقلبية كما أن للولايات المتحدة الزعامة بين جمهوريات أمريكا الأخرى. وإذا كانت روسيا لا تطمع فى ضم جزء من هذه الأراضى عدا بسارابيا وقد ضمتها فى سنة ١٩٤٠ حين كانت حليفة لألمانيا — فإنها تريد أن تجعل من هذه الأقاليم منطقة نفوذ خاصة بها . وستجر هذه السياسة حتما إلى معارضة الدول الغربية ولها فى البلقان عامة وفى اليونان والمضايق خاصة مصالح لا يستهان بها . ومع توتر العلاقات بين

روسيا وتركيا لأسباب كثيرة أهمها تلكؤها فى إعلان الحرب على ألمانيا ولو أعلنته لشغل جناح ألمانيا الأيمن فى أثناء هجومها على روسيا — فاننا لانعتقد أن حكومة السوفيت تخاطر بإعادة تاريخ القياصرة والمسألة الشرقية من جديد .

وتعتبر روسيا أقرب الدول الأوربية إلى منطقة الشرق الأوسط وحدودها تلامس فعلا إيران وافغانستان والعراق فضلا عن تركيا . ولذلك فإنه يهمها كثيراً ألا يهمل شأنها فى هذه المنطقة الحيوية كما أهمل فى الماضى . ففضلا عن سعيها فى إنشاء العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية بينها وبين بلدان هذه المنطقة فإنها ستعمل على تخصيص بعض هذه المواقع الاستراتيجية لتكون مناطق دولية تشترك فيها روسيا . فقد طالبت روسيا بأن تكون عضوا مشرفاً على نظام طنجة الدولى مع باقى الحلفاء وأجيبت إلى طلبها . وهاهى ذى تطلب أن توضع المستعمرات الايطالية القديمة تحت وصاية هيئة الأمم حتى يكون لروسيا مكان فى تلك المنطقة العظيمة الخطر .

وأما فى الشرق الأقصى فتريد روسيا أن تكون مع كندا والولايات المتحدة دولة باسيفكية ولذلك نراها تعمل على أن تصل إلى قواعدها التى كانت لها قبل انهزامها أمام اليابان سنة ١٩٠٥ ، وتعتقد روسيا أن الصين واندونيسيا وغيرها من بلاد الشرق الأقصى ستصبح قريبا حقلا صالحا لانبات بذور الشيوعية بين مئات الملايين الذين يقطنون هذه الأرجاء . وهانحن أولاء نرى جموع الشيوعيين فى الصين قد انتصروا على القوات الوطنية بقيادة شيانج كاى شيك فاحتلوا منشوريا أولا ثم زحفوا جنوباً حتى احتلوا نانكنج عاصمة الوطنيين وشنغهاى أعظم موانى الصين وكاد الشيوعيون يسيطرون على جميع الصين . ووجه الخطر من سياسة روسيا فى آسيا أن تتفتت الذرة الصينية فتنطلق منها طاقة شيوعية هائلة تهز الهند والصين الهندية بل والعالم بأجمعه . وليس يدانى هذا الخطر أى خطر آخر سواء أكان مبعثه البلقان أو برلين أو البحر المتوسط .

الفصل التاسع عشر

اليونان بين الملكية والجمهورية

ورث الاغريق المحدثون فيما ورثوه عن أسلافهم القدماء ولوعاً بالحرية والاستقلال ، وإيماناً قوياً بالذاتية الفردية التى تجعل للفرد أو للمدينة كياناً مستقلا خاصاً لا يحتمل ضما أو إدماجا فى وحدة أو وحدات أكبر وأوسع نفوذاً . ولقد كان لهذه الصفة الأخيرة أبلغ الأثر فى تكييف تاريخ هذه الأمة العريقة . فبينما نرى المصريين والفرس والرومان قد جمعوا شتات أقوامهم ووحدوا شمل بلدانهم وأنشأوا لهم فى التاريخ القديم دولا موحدة مترامية الأطراف كان الشأن الأول فيها للحكومة المركزية ، إذا بتاريخ الإغريق القدماء يزخر ويزدهر بقيام دول شتى تلمع فيها عبقرية الأفراد ويعظم شأن المدن المستقلة ، فينافس الجميع بعضهم بعضا فى إقامة أحسن النظم وأدناها إلى سعادة الإنسان وشحذ فكره وترقية ذوقه.

ولم يكن الإغريق القدماء ليرضوا بديلا عن تلك الذاتية الفردية إلا إذا دهمهم من الخارج أو الداخل خطر يعرض كيانهم أو حرياتهم للضياع ، كما حدث عند ما هاجمتهم جحافل الفرس واساطيلهم فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وحينئذ تتضافر جهودهم ويتناسون أحقادهم ويقفون جميعاً فى وجه المعتدى ، كلهم للمجموع وأرض هيلاس للجميع . ولقد وحد المقدونيون البلاد فترة فى عهد الاسكندر الأكبر ، وأصبحت لهم دولة ترامت أطرافها إلى الهند وحدود الصين ، ولكن سرعان ما استحالت إثر موت الاسكندر إلى دويلات مستقلة طوعا لطبيعة البلاد والناس .

وقد دعاهم حرصهم على ذاتيتهم وشدة تمسكهم باستقلالهم الفردى أن يشن بعضهم على بعض حروباً أهليــة ، عرفت أكبرها فى التاريخ القديم بحرب

بيلوبونيز ، وظلت مستعرة بينهم قرابة سبعة وعشرين عاماً ، لالسبب سوى أنهم آنسوا من أثينا ميلا للطغيان وبسط نفوذها على سائر المدن الإغريقية المستقلة ، وحرمانها تلك الذاتية الفردية التى قدسها الاغريق قديماً ، وكانت فى تاريخهم الحديث مصدر شقاوتهم واضطراب أحوالهم إلى الآن .

ولقد كان يظن أن رزوح اليونانيين تحت نير الأتراك زهاء أربعة قرون منذ فتحها العثمانيون فى القرن الخامس عشر إلى قرب منتصف القرن التاسع عشر ، قد غير من طبائع هذا الشعب وبدلهم بحب الحرية والذاتية الفردية خضوعا للغاصب واستسلاما لطبائع الاستبداد ؛ ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ؛ فإن الأتراك العثمانيين لم يكونوا يوما مستعمرين متسلطين ، بل كانوا رغم تفوقهم العسكرى قوما كسالى ، لا هم لهم إلا جمع القوت والمال لإشباع بطونهم وبطون رؤسائهم فى القسطنطينية ، فتركوا أهل اليونان أحراراً يوزعون الضرائب بينهم، أحراراً فى كنائسهم وفى مدارسهم ، لهم رؤساؤهم الروحيون والمدنيون ، والكثرة الغالبة منهم يعيشون عيشة الفاقة والقناعة على ماتنتجه بلادهم المجدبة التى تكتنفها سلاسل الجبال الشاهقة ، فتجعل الزراعة والمواصلات والسعى إلى كسب الرزق عملا بالغاً منتهى الشدة والمشقة .

ولما كان الأتراك يزاولون سلطانهم عادة فى المدن بسند من عساكرهم وحامياتهم ، وجداليونانيون الأحرارملاذاً لحريتهم بين مسالك الجبالومفاوزها، واتخذوا من كهوفها ووهادها مراكز لعصاباتهم تحصنوا فيها ، وكانت لهم أوكار يكرون منها ويفرون ، ومنها ينقضون ليلا على الأتراك وعلى أهل المدن والسهول من الموسرين الموالين للحكام ، يسلبونهم متاعهم وينكلون بهم ويقتلونهم خفية ، ثم يعودون من غزواتهم غانمين آمنين ، فلا الأتراك بمستطيعين أن يصلوا إلى مراكز هذه العصابات ، ولا اليونانيون قادرون على إفشاء سر إخوانهم أو مخالفة أوامرهم . وشبيه برجال العصابات أهل الجزر المنتشرة فى بحر إيجه ، فقد كان لتركيا أساطيل وقواد بحريون ، ولكنهم كانوا لا حول لهم ولا قوة أمام

ملاحى اليونان وقرصانهم من أهل الجزر الذين سيطروا على حركة الملاحة والتجارة ، فبنوا السفن والأساطيل وسلحوها خفية ومخروا بها عباب البحار إلى مختلف ممالك أوربا . وقد أفادوا كثيراً من الحصر البحرى الذى أعلنه نابليون على الجزر البريطانية وأعلنته انجلترا على قارة أوربا ومثل أولئك وهؤلاء كان القساوسة والرهبان من رجال الكنيسة الأرثوذكسية الذين اتخذوا من امتيازاتهم الدينية ستاراً أسدلوه على نشاطهم الاجتماعى والسياسى ، فكانوا يجوبون الهضاب والقفار والأودية ويطوفون على القرى ومراكز العصابات يواسون الفقراء ويضمدون جراح المرضى والمساكين ، ويذكرون الناس جميعاً بمجد الدولة البيزنطية القديمة ، ويبشرونهم باقتراب يوم الخلاص والنشور !

وعلى أكتاف هذه العناصر الثلاثة قامت الثورة ضد الأتراك فى سنة ١٨٢١ ، واشتعلت حرب استقلال اليونان واستمرت زهاء عشر سنوات بين مد وجزر ونصر وخذلان ، حتى تدخلت الدول ، وتقدمت روسيا تحارب تركيا فى سبيلهم وتقف أمام القسطنطينية تخير الأتراك بين تحرير اليونان أو ضرب العاصمة . فلم يسع تركيا سوى الإذعان للقوة ، وأقرت الدول فى سنة ١٨٣٠ استقلال اليونان وانسلاخها عن تركيا .

وكأنّ خروج اليونانيين بعد أربعة قرون قضوها فى ظلمات الاستبداد والاحتلال الأجنبى إلى نور الحرية والاستقلال قد غشى أبصارهم فجعلهم يتعثرون ويتخبطون فى مزالق السياسة ، فما كادوا يتمتعون باستقلالهم حتى ظهرت عليهم أعراض الذاتية الفردية وطغت بينهم الأحقاد، واتسعت هوة الخلف بين أهل الجبل وأهل السهل ، فعمت الفوضى ، وراحوا يزجون فى السجون زعماءهم ويقتلون كابو دستريا Capo d'Istria أول رئيس لجمهوريتهم التى أعلنوها سنة ١٨٢٧ . وكان كابو وزيراً لخارجية روسيا واختاره اليونانيون رئيساً لهم ؛ فلم تمض إلا سنوات ثلاث حتى قتلوه لأرستقراطيته وجوره .

وعند ذلك قررت انجلترا وفرنسا وروسيا أولياء أمر اليونان أن يوضع

حد للمنازعات الداخلية بإعلان الملكية ، واختاروا لتاجها الأمير أتو Otto ابن ملك بفاريا ، فسار على غير هوى اليونانيين ولم يكن له عقب ، فأقالوه سنة ١٨٦٢ واختاروا بدله الأمير جورج الدنمركى . وقد مهدت بريطانيا الطريق أمام الملك الجديد بأن نزلت لليونان عن جزر الأيونيان . وكانت هذه الجزر تتمتع منذ سنة ١٨١٥ بحكم ذاتى تحت سيادة بريطانيا ، فانجذب الشعب اليونانى نحو الملك الجديد وتوطد مركز الملكية بفضل ارتباطها بأواصر النسب مع أكبر تيجان أوربا إذ ذاك ، فقد كان الملك جورج الأول متزوجاً بأميرة روسية ، وكانت شقيقته زوجة ولى عهد انجلترا وهو الذى اعتلى العرش بعد والدته الملكة فيكتوريا باسم الملك إدورد السابع ، وقد تزوج ابنه وولى عهده قسطنطين من أميرة ألمانية كانت شقيقة امبراطور ألمانيا وليم الثانى .

وفى ١٨ مارس سنة ١٩١٣ قتل الملك جورج الأول فى سلانيك ، قتله إغريقى فوضوى . وكان جورج حاكماً معتدلا ، زادت فى عهده رقعة البلاد وترامت حدودها ، فضمت جزيرة كريد سنة ١٩٠٩ . ولما قامت الحرب البلقانية ضد تركيا ١٩١٢ — ١٩١٣ وانتهت بهزيمة تركيا ، امتدت حدود اليونان شمالا إلى مقدونيا وشرقاً إلى تراقيا وغرباً إلى أبيروس جنوبى ألبانيا ، وبذلك تضاعفت مساحة البلاد ، وزاد عدد سكانها بمقدار مليونى نفس تقريباً .

على أن طريق الملكية فى اليونان لم يكن سهلا معبداً ، بل على العكس ظلت البلاد تعانى بسبب فقر الشعب وانقساماته وتقلباته متاعب وأزمات كثيراً ما عصفت بالحكومات وكادت تذهب بآثار الملكية إلى غير رجعة . ولم يكن فى هذا كله أمر يدعو إلى الدهش والغرابة إذا أدركنا أنه ، رغم انقضاء أكثر من مائة عام على تمتع اليونان الحديثة باستقلالها ، لا تزال شئون البلاد الداخلية : دستورها ونظام الحكم فيها مثار خلافات بل حروب أهلية إلى الآن . ففى أثناء هذا القرن اغتال اليونانيون رؤساءهم وملوكهم وشردوهم أكثر من مرة ، وأنشأوا حكماً جمهورياً ، وأقاموا دكتاتوريات عسكرية مرة تلو أخرى . وما كانت هذه

التغيرات لتتم عادة إلا مصحوبة بحركات ثورية أو تمردية وحروب أهلية تراق فيهـا الدماء ، وتطاح فيها رؤوس القادة والوزراء ، ويصاب فيها الأهلون أخيراً بأفدح المظالم والمغارم .

وكان أفدح ما منيت به اليونان الحديثة من خلاف داخلى فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، إذ كان الملك قسطنطين مواليا لصهره إمبراطور ألمانيا ، وكان رئيس حكومته الزعيم الشعبي فينزيلوس Venizelos يناصر الحلفاء فلما قرر الحلفاء إرسال حملة غاليبولى لمحاولة اقتحام المضايق والاتصال بروسيا عن طريق البحر الأسود ، كان مما يساعد على نجاح الحملة أن تقف اليونان إلى جانب الحلفاء ، فلما تعذر إقناع قسطنطين ترك فينزيلوس الوزارة وأعلن على الملأ تأييده لقضية الحلفاء ، ودعا اليونانيين إلى الالتفاف حوله فى سياسته ، فاستجاب جانب كبير من الشعب لندائه ، وأقام فى سلانيك حكومة وطنية ما لبث الحلفاء أن اعترفوا بها .

وعلى ذلك بدت اليونان أمام العالم كله أمة منقسمة على نفسها ، يحكمها من أثينا ملك محايد يميل إلى دول الوسط ، ومن سلانيك رئيس متمرد على الملك يناصره الحلفاء ويناصرهم بقواته التى جمعها من بين أفراد الشعب التعس . وأخيراً لم ير الحلفـاء بدأ من إقصاء الملك المعارض ، فقرروا إقالته سنة ١٩١٧ ، فغادر البلاد ومعه إبنه الأكبر جورج ، إذ كان الإبن كأبيه متأثراً بالثقافة الألمانية ومؤيداً لسياستها ، وأقاموا على عرش اليونان الإبن الأصغر باسم الملك إسكندر ، وأصبح فينزيلوس رئيساً للحكومة ، فدخلت اليونان الحرب وساهمت فى النصر إلى جانب الحلفاء بما يقرب من ربع مليون جندى ؛ ومات الملك الشاب فى سنة ١٩٢٠ أثر عضة من قرد

وعلى الرغم من أن فينزيلوس قد مثل اليونان فى مؤتمر الصلح فى باريس وكسب لنفسه ولأمته مزايا ومنزلة قصرت عن إدراكها دول كانت أعظم من اليونان شأناً وأكثر مالا وأعز نفراً ، فإن اليونانيين ما لبثوا أن انقلبوا على زعيمهم الذى استسلم للحلفاء وجعل بلاده لهم مطية ذلولا استخدموها فى تحقيق مآربهم ، فلما استفتى الشعب قرر عودة الملك قسطنطين ، وكانت اليونان إذ ذاك

تحاول هضم اللقمة الدسمة التى سخا مؤتمر الصلح فى سيفر باقتطاعها لها ، فكان نصيبها منطقة أزمير وتراقيا الشرقية وجزر بحر إيجه ما عدا الدوديكانيز .

وكانت قد ظهرت فى ذلك الوقت حركة النهضة التركية الكمالية ، فلم يكن بد من اصطدام قوات الشعبين ، فوقفت الحكومة الإنجليزية من وراء اليونان تؤيدها ، ووقفت فرنسا وإيطاليا تؤيدان الكماليين سراً وعلانية ، وأخيراً تولى قسطنطين قيادة جيشه ، فدحر اليونانيون فى معركة سقاريا الحاسمة وباءوا بخزى عظيم ، فقد طاردهم الأتراك حتى قذفوا بهم إلى البحر ، ونزل قسطنطين عن عرشه وفر إلى ايطاليا ، وما لبث أن مات سنة ١٩٢٣ وخلفه ابنه الملك جورج الثانى

ولكن الهزيمة التى منيت بها اليونان على يد الأتراك فى الأناضول كانت قاصمة الظهر وبالغة الخطر ، فزيادة على ما أصاب اليونانيين من خسائر مادية وأدبية رأى الأتراك أن الفرصة سانحة للقضاء على مشكلة أقلية الأروام فى بلادهم ، فقرروا انتزاعهم من جذورهم وترحيلهم بقضهم وقضيضهم إلى بلادهم الأصلية مقابل نقل الأتراك المسلمين الذين كانوا يعيشون فى تراقيا والموره إلى تركيا . ومعنى ذلك أن اليونانيين المنهزمين الذين لا يرزقون أقواتهم إلا بشق الأنفس كان عليهم أن يقبلوا بين ظهرانيهم مليوناً ونصف مليون من المهاجرين الأروام الذين نسوا بلادهم وعاشوا قروناً طويلة فى الأناضول وتركيا . وإذا عرفنا أن سكان اليونان آنئذ لم يكونوا ليزيدوا على ستة ملايين إلا قليلا أدركنا فداحة المصيبة التى منيت بها البلاد من الوجهة الاقتصادية . أما الأتراك الذين هاجروا من اليونان فلم يزيدوا على نصف مليون نفس . ولكن هذا التبادل فى الأقليات بين تركيا واليونان رغم ما صحبه فى التنفيذ من آلام وشدائد ، كان أوفق حل لمشكلة الأقليات ، وقد انتهت بأن أقامت بين الدولتين روابط صداقة وحسن جوار كانت عاملا قوياً فى إعلان ميثاق البلقان سنة ١٩٣٤ ، وربط الشعبين المتجاورين التركى واليونانى بأقوى الصلات وأوثقها فى العهد الحديث .

ولقد كان من جراء هزيمة اليونانيين بقيادة الملك قسطنطين أن ضعف شأن

الملكية فى اليونان وضوّل خطرها ، فأعدموا ستة من الوزراء والقواد الملكيين وأثاروا بفعلتهم هذه النكراء سخط العالم المتمدن فى جميع أنحاء العالم .

ولم يمض عام على اعتلاء الملك جورج الثانى عرش اليونان بعد وفاة أبيه حتى اتهموه بتدبير ثورة ضد النظام القائم ، وأرغموه على النزول عن العرش ، وأعلنت الجمهورية سنة ١٩٢٤ وظل الزعيم الشعبى فينزيلوس رئيساً للحكومة يعمل جهده لرأب الصدع وإعادة الثقة بالدولة بعد أن خفت موازينها إثر اندحارها أمام الأتراك وانحدارها إلى مستوى الوحشية لإعدامها ستة من وزرائها وقوادها رمياً بالرصاص . وكان فينزيلوس يقضى معظم أيامه بعيداً عن بلاده فى فرنسا أو متنقلا بين العواصم لقضاء مهمات دولية ، فترك أنصاره يسيئون الحكم فى البلاد حتى إذا كانت سنة ١٩٢٦ انقلب الرأى العام ضد فينزيلوس وقامت فى البلاد دكتاتورية عسكرية برياسة بنجالوس. فغادر فينزيلوس البلاد إلى فرنسا ، وظل بها حتى دفعه غروره وحبه للمخاطرة إلى إشعال فتنة حربية بحرية فى سلانيك سنة ١٩٣٥ فانبرى لهم الجنرال كنديلس kondylis ، وقضى على الفتنة قبل أن تستفحل، وأقام دكتاتورية عسكرية ما لبثت أن مهدت الطريق للعودة الملكية سنة ١٩٣٦ . وقد مات كنديلس وفينزيلوس وتسالداريس وهم أكبر زعماء اليونان ، وبذلك صفا الجو لجورج الثانى .

ولما عاد الملك جورج الثانى إلى عرشه أعلن أنه إنما يعود إستجابة لصوت الشعب كله . وسار فى حكمه سيراً معتدلا حكيما راسماً طريقه وسطاً بين الملكيين ومعارضيهم ، فاستقرت الحال نوعاً داخل البلاد .ولكن لسوء حظه مات رئيس حكومته وخلفه وكيله الجنرال متكساس ، وكان متأثراً بالثقافة الألمانية موالياً الالمان نازعا فى حكمه منزع الدكتاتوريين . رأى متكساس أنه لا أمل فى إصلاح حال البلاد واستقرار أمورها ما دامت الخلافات الحزبية تملك على الناس مشاعرهم ونشاطهم ، فقرر إقامة حكمه وفق الأصول الدكتاتوية المعروفة فى ذلك الوقت ، ووجد متكساس من الملك سنداً ونصيراً له ، فألغى الأحزاب ، وكم الصحافة ،

وقيد الحريات ، ونفى وشرد أعداءه ومناهضيه ، وجعل نفسه رئيسا للوزارة مدى الحياة ، وبذلك رفعت الفاشية فى اليونان رأسها ، وأصبح نظامها فى نظر الشعب مقترنا باسم الملك جورج الثانى .

ولما قامت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ أعلنت اليونان حيدتها ، وبرهن متكساس رئيس وزرائها على أنه سياسى وطنى مصلح ؛ إذ سار قدما فى إصلاحاته الحربية والاقتصادية . حتى إذا ماتشجع مسولينى عقب اندحار فرنسا ، وأعلن الحرب على اليونان فى أكتوبر سنة ١٩٤٠ ، وجد من اليونانيين شعباً صعب المراس متحداً مدربا على حرب العصابات خبيرا بدروب الجبال ومسالكها ، وسرعان مااسترعى العالم انتصار هذا الشعب الصغير الفقير على جحافل مسولينى الذى طالما تشدق بجيوشه ولمعان أسنته التى قال عنها : إنها متى ارتفعت حجبت شعاع الشمس عن أعين البشر !

ومات متكساس فجأة سنة ١٩٤١ وهو مزهو بانتصار بلاده فى أول الأمر ، ولكن هتلر لم يصبر طويلا على أذية صاحبه ، فسرعان ماتحركت كتائبه وعدده وطائراته ، وجاءت على عجل بعد أن اكتسحت يوغسلافيا ، واخترقت بلغاريا . ووصل المدد إلى اليونان من بريطانيا ، وهى فى محنتها بمفردها أمام الخطر النازى . ومع ذلك لم يثبت اليونانيون إلا أياما معدودة ، فهاجر الملك وحلفاؤه إلى كريت ، ثم أفاق العالم صباح يوم فرأى الألمان قد احتلوا كريت بعد هجوم جوى خاطف لم يسبق له مثيل ، ففر الملك جورج وحكومته من الجزيرة سراً بعناء ومشقة إلى مصر . وبذلك بدأ الملك منفاه لثالث مرة .

ولما احتل الألمان البلاد تألفت بها سراً ، كما تألفت فى سائر البلاد التى احتلها العدو عنوة ، جماعات للمقاومة ، كان فى مقدمتها عناصر شيوعية استطاعت أن تنمو وتقوى سراً فى عهد متكساس ، وأصبحت فى عهد الاحتلال مأوى لجميع العناصر المناوئة للألمان . وأخذت مراكز المقاومة تقوى وتكبر تدريجاً متخذة كهوف الجبال ووهادها مراكز لنشاطها وتدريبها . ولم تكن هذه الفئات فى أول أمرها

شيوعية خالصة ، كما أنه لم تكن لها صلة البتة بالشيوعيين الدوليين ، ولكن ما كادت ألمانيا تعلن الحرب على روسيا حتى زاد نشاط هذه الفئات ، وجعلت تعمل بهمة على إحباط مساعى الألمان ، وإثارة الشغب بين العمال فى المصانع والمعامل لإلحاق الضرر بالألمان وجهودهم الحربية . وبلغ عدد المنضوين تحت لواء جماعة المقاومة من الشيوعيين مايقرب من ربع سكان البلاد .

وإلى جانب العناصر الشيوعية ظهرت جماعات أخرى للمقاومة ، وأهمها الهيئة التى كان يرأسها الكولنيل زرفاس . وكانت هذه الهيئة تلقى المعونة من الحلفاء ومن الحكومة المنفية ، وكان الخلاف بين جماعات المقاومة المختلفة بالغاً منتهاه ، مما اضطر الحلفاء أن يتدخلوا فى الأمر . وكان من واجب الحلفاء طبعاً أن يتصلوا سراً بهذه العناصر جميعا للاتفاق معها على خطط المقاومة وطرق تنفيذها . وسرعان مابدا للحلفاء أن الهيئة الشيوعية قد أخذت تتفوق على غيرها وتسيطر على الحالة الداخلية فعملوا سراً على مساعدة الجماعات المعتدلة ، وأعلنوا فى الوقت نفسه أنه يهمهم أن يتفق الجميع ضد العدو مادامت الحرب مستعرة ، ثم ينظر بعد ذلك فى تسوية الخلافات بينهم .

والهيئة الشيوعية هى التى أصبحت تعرف بجماعة إيام .E. A. M أو جبهة التحرير الوطنية ، وكانت أقوى جماعات المقاومة وأدقها تنظيما ؛ إذ كان لكل شعبة رئيس من الضباط السابقين ، ومستشار سياسى بيده زمام الشعبة ، وكان غالباً من الشيوعيين .

وقد أصابت هذه الهيئة غنما كبيرا منذ أن استسلمت إيطاليا فى سبتمبر سنة ١٩٤٣ ؛ إذ وقعت أسلحتها وذخيرتها غنيمة فى يد هذه الجماعة . ومن سوء حظ الملك جورج الثانى أنه وأعضاء حكومته لم يتصلوا فى أثناء الاحتلال بهذه العناصر ولم يحاولوا استمالتهم إلى جانبهم ، كما أنهم لم يستنكروا نظام متكساس الفاشى أو يبرئوا أنفسهم من أدرانه فى نظر الشعب ، بل إنهم تركوا بعض أنصارهم فى اليونان ينخرطون فى سلك الاحتلال الأجنبى ويتعاونون مع الغاصبين

وقد نجح المحتلون فى استغلال هذا الموقف ، فدقوا إسفينا عميقا بين طبقات الشعب المختلفة ، فصوروا أنصار المقاومة شيوعيين يعملون لصالح حكومة السوفيت ، فكان طبيعيا أن ينحاز أعداء الشيوعية إلى جانب المحتلين الذين يقاتلون الشيوعية ، وضاع بذلك شرف الكفاح فى سبيل تحرير الوطن .

ولما استفحل الخلاف بين جماعات المقاومة بعضها وبعض وبين هيئة إيام وحكومة المنفى حتى وصلت الحال إلى تمرد بعض القوات البحرية والحربية ضد ضباط من الملكيين ، خشى الحلفاء مغبة ذلك الانقسام ، فنظموا مؤتمرا فى لبنان جمع ممثلى الهيئات المختلفة ، واتفق الجميع على تكوين جبهة متحدة وحكومة ائتلافية ، تألفت أخيراً وكان من بينها ستة وزراء من هيئة إيام . وهذه الحكومة برياسة باباندريو هى التى تسلمت زمام الحكم فى اليونان بعد ارتحال الألمان منها فى سبتمبر سنة ١٩٤٤ . وقد اتفق الرأى نهائيا على أن يستفتى الشعب فى عودة الملك بعد أن كان الملك ومن ورائه الحكومة البريطانية يعارض فى ذلك أشد المعارضة . وسارت الأمور فى أول الأمر سيراً حسنا إلى أن قررت الحكومة تسريح جميع هيئات المقاومة . وفطن جماعة إيام أنهم المقصودون بذلك ، فعارضوا وطالبوا بأن تسرح أيضاً جميع القوات التى ناصرت حكومة الملك فى الداخل ومن الخارج ثم استقال الوزراء الشيوعيون وبدأ الشغب . وسرعان ما قامت الحرب الأهلية فى ديسمبر سنة ١٩٤٤ بين جماعة إيام والعناصر الحكومية الملكية ، وعادت إلى البلاد ذكريات الكفاح بين « الجبل » و « السهل » فى أوائل عهد الاستقلال ، وظلت الحرب خمسة أسابيع عانى فيها اليونانيون أهوالا من القسوة والفظاعة لا عهد لهم بها ، إذ كان الجانبان مجهزين بأحدث أنواع الأسلحة والذخيرة التى تخلفت عن الحرب الأخيرة . ولو لم تتدخل الجنود البريطانية التى صاحبت الحكومة عقب خروج الألمان لمساعدتها فى تأييد النظام وتوزيع الغذاء لانتهت الحرب سريعاً بانتصار هيئة إيام لأنها كانت الهيئة المسلحة القوية فى البلاد .

ولكن معاونة انجلترا كانت فى الواقع كسبا لعناصر النظام والاستقرار. ولو ترك الأمر لهيئة إيام لتقوض النظام من أساسه .

ولما اشتد النكير على الحكومة الانجليزية فى البرلمان وفى الصحف لمسلكها إزاء الثورة فى اليونان، طار إلى أثينا مستر تشرشل ومعه وزير خارجيته مستر إيدن واجتمعا وسط دوى المدافع مع ممثلى الهيئات المختلفة وقرروا إسقاط الحكومة وإقامة نائب للملك ، واختير لذلك المطران دامسكينوس، كما تقرر استفتاء الشعب بشأن عودة الملك جورج الثانى إلى عرشه بعد ثلاث سنوات أى فى سنة ١٩٤٨ . وقد دلت الانتخابات التى أجريت بعد ذلك على ميل الشعب نحو الملكية ، ووليت الأعمال حكومة موالية للملكية ، فقررت إجراء الاستفتاء فى سبتمبر سنة ١٩٤٦ . وقد جاءت النتيجة مؤيدة لعودة الملك جورج الثانى بأغلبية بلغت نحو ٧٥ ٪ من مجموع الناخبين .

ولا تزال القوات الانجليزية تحتل البلاد رغم الشكوى التى تقدمت بها روسيا وحلفاؤها إلى مجلس الأمن ؛ فقد انتهت المناقشة بأن البريطانيين باقون فى البلاد بموافقة الحكومات التى تعاقبت على الحكم بعد انتهاء الاحتلال الألمانى ، وأنهم باقون إلى أن يستقر النظام في البلاد بعد اجراء الانتخابات واستفتاء الشعب بشأن عودة الملك جورج . وقد تم هذا وعاد الملك إلى عاصمة ملكه .

ومع أن انتهاء الحرب الأهلية بانتصار العناصر الحكومية قد أضعف من شأن هيئة إيام وقلل من خطرها ، فإن الانشقاق القديم الذى فرق بين السهل والجبل ، وبين الحقل والمصنع ، أو بين اليمين واليسار ، لا يزال باقيا ، وسيبقى ما دامت طبيعة الأرض والبشر فى اليونان على حالها . ولا خطر من هذا الانشقاق إذا سارت الملكية على منهاج قومى لا تميل فيه إلى اليمين كل الميل ولا إلى اليسار دائما ، بل تتخذ بين هذا وذاك سبيلا . ومن الحصافة أن يجعل ملوك الدول الديمقراطية الحكم مناوبة بين اليمين واليسار مهما تباينت الأمزجة واختلفت المبادىء

حتى لا تطغى كفة على أخرى ، وحتى لا ينزل التاج إلى درك المنافسات الحزبية .

وتواجه اليونان بعد الاحتلال الأجنبي الذى دام أكثر من ثلاث سنوات مشاكل عدة على جانب عظيم من الأهمية ؛ ففضلا عن المسائل الاقتصادية هناك المشاكل الخاصة بجارتيها بلغاريا وألبانيا ، وكل منهما يسير على نهج شيوعى يوافق رغبات حكومة السوفيت الروسية . والأولى تريد تحقيق حلمها القديم بإيجاد منفذ لها على بحر إيجه تطل منه على مياه البحر الأبيض المتوسط . ولا سبيل إلى الحصول على هذا المنفذ إلا إذا نزلت لها اليونان عن أحد موانيها على بحر إيجه . وتطمع بلغاريا فى أخذ ميناء دده غاج إذا امتنعت عليها سلانيك . أما ألبانيا فيتطمع فى ضم الجزء الجنوبى من أبيروس .

وقد تقرر أخيراً إتمام الوحدة الإغريقية بضم جزر الدوديكانيز بما فيها جزيرة رودس ، وكانت جميعها بيد إيطاليا منذ قيام حرب طرابلس سنة ١٩١١ . وقد حاولت روسيا احتلالها جميعها أو احتلال بعض منها لاتخاذه قاعدة لها فى شرق البحر الأبيض المتوسط فلم توفق . وعلى ذلك لا يبقى خارج الحظيرة اليونانية سوى جزيرة قبرص ، وهى بيد انجلترا منذ سنة ١٨٧٨ . ولا يبعد أن تتخلى عنها بريطانيا لليونان متى توطدت أركان السلام فى البلقان ، واضطلع مجلس الأمن فعلا بمهام أعماله .

وهناك غير المشاكل الإقليمية الحالة الفكرية أو الإيديولوجية ؛ إذ تسود بلاد البلقان الآن موجة شيوعية قوية قدغطت وجه شبه الجزيرة ، وذلك بسبب تفوق روسيا الحربى ، ولشيوع الفقر والجهل والبطالة بين جميع الشعوب التى تسكن هذه الأرجاء . ومما له دلالة واضحة على تطور الحالة الفكرية تخلص يوغسلافيا وألبانيا وبلغاريا ورومانيا على التوالى من حكوماتها الملكية وإقامة النظم الجمهورية الاشتراكية بدلها . وليس فى البلقان الآن حكم ملكى إلا فى اليونان .

أما تركيا فهى كحليفتها اليونان تقف إلى جانب الحلفاء وتناصر المبادىء

الديمقراطية ، وهى كاليونان أيضاً تخشى على اســتقلالها وحرياتها من تدخل السوفيت أو توابعها .

واليونان وتركيا كلتاهما الآن تربطهما بالولايات المتحدة روابط اقتصادية وسياسية متينة . فهما منذ أن أعلن الرئيس ترومان مبدأه الشهير فى مارس سنة ١٩٤٧ يتلقيان قروضا واعانات مالية وحربية تستعينان بها على المضى فى استعداداتهما الدفاعية ضد القوات الشيوعية التى تحيط بهما وتهددهما . واستطاعت اليونان بفضل هذه اليد الكريمة التى أسدتها اليها الولايات المتحدة أن تتغلب ولو مؤقتا على القوات الشيوعية التى يقودها الجنرال ماركوس والتى مكنت لنفسها فى شمال اليونان وغربها وأقامت لها حكومة مستقلة فى تلك الأرجاء بمساعدة الدول الشيوعية المجاورة . وكانت آخر هذه المواقع بين الوطنيين اليونانيين وبين الشيوعيين فى صيف ١٩٤٨ حين انهزمت قوات ماركوس فى موقعة جراموس واضطروا إلى عبر حدود اليونان إلى الخارج ولكن اليونانيين لم يوالوا إنتصاراتهم ولم يستغلوها تماماً وعاد الشيوعيون يهددون البلاد من جديد .

وقد تحدث الرئيس ترومان عن الحالة فى اليونان فى ديسمبر سنة ١٩٤٨ فقال انهم لم يحققوا الآمال التى كانت تنتظر منهم نتيجة للاعانات الأمريكية التى تواصل الولايات المتحدة امدادهم بها، وهذا على خلاف ماحدث فى تركيا فقد اغتنم الأتراك الفرصة ونهضوا باستعداداتهم الحربية والبحرية والجوية نهوضا يدعو إلى الدهشة والثناء العظيم . ولم يكن غريبا أن تتقاعس همم اليونانيين وهم الذين بلوا الحرب وأهوالها منذ سنة ١٩٤٠ وهاهم أولاء يعانون حرباً أهلية لاتقل فى عنفها وفداحتها عن حربهم ضد الطليان والألمان . وأكثر مايخشاه اليونانيون أنه إذا وقعت الحرب فإن قوات الحلفاء الغربيين لن تستطع أن تصمد أمام القوات الروسية الشيوعية وانها ستضطر إلى الانسحاب من شبه جزيرة المورة ومن جزر الأرخبيل كما انسحبت أمام الألمان فى الحرب العالمية الثانية . فإذا انضم اليونانيون إلى الحلفاء الآن بقضهم

وقضيضهم باءوا من الروس بمقت وغضب شديدين . ولذلك نراهم الآن فى حيرة من أمرهم يريدون الخلاص من الشيوعيين ولا يجرؤون .

ومركز بلاد اليونان من الوجهة الدولية شبيه تماما بمركز تركيا ، فكلتاهما تتحكم فى نقط استراتيجية غاية فى الأهميـــة بالقياس إلى شرق البحر المتوسط وسلامة أراضيه . وقد برهنت الحرب الأخيرة على أن فى الشرق الأوسط نقطة التحول بين الهزيمة والنصر ، فمن كان بيده مفاتيح هذه المنطقة تدانت له أسباب الفوز والنصر . لذلك كان هذا التنافس الشديد الذى نلحظه الآن بين الدول الـكبرى بشأن الشرق الأوسط . واليونان رأس الرمح بالنسـبة إلى الجانبين المتنافسين المتراشقين . فإذا لم تجد حكومة اليونان الملـكية حلولا عاجلة لمشاكلها الاقتصادية والاجتماعية ، فإن الشيوعية ستبيض وتفرخ فى أوكارها بين كهوف الجبال ووهادها ، وهناك تستنيم فترة إلى أن تحين ساعة يعود فيها الـكفاح من جديد بين السهل والجبل — بين الملـكية والجمهورية .

الفصل العشرون

١ ـ اسبانيا قبل الثورة وبعدها

لا يقتصر التاريخ فى اسبانيا على أن يعيد نفسه كما يقولون ، بل أنه يعيد نفسه مراراً ويناقض نفسه تكراراً . فما من بلد تواترت احداثه التاريخية وتشابهت وتباينت آراء اهله وتناقضت ، مثل اسبانيا بما حفل به تاريخها من ثورات وحروب وتطورات متشابهة حينا ومتناقضة حينا آخر . وهل هناك بلاد مثل اسبانيا ازدهر فيها الإسلام ونمت أصوله وفروعه وانتشرت آدابه وعلومه ونفذت أحكامه وتعاليمه أكثر من خمسمائة عام ، ثم لم يكد المسلمون يبعدون عن البلاد على أثر ارتدادهم أمام هجمات الامارات المسيحية الناهضة فى شمال اسبانيا حتى غشيت البلاد صيحة الكنيسة الكاثوليكية فملكت على الناس عقولهم وتحكمت فى آرائهم وحرياتهم ونشطت بين ظهرانيهم محاكم التفتيش فقضت على الوف الابرياء من المسلمين واليهود والمسيحيين والاحرار لا لذنب اقترفوه سوى انهم اطلقوا لأنفسهم حرية الفكر والاعتقاد مخالفين بذلك الوحدة الدينية الكاثوليكية التى اعتنقها الناس وتضافرت الكنيسة والحكومة على تحقيقها ولو ادى ذلك إلى أحراق الأفراد ومحاربة الشعوب .

وهل مثل اسبانيا أمة واتتها الفرصة فأمتلكت فى أوربا الأراضى المنخفضة ونابلى والبرتغال ووافاها الحظ السعيد فكشف لها كرستوف كولمب عن أمريكا وصارت اليها خيرات الدنيا الجديدة وما فى أرضها من ذهب وفضة ومعادن أخرى احتكرت اسبانيا استخراجها ونقلها إلى بلادها حتى أصبحت فى فترة وجيزة سيدة البحار واكثر بلاد العالم مالا واعز نفراً ، ولكن ما كاد أهل البلاد يرتعون فى بحبوحة هذا النعيم وذلك الثراء المفاجىء حتى اخلدوا إلى الدعة والبذخ واسرفوا

فى الاستهلاك بقدر ما أهملوا فى الانتاج واستولى عليهم الغرور فاستكبروا وظنوا ان محاكم التفتيش قد تيسر لهم الوحدة السياسية كما يسرت لهم الوحدة الدينية فأقاموها فى الأراضى المنخفضة لمحاكمة الثوار الذين آزرتهم انجلترا ، وماهى إلا سنوات قلائل حتى تحرك أسطول اسبانيا العظيم المعروف « بالارمادا » يغزو سواحل انجلترا فكانت الهزيمة الماحقة وكان السقوط والانحدار من شامخ المجـــد إلى الدرك الاسفل .

وبقدر ما كان ارتفاع اسبانيا خاطفا وعظيما كذلك كان اضمحلالها شاملا وسريعاً فجعلت تفقد ممتلكاتها واحدة تلو أخرى مبتدئة بالاراضى المنخفضة والبرتغال فى القرن السابع عشر ثم بنابلى فى أوائل القرن الثامن عشر . وما انتهى القرن التاسع عشر حتى كانت اسبانيا قد خسرت مستعمراتها فى امريكا الجنوبية والوسطى والشمالية ولم يبق لها سوى جزر الفلبين فى الشرق الأقصى وكوبا وبورتوريكو فى أمريكا . وهذه البقية لم تلبث أن وقعت أيضا غنيمة سهلة فى يد الولايات المتحدة عقب انتصارها فى الحرب الامريكية الاسبانية فى نهاية القرن الماضى .

على أن أسبانيا على رغم ما أصابها من ركود وضعف وخمول لم تزل طوال تلك القرون إلى الآن مصدر الأزمات دولية حادة أدت فى أكثر من مرة إلى إثارة الحروب بين الدول :

١ — ففى سنة ١٧٠٠ مات شارل الثانى آخر ملوك أسرة هابسبرج فى أسبانيا دون أن يعقب من يخلفه فقامت بين الدول حرب ضروس هى حرب الوراثة الأسبانية التى استمرت إلى سنة ١٧١٢ وفيها وقعت قلعة جبل طارق الشهيرة فى أيدى الإنجليز ، وانتهت الحرب بأن اعتلى عرش أسبانيا أمير من أسرة البوربون هو حفيد لويس الرابع عشر ملك فرنسا ومن ثم نشأت الصلة الوثيقة التى ربطت بين أسبانيا وفرنسا إلى زمن قريب .

٢ — وفى سنة ١٨٠٨ صمم نابليون وكان فى أوج سلطانه على التدخل فى شئون

أسبانيا وتعيين أخيه يوسف ملكا عليها فأسر ملكها فرديننذ السابع ودخلت قواته مدريد وقام الشعب الأسبانى بأول ثورة قومية فى أوربا ضد نابليون فكانت هذه مقدمة لنهضة شعوب أوربا ضد النظام الذى فرضه نابليون عليها بالقوة .

٣ — وفى سنة ١٨٢٢ قامت فى أسبانيا ثورة عسكرية ضد فرديننذ السابع لحنثه فى يمينه وعدم احترامه لدستور سنة ١٨١٢ الذى وضعه الثوار ، واستنجد فرديننذ بمؤتمر الدول الذى انعقد فى فيرونا فقامت فرنسا بقمع الثورة ودخل الجيش الفرنسى أسبانيا وأعاد الملك إلى عرشه وبقى محتلا البلاد ست سنوات .

٤ — وفى سنة ١٨٣٣ مات الملك فرديننذ السابع ولم يعقب سوى إبنة صغيرة فانقسمت أسبانيا إلى معسكرين عظيمين جعلا يتنازعان السيطرة فى البلاد : حزب يناصر الملكة الصغيرة ايزابلا الثانية ومعها أمها ماريا كرستينا الوصية على العرش، وحزب يناصر أخ الملك دون كارلوس الذى اعتبر نفسه صاحب الحق الشرعى فى التاج مستنداً إلى أن النساء ليس من حقهن أن يعتلين العرش .

وكان الجيش وأهل المدن والأحرار عامة ينتمون إلى الملكة ومن ورائهم الحكومتان الفرنسية والانجليزية . وكان رجال الدين والاشراف والفلاحون يناصرون دون كارلوس وتسندهم الحكومات الرجعية فى وسط أوربا . ومن ثمة شبت أول حرب أهلية فى البلاد فعمت الفوضى وملئت البلاد رعبا وأخذ كلا الجانبين يتنافسان فى التنكيل بمعارضيهم وصب الكوارث على رؤوسهم حتى اقفرت البلاد ووقف دولاب الأعمال ، واستمر هذا التطاحن المخيف ست سنوات انتهت بانسحاب الكارلوسيين وبقيت الملكتان وبطانتهما يقترفون من الشرور والآثام ما لطخ التاج الاسبانى بالوحل ودنسه بالعار .

٥ — وفى سنة ١٨٦٨ ثار الشعب على الملكة ايزابلا فنفيت من اسبانيا وسارعت أسرة هوهنزلون فى بروسيا إلى ترشيح أمير من امرائها لاعتلاء عرش اسبانيا . فما كاد هذا الخبر يصل إلى مسامع نابليون الثالث امبراطور فرنسا حتى ثارت ثائرته

وخاف أن تصبح فرنسا محصورة بين نارين تشعلهما أسرة هوهنزلرن من بروسيا شرقا ومن اسبانيا جنوبا فكلف سفيره فى برلين أن يحتج على هذا الأمر وأن يطلب إلى ملك بروسيا أن يسحب ترشيح الأمير البروسى رسميا وأن يعد بعدم ترشيح أمير بروسى لعرش اسبانيا مرة أخرى ، وكان هذا الموقف داعيا إلى اثارة الحرب الفرنسية البروسية التى انتهت بهزيمة فرنسا ، وكانت من أقوى البواعث على اثارة الحرب العالمية الأولى .

ولقد استعادت اسبانيا عقب الحرب الفرنسية البروسية اسرتها الملكية بعد تجربة قصيرة لحكم الجمهورية الأولى فأقامت سنة ١٨٧٤ الفونس الثانى عشر بن الملكة ايزابلا ملكا عليها . وكان على نقيض اسلافه ملكا مصلحا اكتسب وهو فى المنفى مع أمه خبرة وصلابة ودرسا، فبدأ فى اسبانيا عهد اصلاحات شملت جميع مرافق البلاد واهمها توطيد الأمن بالقضاء على العصابات الكارلوسية وتهدئة العناصر المتطرفة باعادة الدستور والحكم البرلمانى وإصلاح مالية البلاد والنهوض بالصناعة والتجارة . ولما مات فى سنة ١٨٨٥ كانت شئون البلاد الداخلية والخارجية قد استقرت بدرجة ساعدت الملكة الوصية على مواصلة العمل فى جو هادىء لم تفسده الثورات والانقلابات . ولم يخلف الملك فى حياته وارثا للعرش ولكن حدث بعد وفاته بستة أشهر أن وضعت الملكة وارثا ذكراً هو الفونس الثالث عشر .

واستمرت حركة الاصلاحات يقوم بها الوطنيون من الأحرار والمحافظين الذين جعلوا يتناوبون الحكم تباعا وقدموا لوطنهم فى تلك الفترة أجل الخدمات . ومع أن الحرب الامريكية الاسبانية التى نشبت فى سنة ١٨٩٨ قد انتهت بضياع أملاك اسبانيا فى عرض البحار كما قدمنا ، فان هزيمة اسبانيا واذلالها فى نظر الدول قد خلق فى الاسبان روحا جديدة حفزتهم على العمل بعزيمة صادقة للنهوض من كبوتهم واستعادة تالد مجدهم ، وماهى إلا سنوات قلائل حتى ذخرت اسبانيا بطائفة من كبار الكتاب والعلماء والمؤرخين والفنانين وافتتحت المناجم ووفدت على البلاد رءوس الأموال الأجنبية فقامت المصانع والمعامل وراجت الأسواق وبعد أن

كانت اسبانيا ركنا منعزلا فى جنوب أوربا الغربى لا تكاد الدول تحس وجوده بل تراه جزءا خاملا أقرب صلة بافريقية منه باوربا عادت اسبانيا فى اوائل القرن العشرين أمة عزيزة الجانب لها مكانتها بين الدول ، فلم يكد ينشب الخلاف بين الدول بشأن مراكش حتى وجدت فرنسا أن من مصلحتها أن تعقد معاهدة مع اسبانيا فى سنة ١٩٠٤ كما عقدت معاهدة مع انجلترا ، واعترفت فرنسا لاسبانيا فى تلك المعاهدة بامتداد نفوذها فى المنطقة الشمالية الغربية من مراكش وفيها ميناء سبتة ذات الموقع الاستراتيجى الخطير أمام جبل طارق .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى احتفظت اسبانيا بحيدتها ونالت من وراء ذلك كسبا ماديا ودوليا إذ نشطت فيها حركة التجارة والنقل وخطبت ودها الدول المتحاربة . وكانت الحكومة ورجال الأعمال والطبقات الوسطى تميل إلى جانب الحلفاء على حين كان رجال الجيش والكنيسة ينحازون إلى جانب المانيا . فلما انتهت الحرب بانتصار الحلفاء كانت اسبانيا فى مقدمة الدول التى دعيت لتأسيس عصبة الأمم وأخذ شأنها الدولى يكبر حتى فازت بمقعد فى مجلس العصبة .

غير أن انتصار المبادىء الديمقراطية بعد الحرب وظهور الحركة البلشفية فى روسيا واطراد تقدم البلاد من الوجهتين الصناعية والعمالية قد أدى إلى انتشار المبادىء الاشتراكية فى بيئات المدن الصناعية فنزح إلى البلاد عدد من الفوضويين ونشأت جماعات متطرفة نادت بالجمهورية والغاء الرهبنة والاديار والجماعات الدينية الكاثوليكية ، وتضاعف عدد هذه الجماعات المتطرفة فى اسبانيا على أثر تأميم التعليم فى فرنسا ومنع رجال الدين من مزاولته كما زادتهم ثورة البرتغال ضد الملكية فى سنة ١٩١٥ قوة إلى قوتهم . وقد تفاقمت الحال وازدادت سوءا بسبب اشتغال ضباط الجيش بالسياسة ومحاولتهم تنفيذ رغباتهم بالقوة، وكان لما أصاب الجيش من الخزى والتخاذل أمام قبائل الريف فى مراكش الاسبانية أثره فى نشوء حركات فى داخل الجيش . يضاف إلى ذلك ظهور الخلافات المتأصلة بين أهل الشمال وهم سكان المناطق الصناعية وأهل الجنوب وهم من المشتغلين بالزراعة ثم رغبة أقليم

كتالونيا فى شمال شرق اسبانيا فى الانفصال عن اسبانيا وهو اقليم له لغته وتاريخه واقتصادياته وفيه ميناء برشلونه المشهورة ويبلغ عدد سكان هذا الاقليم ستة ملايين من مجموع سكان اسبانيا الذى يبلغ ٢٥ مليونا

لذلك لم يكن عجيبا أن يعم السخط والتمرد وان تكثر الاعتداءات على الملك وعلى الوزراء — وقد اغتيل منهم فى هذه الفترة عدد غير قليل — وأن يشتد النزاع بين الحكومة ورجال الدين وبينها وبين جمعيات الجيش الدفاعية . وقد دعا ذلك كله فى النهاية إلى ظهـــور الدكتاتور الاسبانى الأول بريمو ده ريفيرا Primo de Rivera فى سنة ١٩٢٣

وقد كان ده ريفيرا قائدا حربيا لمنطقة كتالونيا وكان معروفا بكفايته وغيرته الوطنية فنادى بالثورة على الحكومة وهدد الوزراء باعتقالهم إذا لم يتخلوا عن مراكزهم . وجاء الملك من مصيفه فى سان سبستيان وعينه رئيسا للحكومة واطلق عليها حكومة الادارة فالغى الوزارات وعطل الدستور واعلن الاحكام العرفية مع ما يقتضيه ذلك من منع المظاهرات وفرض رقابة شديدة على الصحف .

وقد سار ده ريفيرا فى حكمه سيرا حكيما انجز فيه اصلاحات شاملة وبخاصة فى نظام الجيش وفى مراكش وفى ناحية الاشغال العامة والعمال . وفى هذه الفترة زار الملك الفونسو ايطاليا ومعه ده ريفيرا واستمدا من الدوتشى الأيطالى العون والبركة لنجاح الدكتاتورية فى اسبانيا وعقدت بين البلدين معاهدة صداقة كانت أول توجيه دولى لسياسة اسبانيا الخارجية بعد الحرب العالمية الأولى .

واستمر ده ريفيرا يعمل دون أن يحد من سلطانه دستور أو برلمان صحيح مدة سبع سنوات وأخيراً استيقظ الوعى الاسبانى وعادت اليه سليقته فثار على النظام الملكى الدكتاتورى فسقط ده ريفيرا ونفى الملك الفونسو من البلاد بعد أن حرم من حقوقه المدنية .

وقامت حكومة جمهورية فى سنة ١٩٣١ وكان رجالها مشبعين بالمبادىء الاشتراكية فأعادوا الدستور وحرروا التعليم لأول مرة من سلطان رجال الكنيسة

وادخلوا اصلاحات اجتماعية بشأن توزيع الأراضى وتنظيم العمل . وكان الاعتدال رائدهم فى أول الأمر فسارت الأمور سيراً شعبياً مرضيا ولكن الاعتدال أمر لا يوافق أمزجة الاسبان ولا يتلاءم مع طبيعة البلاد الجبلية وجوها القارى فهم دائما مسوقون إلى التطرف والمغالاة والتقلب ، من خمول واستسلام إلى ثورة وعنف وتخريب ثم من الثورة والعنف إلى الخمول والاستسلام مرة أخرى وهكذا دواليك وليس بين كل نقيضين من هذه النقائض إلا فترة وجيزة يستجمون فيها ويستعدون لدورة أخرى . لذلك لم يكن غريبا أن ينتصر حزب اليسار من الجمهوريين فى انتخابات سنة ١٩٣٦ وأن تظهر اثار التطرف الجديد فى عدائهم للكنيسة ومصادرتهم لاملاكها وتعرضهم لحرية العبادة ولحقوق كبار الملاك وغير ذلك مما جعل الناس يعتقدون ان الحكومة الجديدة انما تعمل على اقحام البلاد فى نطاق النظام الشيوعى وهو نظام ان وافق اهواء أهل المدن والاقاليم الصناعية مثل كتالونيا فانه غريب على اكثرية الشعب الذين درجوا فى احضان الكنيسة وعاشوا فى ظل الاقطاع دهوراً طويلة .

وعلى ذلك تجمعت العناصر التى اذكت نيران الثورة الوطنية العسكرية بزعامة فرنكو ضد نظام الجمهورية . وكان زعيم الثورة على ما جرى به العرف فى تاريخ اسبانيا من ضباط الجيش وقد تولى رياسة اركان حرب الجيش وكان حاكما على جزر قناريا أو الخالدات فى اغسطس سنة ١٩٣٦ حين طار إلى تطوان فى مراكش الاسبانية ليرأس الثورة . وقد انضم اليه جميع ضباط الجيش ونصف قوات الاسطول . وفى اكتوبر سنة ١٩٣٦ أعلن فرنكو نفسه رئيسا للدولة وأخذ ينظم حكومته على أساس دكتاتورى فاشى ، وقد انضمت اليه الاقاليم الواقعة جنوبى اسبانيا ووسطها وشماليها الغربى . أما الشرق والشمال الشرقى فظل مواليا للحكومة الجمهورية وقد استعاضت الحكومة عن الجيش بتسليح العمال وأفراد الشعب .

وسرعان ما تحولت الحرب الأهلية فى اسبانيا إلى مظهر من مظاهر الكفاح الدولى بين المبادىء الفاشية التى يمثلها فرنكو ومن ورائه ايطاليا والمانيا

وبين المبادىء الاشتراكية الدولية التى عرفت فى ذلك الوقت بالجبهة الشعبية وتمثلها حكومة الجمهورية وتؤازرها فرنسا وروسيا . وكان تأييد الدول للعسكريين المتحاربين فى اسبانيا نظريا وسريا فى أول الأمر ، ثم أخذ هذا الميل يتحول تدريجا إلى حرب حقيقية لاينقصها سوى الاعلان الرسمى ، فكانت إيطاليا ترسل إلى فرنكو جيوشها ومدافعها ، وألمانيا تمده بدباباتها وطائراتها ومهندسيها وعمالها الفنيين . وكانت فرنسا شديدة العطف على الجمهوريين فأرسلت لمؤازرتهم الكتيبة الدولية ،وكذلك روسيا كانت عظيمة الاهتمام بمصاير الجمهوريين فأمدتهم بالأسلحة والطائرات . ولكن شتان بين ما كانت ترسله إيطاليا وألمانيا وما كانت تستطيعه روسيا بسبب المسافات الشاسعة التى تفصل روسيا عن اسبانيا . لذلك تفوقت قوات فرنكو وأخذت تستولى على معاقل الجمهوريين حصنا بعد حصن حتى سقطت مدريد فى ابريل سنة ١٩٣٩ بعد حصار دام سنتين ونصف سنة ، وقد حالفهم النصر لتفوقهم فى الطائرات والمدفعية والتغذية . ولما استتب الأمر لفرنكو غادر زعماء الجمهوريين البلاد وتفرقوا بين فرنسا وامريكا اللاتينية . ولم يسع الدول فى آخر الامر سوى الاعتراف بحكومة الجنرال فرنكو .

وقد سار فرنكو فى حكمه سيرة فاشية ، فألف حزب الفلانج Falang على نمط الحزب الفاشى فى إيطاليا ، وجمع فى يده السلطات كلها ، ولكنه انتهج فى سياسته خطة وطنية بحتة راعى فيها مصلحة اسبانيا قبل كل شىء . فقد حاولت دولتا المحور ضم اسبانيا اليهما فى محالفة عسكرية فاعتذر فرنكو بنقص استعداده وعدم كفاية موارده . وآثر أن تبقى اسبانيا وهى لا تزال فى دور النقه بعيدة عن مزالق السياسة الدولية مكتفيا بموافقته على ميثاق مكافحة الشيوعية فى مايو سنة ١٩٣٩ . ومما دل على سياسة فرنكو الوطنية انه لم يلق بالا إلى رغبة إيطاليا فى ضم إحدى جزر البليار اليها لتتخذها قاعدة تصد منها نشاط فرنسا وانجلترا فى غرب البحر الأبيض المتوسط .

وقد أكد فرنكو خطته الاستقلالية عندما أعلنت الحرب العالمية الثانية

ورأى مع بالغ الدهشة أن هتلر قد تعاقد مع روسيا البلشفية التى كانت تناهض ثورة الوطنيين الاسبان ، فسارع فرنكو باعلان حيدة اسبانيا . فلما انقلب هتلر على روسيا وهاجمها فى صيف سنة ١٩٤١ ، لم ير فرنكو بدا من الاستجابة إلى رغبة حزبه فى الانتقام من روسيا ، فأرسل الفرقة الزرقاء من متطوعى الاسبان للقتال فى الميدان الشرقى إلى جانب الألمان ، وبذلك أرصد فرنكو لاسبانيا فى ذمة روسيا دينا ثقيلا من المقت والبغض والعداوة لا تزال اسبانيا تئن من وقعه إلى الآن .

ولم يكن ميل أكثرية الاسبان فى هذه الحرب كما كان فى الحرب الأولى إلى جانب الحلفاء . بل كان ميل الرأى العام الوطنى على العكس إلى جانب دولتى المحور ومع ذلك لم يضعف فرنكو أمام المانيا المنتصرة التى احتلت فرنسا ، ولم يكن ثمة مايفصلها عن اسبانيا سوى جبال البرانس . ولو أن المانيا فى ذلك الوقت اخترقت شبه جزيرة ايبريا لهددت جبل طارق ، ولتعذر على الحلفاء أن ينزلوا بجيوشهم على ساحل افريقية الشمالى لمناهضة قوات رومل . وتدل الوثائق التى نشرتها الولايات المتحدة أخيرا على أن اتفاق فرنكو مع دولتى المحور كان قيد البحث وانه طالب بجبل طارق ومراكش الفرنسية ثمنا لانضمامه ، ولكن شيئا من ذلك لم يتحقق ، واكتفى هتلر بأن اتخذ من سواحل اسبانيا مخابىء للغواصات الألمانية ومحطات تتغذى منها سفنها وطائراتها .

ويقول فرنكو فى الدفاع عن خطته أنه عاون الفرنسيين الاحرار أيضا فى أثناء الاحتلال الألمانى ولم يحل دون اتصالهم بساحل افريقية الشمالى . وكل ما أفادته اسبانيا من انحلال فرنسا أنها أعلنت انتهاء النظام الدولى فى طنجه وضمتها مؤقتا إلى حكمها .

ولما لاحت فى أفق الدول المتحاربة بوادر النصر ، بدأ فرنكو يستمع إلى رغباتهم ، فأبطل تصدير بعض المعادن التى كانت تفيد منها ألمانيا عسكريا ، وأبعد « سيرانوسونر » وزير خارجيته المتطرف فى مبادئه الفاشية ، وحاول أن

يستغفر لخطاياه الماضية ولكن بدون جدوى ، فقد ظلت تهمة الفاشية لاصقة به ، وما نشبت الحرب إلا للقضاء على النظم النازية والفاشية ، وإذن فلم يكن هناك معنى وقد انتصرت المبادىء الديمقراطية لابقاء الحلفاء على دولة فاشية قد تصبح بعد قليل من الزمن عشا تبيض فيه النازية وتفرخ من جديد . لذلك لم يدع الحلفاء فرصة لاعلان مقتهم لنظام فرنكو ورغبتهم الصادقة فى أن يزول حكمه عن البلاد . ونتج من ذلك أن بقيت اسبانيا بمعزل عن مجموعة الأمم المتحدة وفقدت ما كان لها من مزايا فى طنجه ، وكاد الروس ينجحون فى ضم اسم فرنكو إلى قائمة مجرمى الحرب .

والآن تبدو مشكلة اسبانيا معقدة غاية التعقيد فان الجمهوريين من الاسبان قد استغلوا الفرصة الدولية الحالية وأنشأوا لهم فى المكسيك حكومة جمهورية رئيسها « باريوس » Barrios من وزراء اسبانيا السابقين . وتجمع الجمهوريون أخيراً جنوبى فرنسا عند « تولوز » وأخذوا يتربصون الفرص للزحف عبر البرانس على اسبانيا وهم يعدون خططهم سرا وعلانية لقلب حكومة فرنكو دون حاجة إلى إراقة الدماء كما يقولون .

ولكن كيف يكون ذلك وإلى جانب الجمهوريين هناك الملكيون وهم قد نشطوا كذلك نشاطا عظيما وانتقل الأمير « دون جوان » بن الفونس الثالث عشر المطالب بالعرش من سويسرا إلى انجلترا ومنها إلى البرتغال واتخذ له ولأتباعه مقرا قريباً من لشبونه حيث استقبله سفير اسبانيا وهو شقيق فرنكو . والجنرال فرنكو لايعادى الملكية فى اسبانيا ، فقد كان من أول أعماله حين تولى السلطة فى سنة ١٩٣٨ إن أعاد الحقوق المدنية للملك السابق الفونس ، ويقولون أن هناك اتفاقا سريا على أن تعود الملكية إلى اسبانيا فى الوقت الذى يراه فرنكو مناسبا .

وتختلف الدول فيما بينها على طريقة التخلص من حكومة فرنكو . ففرنسا وروسيا تريدان العمل المباشر ضد فرنكو بواسطة هيئة الأمم المتحدة . أما بريطانيا وأمريكا وسائر الدول الديمقراطية فانها تصرح بآرائها ضد فرنكو ولكنها

لا تريد أن تتبع القول بالعمل وتفضل أن يقوم الشعب الاسبانى باختيار الحكومة التى توافق إرادته فى ظل استفتاء برلمانى صحيح .

وقد أعلن مستر بيفن وزير خارجية انجلترا عندما تولت وزارة العمال الحكم أن نظام الحكم فى اسبانيا مسألة تخص الشعب الاسبانى . . . وان أى تعرض من جانب الدول لشئونها الداخلية لابد أن يثير الشعب الاسبانى ويجعله يؤيد فرنكو فى موقفه ضد هذا التدخل الأجنبى . وجاء فى البيان الثلاثى الذى أرسلته انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة إلى اسبانيا انه « ليس فى النية التعرض لشئون اسبانيا الداخلية ، ولكن على الشعب الاسبانى نفسه أن يعمل على تقرير مصيره بنفسه »

وأضعف حلقة فى نظام فرنكو انه وليد التدخل الأجنبى وانه لولا مساعدة إيطاليا وألمانيا مااستطاع فرنكو أن يخضع الشعب لحكمه ، وأن حكومة لا تستند فى حكمها على رغبة الشعب الحقيقية لاتستحق أن تعيش . ومع ذلك فهاهم أولاء الجمهوريون يلوذون بحكومتى فرنسا وروسيا ويستنصرونهما على حكومة فرنكو وهانحن أولاء نرى حكومة فرنسا لا تكتفى بارسال البيان الثلاثى ، بل تنفرد فتعلن اسبانيا بأن الحدود بين البلدين مغلقة ، وهاهو ذا فرنكو يستثير حماسة الشعب فيرد على الانذار بمثله ويعلن اغلاق الحدود بينه وبين فرنسا ، ويزيد على ذلك حشد جيش عظيم من حزب الفلانج لحراسة الحدود .

وقد بحثت جمعية هيئة الأمم المتحدة التى انعقدت فى نيويورك فى عام ١٩٤٦ موضوع الحكم فى اسبانيا فقررت أن تبدى الدول سخطها على نظام الحكم الدكتاتورى بسحب سفرائهم من مدريد . واستدعت الدول فعلا سفراءها على أثر ذلك ولكنها لم تقطع علاقاتها بحكومة فرنكو . وثبت فرنكو فى موقفه لاتزعزعه التهديدات الكلامية ولاتؤرقه المؤامرات الجمهورية خارج اسبانيا واتخذ من موقف الدول ضده ذريعة لتقوية الروح الوطنية فى نفوس الوطنيين واثارة البغضاء والكراهية ضد الجمهوريين والأجانب .

وأخيراً فطن فرنكو إلى ضرورة إجراء تعديل أساسى فى نظام الحكم فاعلن فى ٣١ مارس سنة ١٩٤٧ تكوين مجلس للعرش يتولى الجنرال فرنكو رياسته إلى أن يختار الملك الذى يتبوأ العرش آخر الأمر ، وبذلك يعطى فرنكو لنظامه صفة شرعية موسومة بطابع الاستمرار وانكار الذات ، ولكن دون جوان المطالب بالعرش لم يعر هذا القول من جانب فرنكو اهمية . وأعلن أنه لن يعتلى العرش بناء على دعوة من فرنكو . وقد انحاز إلى جانبه كثير من زعماء الجمهوريين اليمينين فضلا عن انصاره داخل اسبانيا . وهم جميعا يعتقدون أن نظام فرنكو قد آذن بالزوال وأن على المعارضين لفرنكو أن يضموا صفوفهم استعدادا للحادث القريب . ولكن الجمهوريين يشترطون استفتاء الشعب الاسبانى استفتاء حراً قبل تقرير النظام المنتظر . والمطالب بالعرش مع اعتماده على تأييد الشعب واعلان انصاره انه سيحكم البلاد كملك دستورى يقرر أن النظام الملكى متأصل فى ارض اسبانيا ولا حاجة به إلى استفتاء الشعب .

وأغلب الظن أن فرنسا لن تترك اسبانيا حرة فى تنظيم بيتها لأن فرنسا لا تزال تعتبر اسبانيا امتدادا جغرافيا لها ولأنه يهمها أن تصون المواصلات بينها وبين مستعمراتها فى شمال افريقية عن طريق اسبانيا برا وجزر البليار التابعة لاسبانيا بحرا . فاذا لم تكن حكومة اسبانيا موالية لفرنسا تعرضت مواصلات فرنسا ومصالحها الحربية فى أوربا وافريقية لأعظم الخطر .

ولكننا نشك فى أن تستطيع فرنسا الآن وهى فى مرحلة دقيقة من تاريخها أن تؤيد الجمهوريين فى اسبانيا بالقوة لاسيما أنها تعرف أن جيش فرنكو لا تنقصه الكفاية أو الاستعداد . والجمهوريون وحدهم غير قادرين على قهر فرنكو مالم يتجه البندول الوطنى فى اسبانيا نحو الملكية أو الثورة . فهل استجم الشعب الاسبانى واستعاد نشاطه إلى الدرجة التى تدعوه إلى تكرار مأساة سنة ١٩٣٦ ؟ وإذا تكررت المأساة ولم ينتصر فيها الملكيون فهل هناك ما يمنع أن تدور الحلقة المفرغة دورتها ويظهر فرنكو آخر من جديد ؟ هذه هى مشكلة اسبانيا .

ب ـ أسبانيا بعد الحرب

من الظواهر السياسية التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ، أن الدول التى لزمت الحيدة فى أثناء الحرب ، قد باءت بعد انتهائها بغضب ومقت شديد من لدن الدول المنتصرة ، حتى إنها إلى الآن لتلقى من المضايقات الدولية والاقتصادية اكثر مما تعانيه الشعوب المغلوبة نفسها . وإن فى استبعاد سويسرا وأرلندة والبرتغال وأسبانيا من حظيرة الدول التى اجتمعت فى سان فرنسسكو عام ١٩٤٥ لوضع ميثاق هيئة الأمم المتحدة لدليلا على الوصمة التى لحقت الدول المحايدة بعد الحرب . وليس غريبا أن يكون هذا نصيب البلاد المحايدة بعد أن أصبحت الحرب ظاهرة عالمية لايكاد شررها يندلع بين دولتين حتى تعم نارها ويستعر أوارها ، فاذا الجو والماء واليابسة جميعاً ميدان للحرب ، وإذا الحدود بين الدول خطوط وهمية ، والمعاهدات والاتفاقات الدولية قصاصات من الورق بالية . فلا عجب إذن أن تصبح الشعوب فى زمن الحرب ولا عاصم لها من إغارة المغيرين أو غزو الفاتحين سواء أحاربت فى الميدان أم لم تحارب . وما دامت الكشوف العلمية الحديثة قد حولت الحرب من حادث محلى أو قارى إلى ظاهرة كونية قد يتجاوز تأثيرها بفضل الطاقة الذرية كوكب الأرض نفسه ، فما جدوى الحيدة وماقيمتها .

ولم تصب دولة محايدة على أيدى الحلفاء بعد الحرب ، بمثل ما أصيبت به أسبانيا . فالحلفاء يعتبرون أن نظام الحكم القائم فيها وليد تدخل قوات المحور ، وأنه لولا مساعدة إيطاليا وألمانيا ما استطاع فرنكو أن يخضع الشعب الأسبانى لحكمه . ويؤكدون أن الحيدة التى لزمتها أسبانيا فى الحرب العالمية الثانية لم تكن إلا حيدة موالية للمحور بدليل الفرق الزرقاء التى قدمتها أسبانيا لمحاربة الشيوعية إلى جانب الألمان ، وبدليل ما كانت تلقاه الغواصات والطائرات الألمانية التى كانت تلوذ بالخلجان والموانى الأسبانية من عون وتستر من جانب السلطات الأسبانية . ولا تزال حكومات الحلفاء تنشر بين آونة وأخرى مستندات مختلفة

المصادر تدور كلها حول ما كان سائداً بين فرنكو وهتلر من تفاهم أدى إلى عقد اتفاق بينهما ، فحواه أن ينضم فرنكو إلى جانب المحور فيسمح للقوات الألمانية باختراق أسبانيا إلى شمال إفريقية ، وفى مقابل ذلك تستولى أسبانيا على جبل طارق من بريطانيا ومراكش من فرنسا . ولم يحل دون تنفيذ هذا الاتفاق سوى أن هتلر قد شغل بالميدان الروسى فألهاه ذلك عن متابعة التفكير فى غزو شمال إفريقية . ولو قدر للاتفاق أن ينفذ فى بداية الحرب لتعذر على أمريكا والحلفاء تسيير حملتهم الكبرى على سواحل بلاد المغرب .

لذلك كله لم يدع الحلفاء فرصة تمر دون أن يعلنوا مقتهم لنظام فرنكو ورغبتهم الصادقة فى أن يزول حكمه عن البلاد . ونتج عن ذلك أن بقيت أسبانيا بمعزل عن الأمم المتحدة ، وفقدت ما كان لها من مزايا فى ميناء طنجة ، وكاد الروس ينجحون فى ضم اسم فرنكو إلى قائمة مجرمى الحرب .

أما فرنكو فيقول فى الدفاع عن خطته إنه بالتزامه الحيدة قد أسدى خدمة جلى للحلفاء ، وإنه قد تمسك إلى النهاية بحيدته رغم إلحاح المحور وضغطه . وإنه إذا كان الألمان قد أفادوا من حيدة أسبانيا فان الأحرار الفرنسيين قد وجدوا من أسبانيا فى أثناء الاحتلال الألمانى ملجأ وملاذاً لهم . ويكفى دليلا على حسن طوية الحكومة الأسبانية أنها لم تحرك ساكنا عندما نزلت حملة إفريقية الشمالية على سواحل الأطلنطى والبحر المتوسط على مرأى من السلطات الاسبانية وقريباً من قواعدها .

على ان أمضى سلاح يذود به فرنكو عن نفسه وعن نظامه أمام العالم أنه بانتصاره على الجمهوريين فى أسبانيا قد صان غرب أوربا من طغيان العناصر الشيوعية قبيل الحرب وبعدها ، وأن أسبانيا بفضل نظامها قد أصبحت الحصن والدرع الوحيد فى أوربا الذى قاوم النفوذ الشيوعى . فبينما نرى بلدان وسط أوربا وشرقيها بل فى أجزاء من غربيها أيضاً قد اصطبغت كلها أو معظمها باللون الشيوعى إذا بأسبانيا تقف وحدها ثابتة فى موقفها بمعزل عن الشرق والغرب

جميعاً ، وهى إلى ذلك مزهوة باستقلالها راضية عن جهودها فى سبيل دره الخطر الأجنبي عنها .

وأما الشعب الأسبانى نفسه فله رأيه الخاص فيما وصلت اليه حاله . ومن العسير أن يتبين الباحث رأى الشعب فى أسبانيا أو أن يتفق هذا الشعب على رأى واحد . ذلك لأن فى أسبانيا ثلاث مناطق متباينة لكل منها لغـتها وتقاليدها واقتصادياتها الخاصة . ففى الشمال الشرقى منطقة كتالونيا الغنية بتجارتها ومنتجاتها ، وقاعدتها برشلونة أهم موانىء أسبانيا . وفى الشمال منطقة الباسك الشهيرة بمعادنها ومصانعها ، وأهم مراكزها بلباو . وفى هاتين المنطقتين تكثر الحركات العمالية ، والرأى العام فيهما ينتمى إلى الاحرار غالبا ، وكانت كتالونيا فى أثناء الثورة الأهلية أقوى حصون الجمهوريين . ثم منطقة السهول الزراعية فالمراعى ، وفيها العاصمة مدريد . وكثرة السكان فى هذه المنطقة من المحافظين الذين يقدسون الكنيسة الكاثوليكية ولا يزالون يحسنون الظن بالملكية . وقد ساعد على إختلاف الرأى بين سكان هذه المناطق أن الدستور الأخير الذى أصدرته حكومة الجمهورية قد خول لمنطقتى كتالونيا والباسك حق الاستقلال الذاتى ، وبذلك اتسعت الهوة بين أهل البلاد الواحدة ولم تعد الوحدة السياسية ملحوظة فى أسبانيا كما كانت فى عصر شرلكان وخلفائه .

أما الاحرار فيعتقدون أن الحرب الأهلية فى أسبانيا كانت مقدمة للحرب العالمية الثانية ، وأن على الحلفاء أن يحرروا الشعب الاسبانى من النظام « الفلنجى » الذى أنشأه فرنكو كما حرروا شعوب أوربا الاخرى من النازية والفاشية . فما نشبت الحرب فى رأيهم إلا للقضاء على النظم الدكتاتورية ، وما دامت المبادىء الديمقراطية هى التى انتصرت فى النهاية فلا معنى لابقاء الحلفاء على دولة دكتاتورية قد تصبح بعد قليل عشا تبيض فيه النازية أو الفاشية وتفرخ . وأكثر الاحرار تحمسا الجمهوريون الذين هاجروا من بلادهم على أثر انتصار الوطنيين واستوطنوا فرنسا وجمهوريات أمريكا وأنشأوا لهم فى المنفى حكومة جمهورية

أعلنوها فى المكسيك فى سبتمبر سنة ١٩٤٥ ثم تجمع كثير منهم فى جنوبى فرنسا بعد الحرب وجعلوا يعملون سراً وعلانية لقلب حكومة فرنكو مقتفين فى ذلك أثر جماعات المقاومة من الفرنسيين المعروفين بالماكى maquis الذين كانوا يعملون تحت الأرض لمقاومة الألمان فى أثناء فترة الاحتلال . وللجمهوريين قوات مسلحة تقيم على الحدود بين فرنسا وأسبانيا فى انتظار الوقت المناسب لدخول أسبانيا طوعاً أو كرهاً . ويبلغ عددهم نحو خمسين الف رجل من مجموع عدد المهاجرين ، ويقدرون بنصف مليون أسبانى .

وليس الجمهوريون جميعاً من الشيوعيين ، فبينهم كثيرون يؤمنون بالنظم النيابية الديمقراطية وينظرون إلى فرنسا وبريطانيا وأمريكا كمثل عليا يقتدون بها وينسجون على منوالها فى الحكم . ولا عيب فى هذه الجماعة إلا أن أفرادها لطول غيبتهم عن أسبانيا قد فقدوا الاتصال عن كثب بروح الشعب وآرائه وحاجاته ، وعجزوا عن تقدير ما أسداه النظام الحالى للبلاد من استقرار وتنظيم لشئونه واقتصادياته . أما ما يؤخذ على الجمهوريين من أنهم فى سبيل تحقيق أغراضهم لايترددون فى التماس المعونة من العناصر الشيوعية الاجنبية فقد يكون صحيحاً ، ولكننا نعتقد أن طبيعة الكبرياء الوطنى عند الاسبان تجعلهم يأبون أن تشد بلادهم إلى عجلة دولة أجنبية أياً كانت .

أما الملكيون فهم إلى نظام فرنكو أقرب منهم إلى النظام الجمهورى ، ولكن الاشتراك فى الهجرة وآلام المنفى ورغبتهم جميعاً فى القضاء على فرنكو — كل ذلك قد قرب مسافة الخلاف بين الملكيين والجمهوريين بدرجة شجعت على القول بامكان تآلف الفريقين ضد فرنكو .

والمعروف أن فرنكو لا يعادى الملكية فى أسبانيا ، فقد كان من أول أعماله حين تولى السلطة أن أعاد الحقوق المدنية للملك السابق الفونسو الثالث عشر ، وانه بعد موت الملك كاد الاتفاق يتم بين فرنكو ودون جوان المطالب بالعرش لو لم تقف هيئة الامم المتحدة موقفها العدائى ضد فرنكو . وقد انتقل

الامير بعد الحرب من سويسرا إلى انجلترا ومنها إلى البرتغال واتخــذ له ولاتباعه مقراً قريباً من لشبونة ليرقب منه الحالة عن كثب. وقد أعلن الامير نهائياً أنه لايقبل التاج من يد فرنكو ، وأن على فرنكو أن ينزل أولا عن سلطانه حتى يصعد الامير على عرش آبائه الوراثى.

ولـكن فرنكو لم يأبه بتمنع دون جوان وهو يعلم أن تاريخ الملـكية فى أسبانيا لايشرف كثيراً ولا يثير من الشعب من الحماسة ماتثيره انتصارات « الزعيم » لذلك انتهز فرنكو فرصة احتفال الشعب بالذكرى الثامنة لانتصار الجيوش الوطنية نأعلن فى مارس الماضى قانون وراثة العرش الذى يقضى بأن تكون أسبانيا دولة ملـكية لها مجلس ملـكى مكون من ١٢ عضواً منهم رئيس الاساقفة ورئيس أركان حرب الجيش ورئيس المحـكمة العليا وممثلو النقابات المختلفة. وينص قانون الوراثة على أن فرنكو رئيس الدولة وعليه أن يستشير مجلس المملـكة فى تعيين خلفه وفى إعلان الحرب والسلم وفى القوانين التى يرى ردها إلى مجلس الـكورتيس أو البرلمان الذى أعاد فرنكو تأليفه منذ سنة ١٩٤٣. فاذا مات رئيس الدولة أو أصبح غير قادر على الحـكم فان مجلس الوصاية يتولى السلطة العليا. ويتكون مجلس الوصاية من رئيس الـكورتيس ورئيس الأساقفة ورئيس أركان حرب الجيش. وعلى مجلس الوصاية أن يدعو الوزراء ومجلس المملكة إلى الاجتماع للاتفاق بكثرة الثلثين على مرشح للعرش. واشترط القانون أن يكون المرشح أسبانيا بالغاً من العمر ثلاثين سنة على الأقل كاثوليـكيا ومن دم ملـكى ، وأن يقسم يمين الولاء لقوانين البـلاد ، وأن يحوز ترشيحه ثلثى أصوات مجلس الـكورتيس.

ولما وصل هذا القانون إلى علم الأمير دون جوان أبدى اعتراضه وسخطه عليه لسببين : الأول أن الأمير لم يستشر قبل إصداره. والثانى أن الشعب لم يستفت فيه. ولعل أهم ما يدعو إلى اعتراض الملـكيين أن القانون قد اشترط أن يقسم المرشح للعرش يمين الولاء للقوانين التى أصدرتها حكومة فرنكو وأن

الأمير لا يريد أن تكون عودته إلى العرش متوقفة على رغبة فرنكو، أوموافقة الكورتيس أو مجلس الوصاية أو غيرهما . ومع ذلك فقد وافق الكورتيس على القانون وأجرت الحكومة استفتاء بشأنه ، فكان عدد المقترعين للقانون أكثر من ١٤ مليون ضد نحو ٨٢٢٠٠٠ اقترعوا ضده . ولا تزال الدوائر الملكية دائبة الاتصال بالأمير المطالب بالعرش ، وهم يزعمون أن فى قيام حكومة ملكية دستورية خير ضمان لاستقرار البلاد والحد من المنازعات الحزبية التى مزقت وحدة البلاد وعرضتها أخيراً لويلات الحرب الأهلية .

والملكيون والجمهوريون كلاهما يعلقون أهمية كبيرة على معارضة هيئة الأمم المتحدة للحكم الفرنكى ، ويعتقدون أن فرنكولم يلجأ إلى قانونه الأخير إلا تغطية لمركزه الذى تضعضع وتحرج فى نظر العالم بسبب قرارات هيئة الأمم المتحدةضده فى عام سنة١٤٩٦ . فقد قررت لجنة من مجلس الأمن أن بقاء حكم فرنكوفى أسبانيا من شأنه أن يعرض السلام الدولى للخطر . وعلى ذلك وافقت الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة أن تسحب الدول سفراءها ووزراءها المفوضين من أسبانيا ، ولكنها لم تقرر قطع العلاقات السياسية كما كان قد اقترح أولا . وقد وافقت على هذا القرار ٣٤ دولة ضد ٦ وامتنعت ١٣ دولة عن إعطاء صوتها ،ومن هؤلاءدول الجامعة العربية ، فلقى موقفها ارتياحاً من جانب فرنكو . ويظهر أن الدول العربية قد أرادت بخطتها أن تكسب أسبانيا إلى جانبها ضد سياسة فرنسا فى شمال إفريقية .

وقد نفذت الدول التى لها سفراء أو وزراء فى أسبانيا قرار الجمعية العمومية . ولكن القرار قد جرح كبرياء أسبانيا وأعده الأسبان تدخلا مهيناً من جانب الدول فى شؤون أسبانيا الداخلية . وكان رد الفعل الأول للقرار أن قامت فى البلاد مظاهرات حماسية رائعة تعضد فرنكو فى موقفه وتحتج على تدخل الأجانب . وكانت النتيجة أن فرنكولم يكترث بمعارضة الدول ، فتحداها وسار على خطته التى رسمها لنفسه كما ذكرنا . من ذلك يتضح أن الأسبان بعد نحو عشر سنوات تحت نظام فرنكو قد أصبحوا يألفون نظامه ويقدرون مافيه من مزايا

الاستقرار والتنظيم الذى شمل جميع مرافق الحياة ، وأنهم صاروا الآن يفضلونه على ماعداه من النظم . فهم قد قاسوا كثيراً تحت نظام الملكية فى الماضى وتحت نظام الجمهورية أخيراً . وهم لا ينسون أن أسبانيا قد فقدت نحو نصف مليون نفس فى الحرب الأهلية الأخيرة ، وأن أى انقلاب آخر سواء أكان ملكيا أم جمهوريا سيفضى حتما إلى قيام حرب أهلية أخرى . ذلك لأنه إذا أعيدت الملكية ثار الشيوعيون وعرضوا البلاد لكارثة وطنية جديدة . وإذا عاد الجمهوريون أضرمت الكنيسة ورجال الجيش نار الثورة وأججوها فى صدور الفلاحين والشعب عامة .

والأسبان يعلمون أن النظام الحالى فى بلادهم يقوم على قوة الجيش ، فأى مساس يناله من الداخل أو الخارج لابد أن يؤدى إلى إراقة الدماء . وقد يكونون مقتنعين بضرورة إحداث تغيير فى نظم الحكم ، ولكنهم يأبون أن يجىء التغيير عن طريق الثورة أو العنف فى الوقت الحاضر . ومع اعترافهم بأن الجيش فى أسبانيا هو أساس البلاء وأنه من أهم أسباب الضيق المالى ، فان موقف هيئة الأمم المتحدة من أسبانيا قد جعل الجيش أداة وطنية لا غنى عنها . وإذا أضفنا إلى ذلك أن الحكومة الفرنسية كانت قد أعلنت إغلاق الحدود بينها وبين أسبانيا ، وأن الجمهوريين والارهابيين من الأسبان قد اتخذوا قواعدهم جنوبى فرنسا قرب الحدود أدركنا معنى احتفاظ فرنكو بجيشه الكبير الذى يقدره بعضهم بثلاثة أرباع مليون رجل يكلفون الحكومة والشعب نفقات طائلة لا قبل لهم باحتمالها طويلا . ومع ذلك يؤثر الأسبان الابقاء على نظامهم الحالى مع اعترافهم بعيوبه ونقائصه . فهم إذ يقارنون حالهم بحال غيرهم من شعوب أوربا يرون أنهم أحسن حالا وأثبت موقفاً من غيرهم وقد بات الأسبان الآن زاهدين فى السياسة عامة وفى السياسة الأوربية خاصة . وأخذت محاسن أمريكا والمحيط الأطلنطى تجتذب أنظارهم وتسترعى اهتمامهم من جديد أكثر من انجذابهم نحو فرنسا أو انجلترا أو البحر المتوسط ، وأكبر الظن أنه إذا حدث انقلاب سياسى فى البلاد فلن تكون قبلة أسبانيا شرقية نحو موسكو ولا أوربية غربية نحو باريس أو لندن ، بل يغلب أن تبقى على سياستها الحالية أو تولى وجهها شطر بنى جلدتها فى أمريكا .

وقد نظرت مسألة أسبانيا أمام أنظار الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة فى اجتماعها فى ابريل سنة ١٩٤٩ واقترحت بعض الجمهوريات الأميريكية اللاتينية رفع الحظر الدولى عن أسبانيا فلما عرض الاقتراح للاقتراع امتنعت الدول الكبرى الغربية عن إعطاء صوتها ولم يناصر الاقتراح سوى دول المجموعة الأمريكية اللاتينية ومجموعة الدول العربية ، وعلى ذلك فشل الاقتراح ولم يحصل على ثلثى الأصوات . فقد أعطت ٢٦ دولة أصواتها فى جانب الاقتراح و ١٥ دولة ضده وامتنعت ١٦ دولة .

ومع ان روسيا تميل إلى اتخاذ اجراءات مباشرة ضـــد فرنكو بوساطة هيئة الأمم المتحدة ، فان بريطانيا والولايات المتحدة ومعهما سائر الدول الديمقراطية تكتفى الآن باعلان آرائها ضد نظام فرنكو ولكنها لا تريد أن تتبع القول بالعمل وتفضل أن يقوم الشعب الأسبانى باختيار الحكومة التى توافق إرادته فى ظل استفتاء برلمانى صحيح .

ووجه الخطر فى مشكلة أسبانيا أن نظام فرنكو يقوم كما ذكرنا على قوة جيش كبير كامل الاستعداد تؤيده كثرة من الشعب الأسبانى المقيم داخل البلاد لا خارجها . وإن أى تدخل مباشر من جانب هيئة الدول المتحدة سيلقى معارضة كالتى تلقاها الهيئة من جانب روسيا من جراء تدخلها فى شؤون البلقان . وأكبر الظن أن الحالة فى شبه جزيرة إيبريا ستبقى موازنة للحالة فى شبه جزيرة البلقان فى طرف أوربا الشرقى ، وستظل الحالة فى المنطقتين على توترها حتى يستبين للعالم قدر هيئة الأمم المتحدة وأثرها فى صيانة الحريات وحفظ السلام العام . فاما أن يكون للهيئة من القوة المادية والاستقلال فى الرأى ومن النفوذ الأدبى مايرهب القوى الطامع ويشجع الضعيف على الاستنجاد بها ، وإما تخاذل واستسلام من جانب الهيئة لرغبات الدول الكبرى واستهتار بالأمن الدولى ومظالم الشعوب الصغيرة . وحينئذ تعود القوة إلى مكانها القديم فوق القانون ولا تتأتى الحلول لمشاكل البلقان وأسبانيا وغيرهما إلا عن طريق السيف والبطش . ومتى أصبحت الكلمة فى العالم الحديث للسيف وللقوة الذرية فقل على المدنية العفاء وعلى الدنيا السلام .

الفصل الحادى والعشرون

مصر وقضية الجـــلاء

ولدت فكرة الجلاء فى الساعة التى نزل فيها أول جندى بريطانى بأرض الوطن وسجلتها الحكومة الانجليزية أول ماسجلتها بتاريخ ٣ يناير سنة ١٨٨٣ فى أول منشور دورى بعث به لورد جرانفيل Granville وزير خارجية الحكومة الانجليزية إلى سائر الدول عقب احتلال البلاد قال فيه « انه إذا كانت القوات البريطانية لا تزال باقية فى مصر فى الوقت الحاضر لحفظ النظام والسلام العام بها فان حكومة جلالة الملكة لترغب فى سحب قواتها بمجرد ما تسمح بذلك حالة البلاد وتفرغ من تنظيم الوسائل التى من شأنها توطيد سلطة الخديو »

وقد شاءت الحكومة الانجليزية ان تعلن للدول عن زهدها وتجردها من أى مطمع ذاتى لها فى مصر فدعت قبل ارسالها حملتها الحربية كلا من فرنسا وايطاليا للاشتراك معها فى إنزال قواتهما بمصر ولو بقصد الدفاع عن القناة فرفضت فرنسا استخدام القوة ضد مصر رغم انها اشتركت مع انجلترا فى المظاهرة البحرية أمام الاسكندرية وبذلك أضاعت فرنسا على نفسها وعلى مصر أيضا فرصة نادرة لحراسة وادى النيل من أن تستأثر به انجلترا .

« لقد قال غمبتا الوزير الفرنسى معارضاً الحكومة الفرنسية حينذاك ان فرنسا بانسحابها من ميدان العمل بمصر قد يسرت لانجلترا ان تضع يدها على اقاليم ووديان وثغور كان حق فرنسا فى أن تفيد منها لا يقل عن حق انجلترا »

أما ايطاليا فاعتذرت بلطف واعتبرت دعوة بريطانيا لها تفضلا منها وكرما ما برحت ايطاليا تذكره لبريطانيا بالشكر والعرفان بالجميل طوال عهد الاحتلال وسرعان ما أعلن غلادستون Gladstone فى مجلس العموم « اننا سنرنو ببصرنا

فى هذه الفترة شطر أوربا بانتظار الدول التى تريد ان تتعاون معنا ... فاذا حبطت آمالنا فى تعاونها معنا فان انجلترا ستضطلع وحدها بهذا العمل »

وكان مؤتمر الدول المنعقد فى ذلك الوقت فى القسطنطينية للبحث فى المسألة المصرية قد دعا تركيا لارسال قواتها إلى مصر لتهدئة الفتنة العسكرية ، وتجددت دعوتها عقب ضرب الاسكندرية ولكن تركيا تباطأت كعادتها وتعثرت فى سياستها الخارجية وانقضى الوقت فى مناقشات سخيفة مع السفير البريطانى وفى معارضات عقيمة كانت انجلترا فى اثنائها تعد العدة لارسال حملتها وحدها إلى مصر . وعلى ذلك انفردت انجلترا بانزال قواتها فى البلاد ، وسرعان ما تم لها الفوز على العرابيين وخلا لها الجو للعمل دون أية رقابة تستحق الذكر سواء فى الداخل أو فى الخارج

ومع ذلك فقد احس الانجليز فى أول الأمر انهم فى قلق مستمر ومركز غير مستقر فهم لم يدخلوا البلاد فاتحين حتى يستطيعوا اعلان حمايتهم عليها أو ضمها إلى املاكهم . وكل ما هناك انهم جاءوا من تلقاء انفسهم باعتبارهم حلفاء أو أصدقاء للسلطان أو للخديو لقمع الفتنة العرابية واستتباب الامن والنظام فى بلاد حبتها الطبيعة بمركز جغرافى فذ على ناصية المضيق الذى يوصل بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندى حيث الهند التى كانت ألمع جوهرة فى تاج الامبراطورية البريطانية . وكانت الحكومة الانجليزية فى ذلك الوقت برياسة مستر غلادستون زعيم الأحرار الذين نادوا بحرية التجارة وقالوا بنصرة مبادىء الحرية والديمقراطية فلم تشأ الحكومة أن تنقض مبادىء الأحرار علنا وتتحدى الدول صراحة فتنشىء فى مصر حكومة استعمارية على غرار حكومة الهند . وكذلك لم يرق لرجال الحكومة ان تفلت منهم فرصة قد سنحت لتثبيت اقدامهم فى نقطة استراتيجية عالمية عظيمة الخطر بالاضافة إلى أمن الامبراطورية وسلامتها .

لذلك نشأ فى مصر ذلك النظام الاحتلالى الفذ الذى يظهر غير ما يبطن ويبطن غير ما يظهر فتركوا الحكومة الخديوية تتمتع فى ظاهر الأمر باستقلالها وامتيازاتها الداخلية وفق الفرمانات السلطانية الممنوحة لها وجعلوا المعتمد البريطانى فى الوقت

نفسه يجمع فى يديه بواسطة المستشارين والمفتشين الانجليز من السلطات الادارية والتنفيذية والتشريعية ما شل به جميع السلطات الشرعية فى البلاد وجعله شبه ملك غير متوج عليها .

وكان من مظاهر هذه السياسة أن المحتلين كانوا يعملون فى البلاد كأنهم مخلدون فيها ، على حين كان رجال الحكومة الانجليزية لا يفتأون يذكرون ويعيدون ويكررون فى منتدياتهم واحاديثهم وامام العالم اجمع أن الاحتلال فى مصر مؤقت وان الجلاء آت لا ريب فيه .

١ — وجاءت أول مناسبة رسمية للمفاوضة بشأن الجلاء فى اغسطس سنة ١٨٨٣ قبل نهاية العام الأول للاحتلال وكان على رأس الحكومة فى ذلك الوقت الوزير الوطنى الأول شريف باشا . انتهز فرصة ارتباك الحكومة الانجليزية بشأن سياستها المالية نحو مصر وطالب رسمياً بضرورة تقليل القوات البريطانية التى تحتل البلاد حتى لا ترهق بنفقاتهم ميزانية الحكومة وهى إذ ذاك فى حالة تقرب من الافلاس . وكان عدد هذه القوات فى أول الأمر سبعة آلاف جندى يكلفون الخزانة العامة زهاء نصف مليون جنيه فى العام فطلب الوزير تخفيض عددهم إلى ألفى جندى . وكانت الحكومة الانجليزية قد عينت السير افلن بارنج Evelyn Baring (لورد كرومر Cromer فيما بعد) معتمدا وقنصلا عاما لها فى مصر ليقوم بتنفيذ سياسة الاحتلال الجديدة فاستطلعت رأيه فيما تقدمت به الحكومة المصرية فكتب بارنج وكان فى بدء حياته السياسية فى الثانية والاربعين من عمره يحبذ فكرة الجلاء الجزئى ويقول انه قد استشار الخبراء العسكريين وأدى بهم البحث إلى انه لا خوف البتة من جلاء جيش الاحتلال عن القاهرة وتخفيض عدده إلى ثلاثة آلاف جندى يكون مقرهم الاسكندرية . ولم يشأ بارنج ان يعين تاريخا لانسحاب جيش الاحتلال نهائيا لانه لم يكن قد مضى عليه فى عمله الجديد سوى شهر واحد ولان فكرة الجلاء التام لم تكن قد اختمرت بعد .

وكان جواب لورد جرانفل وزير الخارجية سريعاً وصريحاً فى موافقته على

جلاء جنود الاحتلال عن القاهرة وتركيز اقامتهم فى الاسكندرية مع تخفيض عددهم إلى ثلاثة آلاف رجل .

ولكن حدث ويا للأسف قبل الشروع فى تنفيذ هذا القرار ان وصلت إلى مصر انباء كارثة حملة « هكس باشا Hicks » أمام المهديين فى السودان إذ بادت الحملة عن آخرها أو كادت – وكان عددها عشرة آلاف مقاتل – وسط غياهب الكردفان وغاباته وقفاره ، وبات الناس يتوقعون بعد هذه الكارثة زحف الجموع المهدية على الخرطوم وتهديد حدود مصر الجنوبية نفسها . وعلى ذلك اقتضت سياسة الحيطة والخوف من خطر المهدية ترك جيش الاحتلال على ما كان عليه دون تغيير فى عدده أو مقره – وتأجلت فكرة الجلاء عن القاهرة لأول مرة حتى عام ١٩٤٧ إذ اخلى جنود الاحتلال الثكنات المصرية فى القلعة وقصر النيل والعباسية واتخذوا قاعدتهم على ضفة قناة السويس الغربية فى فايد قرب الاسماعيلية .

وليس من شك فى أن ظهور الثورة المهدية فى السودان وتعرض النظام المصرى الذى أقامه الخديو إسماعيل فى تلك الأرجاء الشاسعة للإنهيار وبدأ تحول اتجاه السياسة الإنجليزية الاستعمارية نحو السودان – كل أولئك كانت من أهم العوامل التى جعلت بريطانيا تنأى تدريجا عن فكرة الجلاء عن مصر وتأخذ أهبتها حتى تسنح لها الفرصة المواتية للسيطرة على منابع النيل كما سيطرت على قناة السويس، وكلاهما تعتبره بريطانيا شريانا حيويا بالإضافة إلى امبراطوريتها فى آسيا وأفريقية . ومن هنا تتضح لنا أسباب تمسك بريطانيا بالدفاع عن القناة ذلك أنها تعلم أن سيطرتها فى أفريقية – لامواصلاتها إلى الهند فحسب – هى التى ستتعرض للخطر متى انسحبت قواتها من مصر .

٢ – وسنحت الفرصة الثانية للمفاوضة بشأن الجلاء فى سنة ١٨٨٤ وجاءت المفاوضة فى هذه المرة على يد الحكومة الفرنسية التى وضعت مسألة الجلاء عن مصر فى مقدمة أهدافها السياسية الدولية وظلت ترعى سياسة الجلاء وتناصرها حتى شغلت فرنسا بمصالحها فى شمال أفريقية وتم الاتفاق الودى بينها وبين إنجلترا

هى سنة ١٩٠٤ فرضيت إنجلترا أن تمد فرنسا نفوذها فى مراكش مقابل أن تترك يدها حرة فى مصر .

ففى سنة ١٨٨٤ اشتدت حاجة الحكومة المصرية إلى المال لسد نفقات التعويضات التى تخلفت عن حوادث الاسكندرية وغيرها ولتجهيز الحملات الحربية فى السودان ولانشاء بعض أعمال الرى الضرورية لرخاء البلاد . ولما كانت موارد الحكومة محدودة بقانون تصفية الدين الذى وافقت عليه الدول سنة ١٨٨١ . فقد اضطرت الحكومة الإنجليزية إلى دعوة الدول إلى مؤتمر يعقد فى لندن للبحث فى موضوع المالية المصرية . فلما بلغ أمر هذه الدعوة إلى فرنسا أرادت أن تنتهز هذه الفرصة لتحقيق غرضها فى جلاء الإنجليز عن مصر فاشترطت لقبول الدعوة إلى المؤتمر البحث فى مسألة الجلاء مع الموضوع المالى .

وعلى ذلك تبادلت الحكومتان المكاتبات فى هذا الشأن وقد ذكر لورد جرانفل فى خطاب له إلى الحكومة الفرنسية : « إنه يرى من العسير تحديد موعد للجلاء فقد يكون التاريخ الذى يحدده بعيداً أو قريباً . غير أن حكومة جلالة الملكة رغبة منها فى إزالة كل ريبة من حيث نياتها فى هذا الصدد تعد بأن تسحب قواتها من مصر فى أوائل عام ١٨٨٨ بشرط أن تقتنع الدول بأن انسحاب الاحتلال لا ينبنى عليه أحداث أى تأثير فى حالة الأمن بالبلاد ونظامها » . وأضاف اللورد إلى ذلك أنه متى تم الجلاء تعتزم حكومة جلالة الملكة أن تقترح على الدول وعلى الباب العالى أن تكون مصر حكومة محايدة على غرار حكومة بلجيكا .

وكان جواب الحكومة الفرنسية على ذلك أن أعلن مسيو جول فرى Jules Ferry رئيس الحكومة فى مجلس النواب الفرنسى « أن مصر أيها السادة ليست شيئاً إنجليزيا ولا فرنسيا ولكنها أرض ذات صفة دولية أوربية ظاهرة . فأوربا هى التى احتضنتها ومسألة مصر كانت وستبقى دواما مسألة أوربية قبل كل شىء وفوق كل شىء » .

وما إن ظفرت الحكومة الفرنسية بذلك التصريح من لدن الحكومة الإنجليزية

حتى نسيت فرنسا مصلحتها السياسية وتفرغت لمصالحها المادية . فلما اجتمع المؤتمر للبحث فى الحالة المالية واقترحت الحكومة الانجليزية تخفيض فائدة الدين العام من أربعة فى المائة إلى ثلاثة ونصف عارضت فرنسا وتشددت وتشبثت بموقفها حتى انفض المؤتمر دون اية نتيجة . ولما عاد المؤتمر إلى الانعقاد فى السنة التالية أقرت الدول عقد قرض جديد بضمانتها بمبلغ تسعة ملايين من الجنيهات بفائدة قدرها ثلاثة ونصف فى المائة تفريجا للازمة المالية بمصر . وعلى ذلك انتهى الأمر بأن سحب مستر غلادستون ولورد جرانفل تصريحهما السابق إلى الحكومة الفرنسية بشأن تحديد تاريخ الجلاء عن مصر . وضاعت على مصر فرصة ثانية للتخلص من الاحتلال لأن فرنسا آثرت أن تضحى بكسب دولى لاشك فيه من أجل فائدة مادية لا تكاد تذكر إلى جانب سمعتها الدولية .

قال مسيو ده فرسنيه Freycinet رئيس وزراء فرنسا السابق معلقا على موقف فرنسا: «لقد آثرنا أن نضيع تلك الفرصة السياسية النادرة على أن نقبل تخفيض ايراد الدين بمقدار نصف فى المائة . ان اهتمامنا الزائد بمصالح الدائنين الفرنسيين قد غطى على كل شىء وقد ادى بنا إلى ارتكاب اخطاء سياسية كثيرة » .

٣ — أما المناسبة الثالثة التى جرت فيها مفاوضات رسمية بشأن الجلاء فجاءت فى سنة ١٨٨٧ وكانت حكومة الاحرار قد استقالت وخلفتها حكومة المحافظين برياسة لورد سالسبورى Salisbury . ومع أن السياسة الخارجية التى تتبعها الحكومات الانجليزية لا تتغير عادة بتغير الأحزاب التى تتقلد الحكم فان المحافظين أرادوا أن يخففوا من حدة التوتر الدولى وأن يصلحوا ما أفسده احتلال مصر فى العلاقات بينهم وبين تركيا وفرنسا فقرروا أرسال بعثة على رأسها هنرى درمند وولف Drummond Wolff لمفاوضة الباب العالى بشأن تحديد تاريخ جلاء الانجليز عن مصر . وكان على السير درمند أن يزور تركيا ومصر ويتفق مع مندوبى السلطان على تسوية المسألة المصرية واعادة السكينة والسلام إلى ربوع السودان . وقد ظن الانجليز أن لسلطان تركيا من النفوذ الدينى والروحانى ما يجعل المهدى واتباعه

يستمعون إلى نصحه ، وفاتهم أن ثورة المهدى كانت موجهة ضد السلطان والخديو ورجالهم جميعاً وأن الثورة فى السودان بعد كارثة هكس باشا قد أصبح لها من الشأن والقوة والذيوع ما لا سبيل إلى قمعه إلا بالقوة .

وعلى ذلك طوى موضوع تهدئة السودان وتركزت جهود البعثة فى بحث المسألة المصرية . وقد بدىء العمل بتعيين مندوب سام لتركيا بمصر هو الغازى مختار باشا وجعل المندوبان الانجليزى والتركى يجتمعان بالقاهرة . ثم انتقل المندوب الانجليزى إلى القسطنطينية وأخذ يفاوض مندوبى السلطان بشأن جلاء القوات البريطانية وتعيين وقت مناسب لذلك . وأخيراً وقع المفاوضون على اتفاق عقد فى مايو سنة ١٨٨٧ اتفقوا فيه على أن تنسحب القوات البريطانية من مصر بعد انتهاء ثلاث سنوات من تاريخ توقيع الاتفاق . فاذا ظهر بعد انقضاء تلك الفترة أن هناك خطرا يهدد طمأنينة البلاد وسلامتها سواء جاء الخطر من الداخل أو من الخارج فان جلاء الجنود البريطانية يؤجل حتى يزول الخطر وبعدها ينسحب الاحتلال. وقد نص فى هذا الاتفاق على أن لكل من تركيا وبريطانيا حقا فى اعادة احتلال البلاد إذا دهمها أى خطر وأنه متى هدأت الحال انجلت الجيوش المحتلة عن البلاد . وكذلك نص فى الاتفاق أنه بعد انسحاب القوات البريطانية واقرار الحكومتين للاتفاق يطلب إلى باقى الدول ان تنضم إلى الاتفاق وأن تضمن حيدة الاراضى المصرية وسلامتها .

وعلى ذلك ما كادت تصل تفاصيل الاتفاق إلى علم الدول حتى أبدت كل من روسيا وفرنسا معارضة شديدة لمواده وتقدمت الحكومتان تحتجان لدى السلطان على فحوى الاتفاق وتطلب اليه عدم اقراره . وقد قال السفير الروسى فى احتجاجه ان الاتفاق معناه تضحية حقوق السلطان والنزول عنها مجاناً لانجلترا . وقالت فرنسا ان الاتفاق من شأنه أن يصحح مركز انجلترا فى مصر ويجعله مركزاً شرعيا تصبح بمقتضاه شريكة لتركيا فى مصر . وجعلت الحكومتان تشددان الضغط على حكومة الباب العالى حتى اضطر السلطان إلى اهدار كرامة مندوبه بعدم اقراره

للاتفاق وغادر المندوب الانجليزى القسطنطينية وهو بادى الغضب خالى الوفاض بعد أن قضى سنتين فى مداولات ومناورات عديمة الجدوى .

وإذا كانت بعثة وولف قد باءت بالفشل فيما يخص قضية الجلاء فإن إنجلترا قد أفادت منها أيما فائدة فانها لم تعد بعد ذلك تقيم وزنا لاعتراض الدول على احتلالها مصر . فهاهى ذى قد وقع مندوبها على اتفاق مع مندوبى السلطان بشأن انتهاء الاحتلال ولكن السلطان نفسه قد رفض التوقيع منقاداً فى ذلك إلى رأى الحكومتين اللتين كانتا تعارضان السياسة الإنجليزية فى مصر وهما فرنسا وروسيا .

وعلى أثر ذلك انتهجت انجلترا فى مصر خطة حاسمة لاتردد فيها ولاهوادة فقد أهملت موضوع الجلاء وأودعته زوايا النسيان تاركة عناكب الاحتلال تنسج حوله خيوطا استعمارية رفيعة دقيقة الصنع حادة الملمس تدمى اليد التى قد تمتد إليها. وظلت انجلترا جادة فى عملها بمصر حتى قام الاتفاق الانجليزى الفرنسى فاطمأنت إليه وتفيأت ظلاله ناعمة البال فترة من الزمن حاسبة أن التقدم المادى الذى نعمت به البلاد فى عهد الاحتلال سيطغى داما على القيم الأدبيه المعنوية للرجال فينسون تاريخ بلادهم وجهاد آبائهم وأجدادهم فى سبيل تحريرها من حكم الأجنبى .

ولكن ماكادت الحكومة الفرنسية تتنكر لقضية الجلاء وتنفض يديها من المسألة المصرية حتى استيقظت البلاد على صرخة مصطفى كامل الوطنية واستفاقت إلى وعيها القومى فقام الوطنيون يجاهدون معتمدين على جهودهم الذاتية فأسسوا الحزب الوطنى ونشروا دعاية الدستور والجلاء فى طول البلاد وعرضها ، حتى إذا قامت الحرب الكبرى ونشر الرئيس ولسون مبادئه الأربعة عشر وأعلنت الهدنة كان المصريون قد حزموا أمرهم وجمعوا كلمتهم بزعامة سعد زغلول فقامت ثورة سنة ١٩١٩ وبدأت المفاوضات على قدم المساواة بين مصر وإنجلترا لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث وكان موضوع الجلاء أول المسائل التى تناولها المفاوضون .

وأخذت المفاوضات تتابع بين البلدين تتصل مرة وتنقطع أخرى حتى أعلن الملك فؤاد الأول استقلال البلاد سنة ١٩٢٢ وعقدت معاهدة التحالف بين مصر

وإنجلترا فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ ، وقد نصت المعاهدة على انتهاء الاحتلال الانجليزى . ولكن جاء فى المادة الثامنة من المعاهدة أنه « إلى أن يحين الوقت الذى يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة فى القناة وسلامتها التامة يرخص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة الملك الامبراطور بان يضع فى الاراضى المصرية بجوار القناة قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن القناة » وحدد عدد هذه القوات بعشرة آلاف جندى و ٤٠٠ طيار .

وقد قبلت مصر المعاهدة على أن لحقوقها بقية لم توف بعد وانها لن تالو جهدا فى سبيل تكميلها . وجاءت الحرب العالمية الثانية فى اعقاب المعاهدة فانتصرت مصر لقضية الديمقراطية وآزرت حليفتها بكل ما فى طاقتها وبجميع مؤسساتها ومواردها بدرجة فاقت ما قدرته بريطانيا وادهشت العالم بما وصلت اليه مصر فى ظلال الاستقلال من فوقان فى الاستعداد والنضج السياسى . ويكفى ان تكون موقعة العلمين التى كانت نقطة التحول بين الهزيمة والنصر قد دارت رحاها فى داخل حدودنا وأن أسباب النصر ووسائله وجحافله فى تلك المعركة قد سارت فوق اديم هذه البلاد واعدت عدتها بكل دقة وطمأنينة فى جو يسوده الأمن وتبادل الثقة وقوة الايمان بانتصار المبادىء الديمقراطية ليكون لمصر الحق كل الحق فى أن تطالب الان بالجلاء فوراً دون تقيد بأية معاهدة ان لم يكن اعترافا بحق مصر الازلى على أرضها داخل حدودها فاحتراما لميثاق هيئة الامم المتحدة ووفاء من بريطانيا لوعود قطعتها على نفسها مراراً منذ اكثر من ستين عاماً .

ولما رأت مصر ان معاهدة سنة ١٩٣٦ قد أصبحت غير ذات موضوع ازاء قيام هيئة الأمم المتحدة وميثاقها بدأت المفاوضات بينها وبين بريطانيا للوصول معها إلى اتفاق نهائى بشأن الجلاء عن وادى النيل ووحدة مصر والسودان . وقد سارعت الحكومة الانجليزية فى الصيف عام ١٩٤٦ إلى اعلان عزم انجلترا على اخلاء مصر من القوات الانجليزية جميعاً . وفعلا بدأت هذه القوات تجلو عن

مراكزها وثكناتها فى القاهرة والاسكندرية وسائر الجهات وتتركز فى نقطة واحدة عند فايد غربى البحيرات المرة فى منطقة القناة انتظارا لجلائها التام بعد قليل. وقد انقطعت المفاوضات بين الحكومتين بسبب الشكوك والريب التى ساورت الفريق المصرى بشأن نيات انجترا فى السودان وآثرت مصر أن تتقدم بموضوع خلافها بينها وبين بريطانيا على مجلس الأمن فى هيئة الأمم المتحدة، ولا يزال موضوع الخلاف معلقا إلى الآن. وليس من شك فى أن قضية الجلاء قضية واحدة لا تقبل التجزئة فمتى وضح حق مصر فى الجلاء وجب أن ينصب الجلاء على الوادى كله فما كان لانجلترا أن تتدخل سياسيا وإداريا أو حربيا فى السودان الا مستندة إلى سيادة مصر على الوادى كله.

الفصل الثانى والعشرون

مصر والسودان

إنا لنظلم التاريخ والجغرافيا معاً إذا نحن حسبنا إفريقية بين قارات العالم القديم وقد ظلت فيها مساحات مجهولة وبقاع غير مأهولة وفياف مظلمة لم يكشف عنها التاريخ ولم يعرفها الانسان المتحضر إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، أى بعد كشف أمريكا بثلاثة قرون ونصف قرن وبعد كشف استراليا بقرنين. ويحق لمصر الحديثة أن تفاخر بما ساهمت من نصيب فى سبيل كشف مجاهل إفريقية وتمدينها فى القرن التاسع عشر. فقد أدى فتح السودان فى عهد محمد على الكبير سنة ١٨٢٠ إلى إرسال بعثات علمية تشبهاً بحملة بونابرت على مصر للبحث عن المعادن والكشف عن منابع النيل. وقد وصل البكباشى سليم أحد ضباط محمد على البحريين فى ثلاث رحلات قام بها بين سنة ١٨٣٨ وسنة ١٨٤٢ إلى خط عرض ٥ شمالى خط الاستواء قرب «غندكرو»، فى وقت كانت فيه منابع النيل وروافده لاتزال من الأحاجى والطلاسم التى تحاك حولها الأساطير والخرافات. وتعتبر التقارير والأرصاد الجوية التى أعدها البكباشى المصرى من المستندات العلمية الأولى التى كتبت بشأن مجاهل أفريقية.

ثم انبرى لكشف القارة المظلمة فى الثلث الاخير من القرن التاسع عشر رجال كبار النفوس أقوياء العزائم وقفوا أنفسهم لخدمة العلم والدين والإنسانية فقام أسيك وجرانت البريطانيان فكشفا بحيرة فكتوريا سنة ١٨٦٢ وجاء بعدهما «صموئيل بيكر»، و«استانلى»، وغيرهما وكشفوا باقى البحيرات الكبرى وأجزاء النيل العليا.

وفى ذلك الوقت الذى أصبح فيه اسم إفريقية كالهند وأمريكا فى القرن السادس عشر يرحل إليها الكاشفون والمستعمرون من جميع أنحاء العالم المتمدن اعتلى إسماعيل عرش مصر ، فاضطلعت مصر فى سبيل فتح أفريقية وتمدين السودان بدور هو أعظم ما قامت به دولة فى هذا السبيل فى التاريخ الحديث .

فقد حدثت عوامل فى عهد الخديو إسماعيل جعلته يهتم بشؤون السودان ووسط إفريقية أكبر اهتمام ، إذ فتحت قناة السويس للملاحة فى سنة ١٨٦٩ فعادت إلى مصر أهميتها التجارية من حيث هى أهم وأقصر طريق بين الشرق والغرب ، بل صارت فى هذا الشأن أعظم مما كانت فى أى عصر مضى . وليس من شك فى أن سيادة مصر على الطريق إلى الشرق ومرور خطوط الملاحة فى المياه والموانى المصرية وكشف منابع النيل وسهولة الاتصال بين البحر المتوسط وقلب إفريقية عن طريق النيل ، كل اولئك كانت عوامل قوية من شأنها أن تدفع الخديو إسماعيل إلى أن يأخذ على عاتقه مهمة توطيد سلطان مصر فى وادى النيل وعلى البحر الاحمر ، وإدخال المبادىء الأولى للمدنية الحديثة فى البلاد التى يخترقها نهر النيل وروافده .

وإذا كانت مصر لم تستطع فى الماضى القريب أن تحتفظ بسوريا وبلاد العرب فى عهد محمد على بسبب تدخل الدول ، فقد كان أمامها فى السهول والهضاب التى تكتنف وادى النيل مجال بكر للفتح والتمدين والاصلاح . وقد كتب السفير الانجليزى فى فينا مرة إلى المعتمد الانجليزى بالقاهرة حين اجمعت الدول على معارضة سياسة محمد على نحو تركيا يقول له : « إذا كان حقا أن غاية ما يرمى اليه محمد على من سياسته إنما هى تثبيت عرش أسرته ودعم ملكه ، فليس ثمة مجـــال أكثر ملاءمة له من قارة إفريقية ، فهناك تنقلب أوربا صديقة له ، وتستطيع حينئذ أن تعاهده على عدم المساس بسلامة ممتلكاته فيها »

وقد استطاع الخديو إسماعيل فى أقل من عشر سنوات أن يمد سلطان مصر جنوبى خط الاستواء فى أوغندة وغرباً فى إقليم بحر الغزال ودارفور وشرقاً إلى

إلى بربره وهرر على خليج عدن وإلى قسمايو على المحيط الهندى . أما زيلع فكان سلطان تركيا قد نزل عنها للخديو فى سنة ١٨٧٥ مقابل إتاوة سنوية . وكذلك كانت مصوع وسواكن تحت حكم الخديو بمقتضى فرمان بتاريخ ١٨٦٥ مقابل إتاوة أخرى .

وقد كانت الحكومة التى أسسها إسماعيل لإدارة شؤون السودان من القوة والمهابة بحيث كان النظام والأمن سائدين فى جميع الأرجاء ، حتى كان السياح يجوبون البلاد وهم آمنون كأنهم فى نزهة خلوية ، قال المستكشف الألمانى شوينفورت Schweinfurth فى تقرير له : « إن القوة والنفوذ اللذين كانا لمصر من سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٨٨٠ على أراضى النيل الأعلى الشاسعة لم يتمتع بمثلها أعظم الأمم استعماراً فى التاريخ ، أعنى الانجليز والبرتغاليين . وقد كان الأمن فى تلك الربوع السحيقة مستتباً بدرجة ليس لها شبيه من قبل ولا من بعد .

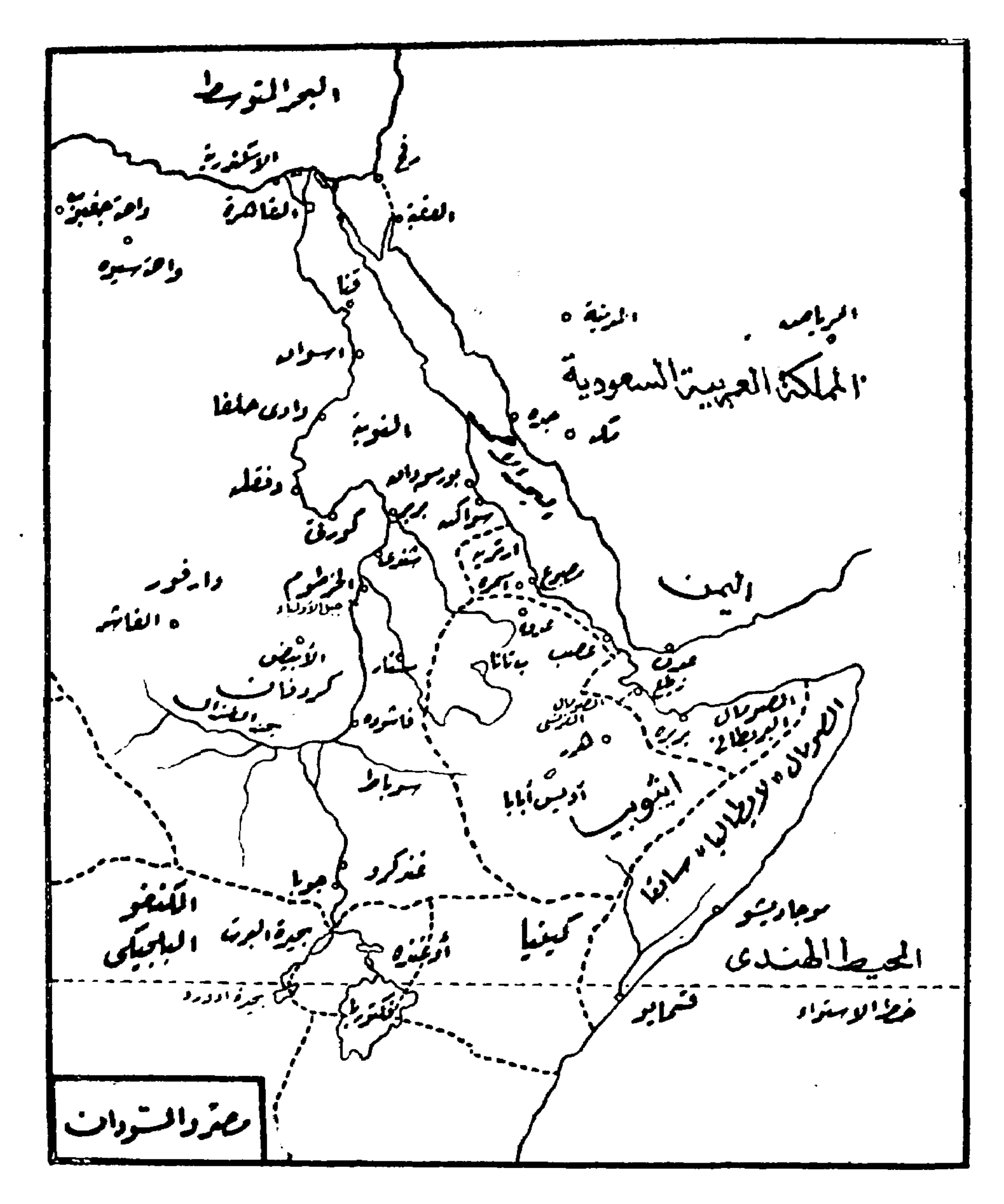
ولكنها — وا أسفا ! كانت وثبة فى الظلام — وثبة فى القارة المظلمة ! فلم يمض إلا القليل حتى أحست مصر أنها مسوقة إلى الهاوية ، واضطرت إلى إخلاء بلاد بذلت فيها كثيراً من جهدها ومالها ودماء رجالها .

وذلك أنه لما اضطرمت الثورة العرابية فى مصر سنة ١٨٨٢ أغفلت الحكومة المصرية أمر الثورة المهدية فى السودان ، واضطرت إلى الاحتفاظ بمعظم قواتها الحربية لمواجهة الخطر الذى كان يهدد البلاد حينذاك . ولما انتهت الثورة فى مصر بالإخفاق أصدر الخديو توفيق مرسوماً بتسريح الجيش المصرى كله . وبدأ أولو الأمر ينشئون جيشاً مصرياً على نمط جديد . وفى تلك الأثناء استفحل أمر الثوار فى السودان وتوالت انتصاراتهم على قوات الحكومة ، فأخذوا يفكرون جديا فى إخلاء السودان .

ومع أن الحكومة المصرية والرأى العام فى مصر والخارج كان يميل إلى ضرورة إنقاذ السودان من آثار الفوضى والهمجية التى توشك أن تقضى على نتائج الجهود التى بذلها الخديو إسماعيل وأعوانه فى بذر بذور المدنية ونشر لواء

الأمن والسلام فى ربوعه — فأن بريطانيا كانت مصممة على ضرورة الاخلاء .
فلما عارض شريف باشا رئيس الوزارة فى الإخلاء أرسل لورد جرانفيل وزير خارجية انجلترا خطابه الشهير فى يناير سنة ١٨٨٤ إلى معتمد الحكومة الانجليزية فى مصر ، وفيه يقول : « يجب عند البحث فى المسائل المهمة الخاصة بسلامة مصر أو إدارتها أن تتبع نصائح حكومة جلالة الملكة مادام الاحتلال المؤقت مستمراً . وعلى الوزراء والمديرين تنفيذ هذه النصائح وإلا أقيلوا من وظائفهم » . حينئذ لم يسع شريف باشا وقتئذ إلا أن يستقيل محتجا وتألفت وزارة نوبار باشا وقبلت تنفيذ سياسة الاخلاء مضطرة ، وعين غردون باشا Gordon لتحقيق هذا الغرض . غير أن المهديين ما لبثوا أن ضيقوا الخناق على غردون ومن معه من المصريين وحاصروهم حصاراً انتهى فى يناير سنة ١٨٨٥ بسقوط الخرطوم وقتل غردون . وعلى ذلك ترك السودان « يسوّى فى مرقه على مهل » . وقد ظل نفوذ الثوار سائداً فى السودان ثلاثة عشر عاما ، وشمل سلطانهم جميع أرجاء السودان عدا إقليم واحد هو مديرية خط الاستواء ، وكان حاكمها الدكتور شنتزلر الالمانى الذى اعتنق الاسلام وأصبح اسمه أمين باشا .

ولما انقطعت الصلة بين مصر وممتلكاتها فى السودان نشأت نظرية خاطئة نادت بها بعض الدول ، وهى أن السودان بعد أن تخلت عنه مصر صار نهباً لمن سبق . وفات أنصار هذه النظرية أن مصر بتركها السودان مؤقتاً لم تتخل عن أى حق فيه ، وأن هذه الحقوق قد كسبتها إما بحق الكشف والتمدين وإما عن طريق الوراثة من تركيا ، وقد نص فرمان سنة ١٨٧٣ الذى منحه السلطان للخديوى إسماعيل على أن يحكم الخديوى جميع ملحقات مصر فى إفريقية بحق الوراثة فى ذريته للأكبر فالأكبر من أبنائه . غير أن ساسة بعض الدول رأوا أن الفرصة سانحة لإشباع بطونهم من تلك اللقمة الدسمة التى تخلت عنها مصر مؤقتاً فبدءوا يوزعون أطرافها فيما بينهم باذن وعلم من الدولة المحتلة .



وكان ضيوف الشرف يأخذون لانفسهم من الأطايب ويتلذذون الشرائح ، مايلائم هواهم ويوافق مطامعهم فاذا ظهر من أحد المدعوين نهم أو تململ أو اعتراض على ماأكله الغير ، تدخلت بريطانيا رئيسة المائدة ونبهت المدعوين إلى أن صاحب الدار الشرعى لايزال على قيد الحياة ، وان حقوقه يجب أن تصان ويحتفظ له بها .

وكانت ايطاليا فى ذلك الوقت أشد الدول جوعا وأكثرها أملاقا . ولا غرابة فى ذلك إذ كانت حديثة العهد بتكوين وحدتها السياسية وتريد أن تتشبه بالدول الكبرى فتكون لها مستعمرات ومنشآت فى عرض البحار ، تستعيد بها ذكريات الامبراطورية الرومانية القديمة ، كما تريد أن تتقاضى من انجلترا ثمن سكوتها وانحيازها إلى جانبها ومناصرتها لها عند ما كانت بعض الدول تنكر على انجلترا احتلالها مصر . وعلى ذلك ما كاد خبر المائدة يصل إلى خياشيمها ، حتى سارعت إلى الحضور والقمتها انجلترا « مصوع » على البحر الأحمر سنة ١٨٨٥ ولكنها لم تكتف بذلك وحاولت أن تثبت أقدامها فى أقليم كسلا فى سنة ١٨٩٤ فلم تستطع واضطرت إلى تركه .

وحضر المأدبة الملك ليوبولد الثانى ملك البلجيك سنة ١٨٩٤ واقتطع أقليم لادو وبحر الغزال بالاتفاق مع انجلترا وضمهما إلى مستعمرة الكنغو .

أما اثيوبيا فلم تجد صعوبة فى حضور المأدبة لقرب سكنها من دار الضيافة ، فاخذت أقليم بوغوص سنة ١٨٨٤ على الحدود بين اثيوبيا والسودان وذلك ثمنا لتسهيل مرور الحاميات المصرية داخل أراضيها ، وكانت قوات الثوار تهددها فى شرقى السودان ، كما أخذت أقليم هرر سنة ١٨٨٧ .

أما نصيب الأسد من الوليمة فقد ذهب بطبيعة الحال إلى بريطانيا ، واتجه همها من أول الأمر إلى سد المنافذ والمسالك التى قد تؤدى إلى دار الوليمة ، حتى لايتسرب اليها طفيلى أو منافس قد تسول له نفسه أن يمد يده إلى الفاكهة المحرمة وهى السودان الاصلى . وكان أمامها بابان يمكن أن ينفذ منهما الطفيليون . أما أحدهما وهو الباب الجنوبى فقد وقف على حراسته أمين باشا حاكم مديرية خط الاستواء الذى نجا من خطر الدعاية المهدية ولم تصل اليه قوات المهدى ، ولما كان أمين باشا لايزال قائما بمهمته يمثل حقوق الخديوى فى منطقة خط الاستواء ، فقد رأت انجلترا ضرورة إخلاء هذه المنطقة كما اخليت غيرها . فقام المستكشف استانلى إلى إفريقية للوصول إلى أمين باشا

واقناعه بالانسحاب ؛ فتم له ذلك سنة ١٨٨٩ ، وبذلك اخليت مديرية خط الاستواء ومهد الطريق لدخول بريطانيا أوغنده وصار بيدها مفتاح الباب الجنوبى .

وأما الباب الغربى من جهة الصحراء الكبرى ونيجريا فلم يقف على حراسته أحد لطول الطريق الموصل إليه وخطورة اقتحامه .

بقى البابان الآخران : الشرقى من ناحية سواكن والبحر الأحمر ومفتاحه بيد انجلترا ، وقد عززت حراسته باحتلالها زيلع وبربرة على خليج عدن سنة ١٨٨٤ . والشمالى وهو الرئيسى ومفتاحه الأصلى بيد صاحبة الدار مصر ولكن انجلترا بعد شرائها أسهم قناة السويس واحتلالها مصر ، قد وضعت يدها على ذلك المفتاح طوعا أو كرها فلم تعد تخشى من هذه الناحية أحدا .

وكان أخوف ماتخافه انجلترا ، أن تتسلل فرنسا فتنفذ إلى الدار عن طريق ما ، وتلتهم ماتشاء من أطايب المأدبة دون علم الرئيسة . وقد ساء فرنسا أن يهمل شأنها فلا تدعى إلى المأدبة وقد كانت فى الماضى من أعز أصدقاء صاحبة الدار ومن حقها كغيرها أن يكون لها نصيب من الفاكهة المحرمة .

لذلك صممت فرنسا أن تدخل إلى الوليمة بالقوة المسلحة ، فأخذت طريقها نحو الباب الخلفى المهجور ، وهو الباب الغربى الذى تكتنفه الصحراء والغابات الاستوائية وكان صعبا على بريطانيا حراسته سهلا على فرنسا اجتيازه ، لوجود أملاك لها تؤدى إليه من ناحية الكنغو الفرنسية . واستطاعت فرنسا أن تدبر حملة بقيادة الكابتن مارشان Marchand . ومعه ثمانية ضباط ، ومترجم وطبيب ومائتا جندى سنغالى ، وباخرتان مسلحتان صغيرتان ، فقامت من فرنسا فى يونيه سنة ١٨٩٦ ، وقصدت أولا إلى الكنغو الفرنسى ، ومنه سارت إلى الشمال الشرقى قاصدة مديرية بحر الغزال وفاشود ، عند مصب نهر سوباط ، وهناك نصبت الحملة العلم الفرنسى . وكانت فرنسا تريد بذلك أن تحتل حوض النيل الأعلى ، وترغم انجلترا على الاعتراف لها بنصيبها من السودان أولا ، ثم تفاوض انجلترا إذا ساعدتها الظروف بعد ذلك بشأن الجلاء عن مصر ، وكان هذا من

الأمانى التى تشغل اذهان الفرنسيين فى ذلك الوقت .

وبلغ علم هذه الحملة همسا إلى مسامع الساسة البريطانيين ، وتحققوا من اقترابه فرنسا نحو دار الضيافة فى السودان ، وحينئذ غيرت بريطانيـــا سياستها فورا ، وضاعفت نشاطها الحربى . وبعد أن كانت الحكومة الانجليزية تنصح بارجاء إرسل الحملة لإعادة فتح السودان ، عادت فقررت السير فى إعداد حملة الفتح باقصى سرعة خوفا من أن تصل فرنسا فتجد الباب مفتوحا أمامها..

وفى سنة ١٨٩٦ كان الجيش المصرى الجديد قد تهيأ للعمل وبلغ عدده ٢٠٫٠٠٠ جندى تقريباً ، فصدر إليه الأمر بقيام الحملة فى الحال لإعادة فتح السودان بقيادة كتشنر Kitchener سردار الجيش المصرى ومعه نحو ٧٠٠٠ جندى بريطانى ، ولم تجد الحملة صعوبة فى الانتصار على الثوار الذين أضعفهم حصرهم فى السودان ، وعدم اتصالهم بالخارج ، وانحلت روحهم المعنوية لتفشى الأمراض والمنازعات بينهم. وفى أول سبتمبر سنة ١٨٩٨ ضربت ام درمان ، وانقض الجيش المصرى الانجليزى فدخل الخرطوم ظافرا بعد انقضاء ثلاثة عشر عاماً على قتل غردون .

غير أنه قبل ذلك بشهرين كانت البعثة الفرنسية بقيادة « مارشان» قد وصلت إلى فاشودة ، ونصبت عليها العلم الفرنسى فى ١٠ يوليو سنة ١٨٩٨ وظل «مارشان» يتربص وصول المدد من الحبشة ولـكن بلا جدوى ، وكل ما استطاع مارشان أن يعمله أنه عقد إتفاقاً مع قبائل الشلوك عند مصب نهر السوباط تعـــهد فيه بحمايتهم

وما كاد كتشنر يستقر فى الخرطوم ، حتى بلغه من بعض أصحاب السفن من العرب وجود جماعة من الأوربيين عند فاشودة ، يرفعون علماً أجنبياً ، وفى الوقت نفسه وصلت التعليمات بضرورة قيام السردار ومعه بعض السفن الحربية وقوة من الجنود إلى فاشودة .

وفى ١٩ سبتمبر وصل كتشنر إلى فاشودة ومعه « ونجيت » أكبر ضباطه و ١٨٠٠ جندى سودانى و ١٠٠ جندى ابجليزى وخمس بواخر ، وأصبح الانجليز

وجها لوجه أمام الفرنسيين فى السودان . ولما كانت القوتان مسلحتين ظن الناس أن ساعة الفصل بين الدولتين المتنافستين قد دقت أخيراً ، وأن الحرب بينهما شتنشب ولا ريب . ولكن كتشنر وهو القائد المزهو بانتصاره ، لم يفقد اتزانه فى هذا الظرف الدقيق ، وغلب عقله على عاطفته وانقذ الموقف بالأناة والحزم . كما أن نده الفرنسى لم يجبن ، ولم ترتعد فرائصه فرقا وخوفا ، رغم ضآلة القوة التى كانت معه ، بل وقف يجابه غريمه القوى ثابت الجنان ، معتزاً بوطنيته وشجاعته التى أوصلته إلى هذه المنزلة التى قد تقصر عن بلوغها الجيوش الجرارة المجهزة بأحدث العدد والآلات،ولو شاءت الأقدار أن تنضم اليه قوات الحبشة، كما كانت فرنسا تنتظر لأصبح لحملة مارشان شأن آخر ولتغير وجه التاريخ فى السودان وفى مصر تبعاً لذلك .

على أن وصول كتشنر إلى فاشودة لم يكن مفاجئاً ، فقد وصل إلى فاشودة قبل مقدمه إثنان من الجنود السودانيين إلى الباخرة التى كان بها مارشان ، ومعهما خطاب إلى القائد الأوربى ، الذى يعسكر بجنده فى فاشوده من السير هربرت كتشنر سردار الجيش المصرى يبلغه فيه خبر انتصار الجيش المصرى الانجليزى فى أم درمان ويخطره بقرب وصوله إلى فاشودة .

وتسلم « القائد الأوربى مارشان » الخطاب ، وبعث اليه بالرد فى صبيحة اليوم التالى يرحب فيه بحضور كتشنر باسم فرنسا . ولما رسا كتشنر بسفينته أمام فاشوده دهش لما رآه من ضآلة شأن القوات الفرنسية ، وكان يظن أن فرنسا أعدت قوة ذات خطر توطد به سلطانها فى تلك الأرجاء .

وجاء مارشان إلى الباخرة التى بها كتشنر ومعه أحد رفاقه الفرنسيين ، وتقابل القائدان فى جو رهيب تسوده تقاليد الضيافة وآداب المجاملة من جهة ، وتكاد تختنق أنفاس الجميع لاهثة تلهفاً لمعرفة ماعسى أن تنتهى اليه هذه المقابلة . فلو أن كلمة بسيطة من أحد الجانبين نبت عن الصواب ، أو لو أن إيماءة جاءت فى غير موضعها لسببت كارثة حربية ، لا تلبث أن تندلع منها شرارة حرب أوربية جديدة

ولكن الرجلين احتفظا بهدوئهما فى حدود الواجب وتمسكا بفضيلة الكرم وضبط النفس ودار الحديث بينهما كما يأتى :

كتشنر — ليكن فى علمك يا كابتن أن وجود أية قوة أجنبية فى وادى النيل ، يعتبر تعدياً صريحاً على حقوق مصر . وبمقتضى التعليمات التى وصلت إلى احتج بكل قوة على احتلالكم فاشودة ونصب العلم الفرنسى على أملاك حضرة صاحب السمو خديو مصر .

مارشان — أنا رجل عسكرى وواجب العسكرى أن يطيع الأوامر . وأوامرى أن أسير إلى بحر الغزال وفاشودة وأنصب العلم الفرنسى عليها ، وما على إلا التنفيذ . وأنى باق هنا إلى أن تصلنى أوامر أخرى من حكومتى .

كتشنر — أما أنا فتعليماتى من لدن الحكومة المصرية تقضى على بأن أعيد مديرية فاشودة إلى الحكم المصرى ، وأود أن أعرف مبلغ استعدادك لمعاونتى أو لمعارضتى فى تنفيذ هذه الأوامر . ولا شك عندى أنك تعلم مبلغ تفوق القوات المصرية الانجليزية التى تحت أمرتى .

مارشان — إذا كنت تريد يا جنرال تهديدنا باستعمال القوة ضدنا ، وإذا كنت ترى من واجبك أن تلجأ إلى قتال كهذا فلا يسعنى إلا الاستسلام للقدر فنموت أنا وزملائى عند مراكزنا . إما أن ننسحب أو ننزل العلم الذى رفعناه فهذا أمر متعذر .

كتشنر — هل أفهم من هذا أنك مكلف من قبل حكومتك أن تعارض فى إعادة السلطة المصرية إلى جزء من أملاكها مثل فاشودة ورفع العلم المصرى عليها

— مارشان — (بعد تردد) لا . أنى لا أعارض فى رفع العلم المصرى .

وعلى ذلك رفع العلم المصرى إلى جانب العلم الفرنسى فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٩٨ وعاد كتشنر إلى الخرطوم بعد أن ترك قوة كافية لحراسة العلم ومنع البعثة الفرنسية من نقل أو تسلم مهمات حربية بطريق النيل ، وبقيت البعثة الفرنسية شبه أسيرة بين يدى القوة المصرية الانجليزية . فلم يسع الحكومة الفرنسية

سوى الانسحاب والتعجيل بانهاء هذا الحادث بسلام ، بعد أن تبين لها أنها بمفردها أمام بريطانيا لا تستطيع أن تكسب شيئاً ، وأن الدول لن تتحرك لمساعدتها حتى روسيا حليفتها التى نصحتها بتسوية الحادث بسلام .

ومع أن فرنسا خرجت من الوليمة دون أن تتذوق منها شيئاً فإنها لم تحرم كل شيء ، فقد كانت تملك « تاجورة » على خليج عدن منذ سنة ١٨٨٤ ؛ ثم أصاحت حدود ممتلكاتها المجاورة لدارفور وبحر الغزال ،وبذلك أمكنهاأن تصل بين مناطق نفوذها فى غرب وشمال ووسط أفريقية وهو كسب عظيم مالبث أن توج بالاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا فى سنة ١٩٠٤ فعوضها عن السودان ببلاد المغرب

* * *

أما مصر صاحبة الدار فقد وقفت بعد الاحتلال الانجليزى مكتوفة اليدين مسلوبة الارادة ترى ، الملك الواسع الذى أنشأته فى قلب إفريقية بجهدها ومالها ودماء أبنائها ينهار وتسوده الفوضى ، ثم يتكالب عليه الطامعون من كل حدب وهى لاتستطيع لهم دفعاً ولا ردا ، حتى إذا تهيأت لها ظروف العمل من جديد واستطاعت بمالها ورجالها أيضاً أن تقضى على بقايا الثورة المهدية فى البلاد كان الإنجليز إلى جانبها هم المسيطرين الحاكمين ، وانقلبت الأوضاع فصار صاحب الحق تابعاً وأصبح الدخلاء المساعدون أصلاء متبوعين .

ومع أن إعادة فتح السودان قد ردت الحق إلى صاحبه شرعا وقانوناً فان الانجليز أبوا إلا إنكار الأعادة حتى لاتنفرد مصر بحقها ، واعتبروا قمع الثورة فتحاً جديداً للسودان اشتقوا منه شبه حق للاشتراك مع مصر فى إدارته والتشريع له ، ولكنهم لم يجرءوا مع ذلك على الزعم بأن لهم فيه نصيباً من السيادة. ويكفى أن نقرأ مقدمة المعاهدة الثنائية لنتبين منها حرص إنجلترا على تفادى ذكر السيادة فى السودان ، إذ جاء فيها : « وحيث قد أصبح من الضرورى وضع نظام مخصوص لأجل إدارة الأقاليم المفتتحة المذكورة وسن القوانين

اللازمة لها . . . وحيث إنه من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتبة على مالها من حق الفتح ، وذلك بأن تشترك فى وضع النظام الإدارى والقانونى السالف الذكر ، وفى إجراء تنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه فى المستقبل . . . » . وأنى يكون للانجليز ظل من السيادة ومصر نفسها صاحبة الحق الشرعى والتى باسمها وباسم خديويها وتحت ظلال علمها سارت الحملة لاستخلاص البلاد من فوضى الثائرين كانت هى نفسها محسوبة داخل نطاق الدولة العثمانية وتحت سيادة السلطان !

لذلك ما كادت الحملة تزحف جنوباً وتكسب معركة أم درمان فى ساعات محدودة من يوم ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ حتى بدأ الانجليز ينفذون الخطة السياسية التى أحكموا تدبيرها ورسموا خطوطها الكبرى من قبل .

وكان الانجليز يعلمون حق العلم أن دول أوربا لم تعد تكترث بشأن السودان بعد أن ثبتت أقدام الانجليز فى مصر ، وان سلطان تركيا لم يكن يهمه من أمر مصر أو السودان أكثر من أن يرسل احتجاجه إلى الدولة المعتدية فى الوقت المناسب ، ويردد فى احتجاجه ماسبق أن أعلنته الدول فى مؤتمراتها بشأن سلامة أملاك الدولة العثمانية ، وأن فرنسا بعد هزيمتها أمام ألمانيا وامتلاء صدرها حقداً عليها لاتقدر على معاداة بريطانيا أو تصبر طويلا على هجرها . لاسيما أنه لم يكن لديها من القوة ما يجعل لإرادتها وزناً يذكر فى الميزان الدولى .

لذلك سارت انجلترا فى سياستها نحو السودان على نهج يعد فريداً من نوعه فى السياسة الدولية فقد بيتت النية من أول الأمر على ألا تعود مصر وحدها إلى حكم السودان ، حتى لايتاح لمصر أن تتسع بين تلك الحدود المترامية من البحر المتوسط إلى منابع النيل جنوبى خط الاستواء حيث يتقدم الاستعمار البريطانى حثيثاً من جنوب إفريقية وشرقها ليتصل بوادى النيل ومنه إلى القناة ، وهى المحور الذى تدور حوله جميع الخطط الاستعمارية والدفاعية حتى ذلك الوقت . ثم رأينا الانجليز يزهدون فى ضم السودان إلى أملاكهم لا احتراما لصاحب الحق

الشرعى أو مراعاة للعرف الدولى أو برا بوعودهم المتكررة بالجلاء عن مصر وبالتالى عن أملاكها ، بل خدمة لمصالحهم الخاصة وصوناً لماء وجوههم أمام الدول ، وأهم من ذلك كله رغبتهم فى التهرب من النفقات الباهظة التى كان يقتضيها إحياء أراضى السودان الشاسعة وتمدين شعبه وصيانة حدوده . لذلك قرروا أول ما قرروا أن يرفعوا العلم البريطانى إلى جانب العلم المصرى ، وأن تضطلع الحكومة المصرية بنفقات القوات التى سترابط فى السودان ما دامت هذه القوات مصرية ، ثم دفع الفرق المالى الذى ينجم حتما عن زيادة المنصرف على الايراد فى بلاد كالسودان ظلت مغمورة فى لجى الظلام والفوضى والجهل فترة طويلة . ثم استأثر الانجليز بالوظائف الكبرى وتركوا للمصريين الوظائف الصغرى ، وجعلوا كتشنر سردار الجيش المصرى هو الحاكم العام الأول على السودان ، وقلدوه من السلطات ما رفعه هو ومن جاء بعده إلى مصاف الدكتاتوريين فى العالم .

وقد أرادوا أن يضفوا على خطتهم مظهراً قانونيا يكسبها شيئا من القوة أمام الدول والاجيال المقبلة ، فأعدوا اتفاقا وقعه فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ وزير الخارجية المصرية والمعتمد البريطانى فى مصر . ومع أن مصر حتى قبل الاحتلال البريطانى لم يكن لها بمقتضى الفرمانات السلطانية أن تبرم معاهدات سياسية مع الدول الاجنبية فان انجلترا ارتضت لنفسها أن تعقد ذلك الاتفاق دون أى اكتراث بالقواعد الدولية أو بحقوق الدول الاخرى . ولم تكتف فى الاتفاق باهمال ذكر تركيا صاحبة السيادة الاسمية إذ ذاك ، بل نصت أيضا على أن معاهدات الامتيازات التى كانت لمعظم الدول فى أملاك الدولة لا تسرى على السودان ، كما نصت على عدم قبول قناصل أو ممثلين للدول فى السودان ، ما لم تكن براآتهم قد صدرت من لدن الحكومة الانجليزية ، ولم يكن الغرض البعيد من ذلك كله سوى افساح المجال أمام الانجليز للعمل فى السودان بعيدين عن أية رقابة ، كأنهم هم وحدهم اصحاب البلاد ،

على أن الاتفاق كانت تعوزه أركان التكافؤ الدولى بين المتعاقدين . وأول هذه الاركان أن يكون المتعاقدان مستقلين وأن يكون لهما الحق والحرية الكاملة فى التصرف فى موضوع التعاقد . ولم يكن لمصر من هذا شيء حين عقدت الاتفاق مع الحكومة الانجليزية وخاصة بعد ان احتلتها القوات البريطانية ، يضاف إلى ذلك أن الفرمانات الممنوحه للخديو لم تكن لتخوله حق عقد المحالفات السياسية بل كانت تحرم عليه قطعا التصرف فى مصاير الأقاليم التى آل إليه حكمها .

وهل يمكن أن يكون الوزير المصرى قد وقع المعاهدة بكامل حريته وهو يعلم أن فوق رأسه سيف داموكليس ممثلا فى التبليغ الانجليزى المبلغ للحكومة المصرية فى يناير سنة ١٨٨٤ وفيه أن واجب الوزراء والمديرين المصريين أن ينفذوا نصائح المعتمد الانجليزى وإلا أقيلوا من وظائفهم . وهذا التبليغ وحده كاف لنقض معاهدة سنة ١٨٩٩ من أساسها .

ومع هذا كله قد صدر اتفاق يناير سنة ١٨٩٩ ونفذته بريطانيا روحاً ونصاً إلى أبعد مدى ممكن ، حتى لم يعد فيه مكان للمشاركة المصرية اللهم إلا فى رفع العلم المصرى وبقاء السيادة الاسمية التى ظلت مثار النزاع بين مصر وبريطانيا إلى الآن .

وقد نص الاتفاق فى المادة الأولى منه على أن السودان يتكون من جميع الأراضى الواقعة جنوبى خط عرض ٢٢ شمالا ويشمل الأراضى التى لم تنجل عنها القوات المصرية منذ سنة ١٨٨٢ ، والأراضى التابعة لمصر والتى أخلتها مؤقتاً فى أعقاب الثورة المهدية ثم استردتها أخيراً القوات المصرية الانجليزية ، ثم الأراضى التى قد تسترد فى المستقبل بالطريقة نفسها .

ونص فى المادة الثانية على رفع العلمين المصرى والبريطانى جنباً إلى جنب فى جميع أرجاء السودان ما عدا سواكن . وعلة هذا الاستثناء أن سواكن لما كانت واقعة على البحر الأحمر فان القوات المهدية لم تستطع إخضاعها فى فترة الثورة ، ولذلك رئى فى أول الأمر إبقاء سواكن وحدها يظلها العلم المصرى وحده وتسرى

فيها الامتيازات للأجانب . ويظهر أن الحكومة الانجليزية أرادت أن تدمغ الواجهة البحرية للسودان بالطابع المصرى وحده ، حتى لا تجرؤ الدول الأخرى على غزو السودان والافتئات على حقوق الخديو . ثم لم تلبث الحكومة الانجليزية أن عدلت عن هذه الفكرة وأدخلت سواكن فى نطاق السودان بمقتضى اتفاق ١٠ يوليه سنة ١٨٩٩ وقد جاء فى مادته الوحيدة : « تعتبر ملغاة من الآن النصوص الواردة فى وفاقنا الرقيم ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ التى كانت بموجبها مدينة سواكن مستثناة من أحكام النظام الذى تقرر فى ذلك الوفاق لادارة السودان فى المستقبل » .

ونص فى المادة الثالثة من اتفاقية يناير سنة ١٨٩٩ على تعيين الحاكم العام بمقتضى مرسوم يصدره الخديو باقتراح من الحكومة البريطانية . وقد جمع الحاكم العام فى يده جميع السلطات الادارية والتشريعية المدنية منها والعسكرية . ولم يكن عليه من الالتزامات سوى قيد واحد هو إخطار المعتمد البريطانى ورئيس الوزارة فى مصر بالقرارات التى يصدرها . ومقابل ذلك لم تعد القوانين والتشريعات التى تصدرها الحكومة المصرية تسرى على السودان إلا إذا وافق عليها الحاكم العام .

وقضت المادة الثانية بعدم امتداد سلطة المحاكم المختلطة على أى جهة من جهات السودان ، كما نصت المادة التاسعة على بقاء الأحكام العرفية سارية فى السودان إلى أن تصدر أوامر أخرى . وقد رأت انجلترا أن ترضى الدول من الوجهة التجارية بعد أن خيبت آمالها سياسيا فقررت فى المادة السادسة من الاتفاق « أن حرية المتاجرة أو السكنى بالسودان أو تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا أية دولة أو دول » .

وعلى هذا الأساس استندت الحكومة الانجليزية فى إقامة الحكم الثنائى فى السودان شكلا ، فكان الغنم كله لانجلترا والغرم على مصر . وقد ذكر لورد كرومر فى كتابه عن مصر الحديثة أن تكاليف الحملات الحربية على السودان بلغت ٠٠٠ ر ٣٥٤ ر ٢ جنيه مصرى لم تتحمل منه بريطانيا الا مبلغ

٠٠٠ ر ٨٠٠ جنيه استرليني . وهذا المبلغ نفسه لم تدفعه الحكومة الانجليزية إلا نكاية بالدول التى اعترضت على حق مصر فى اقتراض مبلغ ٠٠٠ ر ٥٠٠ جنيه من صندوق الدين لحملة السودان ، فلما سحبتها مصر غير آبهة باعتراض فرنسا وروسيا قاضاها صندوق الدين أمام المحاكم المختلطة وحكمت المحكمة على الحكومة المصرية فتقدمت الحكومة الانجليزية بالمبلغ المذكور ثم نزلت عنه لمصر بعد النصر .

وفى العام الأول من الحكم الثنائى لم يزد إيراد الحكومة على ٥٠٠ ر ٣٩ جنيه فى حين كان المنصرف ٧٥٥ ر ٣٥٦ جنيه ، فكان على الحكومة المصرية أن تسدد العجز . واستمرت مصر توازن الميزانية وتدفع الاعانات السنوية حتى بعد إخراج الجيش المصرى من السودان فى سنة ١٩٢٤ . وظل الحال على ذلك حتى قرر البرلمان المصرى فى سنة ١٩٣٧ خفض الاعانة من ٠٠٠ ر ٧٥٠ جنيه إلى ٠٠٠ ر ٥٠٠ جنيه مدة سنة وبعدها تخفض إلى ربع مليون جنيه لسنة أخرى ثم يوقف صرفها بتاتاً ابتداء من سنة ١٩٣٩ ، على أن تسوى الديون التى لمصر بعد ذلك على أقساط سنوية .

على أن انجلترا لم تكتف بالمساعدات المالية التى كانت مصر تقدمها للسودان ، فانها ما كادت تفرغ من حرب البوير فى جنوب إفريقية فى سنة ١٩٠٢ حتى بدأت تعد العدة لوضع مشروعاتها الكبرى للرى وللمواصلات حتى يمكن أن يعود عليها استعمار السودان بالفوائد الاقتصادية التى كانت تتطلع اليها . ولكنها سارت فى خطتها بحذر وبطء ، فلم تبهظ مالية السودان باعتمادات لا تقوى على احتمالها ، وجعلت تعتمد على مصر تارة وعلى البرلمان الإنجليزى والشركات الانجليزية تارة أخرى ، حتى تم للسودان من الأشغال العامة ما جعل إيراد الحكومة يقفز من ٥٩٦ ر ١٢٦ جنيه فى سنة ١٨٩٩ إلى ٠٠٠ ر ٣٢٤ جنيه فى ١٩٣٧ مقابل ٢٣٨ ر ٢٣٠ جنيه و ٠٠٠ ر ٠٢٦ ر ٧ جنيه للمنصرف على التوالى . وجعل عدد السكان يزيد من ٠٠٠ ر ٨٥٣ ر ١ نفس عقب الثورة المهدية — وكان عددهم أكثر

من ثمانية ملايين قبل الثورة — إلى ستة ملايين فى سنة ١٩٢٦ وهى الآن أكثر من ستة ملايين ونصف مليون .

وكأنما حسدت انجلترا مصر على مشروعات الرى الكبرى التى تمت فيها فى أوائل القرن العشرين على أثر إنشاء خزان أسوان وقناطر أسيوط وزفتى، فجعلت تخص السودان بمشروعات لم يكن كل الغرض منها زيادة العمران فى السودان ، بل كان من أغراضها البعيدة المرمى الاستغناء بالسودان عن مصر عند الحاجة والتفريق بين مصر والسودان ، حتى لا تقوى مع الزمن فكرة الاندماج التى تنادى بها مصر ، ثم إبقاء بعض مفاتيح الرى المصرى فى يد السودان ، حتى إذا جاء اليوم القريب الذى تستقل فيه مصر استقلالا تاما عن انجلترا وجدت نفسها أنها لا تزال مرتبطة بها ارتباطاً مائياً فى السودان وكأنما قد أصبح السودان بلداً غريباً عن مصر .

وتنفيذاً لتلك الخطة أنشأت الحملة المصرية الانجليزية وهى تزحف جنوباً فى طريقها إلى قمع الثورة ، السكة الحديدية بين وادى حلفا وبربر ومنها إلى الخرطوم . وقد وصل الخط إلى سنار فى سنة ١٩٠٩ وإلى الأبيض فى سنة ١٩١٢ ، وأنشىء على ساحل البحر الأحمر شمالى سواكن ميناء جديد فى سنة ١٩٠٥ سمى بورسودان وقد وصل بينها وبين سواكن الخط الحديدى الممتد من بربر فى سنة ١٩٠٦ ومنه اتصلت كسلا والقضارف ، وبذلك ارتبطت أجزاء السودان المتباعدة وازداد العمران ونشطت التجارة بوساطة طرق جديدة لا تمر كلها بمصر .

ولما كانت موارد السودان المهمة فى أول الأمر مقصورة على الصمغ العربى وسن الفيل وريش النعام ، وكلها سلع ثانوية كمالية لا تفيد منها المصانع الانجليزية إلا بقدر ضئيل ولا يمكن الاعتماد عليها فى تنمية إيراد الدولة ، فكرت الحكومة الانجليزية فى مشروع اقتصادى على درجة عظيمة من الخطورة . فقد رأت أن تحول أرض الجزيرة الواقعة بين النيل الأبيض والنيل الأزرق والتى تبلغ مساحتها خمسة مليون فدان منها نحو مليونين أو أكثر صالحة

للزراعة إلى أراض يمكن ريها واستنبات القطن فيها واقترضت قروضاً كبيرة بضمان الحكومة لسد نفقات إنشاء قناطر سنار وخزان مكوار على النيل الأزرق وحفر شبكة الترع اللازمة للمشروع . وتكونت فى سنة ١٩٢٦ شركة المزارع السودانية Sudan Plantation Syndicate لتنفيذ المشروع فكان على الحكومة أن تتحمل نفقات التأجير والرى والبحوث العلمية ، وعلى الشركة الرقابة الفنية وحلج القطن وتصديره ، وفى مقابل ذلك تستولى الحكومة على ٤٠ فى المائة من المتحصل ويخص الشركة ٢٠ فى المائة ، ويخصم من الباقى نفقات الحلج والتصدير ... الخ ، وما يتبقى بعد ذلك فللمزارعين ولهم إلى ذلك الانتفاع بالمحصولات الأخرى وأهمها الذرة . وقد بلغت المساحة المزروعة قطناً ٢٠٠,٠٠٠ فدان

وليس من شك فى أن المشروع قد زاد فى إيراد الحكومة والشعب زيادة عظيمة ، ولكن يؤخذ عليه أن الشركة التى تقوم بإدارته أجنبية غريبة عن بيئة البلاد واقتصادياتها ، وأن المزارعين والفلاحين رغم مكاسبهم مسخرون فيه لمصلحة الحكومة والشركة وأصحاب الأسهم ، يضاف إلى ذلك إهمال تربية الماشية فى المشروع وتقلبات أسعار القطن وقلة تدريب الأهالى على حاجات الزراعة والرى الصناعى . ولذلك لم يدهشنا أن نقرأ أخيراً أن الحكومة قررت عدم تجديد الامتياز بعد انتهائه فى سنة ١٩٥٠ .

على أن هذه المشروعات كما أتت ببعض الخير لأهل السودان قد نبهت المصريين كذلك إلى الخطر الذى قد يحيق بهم إذا استغلها الأجنبى ضد مصلحة مصر . ولذلك نشطت الحكومة المصرية إلى درء الخطر عن البلاد بتعلية خزان أسوان وإنشاء قناطر إسنا ونجع حمادى ، حتى لا تتعرض أراضى الصعيد العليا للاقفار والجدب . ثم سارعت فى الوقت نفسه إلى درس موضوع الرقابة على مياه النيل دراسة مائية علمية ، واستطلعت فى ذلك آراء خبراء المهندسين المائيين فى العالم . وكان أول ما قر عليه الرأى إنشاء خزان جبل الأولياء لمنفعة مصر خاصة . وهناك مشروعات مائية كبيرة اقترحها الخبراء مثل إنشاء خزان على بحيرة فكتوريا وآخر

على بحيرة تانا فى أثيوبيا وخزان على بحيرة ألبرت فى أوغندة وجميعها مشروعات على جانب عظيم من الأهمية والخطورة لمواجهة الزيادة المطردة فى عدد سكان الوادى ولزيادة العمران فى السودان ، وسيقتضى تنفيذها رءوس أموال طائلة وهى قد لا تثمر الثمرة المطلوبة إلا بعد إنقضاء وقت طويل . وهناك فوق النفقات المالية الاتفاقات الدولية التى يجب أن تتم قبل الشروع فى إنجازها فبعض هذه المشروعات كما رأينا واقع فى الحبشة وبعضها فى أوغندة . ومن ذلك يتضح أن موضوع توزيع مياه النيل والسيطرة عليها من أهم المسائل التى يتطلب حلها النهائى جلاء المحتلين عن الوادى أولا ، ثم الاتفاق بشأنها أمام الهيئة الدولية المختصة حتى تكون أحكامها ملزمة للجميع .

على أن مشاكل الحكومة الانجليزية لم تنشأ فى السودان إلا بعد الحرب العالمية الأولى وقد سرت إلى البلاد موجة من الحماسة الوطنية التى اجتاحت جميع البلاد المغلوبة على أمرها فى أعقاب الحرب ، على أثر ذيوع المبادىء الأربعة عشر التى أعلنها الرئيس ولسون واعترافه للشعوب بحق تقرير المصير . فقد قامت فى مصر ثورة سنة ١٩١٩ وانتقلت روح الثورة منها بطبيعة الحال إلى الضباط والموظفين والمواطنين المصريين الذين كانوا يعملون فى السودان ، ومنهم إلى الشبيبة السودانية المتعلمة . ولكن نظام الحكم العرفى الذى أقامه الانجليز فى البلاد لم يدع مجالا لأية حركة وطنية فى البلاد ، اللهم إلا ثورة على بن دينار سلطان دارفور وكان قد اتفق فى أثناء الحرب العالمية الأولى مع السنوسيين الذين هاجموا مصر سنة ١٩١٦ من ناحية حدودها الغربية ، وانتهى أمره بالاخفاق وذهاب سلطانه .

ولما اضطرت انجلترا إلى إلغاء الحماية الانجليزية والاعتراف باستقلال مصر فى سنة ١٩٢٢ كانت مسألة السودان من النقط الأربع التى احتفظت بها إنجلترا . وكان المصريون قد تنبهوا فى ثورتهم إلى خطورة مسألة السودان بالقياس إلى مستقبل البلاد الاقتصادى والاجتماعى ، فجعلت مصر تطالب باسترداد حقوقها فى السودان كاملة ، حتى أصبح السودان الصخرة التى تصدعت عليها

جهود مصر فى مفاوضاتها مع بريطانيا بشأن الاستقلال .

وكان إخفاق المفاوضات التى قام بها سعد زغلول فى سنة ١٩٢٤ مع حكومة العمال الأولى فى إنجلترا أول نذير رسمى بسوء نية الحكومات الانجليزية على اختلاف ألوانها بشأن السودان . وعلى ذلك لم تكد تمضى أسابيع قليلة على عودة سعد من انجلترا حتى اغتيل فى القاهرة فى نوفمبر سنة ١٩٢٤ سير لى استاك باشا Stack سردار الجيش المصرى والحاكم العام للسودان. وكان جواب لورد اللنبى المعتمد الانجليزى على ذلك أنه استغل الفرصة لتحقيق مآرب إنجلترا فى السودان ضد مصر ، بابعاد الجيش المصرى عن السودان ، وتحويل الفرق السودانية إلى نواة لقوة سودانية مستقلة لا يقسم أفرادها يمين الولاء والطاعة لمليك البلاد بل يقسمونها للحاكم العام ، ثم الاستغناء عن الموظفين المصريين فى حكومة السودان ، وأخيراً تهديد مصر بألا تقف حكومة السودان عند حد الـ ٣٠٠,٠٠٠ فدان فى رى أرض الجزيرة .

وقد حاول المصريون ومعهم بعض الفرق السودانية أن يحولوا بالقوة دون تنفيذ قرار الاخلاء ، ولكنهم استجابوا فى النهاية إلى نداء ملك مصر وأذعنوا للأمر الواقع . وقد كان لقرار اللنبى بشأن رى أراضى الجزيرة دون أى اعتبار لحاجة مصر أو لأى وازع إنسانى وقع مخجل فى نفوس العالم المتمدن كله ؛ فقد كان ذلك إحدى العقوبات التى وقعتها الحكومة الانجليزية على مصر أخذاً بثأر السردار المقتول ، وبه كشفت انجلترا الغطاء عن مرامى السياسة الانجليزية من حيث السيطرة على مياه النيل فى السودان ووضع مصر تحت رحمتها إذا أرادت . لذلك عجلت إنجلترا بمحو أثر ذلك القرار الجائر ، فقبلت استقالة لورد اللنبى سنة ١٩٢٥ ، ثم شفعت ذلك بابرام اتفاق مع مصر خاص بمياه النيل فى سنة ١٩٢٩ ، وفحواه تعاون مصلحتى الرى فى مصر والسودان ، والتعهد بعدم قيام حكومة السودان بأعمال فى الرى قد تضر مصلحة مصر ، ثم إنشاء خزان جبل الأولياء على النيل الأبيض جنوبى الخرطوم ، على أن يكون الخزان لتوفية حاجات مصر خاصة .

* * *

ولما عصفت بأوربا جائحة الفاشية والنازية فى سنة ١٩٣٥ واستطاعت إيطاليا أن تتحدى بريطانيا ومن ورائها عصبة الأمم فتهاجم أثيوبيا وترسل اليها جيوشها ومعداتها وطائراتها وغازاتها السامة ثم تستولى عليها ظلماً وعدواناً وتضمها إلى التاج الايطالى — سارعت بريطانيا إلى تحصين مركزها فى البحر المتوسط والبحر الأحمر فعقدت اتفاقاتها مع تركيا وسائر دول البلقان ، ثم اتجهت نحو مصر وكانت تعلم خطورة موقعها بالنسبة إلى قوات إيطاليا ، إذ كانت إيطاليا تستطيع فى وقت الحرب أن تهاجمها من ناحية حدودها الغربية ، ومن ناحية السودان عن طريق ارترية والحبشة . ولذلك عجلت فى هذه المرة بعقد معاهدة سنة ١٩٣٦ مع مصر . وكان أخطر ما جاء فى هذه المعاهدة خاصا بالسودان ، فانه بالرغم من ضعف معاهدة سنة ١٨٩٩ من الوجهة الدولية والقانونية واحتفاظ مصر بحقوقها كاملة إزاء السودان نصت معاهدة سنة ١٩٣٦ على سريان معاهدة سنة ١٨٩٩ فكان ذلك شبه إقرار من مصر بالمعاهدة ، على أن المفاوض المصرى قد احتاط للأمر لجعل الاعتراف بالمعاهدة مرتبطا بالنص على ضرورة تعديلها .

فقد جاء فى المادة الحادية عشرة من المعاهدة المذكورة :

« مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة فى المستقبل لتعديل اتفاقيتى سنة ١٨٩٩ قد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن إدارة السودان تستمر مستمدة من الاتفاقيتين المذكورتين ، ويواصل الحاكم العام بالنيابة عن كلا الطرفين المتعاقدين مباشرة السلطات المخولة له بمقتضى الاتفاقيتين .

« والطرفان المتعاقدان متفقان على أن الغاية الأولى لإدارتهما فى السودان يجب أن تكون رفاهية السودان » .

« وليس فى نصوص هذه المادة أى مساس بالسيادة على السودان » .

وظاهر من هذا النص المبهم أن يكون حق مصر فى السيادة فوق كل مظنة إرضاء للشعور المصرى . وقد نصت هذه المادة على أن للحاكم العام أن يختار عند التعيين فى الوظائف الجديدة المرشحين الصالحين من بين البريطانيين والمصريين

إذا لم يتوافر السودانيون الأكفاء ، كما نصت على وجود الجنود المصريين بالسودان إلى جانب الجنود البريطانيين للدفاع عن السودان ، وعلى ألا يكون هناك تمييز فى السودان بين الرعايا البريطانيين والرعايا المصريين فى شؤون التجارة والملكية والمهاجرة ، وجعلت هجرة المصريين خالية من كل قيد إلا ما يتعلق بالصحة والنظام العام ،

وتنفيذاً للمعاهدة عينت مصر خبيراً اقتصادياً بالسودان كما عين الحاكم العام سكرتيراً حربياً له من ضباط الجيش المصرى . وعاد إلى الخرطوم فريق من الجيش المصرى ، واتخذت الاجراءات لانجاز خزان جبل الأولياء فى سنة ١٩٣٧ وأنشأت الحكومة المصرية مدرسة ثانوية بالخرطوم سنة ١٩٤٣ ، كما أنشأت بعض مدارس أولية فى المناطق التى يكثر فيها الموظفون والعمال المصريون. وجاءت الحرب العالمية الثانية فنشطت بطبيعة الحال حركة الاتصال بين مصر والسودان واشتركت قوات الدفاع السودانية فى الجيش الذى ألفه الحلفاء لغزو إيطاليا فى شرق إفريقية ، وكانوا قد نفذوا إلى شرق السودان واحتلوا كسلا فى سنة ١٩٤٠ فتحركت قوة من الخرطوم فى أوائل سنة ١٩٤١ وهاجمت أرترية وتحركت قوة من الجنوب قاصدة الصومال الايطالى ، وتقابلت القوتان فى أثيوبيا حيث قضوا على النفوذ الايطالى نهائياً فى شرق إفريقية فى نهاية سنة ١٩٤١ ، وبذلك استطاع الحلفاء أن يكسروا الفك الجنوبى من كماشة المحور كما كسروا فى السنة التالية فكها الشمالى فى موقعة العلمين الشهيرة .

وكان جزاء السودانيين على ما أظهروه من البسالة والولاء فى أثناء الحرب أن قرر الحاكم العام فى سنة ١٩٤٣ شطر بلادهم شطرين يفصل بينهما خط عرض ١٢ درجة شمالا ، ويشمل الجزء الشمالى السكان والقبائل التى تدين بالاسلام وتتكلم اللغة العربية ، وهى فى ثقافتها ومدنيتها تمتاز على القبائل البدائية التى تسكن فى الجنوب وتفصلها عن الشمال المستنقعات والأعشاب التى تكثر فى تلك الأرجاء. وأنشأ الحاكم العام للقسم الشمالى مجلساً استشارياً عماده ثمانية عشر عضواً سودانياً

تنتخبهم مجالس المديريات الستة الشمالية . أما المديريتان الجنوبيتان وهما مديرية خط الاستواء ومديرية أعالى النيل فلم تمثلا . وقد أثار هذا التقسيم العرفى سخطا عاماً فى مصر والسودان ؛ لأنه دل على نيات الحكومة الانجليزية ورغبتها فى عدم تمكين المصريين وإخوانهم السودانيين الشماليين من اختراق الستار الكثيف الذى يخفى وراءه جموع القبائل البدائية وما قد تكنه أراضيهم من ثروة للمستقبل .

وقد أمعنت الحكومة البريطانية أخيراً فى اجراءاتها نحو شطر الوادى بتنفيذ مقترحات السودنة التى كانت قد أعدتها وسبق لمصر أن رفضتها لعدم وفائها بمطالب السودانيين من جهة ولأنها تعرقل مساعى الوحدة بين القطرين من جهة أخرى. وتقضى قرارات السودنة بإنشاء جمعية تشريعية ينتخب أعضاؤها على درجتين وبتأليف مجلس تنفيذى لإدارة البلاد يكون نصف أعضائه على الأقل من الانجليز

هذا التقسيم مع ما سبقه بعد انتهاء الحرب من الاستغناء عن قاضى قضاة السودان المصرى وإعلان الحاكم العام عزم الحكومة الإنجليزية على بقاء الحالة الحاضرة فى السودان ، وتخويل السودانيين الحرية التامة فيما يتعلق بتقرير مصيرهم فى المستقبل وذلك رغم تنبه الوعى القومى فى البلاد وظهور أحزاب قوية تضم الطبقات المثقفة فى البلاد وتهدف إلى جلاء المحتلين وتحقيق الوحدة مع مصر — كان ذلك كله من العوامل التى جعلت مصر تتمسك فى مفاوضاتها مع انجلترا أولا ثم فى قضيتها التى عرضتها على مجلس الأمن فى صيف سنة ١٩٤٧ بحقها الأزلى فى تكوين وحدة دائمة بين الشعبين المصرى والسودانى ، وإن الروابط الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية التى تجمع بين أهل الوادى كله لتنادى بأن مصر وحدها هى الأداة الدائمة الصالحة لعمران البلاد على مر السنين ، أما شركاؤنا السابقون فكفاهم ما أفادوه فى أثناء قيام الشركة بيننا . أما وقد رفعت القوامة على الشريك القاصر وصار من الحتم تصفية حسابنا وشركتنا ، فان من حقنا عليهم أن نطالبهم بأن يخلوا الدار جميعها أسفلها وعاليها وأصحاب الدار أولى بما فيها .

الفصل الثالث والعشرون

مأساة ألمانيا

إذا كانت ألمانيا لا تعد من الوجهة الجغرافية البحته داخلة فى نطاق حوض البحر المتوسط فليس من شك فى أن سياستها منذ أن أعدت نفسها لمناهضة التفوق الانجليزى الفرنسى منذ أوائل هذا القرن قد أحدثت تيارات سياسية جارفة فى مياه هذا البحر وعلى سواحله وكادت بسلاح غواصاتها وطائراتها أن تغلق هذا البحر تماماً فى وجه بريطانيا وحلفائها فى الحربين العالميتين ولذلك نرى لزاماً أن نلم باتجاهات السياسة الألمانية فى السنين الأخيرة .

لم يكن لألمانيا فى مستهل القرون الحديثة وجود قومى أو سياسى شبيه بما كان إذ ذاك لفرنسا وانجلترا وأسبانيا التى توحدت قومياتها وتركزت حكوماتها ، واستعدت كل منها لتوسيع سلطانها وحدودها لا فى أوربا وحدها ، بل كذلك وراء البحار والمحيطات فى العالم الجديد — الذى كشفه الملاحون العظام من أهل تلك البلاد — غرباً وشرقاً فى عصر الاستكشافات . أما ألمانيا فقد ظلت كايطاليا عبارة عن اصطلاح جغرافى تنطوى تحته إمارات ودويلات متنافرة متقاطعة ما برحت تثير الفتن والحروب بين بعضها وبعض ، حتى قيض الله لها أن تتحد فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر .

وكان من جراء تأخر تحقيق الوحدتين الألمانية والايطالية أن فازت الدول الكبرى القديمة بنصيب الأسد فى الأراضى الجديدة التى استعمرت ، حتى إذا ما اشتد ساعد الدولتين الفتيتين وتاقت نفساهما إلى منافسة كبريات الدول لم تجدا أمامهما فى عالم الاستعمار سوى بضع لقيمات جافة ازدردتاها وهما حانقتان تتحينان الفرص وتتربصان بغيرهما الدوائر .

ومن سوء حظ الدولة الألمانية الحديثة التى أعلنها وليم ملك بروسيا فى يناير سنة ١٨٧١ وسط هتاف الأمراء الألمان فى قصر فرساى بباريس عقب انتصار الألمان فى الحرب السبعينية ، أن الوحدة التى وضع أساسها بسمرك Bismarck السياسى الألمانى العظيم وحاك خيوطها بمهارة أصبحت مضرب المثل فى التفوق الدبلوماسى ، كانت وليدة الروح العسكرية البروسية المتأصلة فى نفوس البروسيين ، ونتيجة حتمية للسياسة التى ابتدعها بسمرك ولاءم فيها بين الخطط الحربية الصارمة والأساليب الدبلوماسية الحازمة الناعمة ، وهى التى عرفت بسياسة اليد الحديدية داخل القفاز الحريرى . وبفضلها خاضت بروسيا فى مدى سبع سنوات ثلاث حروب ظافرة متعاقبة : الأولى ضد الدنمرقة ، والثانية ضد النمسا ، والثالثة ضد فرنسا ، وقد اصطنع بسمرك هذه الحروب اصطناعا ومهد لها بحيدة الدول ، حتى لم تجرؤ واحدة منها كبيرة كانت أو صغيرة أن ترفع أصبعا واحدة لنجدة الدول المغلوبة على أمرها . وقد خرجت ألمانيا من هذه الحروب جميعاً مزهوة بانتصارها شديدة الايمان بمستقبلها وقوة سيفها الظافر .

ودخلت ألمانيا على أثر ذلك فى طور سياسى جديد تلمست فيه أسباب العظمة والتفوق ، فوجدتها متوافرة فى داخليتها : فى جيشها وفى هيئة أركان حربها اؤلئك الذين رسموا لها خطط النصر . ووجدتها فى علمها وفنها وأدبها وفى فلسفتها وموسيقاها ونظم بلدياتها . ولكنها افتقدتها فى الخارج حيث السبل إلى البحار والمستعمرات تحكمها بريطانيا سيدة البحار . وكانت ألمانيا فى القارة الأوربية مضيقاً عليها من كل الجهات تقريباً : فمن الغرب تقف بلاد الأراضى المنخفضة وفرنسا وإنجلترا سدًّا منيعاً فى وجهها ، ومن الشرق يجثم الدب الروسى الضخم ، ومن الجنوب يقوم أبناء عمومتهم فى إمبراطورية النمسا . فلم يكن أمام ألمانيا من سبيل إلى التوسع من هذه الجهات إلا بالعدوان والهجوم على جاراتها ، وهو أمر لم يكن سهلا ولا سائغاً بعد أن لطخت ألمانيا أيديها بدماء الألزاس واللورين اللتين أغتصبتهما من فرنسا بعد انتصارها فى الحرب السبعينية .

على أن بسمرك قد استطاع فى أول عهد الامبراطورية الجديدة أن يكبح جماح الروح العسكرية البروسية ، وأن يجنب ألمانيا وهى فى بدء وحدتها وتكوين عظمتها الصناعية والثقافية الاشتباك فى أية حرب أوربية أو استعمارية . ذلك لأنه كان يعلم أن الشعب الألمانى إذا اندفع فى تيار التوسع أو الاستعمار فلابد له من أن يصطدم بالمصالح البريطانية ، وقد يؤدى الاصطدام إلى حرب مع الانجليز تخرج منها ألمانيا خاسرة كما خرجت فى الماضى أسبانيا وبعدها فرنسا .

لذلك انتهج بسمرك فى حكمه خطة كان من شأنها أن تضرم نار الحقد والتباغض بين جاراتها ومنافساتها من جهة ، وأن تكفل لألمانيا أن تمسك بميزان القوى السياسية فى القارة الأوربية من جهة أخرى . لذلك شجع فرنسا على أن تحتل تونس ، حتى يسلو الفرنسيون الالزاس واللورين ، وحتى تقع الجفوة والنفور بينها وبين إيطاليا التى كانت تطمع فى تونس ، ووقف يرقب النزاع المرير الذى شجر بين انجلترا وفرنسا من أجل مصر والسودان . ولما تفاقمت الحال بين روسيا وتركيا فى الحرب الروسية التركية وتدخلت بريطانيا وتعرض السلام العام فى أوربا للخطر كانت ألمانيا هى الداعية إلى عقد المؤتمر الدولى ببرلين فى سنة ١٨٧٨ برياسة بسمرك لاعادة النظر فى المسألة الشرقية ، وكانت ألمانيا هى الدولة الكبرى التى ليس لها فى البلقان مطامع تقتضى — كما قال بسمرك — أن تراق فى سبيلها قطرة دم من ألمانى واحد .

غير أن بسمرك لم يستمر طويلا على هذه السياسة ؛ فقد جاء وقت أصبح فيه التسابق والتكالب على أشده بين الدول الأوربية بشأن استعمار إفريقية أو القارة المظلمة كما كانوا يسمونها حينذاك . وجاءت ثورة المهدى فى السودان وانسحاب القوات المصرية مؤقتاً من ربوعه فرصة سانحة أغرت الدول على التهام ما يمكن التهامه من هذه الأرض المباحة التى اعتبرتها الدول نهباً لمن غلب فخشى بسمرك إذا واصلت ألمانيا سياسة القناعة والحذر أن يجىء وقت لا تجد أمامها بقعة خالية تستعمرها وتمدها بالخامات والقواعد اللازمة لصناعاتها ومشروعاتها الحربية البعيدة

المدى . لذلك اندفع بسمرك فى سياسة الاستعمار بعد سنة ١٨٨٤ وكان فى ذلك مدفوعاً بقوة هيئة أركان الحرب التى كانت تسيطر جهراً أو سرا على مرافق الحكومة جميعاً . وكان من مظاهر ذلك النشاط الاستعمارى الناشىء أن دعت ألمانيا الدول ذوات المصالح الاستعمارية إلى عقد أول مؤتمر استعمارى دولى فى برلين سنة ١٨٨٥ وفيه سوت الدول خلافاتها بشأن استعمار إفريقية ، وتقررت القواعد التى تجب مراعاتها عند ما تزاول رياضة القنص الاستعمارى فى أحراش افريقية ! وكانت أولى هذه القواعد أن تخطر الدول بعضها بعضا بالفرائس التى يراد أن يستولى عليها ، وأن تتفق فيما بينها على دوائر نفوذ كل منها وحدودها . واستغلت ألمانيا عوامل الخلاف التى كانت ناشبة إذ ذاك بين فرنسا وانجلترا ، وعلى ذلك سرعان ماأصبح لها فى القارة المظلمة دولة استعمارية تلى إنجلترا وفرنسا فى الأهمية ، إذ صار لها مستعمرات فى شرق افريقيـــة وغربها وفى تنجانيقا والكمرون وتوجولند وبعض الجزر .

وفى سنة ١٨٨٨ اعتـــلى العرش الامبراطور وليم الثانى ، وكان شابا طموحا مستبداً ، أشربت نفسه حب العســـكرية البروسية وانطوت على إيمان صادق بمستقبل ألمـانيا العظيم . ولم يطق أن يظل طويلا وراء اسم بسمرك وعظمته السياسية ، فسرعان ما أقصاه عن الحكم وجعل يصرف شؤون الدولة مستشاروه من دعاة التسليح والعظمة الحربية ، إلى أن أعلن صراحة فى بدء القرن العشرين أن ألمانيا قد أصبحت ، بفضل صناعاتها واتساع نفوذها الاقتصادى ، دولة عالمية ذات مصالح حيوية ، وأن هذه المكانة وتلك المصالح تقتضيان حتما أن يكون لألمانيا أسطول بحرى يضارع أكبر أسطول فى العالم . وهو يعنى بطبيعة الحال الأسطول البريطانى.

وكانت ألمـــانيا قد استردت من إنجلترا جزيرة هليجولاند فى بحر الشمال ، فاتخذت منها قاعدة بحرية حصينة ، ثم أنشأت قناة كيل التى تصل بين البحر البلطى وبحر الشمال ، وبذلك اتخذ الأسطول الألمـانى سبيله فى البحر سربا . وما فتئت ألمانيا تمعن فى التسليح وتقيم المظاهرات البحرية فى البحر المتوسط لتعلن عن

قوتها الناشئة تارة أمام طنجة وأخرى أمام أغادير على ساحل الأطلنطى فى مراكش، حتى لم يبق شك فى أن ألمانيا إنما تعد نفسها لتتحدى بريطانيا وتصل إلى تحقيق الغرضين اللذين كانت العسكرية البروسية ترمى إليهما منذ توحدت ألمانيا، وهما التفوق الحربى فى أوربا، واغتصاب السيادة البحرية والاستعمارية من بريطانيا. أما التفوق الحربى فكان أمره يسيراً هينا ؛ إذ لم يبق فى أوربا بعد إذلال روسيا وانهزامها أمام اليابان سوى فرنسا ، وهى وحدها لم تكن ذات خطر بسبب ما أصابها على أيدى رجال أحزابها من أزمات ومؤامرات وتقلبات لا تكاد تنقطع . وأما فى الخارج فان ألمانيا قد توغلت فى سياستها الخارجية متحدية بريطانيا تحديا صريحاً ؛ إذ وثقت علاقاتها بدول البلقان وبتركيا حتى يخلو لها الميدان فى الشرق ويكون الطريق أمامها بين برلين وبغداد وخليج فارس سالكا ميسوراً متى دنت ساعة الفصل بينها وبين بريطانيا .

وعلى ذلك قامت الحرب العالمية الأولى . وعلقت ألمانيا مصيرها فيها على حرب خاطفة تسحق فيها قوات روسيا من الشرق وفرنسا من الغرب ، ويتعذر معها على بريطانيا تعبئة قواتها وقوات إمبراطوريتها لانقاذ حليفتيها فى الوقت المناسب . وفعلا اخترق الألمان حيدة بلجيكا ولكسمبورج ، وتقدموا مثل وميض البرق الخاطف داخل فرنسا ميممين صوب باريس مكتسحين أمامهم جميع القوى التى اعترضت طريقهم . وكادوا ينفذون خطتهم لو لم يقف القائد الفرنسى « جوفر Joffre » وقفته الشهيرة عند المارن فى سبتمبر سنة ١٩١٤ فاضطر الجيش الألمانى إلى الارتداد ، ومن ثم لجأ الجيشان المتحاربان إلى مكابدة حرب الخنادق بيطئها وسقمها ونزولها بالإنسان إلى أسفل الدرك فى المعيشة والحرب جميعاً .

ثم تطورت الحرب بعد ذلك على أثر ثورة العرب فى الشرق على الأتراك حلفاء الألمان وقيام الثورة البلشفية الكبرى وانسحاب روسيا من ميدان الحرب ، وأخيراً بدخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء ، فرجحت كفتهم ، وأيقن كبار القواد الألمان بالهزيمة ، وذاعت بين الجنود والبحارة الألمان أنباء تقدم

الحلفاء وتحسن مراكزهم إلى جانب ما كانوا يحسون من خيبة الأمل وسوء المصير الذى ينتظرهم . وكان قد نمى إليهم أيضاً خبر نجاح الثوار فى روسيا وما أحدثوه فيها من انقلاب سياسى واجتماعى خطير ، فلم يتوانوا فى انتهاز أول فرصة للعصيان والانتقاض على السلطات الرجعية التى تواصل حرباً خاسرة إرضاء لشهواتها ، فما إن وصلت إلى أسماعهم مبادىء ولسون الأربعة عشر التى أعلنها فى يناير سنة ١٩١٨ حتى تحركت روح الثورة فى نفوسهم وارتضوا هذه المبادىء أساساً للصلح العتيد . وما لبثت شرارة الثورة أن اندلعت بين البحارة فى كيل وسرت منها إلى جميع الميادين.

فلم ير الامبراطور بدّاً من الفرار إلى هولندة ومعه ولى عهده ، وترك زعماء الثورة يطلبون الهدنة فى الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادى عشر من الشهر الحادى عشر من سنة ١٩١٨ وكانت هذه الهدنة إيذاناً بالسلام بعد حرب مدمرة شملت أرجاء أوربا وآسيا ووصلت نيرانها إلى أجواز الفضاء فى الجو وإلى مسارب الأسماك فى بحار العالم ومحيطاته، وقد ذهب ضحيتها نحو عشرة ملايين من الأنفس عدا الذين شوهتهم الحرب وأشلتهم وشردتهم أو حطمت أعصابهم فى جميع أنحاء العالم .

وجاء مؤتمر الصلح فى فرساى ، فحرّم على الألمان الخدمة العسكرية الإلزامية، وحرم التسليح إلا بالقدر الذى يحتاج إليه الجيش وقد خفضوه إلى ١٠٠,٠٠٠ جندى ، والأسطول وقد خفضوه إلى ست سفن كبيرة وستة طرادات وأربع وعشرين سفينة صغيرة أخرى لايعمرها سوى ١٥٠٠٠ بحار . ومن شروط الصلح التى فرضوها على الألمان ، حيدة مقاطعات الرين ونزع سلاحها ، وفرض غرامة حربية باهظة قدروها فى أول الأمر بأكثر من عشرة آلاف مليون جنيه . هذا فضلا عن فقدان ألمانيا لجميع مستعمراتها وخسارتها مايقرب من ٨٧,٠٠٠ ميل مربع من أراضيها يبلغ عدد سكانها نحو سبعة ملايين ضمت إلى بولندة وغيرها من الدول المجاورة التى ظهرت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . فكأن الحلفاء إنما أرادوا بصلح فرساى أن يعاقبوا الألمان على اقترافهم جريمة الحرب الكبرى ، ولم يلقوا بالا إلى ثورة الشعب على الطغيان العسكرى الامبراطورى ،

وما كانت تطلبه الثورة وهى فى مهدها من عطف الحلفاء ومناصرتهم لزعمائها حتى يصلب عودها وتقوى على مناهضة العناصر الرجعية التى تتمثل فى الجيش وهيئة أركان الحرب .

وقامت ثورة الاشتراكية الديمقراطية فى ألمانيا بزعامة رئيسهم إبرت Ebert وتقرر دستور الجمهورية الجديدة فى ويمار سنة ١٩١٩ فخيل للناس أن المانيا قد انتهت أخيرا إلى عهد ديمقراطى جديد ، وأن الشعب الألمانى ستتاح له الفرصة بعد طول الانتظار ليفصح عن رأيه ويثبت استحقاقه لمكانة مرموقة بين شعوب العالم الديمقراطية . ولكن الحلفاء حين أملوا شروط الصلح كانوا قد أبقوا على كيان ألمانيا ووحدتها ولم يمسوا الروح العسكرية البروسية بسوء ، وخافوا من تفشى المبادىء الشيوعية فى أوربا فأصموا آذانهم عن نداء الثورة فى ألمانيا وجنحوا إلى جانب الرجعيين ، فجعلت هيئة أركان الحرب البروسية تعمل سرا وعلانية على إحياء الروح العسكرية القديمة ، ولبثت تتربص الدوائر بالنظام الجمهورى الديمقراطى حتى تضافرت القوى وفاز المرشال هندنبورج بانتخابه رئيسا للجمهورية . فكان انتخابه أذانا للناس بأن الجمهورية قد أشرفت على الزوال ، وأن الملكية أو الإمبراطورية القديمة آتية لاريب فيها .

وبقى هندنبورج فترة من الزمن يتأرجح بين الاشتراكية والملكية حتى تغلبت فى النهاية الروح العسكرية المتأصلة فى دماء القوم ، وأخذ المرشال ينحرف رويداً رويدا عن الاشتراكية ويمهد للدكتاتورية . وكانت الفترة التى رأس فيها هندنبورج ألمانيا من أرغد وأهنأ ما مر بألمانيا فى المرحلة التى تلت الحرب العالمية الأولى ، فقد دخلت ألمانيا عصبة الأمم عام ١٩٢٦ على قدم المساواة مع سائر الدول الكبرى ، وأخذت تزول عنها وصمة الحرب وتبعاتها ، ثم خفت عن كاهلها أعباء التعويضات ، فتدفقت على البلاد رءوس الأموال الأجنبية ، ونشطت فيها حركة الصناعة والتجارة نشاطا لم تعهده من قبل . غير أن فترة الاستجمام مع الأسف لم تطل ؛ فقد اجتاحت العالم أزمة سنة ١٩٣٠ الاقتصادية وتعرضت المؤسسات الصناعية فى البلاد للخسارة بل

للإفلاس . وعلى ذلك تجمعت الأسباب التى ساعدت على ظهور هتلر على رأس حركة الاشتراكية الوطنية .

وكان هندنبورج قد طعن فى السن فلم يستطع مقاومة التيار الجديد ، فأخذ أنصار هتلر يتفوقون فى البلاد ويفوزون فى الانتخابات ، حتى إذا انتهت مدة رياسة هندنبورج فى سنة ١٩٣٢ ونزل إلى ميدان الانتخاب يريد تجديد انتخابه نال ٣٦٠ر١٩ر٠٠٠ صوت مقابل ٤١٨ر١٣ر٠٠٠ نالها هتلر ، ورأى الرئيس أنه لم يعد قادرا على تنحية هتلر ، فعينه مستشاراً للدولة فى يناير سنة ١٩٣٣ . ومات هندنبورج فى صيف العام التالى ، فأصبح هتلر رئيساً غير منازع للدولة ، بل لقد كان كذلك فعلا قبل أن يموت هندنبورج .

ومع أن الدستور الجمهورى الذى أصدرته الجمعية الوطنية فى ويمار لم يلغ رسمياً فان هتلر قد جمع فى شخصه وركز فى حزبه وأعوانه السلطات الإدارية والتشريعية والتنفيذية جميعاً ، حتى صار كل شىء فى البلاد لايشتق وجوده أو يستمد بقاءه إلا منه ، حتى الكنيسة والعلم والتعليم قد طغت عليها جميعاً الفكرة النازية طوعا أو كرها . وكان فى مقدمة العقائد النازية التى بشر بها هتلر ، تأمين تفوق الجنس النوردى أو الآرى ، وقمع اليهودية والشيوعية ، وتجنيد الشباب والشعب بكامل طبقاته لخدمة النازية والدولة . وأخيراً وليس آخرا ، محو آثار معاهدة فرساى واستئناف العمل الذى بدأ سنة ١٩١٤ لكى تتبوأ ألمانيا مركزها الاسمى فى أوربا بين دول العالم أجمع .

أما أهدافه الخارجية فكانت تقوم على الأخذ بمبدأ المجال الحيوى Lebensraum وهى النظرية التى لفقها هتلر للبرهنة على أن عدد سكان ألمانيا سيصل فى مدى قرن إلى ٢٥٠ مليون نفس ، وأن هذه الزيادة الهائلة يجب أن تقابلها أراض وميادين جديدة ينتشر فيها شعب الآلهة المفضل ويستثمر فيها مواهبه للقضاء على الشعوب المنحطة الأخرى !

وفكر هتلر فى المستعمرات القديمة التى كانت لألمانيا ، وهى لم تكن فى نظره إلا وديعة تسلمتها عصبة الأمم ، وعلى الحلفاء أن يردوا الودائع إلى أهلها ،

فاذا تعذر عليهم ذلك فهناك مستعمرات واسعة تملكها دول من الدرجة الثانية فى الأهمية مثل هولنـــدة والبرتغال وبلجيكا ، ويمكن تعويض ألمانيا من مستعمرات تلك الدول ؛ وجال فى خاطر ساسة الدول الغربية من مروجى سياسة السلم بأى ثمن ، أن هتلر قد عنى حقا أن يكتفى بالمستعمرات القديمة فأبدوا له استعدادهم لاعادة النظر فى موضوع الخامات الأولية ونظام توزيعها بين الدول .

ولكن التوسع الحقيقى الذى كان يريده هتلر للدولة العالمية المنتظرة كان طريقه من الشرق نحو بولنده وأكرانيا ورومانيا وجنوبى روسيا والقوقاز حيث سهول القمح الممتدة الشاسعة وآبار زيت البترول ومناجم الفحم والحـــديد وحيث معظم السكان من الشعوب الصقلبيه أو المغوليه التى لاتطاول الجنس الألمانى مدنية ورقيا . وأخذ هتلر يقيم علاقاته مع شرق أوربا وجنوبها الشرقى على أساس بدائى من مقايضة الحاجات بين الفريقين ، حتى لاتقوى تلك الدول على تحويل نشاطها التجارى إلى دول أخرى غير المانيا . وكان هتـــلر يرمى بسياسته إلى فرض نفوذه الاقتصادى عليها أولا توطئة لاخضاعها سياسيا تحت سيطرته متى حان الوقت المناسب .

وشبيه بهذه السياسة ما اتبعه فى اقتصاديات ألمانيا الداخلية ، إذ ركز إنتاجها الزراعى والصناعى جميعاً فى شركات مركزية يشرف عليها الحزب النازى . وجعل يسعى جهده فى أن تنتج المانيا كل ماتحتاج إليه ، حتى منتجات المناطق الاستوائية أوالمدارية قد وضعها فى بوتقة التجربة تحت مجهر العلماء المختصين يحاولون إنتاجها اصطناعيا ، فيسروا له الحصول على الزيت والمطاط وبعض المنسوجات . ولم يكن غرضه من ذلك إلا إعداد ألمانيا لمواجهة أخطار الحصر البحرى متى دنت ساعة العمل .

أما الأداة التى استند إليها هتلر فى بلوغ هذه الأهداف جميعاً فهى ، كما كانت دائما فى التاريخ البروسى الحديث ، هيئة أركان الحرب ، وقد جددها هتلر ، فأنشأ إلى جانب هذه الهيئة العريقة أدوات أخرى ابتدعتها العقليه النازية الشيطانية مثل الجستابو Gestapo أو البوليس السياسى السرى ومعسكرات

السجون والاغتيالات السرية ، يضاف اليها قمع جميع الحريات الشخصية وربطها جميعاً بمشيئة « الفوهرر » أو الزعيم .

وكذلك أعد هتلر فى الخارج عدته للوقت المناسب ، فكان دعاته يعملون لانشاء الأحزاب فى البلاد المختلفة على النسق النازى ، ويهيئون داخل هذه الأحزاب الجماعات التى عرفت بالطوابير الخامسة والسياسيين الذين عرفوا بالكويزلنج Quisling أو وزراء الضرورة النازية . ولما كان هتلر وأعوانه يعلمون أن الحرب فى النهاية هى الوسيلة الحتمية لبلوغ أهدافهم ، فإنه ما برح منذ اضطلع برياسة الدولة يزدرى النظم الديمقراطية وميثاق عصبة الأمم ومبدأ التأمين الجمعى ضد الحرب ، حتى انتهى الأمر فى سنته الأولى بانسحاب ألمانيا من العصبة . ثم أخذ يعمل بسرعة جنونية لزيادة التسليح ، فقرر التجنيد الاجبارى سنة ١٩٣٥ وفى العام التالى احتلت الجيوش الألمانية أرض الرين وأقامت عليها الحصون والقلاع مخالفة فى ذلك كله معاهدة فرساى ومعاهدة لوكارنو . وفى سنة ١٩٣٨ ضمت النمسا إلى ألمانيا ، واعتدت على تشيكوسلوفاكيا فضمت إقليم الألمان السوديت أولا ثم ضمتها برمتها سنة ١٩٣٩ . وكانت تشيكوسلوفاكيا مرتبطة مع فرنسا بمعاهدة الاتفاق الصغير ، فلم تقو فرنسا ولا حليفتها إنجلترا على مساعدتها بل لقد نصحتاها بأن تقبل ما فرضه الطغيان النازى عليها وأن ترفض ما تطوعت روسيا بتقديمه إليها من المساعدة الحربية . وجاء رئيس وزراء انجلترا بنفسه طائراً إلى ألمانيا وبيده حمامة السلام، واجتمع بعد ذلك مؤتمر الدول الأربع (انجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وإيطاليا) فى ميونيخ لاقرار طلبات هتلر وإغماد سيف الحرب فى جرابه بضعة أشهر ، وقد ارتضى الحلفاء لأنفسهم ذلك الاذلال خوفاً من زحف قوات روسيا البلشفية غربا ، وانتظاراً للوقت الذى تصطدم فيه قوات هتلر بالجيش الأحمر فيتطاحن العدوان ويفنى بعضهما بعضاً ودعاة السلام فى الغرب يتفرجون عن كثب ويظنون أنهم بذلك يحسنون صنعا !

ولكن الدكتاتورين كليهما كانا من دهاقنة السياسة فى أوربا فلم ينخدعا

بما أضمره لها ساسة الغرب من مكايد وما نصبوه لها من حبائل . فأما المرشال ستالين فصمم على الانتقام من دول الغرب التى أهملته ولم تدعه إلى اجتماع ميونيخ كما لم تستمع إلى نصحه بشأن تشيكوسلوفاكيا ، وقرر فى دخيلة نفسه أن يدع تلك الدول تتلقى هى ضربات الحرب الأولى من ألمانيا حتى تتهيأ روسيا لمواجهة دورها بعد قليل أو كثير ، وأما هتلر فانه قد عجم عود الحلفاء فى ميونيخ فلم يجد إلا قصبة مرضوضة ، فليس بهم قوة حتى على الوقوف إلى جانب حليفتهم فى ساعة شدتها ، فقرر أن يتخذ قراره التاريخى الخطير غير عابىء بحكومات الغرب المتخاذلة فى شخص تشمبرلان فى إنجلترا ودلادييه فى فرنسا .

وكانت أولى ضرباته أن اغتنم فرصة نفور ستالين من حكومات الغرب وسارع إلى الاتفاق معه على الحيدة المقبلة ، حتى لا تتعرض ألمانيا مرة ثانية لخطر الحرب فى جبهتين متعارضتين : إحداهما شرقية ضد روسيا والأخرى غربية ضد الدول الغربية . وكان أشد ما أخذه هتلر على الامبراطور السابق أنه أوقع ألمانيا فى بدء الحرب العالمية الأولى بين نارين من جيوش الحلفاء ، وأنه أراد تحقيق الغرضين البعيدى المنال لألمانيا فى وقت واحد : التفوق الحربى فى أوربا ، والسيادة فى عرض البحار ؛ فخاب مسعى الامبراطور فى الغرضين جميعا . وعلى ذلك تم لهتلر أعظم انقلاب دبلوماسى شهدته أوربا فى تاريخها الحديث ، وهو عقد الاتفاق بين روسيا وألمانيا فى أغسطس سنة ١٩٣٩ .

وكانت سياسة المحور بين برلين وروما قد تأيدت بمعاهدة التحالف بين ألمانيا وإيطاليا فى مايو سنة ١٩٣٩ فلم يتردد هتلر وأركان حربه فى إعطاء الاشارة برفع الستار عن مأساة أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ . وقد حالفت آلهة الحرب قوات هتلر فى السنين الثلاث الأولى من الحرب ، فعقدت له ألوية النصر فى عدة مواقع حاسمة خاطفة تبوأت على أثرها ألمانيا مركز الزعامة والسيادة فى قارة أوربا فيما عدا السويد وتركيا وسويسرا وقد نضيف إليها تجاوزا ، أسبانيا والبرتغال . ومع ذلك فقد كان لألمانيا فى هذه الدول من النفوذ الأدبى والمادى ما جعلها أيضاً تحت رحمتها . ولو أن هتلر ثابر

على العمل ونفذ خطته الأولى فلم يعرض ألمانيا لخطر الحرب أمام أكثر من جبهة واحدة ولم يحاول إصابة الهدفين الألمانيين معا لكان مصير ألمانيا شيئا آخر غير الانحلال الذى تهددها بعد الحرب. ولكن الطبيعة البشرية وما جبلت عليه نفس الإنسان من الأثرة والطمع والغرور قد جعلت هتلر يزهى بانتصاراته الأولى ويسىء تقدير قوى أعدائه، فانزلق وهو فى أوج مجده يعادى أمريكا ويعلن الحرب على روسيا قبل أن تنقلب عليه، ويحاول فى الشمال أن يدق طريقه دقا ليعبر روسيا إلى أكرانيا فالقوقاز وبحر قزوين، ويحمل فى الوقت نفسه قائده «روممل» فى الجنوب على طرق باب الاسكندرية إلى قناة السويس فبلاد الشرق الأوسط وخليج العجم حيث يلتقى بحلفائه اليابانيين وقد اكتسحوا جنوب آسيا إلى الهند فايران. هنالك أشفقت آلهة الحظ من فداحة مثل ذلك النصر الذى لم يتح من قبل للآلهة نفسها فضلا عن البشر، فأشاحت بوجهها عن بطلها حينئذ، وبدأ نجم هتلر فى الأفول، فارتد الألمانّ عن ستالنجراد فى الشمال، وتراجعوا أمام العلمين فى الجنوب، وكان ذلك بداية النهاية.

الفصل الرابع والعشرون

سياسة الدول فى الشرق الأوسط

لعل أحرج مراكز السياسة فى العالم هى منطقة الشرق الأوسط ، فقد تحول مركز الثقل السياسى بعد الحرب الأخيرة من أوربا إلى سواحل شرق البحر المتوسط وخليج فارس ومابينهما من بلدان الشرق الأوسط ولم يبق على مسرح السياسة فى أوربا سوى بعض المناظر الجانبية الأوربية . أما الدوامة التى تنجذب إليها تيارات السياسة العالمية وتلتقى فيها المصالح الكبرى للدول أو تصطدم فقد تحركت شرقاً من المحيط الأطلنطى إلى مياه الشرق الأوسط . وليس غريباً بعد أن أصبحت الحرب ظاهرة عالمية يشترك فيها الشرق والغرب وتتحالف عليها دول العالم القديم والجديد أن تتجه سياسة الدول نحو المركز الذى تتجمع فيه أهم خطوط المواصلات فى العالم برية كانت أو بحرية أو جوية . وقد دلت الحربان العالميتان على مالهذه المنطقة من أهمية حربية خطيرة امتازت بها على سائر الميادين الأخرى . ففى الحرب العالمية الأولى كانت ثورة العرب ضد الترك فى الحجاز وبلاد المشرق وهزيمة الترك ومعهم حلفاؤهم الألمان على قناة السويس عندما حاولوا غزو مصر فى فبراير سنة ١٩١٥ — كان هذا وذاك من أهم الأحداث التى حولت مجرى الحرب لصالح الحلفاء . وكانت معركة العلمين فى الحرب العالمية الثانية الحد الفاصل بين الهزيمة والنصر فقد ارتدت على أثرها قوات المحور عن شمال أفريقية ، وأصبح نصر الحلفاء بعد تلك الموقعة وشيكا قريب المنال .

وها نحن أولاء نرى فى قيام جامعة الدول العربية ومساعيها للتخلص من نير الاستعمار الأجنبى وفى النزاع القائم بين العرب والصهيونيين فى فلسطين وفى تنافس الدول بشأن ليبيا ومستعمرات إيطاليا القديمة — نرى فى كل هذا وفى غيره ماينذر

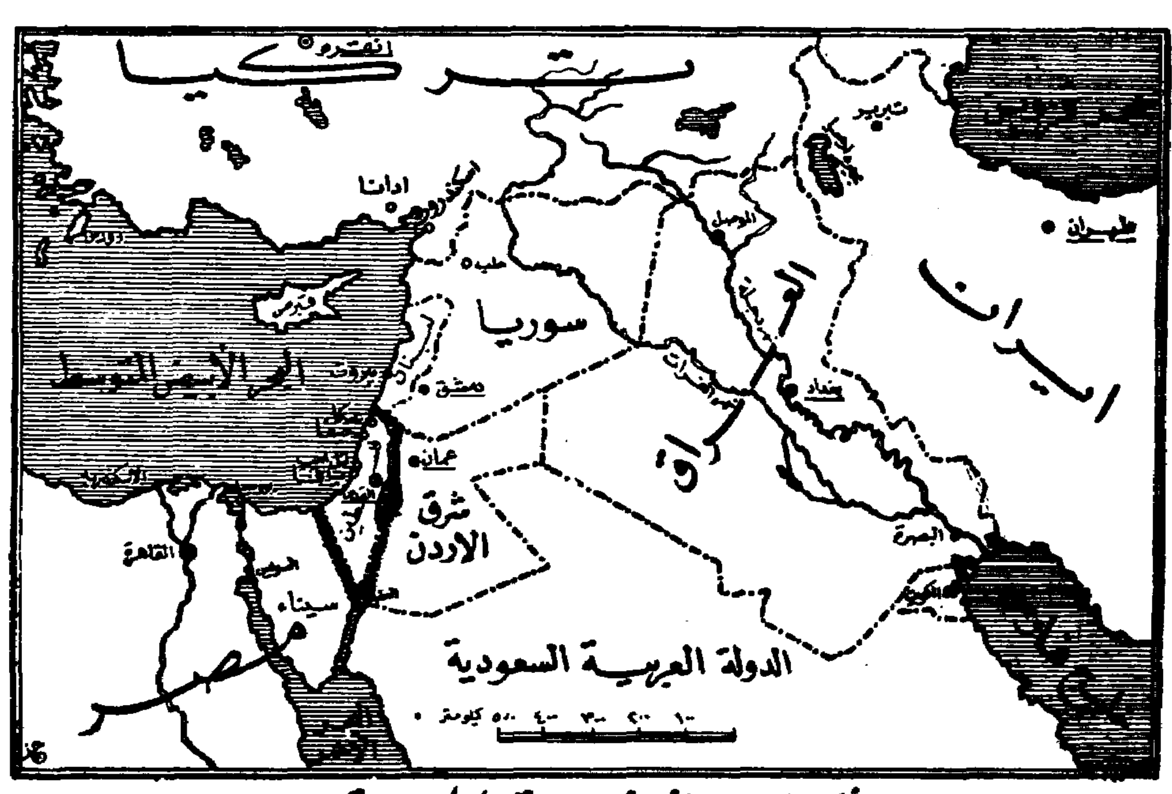
بأشد الأخطار على قضية السلام لا فى الشرق الأوسط وحده بل فى العالم أجمع .

ولم يكن هذا أول عهد الشرق الأوسط بتنازع القوى العالمية فى مياهه وعلى أديم سهوله وهضابه . فقديما تطاحنت فى ميادينه جيوش الفرس والاغريق وانتصر الاغريق بقيادة الاسكندر الأكبر فاصطبغ الشرق الأوسط بالصبغة الهيلينية ثم ورثه البطالمة فالرومان وبعدهم البيزنطيون . وظهر العرب فى العصر الوسيط فانتصروا على دولتى فارس وبيزنطة وسرعان ما طبعوا شعوب الشرق الأوسط بلسانهم وعاداتهم وغرسوا فى قلوب أهله ذلك الدين الحنيف فأمسوا ثم أصبحوا مسلمين يتكلمون العربية وكأنما قد قطعوا كل صلة بماضيهم القريب ، ثم قامت من أوربا إلى بلدان الشرق الأوسط حملات الصليبيين التى بدأت فى أواخر القرن الحادى عشر واستمرت إلى قرب نهاية القرن الثالث عشر وكانت الحرب سجالا بين المسلمين وطوائف الفرنجة حتى جمع المسلمون كلمتهم فى عهد الأيوبيين أولا ثم فى عهد سلاطنة المماليك فانتصر المسلمون وسقطت عكا آخر حصون الصليبيين عام ١٢٩١ وبسقوطها دالت دولة الصليبيين اللاتينية من الأراضى المقدسة ولم يبق لهم فى تلك الأصقاع إلا بقايا ورسوم من حصونهم وقلاعهم التى بنوها وإلا قطرات من دمائهم لا تزال تسرى فى شرايين بعض أهل البلاد .

وظهر الأتراك العثمانيون فى بلاد الشرق الأوسط فى أوائل القرن السادس عشر بعد أن كشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت إليه تجارة الشرق فتدهورت الصناعة والتجارة فى بلدان الشرق الأوسط وقل فيها الانتاج وآوت شعوبه إلى سبات عميق لم تصح منه إلا على صيحة الثورة الفرنسية وطلقات مدافع نابليون بونابرت فى الشرق .

وبظهور بونابرت على رأس حملته فى مصر تنبهت انجلترا إلى الخطر الذى تتعرض له مصالحها وممتلكاتها فى الشرق إذا ربض عدو لها فى تلك المنطقة الحيوية التى اعتبرتها منذ ذلك الوقت الرقبة التى تصل بين الرأس فى انجلترا

وبين جسم مستعمراتها فى الهند والشرق . فأخذت تعمل كل ما وسعها لاحباط مسعى الفرنسيين من جهة ولتثبت نفوذها على طول الطريق إلى الهند من جهة أخرى . ومن أجل ذلك نشبت معركة أبو قير البحرية سنة ١٧٩٨ وفيها دمر نلسون أمير البحر الانجليزى أسطول بونابرت وقضى على الحملة الفرنسية فى مصر وفى سوريا بالاخفاق والخذلان ، ومن أجل ذلك أيضاً احتل الانجليز جزيرة مالطة سنة ١٨٠١ كما احتلوا ميناء عدن سنة ١٨٣٩ . وخشى الانجليز أن يثبت سلطان محمد على فى بلدان الشرق الأوسط فيقوى بذلك نفوذ فرنسا حليفته فجعلوا يناوئونه ويناصرون تركيا عليه حتى انسحب محمد على من بلاد العرب وبلاد الشرق وانكمش داخل حدوده فى مصر والسودان .



فلسطين فى مفترق الطرق

وتجدد الكفاح ثانية على أثر افتتاح قناة السويس وظهور ذلك الانقلاب الخطير فى عالمى السياسة والتجارة فى الشرق الأوسط ، فقد كان انشاء القناة عملا فرنسياً عظيما وكان النفوذ الفرنسى فى شركة القنـــاة هو الغالب ولذلك أخذت الحكومة الانجليزية تعمل بمختلف الوسائل لمنع فرنسا من استغلال الحالة فى

مصر والقناة لمصلحتها وسارع الوزير الانجليزى دزرائيلى Disreali إلى شراء أسهم الخديو اسماعيل فى القناة فأصبح من صالح انجلترا بعد ذلك أن تكون لها قاعدة قريبة تشرف منها على القناة من جهة وترقب منها نشاط السياسة الروسية التى بدأت تهدد مصالح انجلترا فى الشرق ، فاغتنمت فرصة انعقاد مؤتمر برلين ١٨٧٨ وطلبت إلى تركيا أن تنزل لها عن جزيرة قبرص ثمناً لمعاونتها لها ضد روسيا . وما فتئت انجلترا تواصل سياستها حتى أمكنها التغلغل فى شئون مصر المالية ثم التدخل فى شئونها السياسية وأخيراً استطاعت أن تتدخل بالقوة بمفردها وتحتل مصر سنة ١٨٨٢ بدعوى مناصرة الخديو توفيق وقمع الثورة العرابية .

ولم يكن احجام فرنسا عن الاشتراك مع انجلترا فى احتلال مصر بسبب زهدها فى مجال السيطرة والاستعمار، ولكن فرنسا كانت حديثة عهد بالهزيمة أمام ألمانيا وكانت بحاجة شديدة إلى موالاة انجلترا وعدم اثارتها ضدها لتكون إلى جانبها إذا قست عليها الظروف . وكانت فرنسا ترنو ببصرها إلى شمال أفريقية وبلاد المغرب وتريد أن تؤلف منها دولة استعمارية قريبة إلى بلادها تعوضها عما فقدته فى ميدانى الحرب والاستعمار فما زالت مسافة الخلف تضيق حتى تم بينهما الاتفاق الودى Entente Cordiale فى سنة ١٩٠٤ وبه انجلت فرنسا عن ميدان السياسة فى الشرق الأوسط ولم يبق لها غير الأثر الثقافى والدينى فى بعض أرجائه .

وكانت لروسيا أيضاً مطامع فى الشرق الأوسط حول إيران وخليج فارس فعصفت بها هزيمتها المنكرة على أيدى اليابان براً وبحراً سنة ١٩٠٥ ، وتعاقدت روسيا وبريطانيا سنة ١٩٠٧ فانحسر الخطر الروسى وحل محله الخطر الألمانى بعد أن أعلن الامبراطور وليم الثانى صداقته نحو تركيا واعتزامه ربط الامبراطوريتين بالخط الحديدى بين برلين وبغداد . وعند ذلك أخذت انجلترا تستعد لدرء الخطر عن تلك المنطقة بواسطة ساستها وخبرائها وصنائعها حتى دنت ساعة الحرب العالمية الأولى فلم تتوان فى إعلان حمايتها على مصر وعزل خديوها الذى اتهمته بممالأة الألمان . ودارت المفاوضات بين الشريف حسين أمير مكة وبين رسل الانجليز فاتفق الجانبان على

أنه فى مقابل قيام الثورة العربية ضد الأتراك تتعهد الحكومة الانجليزية باستقلال البلاد العربية وقد حددها الشريف حسين حينذاك بحدود تدخل فى نطاقها سوريا والعراق وفلسطين فضلا عن شبه جزيرة العرب ما عدا مستعمرة عدن . وكان إعلان الثورة العربية فاتحة عهد جديد فى بلاد ظلت خاضعة للحكم العثمانى مع ما انطوت عليه من ضعف وانحلال وركود قومى شامل طوال أربعة قرون فأفاقت شعوب الشرق الأوسط من سياستها وسارت كتائبها تحت علم الثورة نافرة إلى الحرب فى صفوف الذين منوهم بالحرية والاستقلال . فما انتهت الحرب بهزيمة الألمان وطرد الترك خارج حدود العالم العربى حتى تنكر لهم حلفاؤهم القدماء، ودخل الشرق الأوسط فى طور جديد من حياته كله كفاح وجلاد وجهاد فى سبيل الاصلاح تارة وغالباً ضد المستعمرين الذين استمرأوا الحياة مع الغنم فى تلك البلاد .

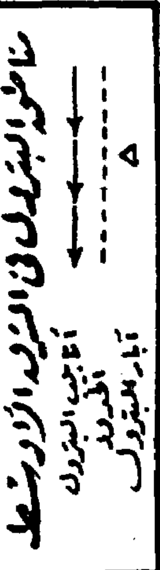
وكان الحلفاء فى أثناء الحرب العالمية الأولى قد قطعوا على أنفسهم العهود بانهم لا يرومون من الحرب أن يوسعوا رقعة بلادهم أو أن يضيفوا إلى ممتلكاتهم ومستعمراتهم أقاليم جديدة . ولكنهم ما عتموا أن رأوا أن الحرب قدقضت على أربع من أمبراطوريات العالم الكبرى وهى روسيا بعد ثورتها الكبرى فى سنة ١٩١٧ وألمانيا والنمسا وتركيا ، وأنه قد انسلخ عن تركيا وألمانيا ولايات ومستعمرات لا سبيل إلى عودتها إليهما ثانية فنكث الحلفاء بعهودهم وداروا أطماعهم تحت ستار رقيق من نظام الانتداب الذى ابتدعوه فى ميثاق عصبة الأمم .

وكان ابريطانيا وفرنسا بحكم تفوقهما بعد الحرب وخاصة بعد انسحاب الولايات المتحدة واشتغال روسيا بثورتها أن تقتسما مناطق النفوذ ويقررا فيما بينهما حدودها . وكانت فرنسا تدعى لنفسها مركزاً ممتازاً فى الشرق الأوسط إذ كانت أولى الدول الأوربية التى تعاقدت مع سلطان تركيا فى القرن السادس عشر وبسبب حمايتها للشعوب الكاثوليكية داخل الدولة العثمانية وخاصة فى لبنان وما كان لها من ثقافة لاتينية فرنسية بثتها ارسالياتها الدينيه وكلياتها ومدارسها المنتشرة فى أنحاء بلدان الشرق الأوسط ، لذلك طالبت فرنسا

بحقها فى الانتداب على منطقة شرق البحر المتوسط كله . ولكن السياسة الانجليزية كانت على حذر من مطامع الفرنسيين فى الشرق فاتفق الرأى على أن يكون لفرنسا الانتداب على سوريا ولبنان واحتفظت انجلترا لنفسها بالانتداب على العراق وفلسطين وشرق الأردن ، ولا يبقى بعد ذلك مستقلا من دول الشرق الأوسط غير بلاد العرب بيد الملك حسين شريف مكة .

وكانت انجلترا تعلم أن أمام النهضة العربية فى الشرق الأوسط مستقبلا سيعج بالأحداث والاحتمالات وأن مصالحها فى تلك المنطقة تقتضى أن تكون بيدها قواعد استراتيجية ترقب منها تطور الحركة العربية من جهة وتشرف منها على مصالحها فى القناة من جهة أخرى متى أذن الوقت بجلائها عن مصر استجابة للروح الوطنية التى بدأت تتأجج فى مصر منذ ثورتها فى سنة ١٩١٩ فصممت على أن تتمسك بمنطقة نفوذها فى فلسطين وشرق الأردن ، وهى لا تزال على رأيها فيما يخص شرق الأردن على الأقل .

وما كاد الحلفاء يوزعون على أنفسهم أسلاب الحرب باسم الانتدابات حتى ظهر فى ميدان الشرق الأوسط عامل جديد هو فى خطورته اليوم أبعد أثراً وأشد وقعاً من إنشاء القناة — ذلكم هو تفجر عيون البترول قرب الموصل وكركوك بالعراق واختزان كميات هائلة منه فى جهات متعددة على طول المنطقة التى تمتد من خليج فارس إلى ساحل البحر المتوسط وتشمل الكويت وجزيرة البحرين وبلاد العرب السعودية وسوريا ومصر . ولما كان زيت البترول هو عصب الحروب الحديثة والقوة المحركة للطائرات والدبابات والسيارات والسفن الحربية لذلك كان التسابق على استغلال آباره فى الشرق الأوسط من أقوى العوامل التى ركزت اهتمام الدول بهذه المنطقة . وليس أدل على ذلك من جهود ألمانيا الجبارة فى أثناء الحرب الأخيرة للوصول إلى موارده سواء فى رومانيا أو القوقاز أو خليج فارس . والدول فى معركة البترول تتساوى جهودها سواء منها المحروم كبريطانيا وفرنسا أو المتخوم كروسيا والولايات المتحدة . فالمحروم حاجته إليه طبيعية وأما المتخوم فتدفعه إلى التسابق بشأنه عوامل مهمة أخرى . فروسيا مثلا لديها


مناطق البترول في الشرق الأوسط
أنابيب البترول
الحدود
آبار البترول

موارد البترول التى تكفيها فى حالتى السلم والحرب وهى ثانية دول العالم إنتاجاً للبترول بعد أمريكا ، ولكنها تأبى على منافسيها أو أعدائها أو يتوافر لديهم ذلك السائل السحرى الثمين فيستخدمونه ضدها إذا قامت الحرب . والولايات المتحدة تخشى أن ينضب معين بترولها المتدفق فى بلادها فتريد أن تأمن على مستقبلها فى السلم والحرب وذلك بالاستحواذ على بعض موارده الغنية فى الشرق الأوسط .

لذلك ما كادت شركة البترول العراقية تتألف من الانجليز والفرنسيين والهولنديين حتى طالبت الولايات المتحدة بنصيبها فى أسهمها فكان لها مقدار ٢٣,٧٥ فى المائة من أسهمها وكان هذا أول تدخل من جانب أمريكا فى الميدان الاقتصادى بالشرق الأوسط .

ولما كشف الملك عبد العزيز آل سعود عن منابع البترول فى شبه جزيرة العرب خشى أن يؤدى ذلك إلى تدخل الدول الاستعمارية فى شئون بلاده ولذلك رفض أن يستمع إلى عروض بريطانيا او إيطاليا وإختار بعض الشركات الأمريكية فأعطاها فى سنة ١٩٣٣ حقوق الامتياز فى مساحات واسعة من بلاده . وقد أفادت بلاد العرب السعودية من ذلك فوائد اقتصادية واجتماعية على جانب عظيم من الأهمية . وفى سنة ١٩٣٦ فازت الولايات المتحدة أيضاً بامتياز البترول فى البحرين . وأما بريطانيا فلديها إنتاج الشركة الايرانية الانجليزية وهى أقدم شركات البترول فى الشرق الأوسط عهداً وأوفرها إنتاجاً ولها فى شركة البترول العراقية مقدار نصف أسهمها ، كما أن لها إنتاج الكويت. وتجد بريطانيا من نفوذها السياسى فى الشرق الأوسط ما يعينها على المحافظة على مصالحها الاقتصادية . أما الولايات المتحدة فتركز جهودها فى الناحية الاقتصادية وتأتم ببريطانيا طواعية فى الناحية السياسية .

وتحرص انجلترا على مصالحها فى البترول حرصاً شديداً دعاها فى سنة ١٩٤٦ إلى إرسال قوة حربية لاحتلال البصرة عند ما نشبت بعض الاضطرابات العاملية وخشيت على مواردها فى إيران من الخطر . ولما حاولت روسيا عقب الحرب

الأخيرة مد أجل احتلالها لشمال إيران ثم إثارة أهل أذربيجان للثورة والاستقلال عن إيران ، وأحست بريطانيا أن الخطر الروسى يقترب رويداً رويداً من حقول البترول الإيرانية تدخلت بريطانيا . فتقدمت إيران بشكواها إلى مجلس الأمن وما زال المجلس يناقش روسيا الحساب حتى اضطرت إلى مغادرة إيران والتخلى عن أذربيجان فأخمدت فيها الثورة وبقيت مصالح بريطانيا فى البترول سليمة ولو إلى أجل موقوت .

ولما كان إنتاج البترول الإيرانى يصل إلى بريطانيا فى خزانات خاصة عن طريق قناة السويس كما أن البترول العراقى يمر فى أنابيب خاصة تحت أرض العراق وشرق الأردن وفلسطين إلى ميناء حيفا بفلسطين وطرابلس بلبنان ، لذلك كان إهتمام بريطانيا عظيما بالتطورات السياسية التى لازمت نهضة بلدان الشرق الأوسط فى السنين الأخيرة . فسايرت إنجلترا روح النهضة الحديثة التى بدت بين الشعوب العربية ووفقت بقدر الإمكان بين مصالحها وبين مطالب هذه الشعوب - بين الحرية والإستقلال وعلى ذلك نزلت عن حمايتها على مصر وأقرت إستقلالها ، كما نزلت عن إنتدابها فى العراق واستعاضت عن الحماية والإنتداب بمعاهدتين مع البلدين أوشكتا أن يستنفدا موضوعهما . وبقيت مشكلة فلسطين التى عقدتها إنجلترا ومعها الحلفاء فى سنة ١٩١٧ بإعلان تصريح بلفور ، فما أفادت إنجلترا من إنتدابها عليها سوى الحوادث الدامية والثورات المتعاقبة وقيام النزاع بشأنها بين العرب واليهود حتى أصبحت فلسطين ومشكلة فلسطين من أعقد وأشد ما واجه العالم الحديث من مشكلات فى الشرق الأوسط .

أما فرنسا فقد سارت فى سوريا ولبنان سياستها الإستعمارية العتيقة التى ترمى إلى خدمة مصالح فرنسا الكبرى وإدماج العناصر الوطنية داخل دائرة الجنسية الفرنسية المرنة فتغذيهم بثقافتها وتغذى بهم جيوشها لتخرج فرنسا من ذلك كله قوية عزيزة الجانب دون أى إعتبار لمبادىء الحرية التى ورثتها عن الثورة الفرنسية والتى لم تسمح منها بقليل أو كثير للشعوب التى إنتدبت لها . ومع أن نظام الإنتداب

قد غير الأسس التى كانت تقوم عليه الإستعمار قديما فجعل واجب الدولة صاحبة الإنتداب هو العمل على مساعدة الشعب المنتدبة له وتهيئته لحكم نفسه ، بل أن ميثاق العصبة لينص صراحة على الإعتراف بإستقلال الشعوب الراقية التى كانت خاضعة لتركيا فإن فرنسا لم تخط خطوة واحدة فى سبيل تحقيق إستقلال هذة الشعوب أو تهيئتها للحكم الذاتى . وكان أول مبدأ راعته فرنسا فى دائرة إنتدابها هو مبدأ التفرقة بين المذاهب الدينية والجماعات الوطنية فأوجدت دويلات محلية مستقلة عن سوريا ولبنان كجبل الدروز وإقليم العلويين وسنجق إسكندرونه . كل ذلك لأن الشعور بالإستقلال وبالوحدة العربيـــة فى سوريا كان قويا وجارفا وكانت فرنسا تخشاه بدرجة جعلتها تقسو وتتعنت فى مناهضة المصالح الوطنية لأهل البلاد كافة حتى فقدت فرنسا المكانة الممتازة التى كانت لها فى الماضى لا فى سوريا وحدها بل وفى لبنـان أيضا .

لذلك لم يكن غريبا أن ينتهز الوطنيون فرصة إندحار فرنسا أمام ألمـانيا فى الحرب الأخيرة فيعملوا على تحقيق أمانيهم فى الإستقلال والتخلص من آثار الإنتداب الفرنسى جميعاً دفعة واحدة . وكانت الحكومة الانجليزية تدرك أهمية سوريا ولبنان من الوجهة الحربية مذ كانت دولتا المحور تهددان مصر من جهة حدودها الغربية . وكان الحلفاء يستمدون بترول العراق من أنابيب حيفا وطرابلس ، فما كادت تلمح آثار المعاونة التى كان يقدمها أعوان حكومة فيشى للمحور فى دولتى المشرق وفى العراق حتى أجمع الحلفاء أمرهم على تحرير سوريا ولبنان من قوات حكومة فيشى . وتألفت قوة من الجنود البريطانية وجنود فرنسا الحرة بقيادة الجنرال ولسون ومعه القائد الفرنسى كاترو للزحف على بلاد المشرق فى خريف عام ١٩٤١ ، فلم تجد القوة صعوبة فى كسر مقاومة جنود حكومة فيشى . وقد سبق قيام الحملة وأعقبها إعلان من حكومة فرنسا الحرة ومن الحكومة الأنجليزية بموافقتهما على إستقلال سوريا ولبنان وإعتبار كل منهما دولة ذات سيادة فاطمأن الوطنيون فى الدولتين ومهدوا للحلفاء طريق النصر على أعوان المحور .

وبدخول الانجليز منتصرين بلاد المشرق بدأت فى البـــلاد سياسة جديدة ، فقد أصبح للانجليز المكانة الحربية الأولى وتأخرت منزلة فرنسا على حين إتسعت دائرة المعاملات بين الأنجليز والبلدين . وكان إعلان الإستقلال الذى أصدرته حكومة الجنرال ديجول تشير إلى ضرورة تسوية الروابط بين الطرفين فى معاهدة حرة تعقد بينهما بعد الحرب . ولـكن الوطنيين أبوا الإعتراف بحق الإنتداب نفسه على أساس أن حكومة فيشى قد إنفصلت عن عصبة الأمم فى سنة ١٩٤١ ولم يعد للانتداب على بلادهم أصل قانونى، وهم لذلك خليقون أن يتمتعوا بالاستقلال التام وبكل مظاهره من حكم نيابى ديمقراطى وتمثيل أجنبى وجيوش وطنية دون أى إعتراض من جانب فرنسا .

واضطرت فرنسا إلى الخضوع فى أول الأمر وانضم الدروز والعلويون إلى سوريا وجرت الانتخابات فاختير الزعيم شكرى القوتلى رئيساً للجمهورية السورية كما إنتخب الشيخ بشاره الخورى رئيساً للجمهورية اللبنانية . ولما كان الحزب الذى يتزعمه الرئيس اللبنانى يناصر الوحدة العربية ويؤيد إستقلال لبنان التام فان فرنسا لم تستطع الصبر طويلا . وحنق المندوب الفرنسى ذات ليلة وقبض على رئيس الجمهورية ورجال حكومته واعتقلهم خارج بيروت فى نوفمبر ١٩٤٣ فكان ذلك إيذاناً بميلاد روح وطنية جديدة جعلت اللبنانيين يتعاونون جميعاً ضد الأجنبى . ولقيت الجمهورية الناشئة من جانب أمريكا والحـكومة الانجليزية ومن جانب مصر وأخواتها الدول العربية أكبر عون على فرنسا ، فلم يسع اللجنة الفرنسية الحرة إلا الرضوخ لمطالب الوطنيين .

ولمـا ترددت فرنسا وتباطأت فى الجلاء عن البلاد ما لم يعترف لها الوطنيون بمركزها الخـاص لجأت سوريا ولبنان تشكوانها إلى مجلس الأمن سنة ١٩٤٦ وطالبتا بجلاء الانجليز والفرنسيين جميعاً عن بلادهما . واضطرت فرنسا أخيراً إلى قبول رأى أغلبية المجلس فحزمت أمرها ومتاعها وانجلت عن بلاد المشرق تاركة

بريطانيا وحدها أمام أخطار القومية العربية من جهة ومنافسة أمريكا وروسيا لها فى هذا الميدان الجديد من جهة أخرى .

ورأت انجلترا أن خير علاج للموقف بشقيه أن تحي فكرة الجامعة العربية التى ازدهرت ردحاً من الزمن فى عهد السلطان عبدالحميد باسم الجامعةالاسلامية . وكانت بريطانيا إذ ذاك كعادتها متحيرة مترددة بين تحبيذ الفكرة وإنكارها فقد كانت تحض على الفكرة لمعارضة النفوذ الروسى الذى كان يهدد أملاك الدولة كما أنها كانت تخشاها خوفاً على ولاء مسلمى الهند نحو الامبراطور الملك . أما بعد انتصار الحلفاء فى الحرب الأخيرة واضطلاع الروس فيه بدور البطولة العالمية فان الخطر الروسى قد تجسم أمام بريطانيا بدرجة جعلتها تقدم على إخراج فكرة جامعة الدول العربية إلى حيز السياسة الواقعية دون أن تبالى بما قد يترتب على تأليف الجامعة من نتائج قد تضر بمصالحها قبل أية دولة أخرى .

وكان أول إيذان بفكرة الجامعة الحديثة فى صيف عام ١٩٤١ إذ وقف مستر ايدن وزير خارجية انجلترا يعلن فى قصر محافظ لندن عن سياسة الحكومة الانجليزية بشأن مستقبل الشعوب العربية ويقول « إن روابط الصداقة التى تجمع بيننا وبين العرب ترجع إلى عهد بعيد فلنا بينهم أصدقاء عديدون كما أن لهم بيننا أصدقاء حميمين . . . ولقد كان من أعز أمانى عدد كبير من مفكرى العرب وقادة الرأى فيهم أن تنعم الشعوب العربية بوحدة أوسع مدى مما بلغته الآن . . . ونحن لا يسعنا إلا الاستجابة إلى هـــذا النداء لأن تقوية الروابط الاقتصادية والثقافية والسياسية أيضاً بين الدول العربية أمر اعتبره فى الحقيقة طبيعيا وعادلا . ولهذا فان حكومة جلالة الملك تعلن أنها ستناصر كل مشروع يرمى إلى تحقيق هذه الأغراض متى كان المشروع حائزاً لرضاء الجميع . . »

ولم تكن أمريكا حين أعلنت انجلترا ذلك التصريح قد انحازت بعد إلى جانب الانجليز فى الحرب كما أن فرنسا كانت قد أقصيت عن الميدان مهزومة مهيضة الجناح . أما روسيا فكانت لاتزال مرتبطة بألمانيا وتوشك أن تنقلب عليها حليفتها

بغزواتها المروعة . لذلك ولد مشروع الجامعة العربية بمنأى عن أمريكا وروسيا وفرنسا وعلى أيدى بريطانيا وحدها وهى إذ ذاك مثقلة بالهموم وفادح المسئوليات. وكأنما أرادت انجلترا أن تترك للشعوب العربية إرثاً يذكرونها به بعد الحرب فكانت أن أعلنت ذلك التصريح الذى يفوق فى مرماه البعيد فى الشرق الأوسط على مشروع قناة السويس أو كشف منابع البترول . وكانت الشعوب العربية منذ قامت مشكلة فلسطين تتوثب لتحقيق فكرة الجامعة العربية ولذلك سرعان ما اقتنعت مصر بتبنى المشروع وقامت على تنفيذه مع أخواتها بمقتضى بروتوكل الاسكندرية فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ ثم وفق ميثاق الجامعة فى مارس سنة ١٩٤٥ .

وإذا كانت بريطانيا قد ظنت أنه بانشاء جامعة الدول العربية قد أقامت حاجزاً فى وجه التنافس الدولى بشأن الشرق الأوسط . أو إذا كانت الشعوب العربية قد توهمت أن قيام الجامعة سيعصمها من استعمار المستعمرين فقد أخطأت بريطانيا وأخطأ العرب جميعاً . لأن الاستعمار لا يشترط فيه أن يكون مقصوراً على الحكم والسياسة بل إنه ليشمل الثقافة والاقتصاديات أيضاً وهيهات أن تجد الشعوب العربية فى ثقافتها وصناعاتها واقتصادياتها مايغنيها تماما عن التعاون الأجنبى . ثم إنه ما دامت الحروب أمراً محتمل الوقوع فان الدول التى تطمع فى مكانتها العالمية سترنو دائماً ببصرها إلى منطقة الشرق الأوسط حيث توجد أهم القواعد الاستراتيجية فى العالم .

وسيظل اهتمام الدول الكبرى بهذه المنطقة قائما إلى أن تستكمل شعوب الشرق الأوسط أسباب نهضتها أو تلغى مادة الحرب من القاموس الدولى .

الفصل الخامس والعشرون

فلسـطين

لقد حبت الطبيعة فلسطين بموقع جغرافى فذ فى البحر المتوسط لاتدانيها فيه غير مصر إذ تقف مثلها على عتبة الشرق وعندها تلتقى قارات العالم القديم الثلاث أوربا وآسيا وأفريقية ، وفى فلسطين تتقابل خطوط المواصلات بين الشمال والجنوب وبين مصر وسائر البلاد العربية . وإلى سواحلها تنتهى أنابيب البترول العراقية وقد تنتهى إليها بعد وقت طويل أو قصير خطوط البترول الشرقية الأخرى . وهى فوق ذلك كله تتاخم حدود مصر الشرقية وتشرف من هضابها وقمم جبالها على شبه جزيرة سينا وقناة السويس وهما خط الدفاع الأول لمصر من ناحية الشرق .

وقد ظلت فلسطين نحو أربعمائة عام خاضعة للحكم التركى فما استيقظت فى أثنائها فتن ولاشبت فيها حروب أو نيران إذ أخلد الجميع إلى الخوف والانزواء والتواكل تحت نير الحكم التركى حتى إذا قامت الحرب العالمية الأولى ونادى المنادى يدعو العرب إلى الثورة على الترك استيقظ أهل فلسطين من سباتهم وانحازوا إلى الثوار واستقبلوا العهد الجديد وجيوش الحلفاء وقادتهم بالرضا والترحاب .

ولكن عاملا جديداً ظهر فى أعقاب الحلفاء وحل فى البلاد على حين فجأة فبدل سلامها حربا وأمنها خوفا إذ اقتطع الحلفاء فلسطين من جسم سوريا وسائر البلاد العربية ووضعوها غصبا تحت الانتداب البريطانى من جهة وتحت رحمة وعد بلفور من جهة أخرى لجأها اليهود من كل صوب وفى ركابهم رؤوس الأموال التى تدفقت من خزائن إخوانهم أنصار الصهيونية المشتتين فى العالم وليس لهم جميعا من هدف سوى تحويل البلاد إلى وطن قومى يعيد إلى اليهود مافقدوه منذ ١٨٠٠ عام .

وكان أول من جعل لليهود قضية قومية وأمانى وطنية فى التاريخ الحديث

هو الكاتب النمسوى تيودور هرزل Theodor herzl الذى نشر فى سنة ١٨٩٦ كتابه عن «الدولة اليهودية» فكان ظهور ذلك الكتاب فاتحة عهد جديد إذ أصبحت امانى القومية اليهودية بعد إذاعته موضوعا مدروسا يقرؤه الناس وكانت قبل ذلك خواطر مجردة وأحلاما تهفو لها نفوسهم وتهتف لها قلوبهم دون ألسنتهم . وقد أثار ذلك الكتاب من الحماسة والاهتمام لدى اليهود فى مختلف البلاد مادعا إلى اجتماع مؤتمر عام لليهود فى مدينة «بال» بسويسرا فى سنة ١٨٩٧ وفيه حدد اليهود الهدف الذى ترمى إليه حركتهم الصهيونية وهو السعى لايجاد وطن قومى لليهود فى فلسطين على أن يكون ذلك بمقتضى إجراءات يؤيدها القانون العام . وقد أوضح المؤتمر الوسائل التى تتخذ لتحقيق ذلك فيما يأتى :

ا) تنمية حركة الاستعمار فى فلسطين بإيفاد عمال للزراعة والصناعة إليها .

ب) تنظيم العناصر اليهودية وتوثيق الروابط بينها بإنشاء المؤسسات المحلية والدوليه وفقا للقوانين المرعيه في الدول المختلفة .

ج) تقوية الشعور أو الوعى القومى اليهودى .

د) اتخاذ الإجراءات حينما تسمح الحال — للحصول على موافقة الحكومات على تحقيق أغراض الصهيونية

ويتضح من ذلك أن الحركة الصهيونية فى بدء أمرها وإلى مابعد الحرب العالمية الأولى لم تكن أكثر من دعاية عاطفية اجتماعية يقصد بها اليهود ان يستدروا عطف الحكومات لتدبير مأوى فى فلسطين يلجأ إليه المضطهدون والمشردون منهم فيجدون فيه بلغة من العيش بالعمل فى الزراعة أو الصناعة .

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ أصيبت الحركة الصهيونية بركود طبيعى إذ كانت الصهيونية كحركة دولية يشترك فيها يهود من أنحاء العالم كان من شأن الحرب العالمية أن تشل النشاط فى الشئون الدولية وأن تعرقل جهود اليهود وخاصة فى البلاد التى منيت بالحرب. ولكن اليهود كانوا أحذق من أن تغلبهم الحرب حتى ولو كانت عالمية ، فما كادت تضطرم نيران الحرب حتى نقلوا مكاتبهم

إلى عواصم الدول المحايدة التى تشترك فى الحرب كسويسرا والدنمرقه ونيويورك بأمريكا وركزوا اهتمامهم بصفة خاصة فى نيويورك ، وكان لهم فى أمريكا بضعة ملايين من اليهود منهم عدد كبير من رجال الدولة وأصحاب الأعمال الكبرى فى البلاد .

ثم بدا للحكومة الانجليزية أن تستميل إليها الرأى العام الأمريكى لعلها أن تقنع الولايات المتحدة بالاشتراك فى الحرب إلى جانب الحلفاء فترجح بذلك كفتهم وتنتهى تلك المأساة المدمرة التى طال أمدها ولم يتح النصر فيها لأحد الفريقين. وكانت انجلترا تعلم أن جانبا قويا من الرأى العام الأمريكى قوامه العنصر اليهودى فيها ، وكانت تعلم كذلك أن الحالة فى روسيا قد أصبحت من الحرج والخطورة بحيث باتت الثورة فيها قريبة الحدوث وأصبح خروج الروس من الحرب مترقبا فى أى وقت . وكانت إنجلترا إلى ذلك تعد عدتها لغزو فلسطين وسوريا بعد أن مهدت لذلك بمعاضدة الثورة العربية على الترك كما كانت على علم بمطامع فرنسا فى لبنان وسوريا ومنطقة المشرق ، فلم تشأ أن تنتهى الحرب دون أن تمكن لنفسها فى منطقة الشرق الأوسط ليكون لها إزاء فرنسا سند تأمن معه على مصالحها فى تلك المنطقة العظيمة الخطر .

وعلى ذلك سافر مستر بلفور وزير الخارجية الانجليزية فى أوائل سنة ١٩١٧ لمفاوضة زعماء اليهود فى الولايات المتحدة . وفى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ قبل دخول الجنرال اللنبى فلسطين بأسابيع قليلة أعلن تصريح بلفور Balfour الشهير ضمن خطاب وجهه الوزير المذكور إلى لورد روتشيلد زعيم اليهود فى إنجلترا وفيه يقول :

« إن الوزارة الانجليزية تنظر بعين الرضا إلى إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين وإنها ستبذل أقصى جهدها لتيسير تحقيق هذا الغرض . على أنه يجب أن يكون مفهوما فهما صحيحا أنه لن يعمل شىء مع هذا يمس الحقوق المدنية أو الدينية للطوائف غير اليهودية التى تقيم فى فلسطين أو يمس الحقوق والمزايا السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أى مملكة أخرى ».

وظاهر من هذا التصريح أن الحكومة الانجليزية لم تقصد بتصريحها إلى تحويل

فلسطين إلى وطن قومى لليهود ولكنها أرادت فقط تدبير وطن لليهود فى فلسطين والفرق بين المعنيين ظاهر . ثم أن الحكومة الأنجليزية لعلمها بما قد يصادف هذه السياسة من إعتراض رأت أن تقيد تصريحها بشرطين على جانب عظيم من الأهمية :

أولا أن وجود الصهيونيين فى فلسطين لن يؤثر فى حالة أصحاب البلاد من الوجهتين الدينية أو المدنية .

والثانى أن اليهود فى الخارج لن يعتاضوا بفلسطين عن أوطانهم التى يعيشون فيها ويتمتعون بجنسياتها . وذلك لأن إنجلترا كانت تعلم أن هناك فريقا قويا بين الأنجليز والأمريكان كانوا يخشون أن يؤدى إنشاء الوطن القومى إلى أن يفقدوا جنسياتهم فى البلاد التى ينتسبون إليها وأن يتعرض اليهود فى الممالك الأخرى إلى نوع جديد من الاضطهاد أو التشريد مادام قد أصبح لهم موطن يلجأون إليه . وقد حدث فعلا فى ألمانيا ماخشى اليهود أن يكون فإن الحركة العدائية المعروفة ضد اليهود والتى بلغت منتهى شدتها فى عهد تفوق النازيين فى أوربا كان من أسبابها فكرة الوطن القومى لليهود .

على أن أهم مايعترض به على وعد بلفور أن بريطانيا بتصريحها هذا قد أصدرت قرارا سياسيا هاما فى شأن إقليمى دون أى أكتراث بالمبادىء الديمقراطية وأنها أخلت بالوعود التى قطعتها للعرب قبل ذلك بسنتين وكان من أثرها أن قام العرب بزعامة الشريف حسين أمير مكة وأبنائه بثورتهم ضد الأتراك وبتأييد قضية الحلفاء بدمائهم وأرواحهم مقابل الحرية والإستقلال اللذين وعدوا بهما .

ثم انتهت الحرب العالمية الأولى وبانتهائها قضى على أربع من الأمبراطوريات الكبرى فى العالم — وهى روسيا وألمانيا والنمسا وتركيا — وانسلخ منها ماكان يتبع بعضها من ولايات ومستعمرات . وقد أثار ذلك مطامع الدول المنتصرة بعد الحرب ودعاهم إلى التوسع والاستعمار لا فى مجاهل افريقية وجزر المحيطات حيث الشعوب البدائية فحسب بل فى أوربا نفسها وفى منطقة ساحل البحر المتوسط

حيث تسكن الشعوب ذات المدنيات القديمة التى كانت تصبو إلى الحرية والاستقلال .

وكان لبريطانيا وفرنسا بحكم تفوقهما فى أوربا وخاصة بعد انسحاب الرئيس ولسون والولايات المتحدة من شئون أوربا أن يقتسما مناطق النفوذ ويقررا فيما بينهما حدودها ، غير أن تقدم الطيران فى العالم وما تمتاز به فلسطين من موقع جغرافى قد يجعلها واسطة الاتصال بين الشمال فى تركيا ولبنان وسوريا وبين الجنوب فى مصر وبين البحر المتوسط والشرق الذى ينتهى بالعراق وخليج فارس حيث مصالح بريطانيا المؤسسة فى البترول الذى تنتجه الشركة الانجليزية الإيرانية فى إيران وهى خامس دولة فى العالم من حيث انتاج البترول — كان من شأنهما أن يجعل بريطانيا تتمسك بأن تنتدب على فلسطين .

وكان نظام الانتداب من النظم الجديدة التى ابتدعها ميثاق عصبة الأمم وارتبطت به الدول التى اشتركت فى مؤتمر الصلح فى فرساى إذ وضع الميثاق فى مقدمة جميع المعاهدات التى أبرمت حينذاك .

وقد جاء هذا النظام بديلا من سياسة « الضم » ، « والاستعمار » التى كانت الدول تسير وفقها قبل الحرب العالمية الأولى فمحا كلمة الاستعمار البغيضة وخاصة فى البلاد الناهضة التى كانت تتمتع برقى ظاهر فى حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وأصبحت الدول المستعمرة تعمل فى البلاد المنتدبة لها باسم العصبة وتسأل أمام لجنة دائمة فى العصبة عن أعمالها فى تلك البلاد كما كان عليها أن تقدم للجنة الانتدابات تقارير سنوية عن أحوال البلاد الواقعة تحت انتدابها .

وتنص المادة الثانية والعشرين من الميثاق وهى الخاصة بالانتداب على أنه :
« فى حالة الشعوب الراقية التى كانت تحت حكم الأتراك والتى وصلت فى رقيها إلى درجة تدعو إلى الاعتراف مؤقتاً باستقلالها تقصر مسئولية الدولة المنتدبة على تقديم المشورة والمساعدة حتى تستطيع تلك الشعوب النهوض بنفسها والوقوف

على قدميها . كما نصت فوق ذلك على وجوب استقصاء رغبات الشعوب كعامل مهم فى اختيار الدولة التى تنتدب لهم . »

فهل راعت بريطانيا عندما أرادت إعلان انتدابها على فلسطين شيئا مما نصت عليه هذه المادة ؟

لقد كانت أدنى درجات العدالة بعد أن جلا الأتراك عن البلاد تقتضى بحسب نص المادة التى سبق ذكرها اعلان استقلال البلاد ثم استفتاء أهلها فى أى الحكومات تنتدب لمساعدتهم ، وكان على الحلفاء متى تم ذلك أن يتركوا لممثلى العرب حق الاتفاق مع اليهود على شروط المهاجرة إلى بلادهم والاقامة بها ، ولكن شيئا من ذلك لم يحصل . فما كاد الأتراك ينسحبون من البلاد وتدخل جنود اللنبى حتى أقام الانجليز حكومة عسكرية فى البلاد وجاءت فى أثرهم اللجنة الصهيونية أو الوكالة اليهودية وكثير من الجماعات اليهودية التى كانت تعمل فى بلدان أوربا المختلفة لترويج الدعوة الصهيونية .

وأما استفتاء الشعب فى اختيار الدولة التى تنتدب له فان الحلفاء حين عرفوا أصرار الرئيس ولسون على تكوين لجنة دولية لاستطلاع آراء العرب لم يسعهم سوى الموافقة فى الظاهر ولكنهم أهملوا تعيين ممثليهم ، واقتصر الأمر على إيفاد المندوبين الأمريكين كنج وكرين King and Crane لجال العضوان فى ارجاء فلسطين وسوريا ولبنان والعراق وانتهيا إلى نتيجة بررتها التطورات التى حدثت فيما بعد ، ولكنها أهملت فى وقتها كما أهمل غيرها من المقترحات والمبادىء التى حملها ولسون معه من العالم الجديد . فقد اقترحت اللجنة بناء على ما جمعته من الآراء وما تحققته من أقوال الشهود أن يتكون اتحاد من سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن بزعامة سوريا وأن تدعى الولايات المتحدة للانتداب مؤقتاً على الدولة الجديدة . فإذا لم تقبل الولايات المتحدة فإن الرأى العربى يقبل أن تنتدب بريطانيا. وأما فرنسا فقد نحتها اللجنة عن الانتداب فى المنطقة مؤكدة أن تحرياتها بين طبقات الشعب هى التى أقنعتها بالأراء التى ذكرتها .

وقد حذرت اللجنة الدول من فتح باب الهجرة على مصراعيه للصهيونيين كما فرقت بين حق الصهيونيين فى الوطن القومى وبين ادعاءاتهم بشأن إنشاء دولة صهيونية ، وقالت أن مثل هذه الدولة لا يمكن أن يتم إنشاؤها دون أن تتعرض حقوق العناصر غير اليهودية لأشد الأخطار سواء من الوجهة الدينية أو المدنية

ولكن الحلفاء لم يلقوا بالا إلى مقترحات اللجنة واعتبروا تقريرها وثيقة خاصة قدمها المندوبان الأمريكيان إلى الرئيس ولسون خاصة فليس فيها ما يقيدهم . وعلى ذلك سار الحلفاء فى موضوع فلسطين وبلاد المشرق وفق الخطط القديمة فاستبد مجلس الحلفاء الأعلى المكون حينذاك من مندوبى انجلترا وفرنسا وإيطاليا وقرر فى مؤتمر سان ريمو San Remo فى ابريل سنة ١٩٢٠ انتداب انجلترا على فلسطين وتقدمت انجلترا إلى مجلس العصبة تطلب إليها أن تبارك هذا الانتداب بموافقتها . وقد صدر قرار الانتداب فى سنة ١٩٢٢ وفى رأس وثيقة الانتداب وعد بلفور لليهود حتى يكون له من الحرمة والقداسة ما للمعاهدات الدولية وخاصة بعد أن وافقت عليه كل من الولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا .

ولم تقتصر وثيقة الانتداب على إدماج تصريح بلفور فى مقدمتها ولكنها أشارت فى بنودها إلى الهيئة اليهودية غير الرسمية وأضفت عليها صفة ينطبق عليها الوضع المعروف باللاتينية imperium in imperio حكومة داخل حكومة ، فقد جاء فى المادة الرابعة من الوثيقة :

« تعترف حكومة الانتداب باحدى الوكالات اليهودية كهيئة عمومية a public body يكون الغرض منها أن تنصح وتعاون الإدارة بفلسطين فى كل ما له علاقة بإنشاء الوطن القومى لليهود من المسائل الاقتصادية والاجتماعية وغيرها » .

وزادت المادة على ذلك ان جعلت لهذه الهيئة أن تشترك وتتعاون مع الادارة وتحت رقابتها فى النهوض بمرافق البلاد جميعاً .

ولم يقتصر اشتراك الهيئة الصهيونية فى الحكم على تعاونها مع الادارة الفلسطينية

بل أن المادة المذكورة قد جعلت للهيئة الصهيونية حق التشاور مع حكومة جلالة الملك فى لندن رأساً بشأن الاجراءات التى تتخذ لتأمين تعاون جميع اليهود الذين يرغبون فى إنشاء الوطن القومى لليهود .

وجاء فى المادة السادسة : « أن واجب الادارة فى فلسطين أن تيسر هجرة اليهود إلى فلسطين وأن تشجعهم بمعاونة الهيئة الصهيونية على الاقامة بالأراضى بما فى ذلك الأراضى البور والأراضى التى تملكها الحكومة . واشترطت الحكومة فى تيسير هجرة اليهود ألا يؤثر ذلك فى حقوق السكان الآخرين أو يضر بمركزهم . وكذلك تضمنت الوثيقة رعاية الحرية الدينية لجميع الطوائف ،

ومع أنه قد جاء فى المادة الثالثة أنه ينبغى أن تشجع الدولة المنتدبة على إقامة حكومة ذاتية فى البلاد فان هذا الشرط قد ولد ميتاً إذ أن الحكومة المنتدبة لم تعمد إلى تنفيذه الا فى سنة ١٩٣٩ قبل قيام الحرب الأخيرة . وقد جاء عدم وفاء انجلترا بهذا الشرط دليلا صارخاً على تحيزها لليهود أو تخوفها منهم ذلك لأن قيام الحكم الذاتى كان من شأنه إبراز قوة الكثرة من العرب وتضاؤل شأن الأقلية من اليهود .

وقد كانت خيبة أمل العرب فى الانجليز ويأسهم من عدالتهم منذ وضحت نياتهم رسميا فى وثيقة الانتداب من أهم العوامل التى ساعدت على قنوط العرب والجائهم إلى العنف فى ثوراتهم التى مافتئت تهب وتخبو على اختلاف الظروف طوال عهد الانتداب .

* * *

وما كادت وثيقة الانتداب تمر فى مجلس العصبة فى سنة ١٩٢٢ حتى بدأ تنفيذها رسميا فى سنة ١٩٢٣ وكانت إنجلترا قبل ذلك قد سارعت إلى إلغاء الإدارة العسكرية فى فلسطين وتعيين هربرت صموئيل أحد الوزراء الانجليز من اليهود مندوبا ساميا فى فلسطين وقد بقى فى منصبه إلى عام ١٩٢٥ . وقد بدأ عمله بداية حسنة أذ استغنى عن كثير من الموظفين الانجليز وعين بدلهم موظفين من العرب واليهود وأنشأ

مجلسا استشاريا من ١٠ بريطانيين و ٤ من المسلمين و ٣ من المسيحيين و ٣ آخرين من اليهود ثم حاول تحويل المجلس الاستشارى إلى مجلس تشريعى تتمثل فيه الطوائف المختلفة فذهبت محاولاته سدى وجعل الأعضاء العرب ينسحبون حتى لم يبق فى المجلس الاستشارى غير البريطانيين .

واقترح صموئيل على العرب إنشاء هيئة تمثلهم على نسق الهيئة الصهيونية فرفض العرب مستنكرين أن يعاملوا وهم أصحاب البلاد الحقيقيون على قدم المساواة باليهود اللاجئين إلى بلادهم . وفى عهده تدفقت الأموال اليهودية من كافة أنحاء العالم لتهويد فلسطين بشراء الأراضى من الأهالى والاكثار من إنشاء المستعمرات الزراعية والمؤسسات الصناعية ، وأخذ اليهود امتياز توليد الكهرباء واستخراج البوتاسيوم من البحر الميت ، وظاهر أن أرباح تلك العمليات كانت تعود إلى أصحاب الأسهم ومعظمهم من اليهود خارج البلد .

وجاءت مع وفرة الأموال وفود المهاجرين تترى من أوربا عامة ومن روسيا وبولندة خاصة وأخذت أعدادهم تتضاعف من ٧٫٤٠٠ فى سنة ١٩٢٣ إلى ١٢٫٨٠٠ فى سنة ١٩٢٤ إلى ٢٣٫٨٠٠ فى سنة ١٩٢٥ وعلى ذلك بدأت مشكلة المهاجرين اليهود وهى من أعقد مشكلات المسألة الفلسطينية .

وكانت حركة الهجرة كلما ازدادت نشاطا اشتد حنق العرب ولاحت أمامهم صور المستقبل مخيفة مفزعة حين تطغى كثرة اليهود فتنزع أراضيهم من أيديهم وتتحكم فى مصاير البلاد بحكم الأكثرية ولذلك لم يكن غريبا أن يقوم العرب بثوراتهم المتلاحقة ضد ذلك الطغيان المنظم المتواصل الذى لا يلين ولا يرحم .

وكأنما أراد اليهود أن يبرهنوا للعالم أجمع على أنهم جديرون بالوطن الجديد فجعلوا ينافسون الطبيعة ويسابقون الزمن فى منشآتهم وإصلاحاتهم وفى تعمير المدن التى شيدوها وأبدعوا تصميمها وفى الصناعات التى أقاموها والمستنقعات التى جففوها والزراعات التى أدخلوها والمدارس والمستشفيات التى أعدوها وجهزوها على أحدث الأنماط العلمية .وكانت الحكومة المنتدبة فى كل ذلك هى المرشدة والراعية والحامية .

وليس صحيحا مايقال الآن من أن إنجلترا قد فشلت فى انتدابها فإن سياستها قد مكنت للبذرة الصهيونية أن تنبت وتنمو وتثبت جذورها فى أرض البلاد وهى التى جعلت اللغة العبرية مع اللغتين العربية والانجليزية لغة رسمية وهى التى تركت لهم طريقة استغلال العرب واستخلاص أراضيهم منهم .

بذلك اتسعت أعمال اليهود ونمت مصالحهم فى فلسطين ووجدوا تحت أجنحة الوكالة اليهودية الحماية والعطف وأسباب المعاونة ، وأصبح لليهود فى فلسطين من الجاه والنفوذ مثل ما كان لحكومة الانتداب فى معظم الحالات .

وحين كان التعاون قائماً بين الفريقين لم يكن خطر من جراء هذه المساواة فلما انقطعت أسباب الثقة بين اليهود وحكومة الانتداب صارت هذه المساواة بين السلطتين نقمة عمت البلاد ، فقد بطل التعاون وامتنع فريق كبير من الجمهور عن مساعدة حفظة الامن وتعثرت الحكومة فى إجراءاتها وتعذر عليها تنفيذ القوانين وكفالة الاحترام لها . ولم يحس اليهود حين انقلبت عليهم الادارة بفقد شيء ذى بال فقد أضاع تمرسهم بالاستقلال فى نواح كثيرة كل أثر لسلطة الحكومة القائمة بالأمر .

وكأنما كان هذا الاستقلال النوعى الذى نعم به اليهود فى فلسطين لأول مرة بعد قرون طويلة قضوها فى بلادهم الأصيلة رازحين تحت ألوان مختلفة من القيود والأغلال سبباً إلى تنبيه شهوة الانتقام فى نفوسهم من الغير ، فاجتنبوا العرب ولم يبذلوا أية محاولة جدية لمشاركتهم أو التعاون معهم فى شيء ، على حين تنتظمهم جميعا دولة واحدة وتحويهم بيئة واحدة وتظللهم مصالح بلاد واحدة . ولكن عزلة اليهود التى نشأوا عليها منذ كانوا والتى عرفت عنهم فى معظم البلاد التى آووا إليها ظلت ملازمة لهم حتى بعد أن سمحت لهم الاقدار بمأوى قومى فى فلسطين فقد حرموا استخدام العرب فى الأراضى التى يشترونها منهم كما منعوا إعادة انتقال الاراضى بالبيع إلى العرب وحظروا انتفاع العرب بأى جزء من

اموال الحركة الصهيونية ، ولو استطاعوا منع العرب من الانتفاع بالمنافع العامة التى نشأت ما تورعوا عن ذلك .

حتى الجامعة التى أنشأوها على مقربة من القدس وهى الجامعة الوحيدة فى البلاد قد آثروا أن يكون التعليم فيها باللغة العبرية وبذلك أغلقوا باب التعليم العربى فى وجه العرب جميعاً مسلمين ومسيحيين فاضطروا إلى تحمل نفقات التعليم خارج فلسطين فى مصر أو لبنان أو جامعات الغرب . وقد يسأل سائل : كيف سمحت حكومة الانتداب فى لائحة إنشاء الجامعة العبرية أن يقصر التعليم فيها على استعمال اللغة العبرية فى بلاد قررت الحكومة نفسها أن تكون اللغات الرسمية فيها هى العربية والانجليزية والعبرية ؟ ولكن من ذا يجيب ؟

ومن سوء طالع العرب فى ذلك الوقت أنهم كانوا يعملون فرادى فلم تكن لهم هيئات داخلية منظمة تسهر على مصالحهم ولا حكومات عربية مستقلة ترعى شئونهم وتسند ظهورهم ، فكانوا مقطوعين عن اخوانهم العرب فى البلاد الأخرى كما كانوا حيارى مأخوذين مشدوهين مما يجرى على مرأى ومسمع منهم ، فقدرأوا كيف هاجم الفرنسيون الملك فيصل وطاردوه هو واتباعه حتى أجلوه عن سوريا ولم يرعوا فى ذلك ذمة ولا عهدا مما سبق أن عاهدوا عليه العرب مذ كان فيصل يقود جموعهم لنصرة قضية الحلفاء فى الشرق ، ورأوا الانجليز يدخلون العراق ويحكمونه حكماً عسكرياً ، ورأوا مصر تثور وتكافح فى سبيل إستقلالها والانجليز لايزالون مسيطرين فيها . وأدهى من ذلك وأمر أن العرب لم يكن من ورائهم حكومات مستقلة تسندهم وتشد أزرهم اللهم إلا حكومة الحجاز وكانت فى غمرة من حروبها ومنازعاتها الداخلية بين الأسرتين المتزعمتين فى شبه الجزيرة الأسرة الهاشمية والأسرة السعوديه . لذلك كله أسقط فى يد العرب الفلسطينيين ولم يسعهم إلا أن يتربصوا بعدوهم الدوائر مترقبين أن تحين الفرصة للإنتقام من اللذين خانوا مواثيقهم وإذلوهم فى ديارهم .

وجاءت الفرص على فترات متعاقبة فكلما قامت ثورة أو حركة وطنية فى إحدى

البلاد العربية تشجع العرب فى فلسطين وقاموا يناوئون الإستعمار الصهيونى الذى أوشك أن يقضى على كثرتهم ويستحوذ على أملاكهم وديارهم فثاروا عندما شبت ثورة العراق ضد الأنجليز فى سنة ١٩٢٠ وحين شبت الثورة فى سوريا ضد الفرنسيين سنة ١٩٢٥ . واستمد العرب من المعاهدة الأنجليزية العراقية فى ١٩٣١ التى ضمنت للعراق إستقلاله وقبوله فى عصبة الأمم على قدم المساواة مع سائر الدول المستقلة روحا جديدة للكفاح والنضال .

ولكن هذه الجهود جميعها ذهبت هباء وإستطاعت حكومة الإنتداب بما لها من بأس وقوة أن تقمع الثورات العربية وتؤيد نظام الإنتداب فى البلاد . وبدلا من أن تضعف الروح الصهيونية وتقف عند حد فى مطامعها إجتاحت البلاد على أثر ظهور الثورة النازية فى ألمانيا ووسط أوربا عواصف جديدة ، إذ نزحت إلى فلسطين آلاف مؤلفة من اليهود اللذين اضطهدهم النازيون وأخرجوهم من ديارهم فجاءوا باسرهم إلى أرض المعاد حاملين معهم ثرواتهم وكفاياتهم ، فدخل بعضهم عن طريق الهجرة المشروعة وأنسل كثيرون إلى داخل البلاد خلسة وفى غفلة من القانون أو تغافل من القائمين على تنفيذه . وبعد أن كان عدد المهاجرين سنويا من اليهود يتراوح بين ٤٠٠٠ فى سنة ١٩٣١ و ٩٥٠٠ سنة ١٩٣٣ قفز عددهم فى سنة ١٩٣٤ إلى ٤٦٫٠٠٠ مهاجر وفى عام ١٩٤٥ بلغ عددهم أكثر من ٦٠٫٠٠٠ مهاجر .

وترى فى الجدول الآتى عدد اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين بين سنتى ١٩١٩ و ١٩٣٧ من البلاد المختلفة والنسبة المئوية لكل دولة :

الدولة	عدد المهاجرين	النسبة المئوية
بولندة	١٣١٢٤٩	٤٢ ٪
ألمانيا	٣٥٣٤٦	١١ ٪
روسيا	٣٠٧١٨	١٥ ٪
رومانيا	١٥٥٢٨	٥ ٪

ويلى ذلك المهاجرون من لتوانيا واليمن والولايات المتحدة وجهات متفرقة .

ويلاحظ أن معظم المهاجرين وفدوا من بولنده وأوربا الشرقية . أما يهود غرب اوربا المقيمون فى إنجلترا وبلجيكا الخ ... فقد أندمجوا فى الشعوب التى يقيمون بين ظهرانيهم وتجنسوا بجنسياتهم وليس مما ينفعهم أن ينزلوا عن المزايا التى يتمتعون بها فى تلك البلاد ، وكل مايهمهم من الحركة الصهيونية أن يمدوها بأموالهم وبنفوذهم السياسى والأدبى .

ولم يقتصر الخطر على تفاقم مشكلة المهاجرين بل أن تحولا خطيراً قد طرأ على المعركة الصهيونية نفسها وجعلها حركة عالمية تشمل يهود العالم كله . وقد كان اليهود إلى وقت قريب منقسمين يؤيد بعضهم حركة الوطن القومى لليهود فى فلسطين، ويرى الآخرون أن إنشاء الوطن القومى أو الدولة اليهودية كما يؤيدها الصهيونيون سيعرض اليهود المتجنسين بالجنسيات الأجنبية فى البلاد المختلفة لأخطار مؤكدة إذ يجعلهم فى نظر مواطنيهم كأنهم أجانب مبغدون عن دولتهم وقد تعمد بعض الحكومات إلى تجريد اليهود فيها من جنسية البلاد التى ولدوا وعاشوا فيها وقد يؤدى ذلك كله إلى إضطهادات جديدة ضد اليهود . وكان معظم المعارضين لفكرة الدولة اليهودية من أهالى بريطانيا والولايات المتحدة .

فلما جاءت سنة ١٩٢٩ ورأى اليهود ما أصابته سياسة الوطن القومى فى فلسطين من النجاح الفكرى والاقتصادى حتى بلغ عدد اليهود فيها نحو ١٦٠٫٠٠٠ بعد ان كان عددهم لا يزيد على ٨٥٫٠٠٠ فى سنة ١٩١٤ و ١٠٠٫٠٠٠ فى سنة ١٩١٩ انكسرت حدة الخلاف بين الفريقين وتقرر فى المؤتمرات الصهيونية أن يتناسى الفريقان ما بينهما من خلاف ويوحدا جهودهما وأن تكون لجانهم فى المستقبل من أعضاء متساويين من الفريقين وأن يعمل الجميع قلباً واحداً ويداً واحدة لتحقيق أغراض اليهود فى فلسطين ، وبذلك استمدت الحرب الصهيونية العون والمال من أمريكا وهولندة وسائر بلاد العالم وأنشأوا لهم فى مختلف البلاد شعباً ووكالات علنية أو سرية على اختلاف موقف الحكومات إزاءهم . وأصبح للصهيونيين بفضل زعيمهم ويزمان قوة ونفوذ فى العالم شبيه بقوة الدول والحكومات المستقلة ذات السيادة .

لذلك لم يكن غريباً أن يقوم العرب فى فلسطين بثورتهم الكبرى سنة ١٩٣٦ بعد أن أحسوا أن الصهيونيين يريدون أن يقتلعوا العرب من ديارهم أو أن يواصلوا هجرتهم المشروعة وغير المشروعة حتى يصلوا إلى الكثرة العددية فى البلاد وحينئذ لا يضيرهم أن تنال البلاد الاستقلال الذاتى أو الكامل ما دامت الكثرة إلى جانبهم . أما قبـــل أن تتوفر لهم الكثرة فبعداً للاستقلال الذاتى وسحقاً للمجالس أو الجمعيات التشريعية أو الاستشارية أو نحو ذلك مما اقترحته اللجان التى ألفتها الحكومة الانجليزية لبحث أسباب ثورات العرب وطوى إلى غير رجعة لمعاونة الصهيونيين .

وفى سنة ١٩٣٥ — ١٩٣٦ اكفهر الجو الدولى العام على أثر هجوم إيطاليا على الحبشة وتحديها لبريطانيا ومن ورائها عصبة الأمم وأيقن الجميع أن خرافة التأمين الجمعى التى جاء بها ميثاق العصبة لم تعد تكفى لتأمين الشعوب على حرياتها واستقلالها ، وأن الواجب الوطنى يقتضى الشعوب أن تعتمد على نفسها وتأخذ الأهبة للدفاع عن حرياتها ، فقامت تركيا تعلن عزمها على تحصين المضايق وتسليحها ، وقامت مصر قومة رجل واحد تطالب انجلترا فى جبهة وطنية متحدة أن تعقد معها معاهدة تصون استقلالها . ومن مصر امتدت المعركة إلى بلدان الشرق فقام العرب فى فلسطين متحدين يذودون عن حقوقهم ، وقد أحسن الزعماء قيادة الحركة فواصل العرب كفاحهم بعزم وقوة ، وكان من أروع مظاهر ثورتهم إضرابهم العام ستة أشهر وقيام عصابات من بينهم للكر والفر يقودها رؤساء مدربون شجعان قد اتخذوا قواعدهم فى مكامن الجبال والوهاد وظلوا يواصلون غزواتهم غير آبهين بجيوش العدو ودباباته وطائراته .

وكان من أثر هذه الثورة الكبرى أن تنبه الانجليز آخر الأمر إلى أن للعرب حقوقاً قد ديست وافتات عليها اليهود . وما كان الانجليز يجهلون ذلك يوما ولكن تطورات السياسة العالمية بعد سنة ١٩٣٥ حين تحدت إيطاليا بريطانيا ومعها عصبة الأمم قد أجبرت الانجليز على مواجهة الحقائق لا فى فلسطين فحسب بل فى تركيا

والبلقان وفى مصر كذلك حيث سارعت بعقد معاهدة سنة ١٩٣٦ .

فقد اقتنع الانجليز أخيرا أن تحدى إيطاليا وألمانيا للعصبة وللمواثيق الدولية لا بد أن يؤدى آجلا أو عاجلا إلى الحرب وأن مبدأ التأمين الجمعى أو التعويل على ميثاق عصبة الأمم لم يعد واقيا منها أو مانعا لها مهما تبدلت الأحوال فأخذت انجلترا تقرر الاعتمادات المالية الكبرى لتقوية أسلحة الحرب المختلفة ، ورأت أن تدعم مركزها فى شرق البحر المتوسط خاصة تاركة الجزء الغربى منه لفرنسا ولها قواعدها الحصينة على سواحل أفريقية الشماليه . وقدرت بريطانيا فى سياستها أن صداقة العرب فى الشرق ستكون خير درع لها تتق به هجمات الفاشية والنازية فى تلك الأرجاء . وإذا كانت إنجلترا قد فرضت عليها الضروريات فى الحرب العالمية الأولى أن تتحبب إلى العرب وتسعى إلى مرضاتهم وحدها ودون علم من حلفائها لتستميلهم إلى جانب الحلفاء ولم يكن للعرب إذ ذاك دول ولا جيوش ولا سلطان فكيف بها الآن وقد أضحى للعرب دول وبأس وجيوش قوية وصار لبعضهم كمصر والعراق منتجات وإمدادات من البترول لا تنضب ، بعضها يصل إلى السويس وأهمها متصل بأنابيب ممتدة من آبار كركوك والموصل بالعراق إلى حيفا وطرابلس ويحرسها العرب فى العراق وسوريا وشرق الأردن وفلسطين.

لذلك بدأت الحكومة الانجليزية تنظر إلى المستقبل بعين الحذر واليقظة وتخشى أن تفاجئها الحرب فتواجه ثورة دامية على أبواب الشرق الأوسط فسارعت فى سنة ١٩٣٦ بتأليف لجنة لورد بيل Peel لبحث الحالة فى فلسطين والتقدم بمقترحاتها .

وقد اضطلعت اللجنة بهمة وكفاية جديرتين بالتنويه ولكنها مع الأسف أخطأت فى قراراتها النهائية إذ جلعت للصهيونيين حقا مساويا للعرب فحولت الوطن القومى لليهود إلى دولة سياسية لها كيانها الخاص وقسمت البلاد التى لا تزيد مساحتها على ١٠٤٢٩ ميلا مربعا والتى يبلغ عدد سكانها ١٫٤٠٠٫٠٠٠ نفس إلى ثلاثة أقسام :

القسم الساحلى ومن خلفه السهول الخصبة وقد جعلته لليهود وتركت فيه أقلية عربية تكاد تتساوى فى عددها مع اليهود وبه ميناءا حيفا وعكا .

وخصصت للعرب الجزء الداخلى على أن ينضم إلى شرق الأردن ويكون معها دولة واحدة تفصل الدولة اليهودية المقترحة بينها وبين سوريا ولبنان كما تفصل تلك الدولة بينها وبين ساحل البحر اللهم إلا ممر ضيق يؤدى إلى يافا .

وأبقت الأماكن المقدسة فى القدس وبيت لحم والناصرة تحت حكم الدولة المنتدبة مباشرة على أن ترتبط الدولتان العربية واليهودية اللتان اقترحتهما اللجنة مع الحكومة الانجليزية بمعاهدتين منفصلتين تضطلع فيهما إنجلترا بمهمة الانتداب. وهذه المقترحات شبيهة فى مجموعها بمقترحات الكونت برنادوت التى قدمها لهيئة الأمم المتحدة قبل وفاته .

وما كادت محتويات التقرير تذاع حتى استنكر العرب على اختلاف احزابهم تقسيم بلادهم ورفضوا قبوله بتاتا . أما اليهود فقد لقى التقرير من بينهم فئة تحبذ قبول مقترحاته وقد قر مؤتمرهم الذى اجتمع فى زيوريخ بسويسرا فى اغسطس سنة ١٩٣٨ تأييد ويزمان فى اقتراحه أن يواصل اليهود مفاوضاتهم بشأن التقسيم مع رجال الحكومة البريطانية بقصد الوقوف على التفصيلات المقترحة لانشاء الدولة اليهودية .

وهذا الموقف المتباين بين العرب واليهود بشأن تقسيم فلسطين يذكرنا بالقصة المعروفة عن المرأتين اللتين احتكمتا إلى سليمان الحكيم بشأن بنوة طفل كانتا تتنازعانه فلما استمع سليمان إلى حكاية المرأتين رأى بحكمته أن خير وسيلة للتعرف على أم الطفل الحقيقية ان أمر بقسمة الطفل قسمين لكل منهما نصف فقبلت احدى المرأتين القسمة وأما الأم التى خافت أن تثكل ابنها فصرخت فى وجه الملك وآثرت النزول عن حقها ابقاء على لحياة ابنها .

وكانت الحكومة الانجليزية فى أول الأمر تؤيد فكرة التقسيم فلما عرض التقرير على مجلس العموم قرر المجلس عرض الاقتراح على لجنـــة الانتدابات

بعصبة الأمم وقد أقرت هذه اللجنة المشروع مبدئياً مؤيدة بقاء الانتداب على الدولتين وارجاء استقلالها مؤقتاً وطلبت إلى الحكومة الانجليزية عرض البيانات اللازمة لتنفيذ فكرة التقسيم . فألفت الحكومة لجنة فنية برئاسة وودهد Woodhead لدراسة مشروع التقسيم .

وفى أثناء ذلك تجددت الاضطرابات فى فلسطين واستأنف العرب ثورتهم أشد مما كانت عليه قبل ظهور تقرير اللجنة وقد استمدوا من بعض فقراته مبررات لكفاحهم وعنفهم فتمادوا فى حركتهم حتى بلغ عدد من قتل من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٩ : ١٧٩١ وعدد الجرحى ٣٢٨٨ وفقد العرب نحو ألفى نفس . وحدث أن هوجم نائب الحاكم الانجليزى لأحد الأقسام فى الناصرة وقتل أمام الكنيسة الانجليزية فلم تطق الحكومة صبرا على ذلك وأصدرت فى اكتوبر سنة ١٩٣٨ قراراً بحل اللجنة العربية العليا والغاء وظيفة المفتى زعيم العرب فى فلسطين والقبض على بعض زعماء العرب . فتمكن الزعيم الفلسطينى وآخرون من الفرار إلى لبنان ومنه إلى العراق فكان يباشر من منفاه سير القضية خطوة خطوة . أما الزعماء الآخرون فقد نفوا إلى سيشل بالمحيط الهندى ثم نقل بعضهم إلى روديسيا بجنوب أفريقية فى أثناء الحرب الأخيرة ولم يفرج عنهم إلا بعد نهاية الحرب .

وكانت لجنة وودهد قد فرغت من عملها فظهر لها من الصعاب فى طريقة تنفيذ اقتراح القسمة ماجعلها وحمل الحكومة على أن تعدل عن فكرة التقسيم .

وقد أعادت الحكومة الإنجليزية بعد الحرب بحث فكرة التقسيم مرة أخرى، ولكن العرب أصروا على رفض التقسيم كيفما كان واثقين أن اليهود لن يقفوا عند الحدود التى توضع لهم ، وأن دولة تحكمها هيئة عالمية ووطنية فى وقت واحد كالهيئة الصهيونية لابد أن تتسع وتنمو مع الزمن ومع توالى الهجرة وتدفق رؤوس الأموال من يهود العالم بأجمعه فتصبح مصدر خطر لا على الدولة العربية الشريكة فحسب بل على الدول العربية وغير العربية المتاخمة جميعا وحينئذ لايقتصر خطر

الدولة الصهيونية على الناحية الحربية بل يشمل النواحي الاقتصادية والثقافية والايديولوجية .ولا ننسى أن نحو نصف يهود العالم روسيون أو بولنديون مولدا وأن الزعيم اليهودى الشهير ويزمان ولد وترعرع فى ظل روسيا، وأن لروسيا كما لغيرها مطامع تصبو إلى تحقيقها فى الشرق الأوسط ، فاذا ما قامت دولة لليهود فى الشرق الأوسط ووقفت كقاصمة الظهر وسط بنيان الدول العربية لا يلبث الروس أوغيرهم من الدول الكبرى أن يتخذوا منها رأسا للرمح الذى يقتحمون به الميدان الجديد .

وكانت الأزمةالسياسية الأوربية قد بلغت منتهاها فىسنة ١٩٣٩ وباتت الحرب على الأبواب فقررت الحكومة الإنجليزية أن تنظم مؤتمراً فى لندن يدعى إليه كل من العرب واليهود على انفراد، ومتى وصل الفريقان إلى حل ترتضيه الحكومة الانجليزيةويرتضونه جميعاً اجتمعت العناصر الثلاثة فى مؤتمر واحد للاتفاق النهائى.

وقد قررت الحكومة الانجليزية أن تدعو إلى هذا المؤتمر الدول العربية المستقلة حينذاك ؛ وكان اشتراك هذه الحكومات فى المؤتمر أول اختبار دولى ظهرت فيه قوة الدول العربية مجتمعة .

ولقد لبى الدعوةإلى المؤتمر ممثلو الدول العربية بمصر والعراق والمملكة العربية السعودية وشرق الأردن واليمن . أما عرب فلسطين فكانوا فى وضع شاذ إذ كان زعماؤهم منفيين مشردين خارج بلادهم فعارض العرب فى حضور المؤتمر مالم يمثلهم فيه الزعيم الفلسطينى أمين الحسينى ثم ارتضوا أخيراً إرسال إثنين من زعمائهم، وقد استجابت الحكومة الانجليزية إلى بعض طلباتهم فأفرجت عن المنفيين فى سيشل وتركت لهم حرية الاقامة خارج فلسطين .

واجتمع المؤتمر فى يناير سنة ١٩٣٩ وظل قائما إلى شهر مارس دون أن ينتهوا فيه إلى قرارات حاسمة .

وكان الجو الدولى قد أخذ يتلبد بالغيوم فسارعت إنجلترا إلى فض المؤتمر وأرادت أن تضع الفريقين أمام الأمر الواقع قبل نشوب الحرب فأصدرت

فى ١٧ مايو سنة ١٩٣٩ كتابا أبيض نال موافقة البرلمان الانجليزى وفيه قرر وزير المستعمرات حل المشكلة على الأسس الآتية : أعلنت الحكومة الانجليزية صراحة أنه ليس من خطتها السياسية تكوين دولة يهودية فى فلسطين كما نفت الدعوى التى استمدها العرب من خطاب ماكماهون والتى تقوم على ضم فلسطين إلى الدولة العربية. وصرحت أن الهدف الذى تعمل له بريطانيا انما هو تكوين حكومة مستقلة لفلسطين من الجنسين العربى واليهودى بحيث تؤمن فى هذه الحكومة مصالح الفريقين. ويكون إنشاء هذه الحكومة المستقلة فى مدى عشر سنين وعلى أساس معاهدة تعقد مع بريطانيا وتصان بها مصالح البلدين من الوجهتين الاستراتيجية والتجارية . ولتحقيق هذا الغرض ستعمل الحكومة على أن يضطلع الوطنيون الفلسطينيون بنصيب أكبر من المسئولية . ومتى استقر النظام والأمن فى البلاد عهد إلى أهل فلسطين بادارة مصالح الحكومة بارشاد مستشارين من الانجليز وتحت رقابة المندوب السامى ومن هذه النواة يتألف فى المستقبل مجلس الوزراء . وبعد خمس سنوات من استقرار الأمن فى البلاد تجتمع لجنة تمثل مندوبى الشعب الفلسطينى وحكومة جلالة الملك لوضع الدستور اللازم للبلاد . فاذا حدث ما يضطر الحكومة إلى تأجيل انشاء حكومة مستقلة للبلاد تشاورت بريطانيا مع مندوب الشعب الفلسطينى ومجلس عصبة الأمم والدول العربية قبل تنفيذ قرار التأجيل .

وقد قرر الكتاب الأبيض بشأن هجرة اليهود وهى موضوع شكوى العرب الصارخة أن يسمح بدخول ٧٥٫٠٠٠ مهاجر يهودى بمعدل ١٠٫٠٠٠ كل عام فى مدى خمس سنوات يضاف إليهم ٢٥٠٠٠ مهاجر هو نصيب فلسطين من مشردى حكومة النازى أخيراً .

أما مسألة الأراضى فقد عالجها الكتاب الأبيض بتحريم بيع الأراضى لليهود فى المناطق التى يزدحم فيها السكان والتى لا سبيل إلى إصلاح أراضيها . وحدد مناطق أخرى يجوز فيها البيع باشراف الحكومة إذا كان البيع لفائدة الفريقين وعين مناطق أخرى يجوز فيها البيع اطلاقا .

وقد استقبل العرب الكتاب الأبيض بكثير من التوجس يتردد بين السخط والرضاء . أما اليهود فقد رفضوه رفضاً باتا لأنه عاد بهم إلى نظرية الوطن القومى فى فلسطين وتبديدالفكرة التى نبتت وأورقت فى أذهان اليهود منذ الانتداب وهى فكرة انشاء الدولة اليهودية فى فلسطين .

وقد ظهر سخط اليهود على سياسة الكتاب الأبيض فى القرار الذى اتخذته لجنة الانتدابات فى عصبة الأمم فقد رفضته بسبعة أصوات ضد أربعة . ولكن الحكومة الانجليزية لم تلق بالا إلى هذا الرفض وسارت فى سياستها وفق الكتاب الأبيض .

ويعتبر ظهور الكتاب الأبيض بالنسبة لليهود خاتمة لمرحلة التعاون مع دولة الانتداب ومبدأ لمرحلة العداء المستحكم ضد الانجليز . وقد أدركت الوكالة الصهيونية وشعبها فى العالم مبلغ ما ينتظرها من الكفاح فى سبيل نقض قرارات الكتاب الأبيض فجعلت تستعد لذلك استعداداً محكم الحلقات . وأول ما لجأت إليه الاحتيال على تفادى تطبيق قانون نقل الأراضى لسنة ١٩٤٠ فكان اليهود يلجأون إلى وضع أيديهم على الأراضى التى يتفقون على شرائها دون الدخول فى اجراءات البيع اعتماداً على أنه إذا انقضت المدة المقررة فى القانون لحق واضع اليد فى التملك وهى عشر سنوات أصبحت الأرض ملكا لهم . أما الخطط التى رسموها لنقل المهاجرين سراً فقد ظهر بعد الحرب انها خطط دولية محكمة اتفق عليها الصهيونيين فى البلاد المختلفة لتيسير نقل اليهود أو تهريبهم إلى فلسطين دون أى اكتراث بالدولة المنتدبة أو بمصالح أهل البلاد وسكانها أو بالقوانين المرعية فيها .

* * *

لم تمض بضعة أسابيع على ظهور الكتاب الأبيض فى مايو سنة ١٩٣٩ حتى اندلعت نيران الحرب الأخيرة وأصبحت حاجة انجلترا إلى معاونة الفريقين شديدة . فعمدت إلى ترضية اليهود باغفال ما أغضبهم من قرارات

الكتاب الأبيض واستغلت مصانعهم وعمالهم الفنيين فى الانتاج وتطوع منهم آلاف فى صفوف القوات المحاربة حتى وصل عددهم إلى نحو ستة وعشرين ألفاً يعملون فى مختلف الوحدات .

وأوقف العرب نشاطهم الثورى كذلك وانضم عدد منهم إلى صفوف الحلفاء ولكنهم لم يبلغوا نسبة اليهود فلم يزد عددهم على اثنى عشر ألفاً .

وليس لانجلترا أن تقارن بين نصيب العرب ونصيب اليهود فى الحرب العالمية الثانية فحسب العرب أنهم أخلدوا إلى السكون وعاونوا فى الحرب ضد قوات حكومة فيشى فى سوريا ولبنان وساعدوا على احباط مساعى المحور فلم يخفوا لمعاونة الثوار فى العراق واحراج مركز الحلفاء فى الشرق الأوسط .

أما اليهود فقد كان لهم قبل الحرب قوات مدربة للقتال أو لحفظ النظام فى فلسطين فلما أعلنت الحرب انضمت هـــذه القوات إلى صفوف الحلفاء . وياليتهم ما انضموا إلى الحلفاء فقد اتخذوا من انضمامهم ستارا أخفوا وراءه نيات إجرامية مبيتة ، واهتبلوها فرصة للتمرن على استعمال الأسلحـــة المختلفة وأدخروا من السلاح والذخيرة الحربية كميات هائلة ظهر أثرها فى أعقاب الحرب حتى الأغذية وغيرها من أنواع المساعدات التى كانت تقدمها لجنة الترفيه الدولية العالمية كانت تستغل وتستخدم لفائدة اليهود وخاصة لفائدة العناصر التى رأوا أن تنقل سراً من أوربا إلى فلسطين بعد الحرب للانخراط فى سلك الحركة الارهابية اليهودية التى بدأت فى اعقاب الحرب الأخيرة .

وبدأوا حملتهم ضد وقف الهجرة بجميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة ولم تهدأ حركة الهجرة القهرية إلا حينما أصرت الحكومة الانجليزية على الابحار بالمهاجرين إلى معسكرات أعدتها لهم فى قبرص وشرق أفريقية عند ذلك فت فى ساعد اليهود حين عرفوا أن الهدف للهجرة هو قبرص لا فلسطين العزيزة .

ولا ننسى أن الحرب انتهت بتفوق أمريكا . والولايات المتحدة بحزبيها الديمقراطى والجمهورى على صلات طيبة بالصهيونيين فظنوا أن الفرص قد واتتهم

لمهاجمة الانجليز معتمدين على سكوت روسيا ومعاضدة الولايات المتحدة وفيها أربعة ملايين ونصف ومليون يهودى يتبرعون للحركة الصهيونية سنويا بما لا يقل عن خمسة ملايين ونصف من الدولارات .

وقد أصبح لليهود بعد الحرب جيش سرى مدرب يعرف « بالهاجانا » ومعناها « الدفاع » ، وقد استطاعوا أن يسلحوا أنفسهم بما أتاح لهم اشتراكهم فى الحرب أن يحصلوا عليه من أنواع الأسلحة وبما صنعه الارهابيون فى مصانع سرية خاصة أو جمعوه خلسة فى الداخل والخارج، ولهم فى مختلف المستعمرات الزراعية التى أنشأوها فى فلسطين مخابىء ومخازن زودوها بمختلف الأسلحة والذخيرة استعدادا للكفاح فى الوقت المناسب ، وكانت الحكومة قد سمحت لتلك المستعمرات فى أثناء الثورات العربية أن يتخذوا قوات بوليسية فسهل على اليهود تحويل تلك القوات البوليسية إلى وحدات حربية .

وقد بلغ عدد المنتمين إلى فئة الهاجانا نحو ١٠ الف يهودى . وقد كوفح أفراد هذه الفئة عقب صدور الكتاب الأبيض ، ولكن الحرب اعطت اليهود الفرصة الذهبية للاستعداد الحربى فقد دربوهم على حرب العصابات فى الجبال وانشأوا منهم فرقة للفدائيين أو الكوماندو واستخدمهم الحلفاء فى مختلف الميادين . فلما انتهت الحرب عاد الحظر على جماعة الهاجانا فنشطت المؤامرات والاعتداءات السرية وظهرت شعب ارهابية لم تعجبها سياسة الهاجانا المنظمة ، فنشأت جماعات أكثر جرأة وأشد عنفا وفتكا مثل جماعة اشترن Stern وهو اسم الطالب الشاب الذى تزعم الشعبة وقتل فى أثناء مقاومته البوليس فى بعض الحوادث . ومن أعضاء هذه الشعبة الشابان اليهوديان اللذان اغتالا فى القاهرة لورد موين Moyne الوزير الانجليزى فى الشرق الأوسط وتابعه فى يناير سنة ١٩٤٥ ومنهم من حاول قتل المندوب السامى البريطانى فى فلسطين ومنهم قتلة الكونت برنادوت وسيط هيئة الأمم المتحدة فى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٤٨ .

وليس ادل على حقيقة شعور اليهود حتى المسئولين منهم نحو الحركة الارهابية

عما جاء على لسان زعمائهم أمام لجنة التحقيق الامريكية الانجليزية فقد أبدوا اسفهم الشديد للاعمال الأرهابية التى ترتكب ولكن واحدا منهم لم يبد استهجانه لهذه الأعمال أو يتمنى زوالها بل تلمس لهم زعماؤهم الأعذار . ولا عبرة باعلان تبرؤ وكالة اليهود من أعمال الارهابيين ولا باختلاف الرأى بين المعتدلين منهم والمتطرفين فالجميع سواء منهم المعتدلون والمتطرفون يلتقون عند هدف واحد وهو فتح باب الهجرة إلى دولة اسرائيل المزعومة على مصراعيه حتى تكون لهم الكثرة الساحقة فى البلاد .

ولكن بريطانيا وقفت عند رأيها الذى اذاعته فى ١٩٣٩ / ١٩٤٠ واحترمت نصوص الكتاب الأبيض ، فلما أعلن مستر ترومان Truman رئيس الولايات المتحدة رغبته إلى رئيس الحكومة البريطانية فى الترخيص بهجرة ١٠٠٫٠٠٠ يهودى إلى فلسطين تفريجا لازمة اليهود المشردين فى أوربا من جهة واستمالة للرأى اليهودى الامريكى من جهة أخرى رأت حكومة العمال الانجليزية التى تولت الحكم عقب انتهاء الحرب فى صيف ١٩٤٥ أن الفرصة قد سنحت لاعلان رأيها فى مسألة فلسطين . وصرح مستر بيفن Bevin وزير الخارجية الانجليزية أن موضوع فلسطين قد أثار اهتماما خاصا فى امريكا وبريطانيا وفى املاك الدولة البريطانية كما أثار اهتمام الدول العربية المجاورة ونحو تسعين مليونا من مسلمى الهند ، وبما أن حكومة الولايات المتحدة قد طلبت من الحكومة الانجليزية إلا يتخذ قرار نهائى بشأن النظام الاساسى فى فلسطين إلا بعد التشاور التام مع العرب واليهود فقد وجهت الحكومة الأنجليزية الدعوة إلى الولايات المتحدة للتعاون معها فى تكوين لجنة مشتركة لبحث الحالة فى فلسطين من الوجهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتأثير هذه الحال فى مسائل هجرة اليهود واقامتهم فى فلسطين ورفاهية السكان الحاليين .

على أن مستر بيفن لم يجرؤ على حظر الهجرة فاشار فى خطابه إلى استمرار قبول المهاجرين بصفة مؤقتة حتى تنتهى اللجنة المشتركة من تقديم تقريرها وقد حدد عدد

المهاجرين الذين يقبلون بمعدل ١٥٠٠ شهريا . كما أشار إلى امكان تحويل الانتداب على فلسطين إلى وصاية وفقا لميثاق هيئة الأمم المتحدة .

وكان اعلان انجلترا لهذه السياسة الجديدة سبباً فى اثارة النشاط السياسى بين العرب فعملوا على اعادة تكوين اللجنة العربية العليا فى ديسمبر سنة ١٩٤٥ . وكان أول أثارها أن أرسلت ردها على مذكرة الحكومة البريطانية .وقد جاء فيه:

« ان الكلمة الأولى والأخيرة فى قضية فلسطين ومصيرها هى للشعب العربى الفلسطينى الذى يعتز بعطف الحكومات العربية عليه . . . والذى لا يعترف بأية دولة أجنبية أو أى شعب غريب بأى حق فى تقرير مصيره ومصير بلاده »..

وفى مايو سنة ١٩٤٦ صدر تقرير اللجنة الانجليزية الأمريكية بعد تحقيقات وزيارات قامت بها اللجنة فى أوربا وبلاد الشرق الأوسط فجاء التقرير حملا جديداً فوق أحمال من التقارير العديدة السابقة التى وضعت على الرف ولم يعمل بها .

وامتاز هذا التقرير على سوابقه بأنه لم يظفر بشىء من الرضا عند أحد المتنازعين ويظهر أن رئيس اللجنة القاضى الأمريكى هتشسون أراد أن يصدر وثيقة يبرر فيها طلب الرئيس ترومان بشأن الهجرة فجاء التقرير مؤيداً لنظرية الصهيونيين فى حرية الهجرة وحرية امتلاك الأراضى ولكنه خذلهم فى فكرة الدولة الصهيونية وهذا كل ما فيه مما يلائم سياسة العرب إلى حد ما [فقد صرحت اللجنة انه يجب ألا يسيطر اليهود على العرب ولا العرب على اليهود وان فلسطين لن تكون لليهود ولا للعرب ولكن للعالم اجمع لليهود والمسيحيين والمسلمين وأن تتولى الوصاية عليها هيئة الأمم المتحدة .

واستقبلت الحكومة الانجليزية التقرير بما يستحق من الاغضاء والصمت بل انها حاولت أن تفكر من جديد فى تنفيذ تقرير التقسيم الذى اقترحته لجنة بيل Peel سنة ١٩٣٧ وبدأت الحكومة الانجليزية تدعو إليها زعماء العرب واليهود للوقوف على آرائهم النهائية بشأن موضوع النزاع . فلما أعيتها الحيل معهم أعلن مستر بيفن فى فبراير سنة ١٩٤٧ ان محادثاته مع العرب والهيئة الصهيونية

لم تأت بنتيجة وان المشكلة القائمة لا يمكن حلها بالمفاوضة مع الفريقين كما أنه ليس لحكومة جلالة الملك تحت نظام الانتداب أن تعطى لفلسطين لليهود أو للعرب أو أن تقسمها بينهما . ولم يبق إلا أن تعرض المشكلة للتحكيم أمام هيئة الأمم المتحدة .

وقد دعيت الجمعية العمومية لهيئة الأمم إلى اجتماع استثنائى فى ابريل سنة ١٩٤٧ وتقرر تأليف لجنة محايدة لا تشترك فيها الدول الكبرى وتتألف من ١١ عضواً لتحرى حقائق موضوع النزاع، وقد تألفت اللجنة من مندوبى كل من الدول الآتية برياسة المندوب السويدى القاضى ساندستروم : السويد — كندا — استراليا — الهند — بيرو — هولندة — ايران — تشكوسلوفاكيا — يوغسلافيا — جواتيمالا — أورجواى .

وقد حاولت الحكومات العربية المشتركة فى هيئة الأمم أن تحمل الجمعية على تقرير الغاء الانتداب على فلسطين أو أن يكون استقلال فلسطين من الأسس التى تقوم عليها ابحاث للجنة فلم تفز بطائل وفضلت الكثرة أن تكون اللجنة حرة وغير مقيدة باتجاهات معينة .

على أنه بقدر ماكان للصهيونيين من قوة واسناد دولية فى نشر الدعاية إلى جانبهم وجد العرب من إنشاء الجامعة العربية وتوقيع ميثاقها فى ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ ومن اشتراك دول العرب المستقلة فى هيئة الأمم المتحدة أكبر دعاية لقضيتهم وأعز نصير لهم فقد أصدرت جامعة الدول العربية ميثاقها بحضور مندوب يمثل عرب فلسطين واتبعته بقرار خاص بالقضية الفلسطينية قالت فيه :

« إنه منذ نهاية الحرب العظمى الماضية سقطت عن البلاد العربية المنسلخة من الدول العثمانية ومنها فلسطين ولاية تلك الدولة وأصبحت مستقلة بنفسها غير تابعة لأية دولة أخرى ... وإذ لم تكن قد مكنت من تولى أمورها فان ميثاق العصبة سنة ١٩١٩ لم يقرر النظام الذى وضعه لها إلا على أساس الاعتراف باستقلالها ، فوجودها واستقلالها من الناحية الشرعية أمر لا شك فيه ».

كما إنه لاشك فى استقلال البلاد العربية الأخرى . وإذا كانت المظاهر الخارجية لذلك الاستقلال ظلت محجوبة لأسباب قاهرة فلا يسوغ أن يكون ذلك حائلا دون اشتراكها فى أعمال مجلس الجامعة . ولذلك ترى الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية أنه نظراً لظروف فلسطين الخاصة وإلى أن يتمتع هذا القطر بممارسة استقلاله فعلا يتولى مجلس الجامعة أمر اختيار مندوب عربى من فلسطين للاشراك فى أعماله .

ومع أن اللجنة العربية فى فلسطين قد رأت مقاطعة اللجنة سياسيا لزهد العرب فى القرارات النظرية التى تصدرها هذه اللجان فإن الدول العربية رأت إجابة اللجنة إلى دعوتها . وقد تقدمت اللجنة بتقريرها إلى الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة التى انعقدت فى نيويورك سنة ١٩٤٨ . وقد قررت الجمعية العمومية فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ قبول المقترحات التى تقدمت بها أكثرية اللجنة بأن تقسم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية وأن يتكون من الدولتين اتحاد اقتصادى وأن تترك مدينة القدس تحت وصاية دولية. وانتخبت الجمعية خمس دول للإشراف على تنفيذ التقسيم وهى : بوليفيا وتشيكوسلوفاكيا والدنمرك وبناما والفلبين . وقد كان بحث موضوع فلسطين فى الجمعية العمومية والاقتراع على تقرير اللجنة مصحوبا بمناورات ومؤامرات حاكها وفد الولايات المتحدة وأعوانه من الصهيونيين ضد الدول العربية مما جعل قرار الجمعية بشأن تقسيم فلسطين مثارا للاعتراض والنقد المرير من جهات عدة ولم يقترع ضد التقسيم من الدول الغربية سوى اليونان وكوبا . وحاولت الدول العربية تفادى قرار التقسيم بإحالة المشكلة إلى محكمة العدل الدولية فلم يلق اقتراحها قبولا .

وأهم مالفت أنظار العالم أثناء بحث المسألة موقف المندوب الروسى فقد كان المعروف أن روسيا البلشفية لاتضمر ميلا إلى جانب الصهيونيين إذ كانت تتهم الصهيونية بأنها أداة للاستعمار البريطانى ، وما دامت الشعوب العربية تناوىء الاستعمارين البريطانى والفرنسى فقد كان المتوقع أن تكون روسيا إلى جانب العرب ولا سيما بعد أن أوثقت علاقاتها الثقافية والدينية والسياسية

بعض الحكومات العربية وأوفدت صنائعها إلى الشرق الأوسط لبث الدعاية الشيوعية بين شعوبه . ولكن ماكادت المسألة تعرض للمناقشة حتى قلب المندوب الروسى موقف روسيا رأسا على عقب فأبدلت روسيا عداءها للصهيونية عطفا ومودة وأعلن مندوبها « أنه من الظلم أن ننكر على اليهود حقهم فى تحقيق أمانيهم » . وبذلك اجتمعت كلمة أقوى دولتين فى هيئة الأمم ضد العرب . وهما روسيا وأمريكا وأصبح لزاما على هيئة الأمم المتحدة أن تنفذ قرار التقسيم وهى تعلم حق العلم أن أحد الطرفين المتنازعين وهم العرب مصممون على عدم التفريط فى حقهم الطبيعى فى تقرير مصير بلادهم وأن الدول العربية قد أعلنت عدم ارتباطها بذلك القرار وأنها متفقة على منعه ووقف العدوان الصهيونى فى الشرق الأوسط ولو أدى ذلك إلى استعمال القوة .

ومع أن المادة ٤٥ من ميثاق هيئة الأمم تنص على أن يكون لمجلس الأمن قوة بوليسية دولية تقوم على تنفيذ قراراته إذا اقتضت الحال فان الدول لم تتفق على تأليف تلك القوة وبدأ الناس يرتابون فى قدرة الهيئة على تنفيذ قراراتها . ومما زاد فى تعقيد المسألة وربك الهيئة أن الحكومة الانجليزية وهى إذ ذاك صاحبة الانتداب فى فلسطين قد أعلنت فى أثناء ذلك أنها لن ترتبط بتنفيذ أى قرار بشأن فلسطين مالم يوافق عليه العرب واليهود جميعاً وأنها قررت نهائيا أن تنزل عن انتدابها فى فلسطين وأن تضع سلطانها فى أيدى اللجنة الخماسية التى ستتولى تنفيذ التقسيم نيابة عن هيئة الأمم وقد حددت تاريخا لانسحاب قواتها من فلسطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ . واستمرت بريطانيا تباشر إدارة البلاد ولاهم لها فى واقع الأمر إلا صيانة الأمن الذى أخل به الأرهابيون اليهود ووقف هجرة اليهود إلى فلسطين وقد جاءوا مئات وآلافا من وسط أوربا وشرقيها على سفن استأجروها من إيطاليا وفرنسا وأبحروا منها سرا قاصدين فلسطين فكانت السفن السفن الانجليزية تتعقبهم فى عرض البحر وتعتقلهم فى قبرص .

وماكاد قرار التقسيم يعلن حتى اغتبط اليهود واعتبروه نصرا عظيما لقضيتهم

فأخذوا منذ ذلك الوقت يعدون أنفسهم لاعلان دولتهم المزعومة وجعلوا يستجدون المال والسلاح من أنصارهم فى أمريكا ووسط أوربا وأخذ العرب من جانبهم يؤلفون فرقا من المتطوعين لمناوئة الصهيونية . وجاء المدد إلى فلسطين من مختلف أنحاء البلاد العربية والاسلامية وما برحت قوات المجاهدين العرب تزداد قوة حتى استولى الذعر على الصهيونيين ووضح أمام الدول التى ناصرت قضيتهم أنها أساءت الحكم والتقدير بموافقتها على قرار التقسيم فأعلن مندوب الولايات المتحدة فى مجلس الأمن أن حكومته لا تتقيد بتنفيذ قرار التقسيم وقد زاد فى ضعف نظرية التقسيم شل حركة اللجنة الخماسية التى ألفتها الهيئة لتنفيذ القرار واضطرارها إلى البقاء خارج فلسطين بعد أن رفضت الإدارة البريطانية أن تستقبلها إلا قبيل انسحاب القوات البريطانية من البلاد .

وكان كلما دنا موعد انتهاء الانتداب البريطانى استولى الخوف على اليهود بما عساه أن يحل بهم متى تركوا وجها لوجه أمام العرب فركبوا رؤوسهم واقترفوا من الجرائم والآثام ضد العرب فى دير ياسين وغيرها ما لطخ سمعة اليهود فى العالم كله بالفضيحة والعار ، ولم يسع الدول العربية ازاء ذلك الطغيان إلا أن تستعد لتأديب الصهيونيين والأخذ بيد العرب . ولذلك ما كاد الحاكم العام الإنجليزى يغادر ميناء حيفا فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ حتى أعلن اليهود من جهتهم قيام دولة إسرائيل وأطبقت على فلسطين من جهة أخرى جيوش الدول العربية من كل جانب . ومع أن حكومتى الولايات المتحدة وروسيا كلتاهما قد احتضنت الدولة المزعومة بمجرد ميلادها فان الجيوش العربية ـ الجيش المصرى من الجنوب والجيش العربى الأردنى والجيش العراقى من الشرق والجيشان السورى واللبنانى من الشمال والشمال الشرقى أخذت تزحف ووجهتهم يافا وتل أبيب مقر اليهود . واستطاع الجيش المصرى فى أيام معدودة أن يحتل غزة وبئر سبع وتدمير كثير من المستعمرات اليهودية فى الجنوب وجعل يواصل زحفه المظفر حتى بلغت قواته اسدود والمجدل وتفرعت منه قوة ساعدت

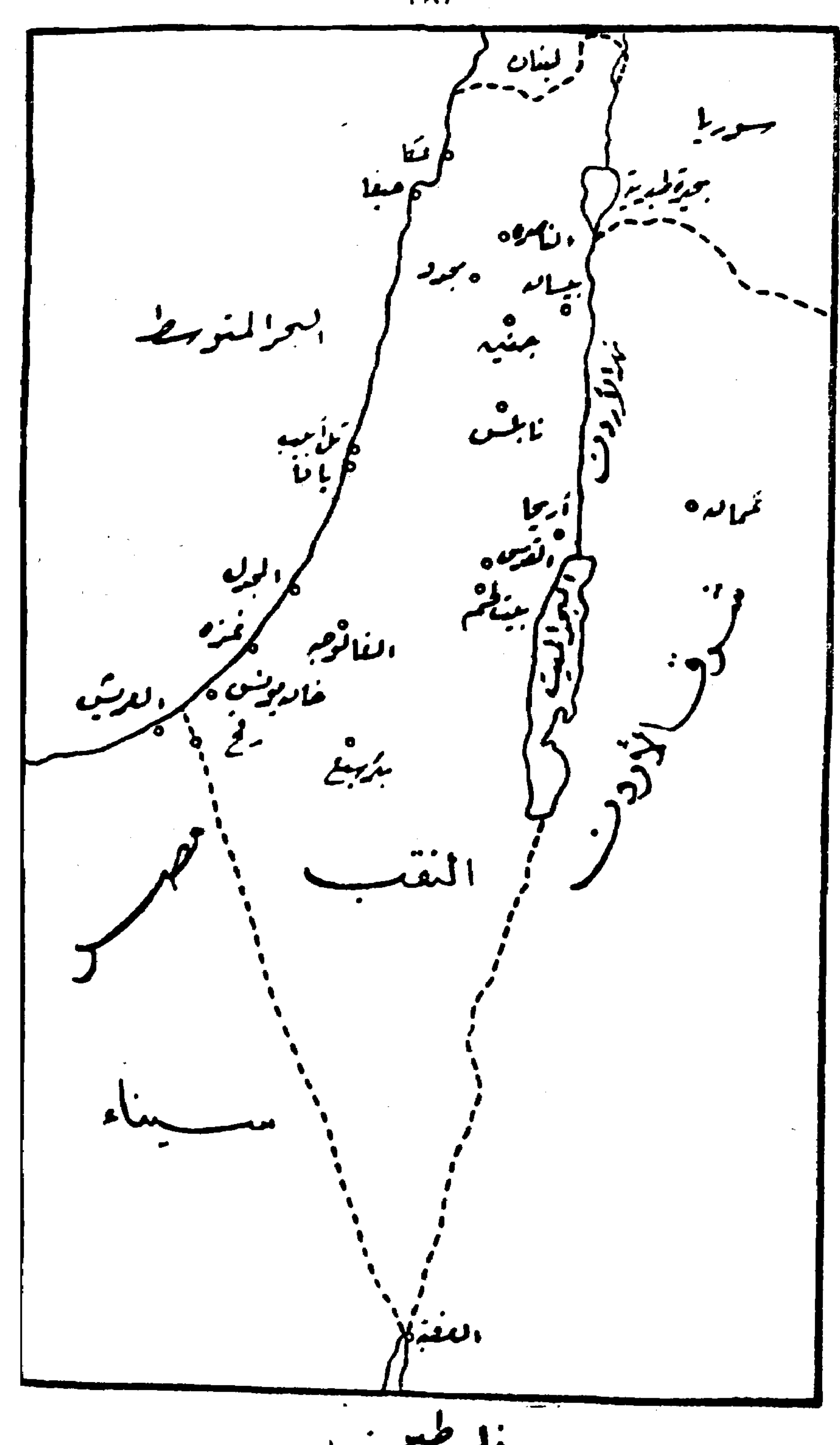
الجيش الأردنى فى منطقة أورشليم ووادى اللطرون وبلغت الجيوش العربية فى النهاية اللد والرملة وكذلك استطاعت القوات العراقية أن تزحف غربا حتى كادت تلتقى مع أخواتها المصرية والأردنية عند أبواب تل أبيب . ولما كاد السهم يصيب الهدف تحرك مجلس الأمن لإنقاذ اليهود وكادت جهود أمريكا مع روسيا تنجح فى تقرير العقوبات ضد الدول العربية لو لم تقترح بريطانيا تقرير وقف القتال بين المتحاربين وتعيين وسيط دولى يتفق مع الجانبين على وقف القتال مدة أربعة أسابيع يحاول فى أثنائها الوصول إلى اتفاق بين العرب واليهود . فأعلنت الهدنة فى ٩ مايو، وخاب مسعى الوسيط الدولى الكونت برنادوت الأمير السويدى فى التوفيق بين الطرفين المتنازعين .

ولكن الهدنة جاءت برداً وسلاماً على اليهود إذ استطاعوا فى أثنائها أن يفلتوا من رقابة هيئة الوساطة الدولية ويزودوا أنفسهم بمختلف المؤن والأسلحة من طائرات ودبابات ومدافع وآلاف من الشبان القادرين على القتال حتى إذا ما انتهى أمد الهدنة واستؤنفت الحرب ظهر مبلغ ما أفاده اليهود من الهدنة بما أبدوه من القوة لا فى مقاومة القوات العربية فحسب بل فى الهجوم أيضا . وتقدم الوسيط بمقترحات سياسة التقسيم وطلب إطالة أمد الهدنة فلم يستجب العرب إلى طلبه ومن ثم اجتمع مجلس الأمن وقرر وقف القتال وتهديد المخالفين بتوقيع العقوبات عليهم . فلم يسع الدول العربية سوى قبول الهدنة للمرة الثانية مضطرين غاضبين . ولما كان وقف القتال فى هذه المرة مطلقا وغير مقيد بزمن معين فان الوسيط الدولى مابرح يعمل على تنفيذ وقف القتال والوصول إلى قرار حاسم للمشكلة حتى اغتاله الإرهابيون من اليهود وهو خارج مدينة القدس الجديدة فى منطقة اليهود وكان ذلك فى يوم الجمعة ١٧ سبتمبر سنة ١٩٤٨ .

ولم يكن ذنب الوسيط أنه حابى العرب ضد اليهود فانه فى الحقساير اليهود وأقرهم على قيام دولتهم وأغضى عن كثير من المخالفات التى ارتكبوها فى أثناء الهدنتين، ولكن الوسيط كان قد اقترح فى تقريره ترك القدس وجعلها مدينة دولية كما اقترح ضم منطقة النقب فى الجنوب إلى العرب فاستحق بذلك نقمة اليهود وغدرهم .

ولو أن افتئاتا مثل هذا ارتكبته فئة غير اليهود ضد شخصية عالمية تمثل هيئة عالمية كهيئة الأمم المتحده لكان جزاؤها القمع حتما والطرد من عداد الشعوب المتمدينة. ولكن يبدو أن اليهود بمنجى من تطبيق القواعد العامة عليهم فهم منتشرون فى جميع بقاع العالم وبين أيدى كثير منهم خزائن المال ومفاتيحها . والمال عصب الصناعة كما هو عصب الحرب . وشبح الحرب يبدو الآن مخيفا مفزعا أمام الدول الغربية الكبرى ، لذلك كان موقف الدول السلبى إزاء اغتيال الوسيط وإزاء قضية فلسطين كلها . فما كاد ينشر تقرير الكونت برنادوت قبيل اجتماع الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة بباريس فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٤٨ حتى سارعت أمريكا وبريطانيا وفرنسا إلى تحبيذه بحذافيره . والتقرير يشير بقيام دولة إسرائيل فى المناطق التى يحتلها اليهود الآن على أن تكون أورشليم مدينة دولية . وكذلك تبقى ميناء حيفا واللد والرملة جميعها مدنا مفتوحة — واقترح الوسيط أن تضم المناطق التى بأيدى العرب إلى شرق الأردن وتؤلف معها دولة واحدة ، وطالب التقرير أن يعطى العرب جميع الضمانات التى تكفل تأمينهم ضد التوسع الصهيونى وضد هجرتهم ، وأن يرد اللاجئون من العرب الذين شردهم اليهود إلى ديارهم .

وقد نظرت الجمعية العمومية لهيئة الأمم المنعقدة فى باريس فى خريف سنة ١٩٤٨ فى مشكلة فلسطين بحذافيرها على ضوء تقرير برنادوت وما تقدمت به الدول المختلفة من الاقتراحات وبعد نقاش طويل استمر ثلاثة أسابيع تقرر فى النهاية تأليف لجنة للتوفيق بين العرب واليهود تؤلف من الولايات المتحدة وفرنسا وتركيا وتحل محل الوساطة الدولية ، وتعمل فى مدى عام على تحويل وقف القتال بين الفريقين إلى هدنة دائمة يعقبها صلح نهائى . وقد رأت الجمعية منعا لتفاقم الخلاف بين الدول الكبرى بشأن هذه المشكلة أن يترك للجنة حرية الفصل فى المسائل الإقليمية دون أى ارتباط سابق لا بقرار الجمعية العمومية فى سنة ١٩٤٧ ولا بمقترحات برنادوت ، والأمر الوحيد الذى رأت الجمعية النص عليه هو تدويل مدينة القدس وإغاثة اللاجئين من العرب وردهم إلى بلادهم . وينتظر أن يعرض تقرير اللجنة الثلاثية


لبنان
سوريا
عكا
حيفا
بحيرة طبرية
الناصرة
بيسان
البحر المتوسط
جنين
نهر الأردن
نابلس
تل أبيب
يافا
أريحا
عمان
القدس
اللد
بيت لحم
غزة
الفالوجة
خان يونس
العريش
رفح
بئر السبع
شرق الأردن
مصر
النقب
سيناء
العقبة

فلسطين

على الجمعية العمومية فى اجتماعها المقبل بنيويورك فى سبتمبر سنة ١٩٤٩ .
وقد افاد اليهود بهذه الفترة أيما فائدة إذ وافقت الجمعية العمومية فى انعقادها الأخير (مايو سنة ١٩٤٩) على قبول دولتهم عضوا فى الهيئة .

ويبدو أن الجمعية العمومية لهيئة الأمم كغيرها من الجمعيات السياسية الكثيرة العدد لا تصلح حكما فى مشكلة كمشكلة فلسطين ، ما لم يتفق الطرفان مبدئيا على حل عادل للمشاكل القائمة وأهما بالنسبة إلى فلسطين مسألة اللاجئين العرب وتدويل القدس .

وخير للجميع أن يحيلوا هذا الإشكال المزمن إلى محكمة العدل الدولية وأن يعلن الطرفان المتنازعان مبدئيا عزمهما على قبول نتيجة التحكيم أيا كانت . ومع أننا نعلم أن فى إحالة المشكلة على محكمة العدل إقراراً ضمنيا بقيام دولة إسرائيل المزعومة لأن محكمة العدل لا تنظر إلا فى قضايا الدول بين بعضها وبعض فانه ليس هناك أيضا مايمنع الدول العربية من التمسك بالمادة ٥١ من الميثاق وهى التى تقول « ليس فى هذا الميثاق مايخل بالحق الطبيعى للأمم فرادى أو جماعات فى الدفاع عن نفسها إذا اعتدى عليها عدوانا مسلحا [1] » .

(١) أنظر كتاب « قضية فلسطين » للمؤلف من سلسلة « أقرأ »

الفصل السادس والعشرون

بحـــرنا

كانت إيطاليا الفاشية تدعى إلى وقت قريب أن البحر المتوسط بحرها وكان الـكتاب والمؤلفون والساسة يسمونه فى كتبهم ومقالاتهم وأحاديثهم « بحرنا » مستندين فى دعواهم هذه إلى أن سواحل إيطاليا يغمرها البحر من كل جهاتها تقريباً وان الرومان القدماء قد سيطروا على البحر المتوسط وأقاموا على سواحله سواء فى أوربا أو افريقية أو آسيا دولة رومانية استمرت عدة قرون . فاذا كانت إيطاليا تزعم لنفسها حق السيطرة على البحر المتوسط لا لسبب سوى أن البحر يكاد يحتضنها من كل جهاتها تقريباً وان الرومان القدماء كانوا قد أخضعوا سواحله منذ ألفى عام تقريبا فأحرى بمصر أن تجاهر بحقها على هذا البحر وقد كان لها فيه وفى البحر الأحمر الذى يعتبر امتداداً للبحر المتوسط تاريخ مجيداً فى العصور القديمة والحديثة جميعاً ، ففى القديم كانت سفن مصر أول ما عرفه البحر المتوسط من الفلك وكانت تمخر عبابه شمالا إلى جزيرة كريت وجنوبا فى البحر الأحمر والمحيط الهندى إلى بلاد « بنت » وهى بلاد الصومال الحديثة .

وأما فى الأزمنة الحديثة فان مصر فى عهد محمد على الـكبير قد سيطرت على سواحل سوريا ولبنان وفلسطين وجنوبى الأناضول وجزيرة كريت وأخضعت سواحل البحر الأحمر بساحليه فى السودان وبلاد العرب ، وامتد نفوذها جنوبا وشرقا إلى عدن وخليج فارس ولم تجل القوات المصرية عن هذه الأقاليم إلا بعد أن نشبت الحرب بين محمد على وسلطان تركيا فتدخلت بريطانيا خوفا على طريقها إلى الهند وتألبت معها سائر الدول الـكبرى عدا فرنسا تعمل جميعها على وقف تقدم القوات المصرية وقصر مطامع محمد على مصر وملحقاتها فى السودان .

ولقد تجدد نشاط مصر البحرى فى عهد الخديو اسماعيل فشملت فتوحه فى السودان سواحل المحيط الهندى واحتلت قواته ميناء مصوع وزيلع وبربره وانشأ على سواحل البحرين منارات بلغ صيتها شأواً بعيداً حتى قال أحد الكتاب المعاصرين من الانجليز انه قل أن يوجد فى العالم نظام للمنارات أحسن مما على سواحل مصر الشمالية والشرقية . وكان آخر المنارات جنوباً على ساحل المحيط الهندى عند « رأس جاردفوى وميناء قسمايو عند مصب نهر جوبا جنوبى خط الاستواء . » فاذا ما لجت إيطاليا فى دعواها يوماً وزعمت انها واقعة وسط الطريق فى البحر المتوسط وأنها من الوجهة الحربية تتحكم فى قسميه الشرقى والغربى فان مصر بعد ان اتصلت مياه البحر الأحمر بالبحر الأبيض وتلاقى البحران على أرضها أصبحت هى القابضة على أدق وأهم النقط الاستراتيجية لا فى حوض البحر المتوسط وحده بل فى الشرق الأوسط كله . ويكفى أن تكون مصر هى المالكة أصلا ومستقبلا لقناة السويس وهى نقطة الارتكاز التجارى والحربى بين الشرق والغرب لتقول مصر بملء فيها أن البحر المتوسط يجب أن يكون لها قبل غيرها .

ولقد أظهرت الحربان العالميتان بدرجة لا تدع مجالا للشك ما لمصر وقناة السويس من الأهمية الاستراتيجية البالغة الخطر فى مصير الحربين . ففى الحرب العالمية الأولى زحف الجيش التركى الذى أعده الأتراك بمساعدة الألمان لغزو مصر وسار بمعداته نحو الجنوب الشرقى حتى وقف على الضفة الشرقية للقناة وحاول عبورها فى ٣ فبراير سنة ١٩١٥ فقابله الحلفاء برا وبحرا وارغموه على الارتداد بعد أن منى بخسارة فادحة فى بضع ساعات . وكان هذا النصر للحلفاء مقدمة لتطورات سياسية وحربية غيرت وجه الحرب ، فقد انحاز العرب على أثر ذلك إلى جانب الحلفاء واستطاع الجنرال اللنبى من جهة والأمير فيصل العربى من جهة أخرى أن يدخلا فاتحين فلسطين وسوريا ، وكان استسلام تركيا فى الشرق من أهم العوامل التى ساعدت على خسران قضية دول الوسط فى الحرب العالمية الأولى .

وكذلك فى الحرب العالمية الثانية كانت موقعة «العلمين» على نحو ٦٠ ميلا غربى الاسكندرية فى يونيه سنة ١٩٤٢ الحد الفاصل بين انتصار الالمان وهزيمة الحلفاء ، فقد وقف الالمان وحلفاؤهم الطليان يهددون مصر والقناة وكادوا يبلغون مأربهم لولا ما وصل الحلفاء من المدد والعتاد الحربى الامريكى عن طريق مصر ولولا موقف مصر الموالى حينذاك للحلفاء . فقدارتدت قوات المحور على أثر المعركة أمام جيوش الحلفاء التى كانت تتعقبهم من الشرق وتتهددهم من الغرب بموازاة ساحل البحر المتوسط وما زالوا بهم حتى تجمعت فلولهم فى تونس ومنها عبروا البحر إلى صقليه وإيطاليا إلى غير رجعة .

ولم يكن الالمان يعتزمون مجرد السيطرة على ساحل مصر الشمالى والتحكم فى قناة السويس فحسب ، بل كانوا يرمون إلى الاتصال بصنائعهم فى بلاد الشرق الأوسط إلى شط العرب فخليج فارس وايران حيث يمدون أيديهم إلى حلفائهم اليابانيين المسيطرين فى ذلك الوقت على بورما وجزء من المحيط الهندى. وكان من خططهم أيضا أن يعزلوا مصر ومن بها فى ذلك الوقت من جيوش الحلفاء عزلا تاما حتى يخلو لهم الميدان فى الشرقين الأوسط والاقصى. ولـكن الاقدار احبطت خططهم فكما انهم ارتدوا أمام العلمين فهم قد أنهزموا أيضاً أمام ستالنجراد وبدأت آلهة النصر تتحول تدريجا إلى صفوف الحلفاء حتى دخلوا برلين فى مايو سنة ١٩٤٥ ولا يزال الناس ينسبون مقدمة النصر النهائى فى تلك الحرب إلى جهود القائدين الانجليزيين الاسكندر ومنتجومرى أمام العلمين .

وما كادت الحرب تنتهى حتى بدأت دول الحلفاء تنافس بعضها البعض فى تثبيت قواعدها على سواحل هذا المنفذ البحرى الهام بين الشرق والغرب ، وكان مصير مستعمرات ايطاليا السابقة موضوع ذلك التنافس . فقد أرادت روسيا أن تـكون لهـا قاعدة فى منطقة البحر المتوسط أو البحر الاحمر فى ليبيا أو ارتريه أو الصومال ، ولمـا لم تجد هذه الامنية قبولا لدى حلفائها اكتفت بتوسيع رقعة حليفتها يوغوسلافيا على البحر الادرياتى على حساب ايطاليا وجعلت تقيم العراقيل فى طريق استقلال هذه المستعمرات أو انتداب احدى الدول الـكبرى عليهـا .

ولا تزال هذه المشكلة منظورة أمام هيئة الامم المتحدة إلى الآن .

ولكن الشيء المؤكد هو أن الوعي السياسي القومي لدى سكان برقه وطرابلس قد نما وتطور حتى بات الناس ينتظرون قيام دولة موحدة فى ليبيا بزعامة السيد السنوسى ان عاجلا أو آجلا وإذا ما تحقق لاهل ليبيا ذلك الامل فاكبر الظن أن الحكومة الليبية ستوثق علاقتها بمصر واخواتها الدول العربية وان الدولة الجديدة ستأخذ مكانها إلى جانبهم فى جامعة الدول العربية وحينئذ قد يصل الارتباط والتآلف بين مصر وجارتها الشقيقة العربية من الغرب إلى درجة تجعل من ساحل البحر المتوسط من رفح شرقا إلى ميناء طرابلس غربا أى ما يقرب من ١٤٠٠ ميل طولى وحدة حربية بحرية يتعين على مصر وليبيا أن تشتركا فى الدفاع عنها بحريا . فإذا أضفنا إلى ذلك امتداد طول ساحل بلاد الشرق فى فلسطين ولبنان وسوريا بلغ طول ساحل البحر المتوسط الذى قد يقع تحت نفوذ الدول العربية نحو ١٨٠٠ ميل من مجموع طول الساحل من جبل طارق إلى ساحل الشام وهو نحو ٢٢٥٠ ميلا وهى مسئولية كبرى ومهمة لا تضطلع بها إلا دولة بحرية من الطراز الأول يكون لها من القوه البحرية ما يوازى سلطان أقوى الدول فى البحر المتوسط .

وهذا هو الهدف الذى يجب أن تعمل مصر لبلوغه كما بلغه محمد على الكبير إذ استطاع فى سنوات تتراوح بين خمس وعشر سنوات أن ينشيء لمصر وفى موانيها وبأيدى أبنائها وبإشراف بعض الخبراء الفرنسيين — أسطولا كان فخر البحر المتوسط فى زمنه إذ لم يفقه فيه سوى أسطول بريطانيا والأسطول الفرنسى . ولما كانت الحكومة الفرنسية إذ ذاك حليفة لمحمد على أصبح الأسطولان المصرى والفرنسى خطرا على نفوذ بريطانيا فى البحر المتوسط . وقد تفاقم هذا الخطر عندما انحاز الأسطول التركى إلى الأسطول المصرى أثر وفاة السلطان محمود الثانى وانهزام الجيش التركى فى موقعة نصيبين أو نزيب أمام ابراهيم باشا. ولهذا كان الصراع المستميت بين بالمرستون الوزير الانجليزى وبين محمد على — ذلك الصراع الذى انتهى بانسحاب القوات المصرية من الشام وإبرام معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ .

وما استطاعه محمد على العظيم منذ أكثر من مائة عام تستطيع مصر فى هذا العصر الآلى عصر السرعة والذرة أن تدركه إذا صحت عزيمتهـــا على النهوض بأهدافها الـكبرى نحو نفسها ونحو شقيقاتها الدول العربية. وحب البحرية من حسن الحظ لا يزال يجرى فى عروق كثير من أبناء المناطق المصرية الساحلية والنهرية، ولمصر من تاريخها القديم والحديث ما يحفز أبناءها على العمل للتفوق فى البحر. وهانحن أولاء نرى فى الجهود الفردية التى يبذلها بعض المصريين الممتازين فى ميدان الملاحة من أجل التجارة والسياحة ما ينهض دليلا كافيا على امكانيات البلاد من هذه الناحية.

أما اخواننا العرب فى بلاد المشرق فيكفى دليلا على حسن استعدادهم البحرى أنهم ينتسبون إلى الفينيقيين أول من أسس القواعد التجاية والبحرية على سواحل البحر المتوسط وأول من ساحوا فى أطرافه شرقا وغربا. وكذلك أهل ليبيا وجيرانهم فى شمال أفريقية هم أيضا من نسل أولئك البحارة الذين تسلطوا على الملاحة فى البحر المتوسط قرابة قرنين من الزمان وعاشوا فيه جهاداً ضد ملاحى أوربا من الأوربيين المسيحيين وسفنهم التى كانت لا تجرؤ على الاقتراب من سواحلهم. وبلغ من سطوتهم إذ ذاك أن الدول كانت تتفاوض وتبرم المعاهدات معهم لتأمن شرهم كما لوكانوا رؤساء حكومات مستقلة. بهذه العناصر جميعاً تستطيع مصر أن تنمى الروح البحرية فى بنيها وفى بنى العروبة وتجدد لمصر ولاخواتها بعض مجدها السالف فى البحر المتوسط.

وليست البحرية كالحربية نظام لا يثمر إلا وقت الحرب فالبحرية كالطيران مدرسة مهنية تفيد منها تجارة الدولة ومواصلاتها كما يفيد منها أمن البـــلاد فى الحرب والسلم على السواء. وليس مثل البحر المتوسط ميدان درجت فيه أساطيل العالم وبحرياتها منذ القدم، فيه مرنت وكافحت وصارعت أمواجه وأعاصيره أو صرعتها. فلنرسم سياستنا البحرية ولننشىء نظامنا البحرى ومعه ما يوائمه من سلاح الطيران. فليس بصحيح ما تخيله بعض الناس من أن تقدم الطيران قد يقلل

من أهمية البحرية ذلك لأن تعاون الأسلحة الثلاثة فى الحرب شرط لازم للنصر كما أكدته الحرب الأخيرة . وقد زادت أهمية البحر المتوسط بتقدم الطيران زيادة نلمسها الآن فى تجمع معظم الخطوط الجوية العالمية بمطارات القاهرة والاسكندرية والعضم واللد وغيرها. فاذا قصرنا فى مسايرة النهضة البحرية والجوية التى توليها الدول الناهضة أكبر نصيب من ميزانياتها واهتمامها تحرش بنا الأعداء من جهة أوسامنا الأصدقاء مقابل مساعدتهم لنا من جهة أخرى .

ويكاد يكون من المحقق انه إذا قامت حرب عالمية جديدة فلن يمضى وقت طويل حتى يكون البحر المتوسط سواحله وجزره وبواباته من أهم الأهداف التى يعمل المتحاربون على بلوغها . وقد كانت مضايق البسفور والدردنيل فى الماضى أهم منطقة استراتيجية فى العالم القديم فجاء دلسبس وأنشأ فى مصر بسفوراً ثانياً غطت أهميته على البسفور الأصيل . وطبيعى أنه إذا استطالت الحرب ولم تحسمها القنبلة الذرية فى أمد وجيز فان مصر ستكون كما كانت فى الحربين السابقتين هدف المتحاربين لا لسبب موقعها الاستراتيجى فحسب بل لتسلطها على طرق نقل البترول من بلدان الشرق سواء بواسطة الأنابيب من العراق إلى ساحل فلسطين أو بواسطة السفن من خليج فارس إلى البحر الأحمر فالقناة . وعلى ذلك لن يعصمها حينئذ من الحرب البحرية والجوية أو التكتل إلا ما أعدته من جيوشها وأساطيلها البحرية والجوية تصون بها استقلالها وترهب أعداءها وتكسب احترام حلفائها وأصدقائها.

وماينطبق على مصر فى هذه الحال ينطبق تماما على اخواتها دول الشرق الأوسط جميعاً . وعلى ذلك يتعين على جامعة الدول العربية أن تعيد النظر فى ميثاقها فكما نصت المادة الثانية من الميثاق على أن الغرض من الجامعة هو « توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها وتنسيق خططها السياسية تحقيقا للتعاون بينها » كذلك يجب أن ينص الميثاق على تنسيق خططها الدفاعية والحربية فى البر والبحر والجو وليس فى مثل هذا النص ما يناقض الهدف الأسمى التى تعمل الاتحادات السياسية إلى بلوغه وهو صيانة السلم وتحقيق مبدأ التأمين المشترك لاستقلال الدول المتعاقدة

وسلامة أراضيها . وها نحن اولاء نرى ما فعلته دول اتحاد « البنلكس » هولنده وبلجيكا ولكسمبورج من تعاون هذه الدول سياسيا واقتصاديا وحربيا ثم الاتحاد الخماسى الغربى الذى شمل اتحاد البنلكس والمملكة المتحدة وفرنسا . وقد بلغ أمد التعاون بين دول هذا الاتحاد الأخير إلى حد أن اجتمع وزراء الحربية لدول هذا الاتحاد وقرروا تنسيق جهودهم وتوحيد قوات الدفاع برئاسة القائد الانجليزى المشهور منتجومرى . وقد تأصلت فكرة التعاون بين الدول الغربية حتى تطورت من اتحاد خماسى إلى اتحـــاد اطلنطى يضم إليه الولايات المتحدة وكندا وعـــدد من الدول الغربية وهكذا لن يمضى وقت طويل حتى يصبح لغرب أوربا وأمريكا نظام حربى ودفاعى مشترك . بل أن مستر بيفن وزير خارجية المملكة المتحدة قد أعلن أخيراً امام الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة رأيه فى أن تتحد قوى العالم لصيانة السلم الدولى باشتراك اتحاد السوفييت إذا رغب فى التعاون أو بالاستغناء عنه إذا أبى إلا قطيعة الحكومات الغربية التى تسميها روسيا رأسمالية وحينئذ لا مندوحة للعالم من أن يضحى بما كان يرجوه من انشاء حكومة عالمية تصون السلام فى العالم وتنبذ الحرب نهائيا . ولا يسع الدول بعد ذلك إلا الاستناد إلى الاتحادات الاقليمية مادامت هيئة الأمم قد عجزت عن اداء مهمتها الكبرى وهى تأمين الشعوب ضد الحروب . وقد أشار مستر بيفن فى خطبة أخرى إلى ضرورة الارتباط بين الاتحاد الغربى ودول الشرق الاوسط بل والشرق الاقصى جميعاً .

وعلى أثر ذلك التصريح من جانب الوزير الانجليزى ترددت الانباء الخارجية بأن هناك محادثات لتأليف اتحـــاد جديد يضم دول البحر المتوسط ليجمع بين دول الجامعة العربية ودول ميثاق سعد اباد واليونان . ذلك بأن اتحاد الجامعة العربية يقتصر وفقا لميثاق الجامعة على الدول العربية المستقلة طبقا لما جاء فى مادته الأولى . وظاهر أن هذا النص لا يعين على قبول دول مثل تركيا أو ايران أو الباكستان أو أفغانستان رغم أواصر المودة والصـــداقة

التى تربطها جميعاً بدول الجامعة العربية . وكذلك لا مفر من أن تبقى دول صديقه أخرى مثل اليونان واثيوبيا خارج اطار الجامعة العربية لاختلافها عنها فى الجنس واللغة والدين السائد . ومهما يكن من أمر انشاء اتحاد يجمع بين دول شرقى البحر المتوسط أو يضم دول الشرق الأوسط فان الصــلات السياسية الودية القائمة الآن بين دول هذه المنطقة سواء بين تركيا واليونان من جهة أو بين تركيا ودول ميثاق سعد اباد وبين هذه جميعاً ودول الجامعة العربية لكفيلة بتنسيق جهودها حربيا إذا دنت ساعة الخطر ووقعت الكارثة . وأما الاستعداد للحرب قبل وقوعها فأمريهم الدول الكبرى وحدها وهى وحدها التى تستطيع أن تضطلع بتكاليف الحروب العالمية . أما الدول الصغرى فيجب أن يكون هدفها من الاستعداد تأمين استقلالها وحرياتها على قدر طاقتها وحدها وعليها أن تحذر دائما الوقوع فى شرك المحالفات أو الاتحادات السياسية الكبرى التى تصطنعها الدول الكبرى لخدمة أغراضها الخاصة أولا وقبل كل شىء . ومن الخير لمصر وشقيقاتها الدول العربية أن تقنع باتحادها العربى المتين، ولكن عليها أن تعدل ميثاقها بما يلائم حاجاتها فى الظروف الخطيرة الحاضرة . وحتم عليها جميعا أن تنمى مواردها واستعداداتها المادية والاقتصادية والثقافية والحربية لمصلحة نفسها أولا واصلاح اخواتها ثانيا .

وعلى مصر خاصة وهى وحدها إلى تلامس سواحلها مياه البحرين الأبيض والأحمر ان تعد نفسها للسيطرة على سواحلها فى وقت السلم والحرب على السواء وأمامها من خطر الواجبات الدولية التى ستضطلع بها قريبا عند ما ينتهى أمد امتياز القناة فى نوفمبر سنة ١٩٦٨ ما يحفزها على ضرور العمل للنهوض بحريتها بما يجعلها خليقة بثقة الدول آمنة فى واديها معتزة بمكانتها الدولية المرموقة تمسك بيدها القوية مفتاح المرور برا وبحراً وجواً بين الشرق والغرب .

ملحق - ا

« الهلال الخصيب » والاتفاقات السياسية فى الشرق

الهلال الخصيب : أنه سهل شاسع متصل تجرى فيه مياه مجموعة من أهم الأنهار واكبرها هى دجلة والفرات والنيل . إنه سهل مترامى الاطراف على شكل هلال يمتد عند قرنه الشرقى من خليج فارس ويصل قرنه الغربى إلى سواحل البحر المتوسط . وينحصر السهل بين الصحارى الكبرى التى تغطى شمال افريقية وبلاد العرب جنوبا وبين جبال طوروس والكردستان شمالا . ولما كان المحل والاجداب يكتنفان هذا السهل بينما الانهار والأمطار التى تتساقط على سفوح الجبال وعلى سواحل البحر المتوسط تفيض على السهل فينمو العشب وينبت الزرع لذلك اسموه بالهلال الخصيب .

وعلى ذلك فالهلال الخصيب من الوجهة الجغرافية يحتضن بين قرنيه العراق وسوريا ولبنان وفلسطين . ولاتتصل مصر بهذه المنطقة إلا عن طريق شبه جزيرة سيناء . أما شبه جزيرة العرب بما فيها شرق الاردن فانها تتاخم السهل من الجنوب ولكنها لا تدخل فى مدار الهلال الخصيب . وقد كانت الفرصة مواتية لجميع الشعوب التى تسكن فى هذه المنطقة أن تقرر مصيرها عند ما قامت نهضة العرب ضد الترك واضطرت تركيا إلى التخلى عن الاقاليم العربية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . ولكن الحلفاء بعد الحرب قد نكثوا عهودهم للعرب وخيبوا آمال الشعوب التى ناصرتهم فى اثناء محنتهم . فنبتت دول وطوائف متفرقة مختلفة مغلوبة على أمرها لم تظفر من الحلفاء بعد الحرب حتى بحق الحكم الذاتى . وعوضا عن الاستقلال الذى منّوهم به فى أثناء الحرب فرضوا عليهم نظام الانتداب فكان فى شكله وموضوعه أقرب إلى الاستعمار منه إلى الاستقلال . ومما زاد فى فداحة الظلم الذى حاق بهذه الشعوب انهم حين فرض عليهم الحلفاء الانتداب اخذوا

يقتطعون بلادهم ويصطنعون منها أمارات ودويلات ما لبثوا أن وزعوها فيما بينهم اسلابا كأنما الشعوب الصغيرة أصبحت غنيمة باردة للمنتصرين . فكان لفرنسا الانتداب على سوريا ولبنان وللأنجليز العراق وفلسطين . واقتطعوا من فلسطين وسوريا امارة شرق الأردن ومن سوريا منطقة اسكندرونه وقد نزل عنها الفرنسيون للترك قبيل الحرب العالمية الثانية . وياليت الأمر وقف عند هذا الحد بل ان الدولتين صاحبتى الانتداب قد انتهجتا فى حكمهما سياسة كلها عنت واضطهاد للوطنيين وأساسها الفرقة بين الطوائف واثارة الاحقاد الكامنة بين الأسر والزعماء . حتى إذا ما انتهت الحرب العالمية الثانية وكانت هذه الشعوب قد اضطلعت بنصيب يذكر فى نصرة قضية الحلفاء لم يبق هناك مبرر فى أن يظل الانتداب الأجنبى مفروضا عليهم ضد ارادتهم فاستقلت كل من سوريا ولبنان وعقدت انجلترا معاهدة استقلال ومحالفة مع شرق الأردن ثم اضطرت أخيراً إلى التخلى عن فلسطين بعد ان الغمت فيها الطرق وسممت الآبار من بعدها إذ تركت الصهيونيين يعبثون فى البلاد كيفما شاءوا وشاءت لهم هيئة الأمم .

وكانت سياسة الانتداب قد استمرت اكثر من ربع قرن انطبعت فى اثنائه البلاد كل بطابع الدولة المنتدبة فيها . فمهما قيل عن سخط الشعوب وثورتها ضد الاستعمار فليس من شك فى أن الانتداب قد ترك آثاره ظاهرة فى نظم الحكم والادارة وفى حياة الشعوب من حيث الاقتصاد والثقافة والاجتماع . وعلى ذلك أصبحت هذه الشعوب اليوم بعد أن نعمت باستقلالها مجموعة قد تأتلف فى الجنس والدين واللغة ولكنها تختلف اختلافا أساسياً فى نظم حكمها ومبلغ ثقافتها وآراء أهلها فى كثير من شئون السياسة والحياة . لذلك كان بعث مشروع الهلال الخصيب فى الأيام الأخيرة عملا غير صالح وضربا من الخيال ولكنه خيال غير خصيب ! ويكفى لهدم المشروع من أساسه ان تختلف نظم الحكم فيما بين هذه الدول فمنها الملكية ومنها الجمهورية ومنها البرلمانية ومنها الأوتقراطية وأن تكون العصبية بين رجالات هذه الدول وأسرها من

الإزمان والشدة بحيث يتعذر التوفيق فيما بينها ، وان لبنان أحدى دول الهلال من الاعتزاز باستقلالها وبذاتيتها بحيث يصعب ضمها بين قرنى الهلال . ثم بعد ذلك كله ألا يحق لنا أن نسأل : لمن ياترى تكون السيطرة على الهلال إذا قدر له أن يؤلف ؟ هل يكون العراق ، أو تكون سوريا صاحبة الكلمة العليا فى هذه الشركة ؟ وهل تكون بغداد أو دمشق عاصمة للهلال الخصيب؟ وإذا فرضنا جدلا واتفق الشريكان مبدئيا على دستور موحد فهل يعقل ان يقيم أحد الشعبين على الضيم طويلا . أن الشعبين العراقى والسورى لم يقيما على ضيم تركيا طويلا وعند ما كانت مبادىء الحرية والقومية تسود الشعوب فى القرن التاسع عشر قام الأحرار فى البلدين يطالبون بالانفصال وان يتمتع كل منهما باستقلاله الذاتى وحرياته .

وشبيه بمشروع الهلال الخصيب مشروع سوريا الكبرى ومعناه أن تعود سوريا إلى حدودها القديمة فتحتضن لبنان وفلسطين وشرق الاردن . أما العراق وهو أحـــد قرنى الهلال الخصيب فلا يدخل فى مشروع سوريا الكبرى لأن العراق لم تكن يوما داخلة فى نطاق سوريا . انما الغريب فى أمر هذا المشروع أن يترك أمر تنشئته وتحقيقه — لا لصاحب الأمر فيه وهو الشعب السورى ، وانما لجلالة ملك شرق الأردن . وشرق الاردن كما نعلم بلاد تعتبر أقل من سوريا ولبنان مدنية وثقافة وهى من حيث عدد السكان والحالة الاقتصادية والاجتماعية أقل منها بمراحل والبون بينهما شاسع . ولكن صاحب الجـــلالة الملك عبد الله يرى فى نفسه الوارث الوحيد لحركة النهضة العربية عن المغفور لها والده الملك حسين واخيه الملك فيصل الأول الذى كان ملكا على سوريا بين سنة ١٩١٨ و ١٩٢٠ وفات جلالته انه قد انقضى ثلاثون عاما على حركة النهضة وان الشعوب العربية قد تطورت فى اثناء هذه الفترة تطورا استقلاليا ظاهر المعالم وقد لمعت آثار هذا الاستقلال جلية واضحة فى المجتمعات الدولية . ومن العبث أن يأخذ المرء بعقرب الساعة فيؤخر الزمن ويرجع بالتاريخ القهقرى وفق رغباته . ولعمرى إذا جاز

أن تضم العراق وسوريا ولبنان لأنها تؤلف هلالا خصيبا من الناحية الجغرافية أو إذا جاز أن تؤلف سوريا الكبرى من اجزائها القديمة فماذا يمنع أن تقوم تركيا غداً وتطالب برد اقاليمها الاسيوية اليها أو أن يقوم جلالة الملك عبد العزيز آل سعود فيعلن ضم اليمن وشرق الاردن وعدن والكويت لانها جميعاً اجزاء لا تنفصل عن شبه جزيرة العرب وكانت فى الماضى تخضع لسلطان واحد .

الحق أن عهد الغلبة والضم قد انقضى وليس أمام الدول صغيرة كانت أو كبيرة إلا أن تعمل جاهدة على استغلال مواردها وتحسين أحوالها ورفع مستوى شعوبها ثم لها بعد ذلك أن تؤلف فيما بينها وفق بيئتها اتحادات اقليمية تعمل على تنسيق سياستها الخارجية وخطط الدفاع عنها مع توثيق وسائل التعاون فيما بينها اقتصاديا وثقافيا .

ولقد كانت الدول العربية فى مقدمة الشعوب التى آمنت بضرورة الاتحاد فيما بينها وصار لها بفضل مساعى جامعة الدول العربية مقام محمود ومطاف مرموق بين الدول . وكانت جامعة الدول العربية تقف إلى وقت قريب فى منطقة شرق البحر المتوسط كالطود الراسخ ضد العدوان إيا كان مصدره وكانت إذ ذاك متينة البنيان متحدة الكلمة مرهوبة الجانب . حتى هبت عليها أعاصير الحرب الفلسطينية فنالت منها الأهواء والمطامع وشذ على اجماعها نفر من أبنائها كادوا يصيبونها فى مقتل منها لولا أن تداركها أهلها وذووها المخلصون فقاموا على برئها وشد أزرها بكل ما يستطيعون .

وهكذا ما كادت جامعة الدول العربية تلتزم السكينة والصمت حينا وهى تعانى آلام محنتها وتألب بعض بنيها عليها حتى هبت التيارات التى ذكرناها تحاول أن تحتل الفضاء الذى قد تخلفه الجامعة العربية إذا عز شفاؤها . وكان أقوى هذه التيارات ذلك الذى انبعث من جانب هضاب الأناضول . وجعل تركيا تعود بذاكرتها إلى الشرق وتحن إلى سابق مكانتها فى قلوب العرب والمسلمين . فكان ان بعثت إلى الحياة رفات ميثاق سعد أباد الذى كانت أبرمته بينها وبين إيران والعراق

وافغانستان فى سنة ١٩٣٧ وجعلت توثق الصلات بينها وبين هذه الدول والباكستان والأردن عليها أن تؤلف من هذه الدول اتحاداً لا يتعين أن يكون عربيا بحتاً فتخرج منه تركيا وإيران والأفغان بل يجب أن يكون إسلامياً أو شرقياً حتى يجمع بين هذه الدول وتكون له من المكانة فى الشرق ما يضارع ميثاق الأطلنطى فى الغرب . وما دامت دول الغرب قد استبعدت تركيا من ميثاق الأطلنطى مع أنها احتضنت فيه إيطاليا فخليق بتركيا أن تصحح موازين السياسة فتقيم ميثاق شرق البحر المتوسط توازن به ميثاق الأطلنطى وتربطه به عند الحاجة .

وسرعان ما استجاب العراق والأردن إلى دعوة تركيا إذ بادر أمير العراق بزيارة إيران فى يونية سنة ١٩٤٩ وأعقبه عمه الملك الهاشمى ملك شرق الأردن وكلاهما تجمع بينهما وبين تركيا أمتن الصلات وأوثق الروابط . أما تركيا فلا لوم عليها ولا تثريب إذا كانت مصلحتها تقضى عليها بأن تجدد ميثاق سعد أباد أو تخلق ميثاقا غيره تستند فيه إلى جانب ميثاق الأطلنطى والدول الغربية . ذلك لأن تركيا داخلة منذ عام ١٩٤٨ فى نطاق مشروع مارشال ولأنها تتلقى مع اليونان من الولايات المتحدة مساعدات قيمة سواء من الناحية المالية أو الفنية أو الحربية . فهى من هذه الوجهة وبسبب معاهداتها مع انجلترا وفرنسا قد ربطت مصايرها قطعاً بمصير دول الغرب .

أما الشعوب العربية أو الشرقية التى تحاول حكوماتها أن تربطها بعجلة ميثاق الأطلنطى أو سعد أباد فماذا كسبت هى من ميثاق الأطلنطى أو غيره ؟ وما جدوى هذه المواثيق عليها وبينها وبين دول الغرب قضايا وطنية معلقة بالغة الأهمية . وهى قضايا يتعين على دول الغرب أن تنتهى فيها بحلول نهائية تصون حقوق هذه الشعوب وتعترف فيها بكامل استقلالها وحرياتها . حتى إذا فعلت الدول ذلك وفرغت دول الشرق من تنظيم شئونها السياسية والداخلية استطاعت أن تساهم بحق مع سائر الدول فى قضية السلام العام .

وليت الساسة سواء منهم الترك والعرب يتذكرون دروس التاريخ فى الماضى

القريب حين كانت تركيا مرتبطة بجاراتها فى أوربا بميثاق البلقـــان وبجاراتها فى الشرق بميثاق سعد أباد . ليتهم يذكرون ما أفادوه من هذه المواثيق بعد إذ هاجمت إيطاليا وألمانيا شبه جزيرة البلقان وأخذت دولها تتساقط فى أيدى المحور واحدة تلو أخرى . ليتهم يذكرون ما أفادوه حين أغار الحلفاء على إيران ليتخذوا من إيران طريقا إلى القوقاز فى آسيا بدلا من طريق المضايق التى سدتها تركيا بحيدتها . ألم يقف العالم حينذاك مبهوتاً مشدوهاً أمام هذا العدوان النازى المتكرر ؟ ألم يتلفت الناس يميناً وشمالا شرقاً وغرباً باحثين منقبين عن بقايا المواثيق التى ارتبطت بها تركيا مع هذه الشعوب ؟ ولـكن عبثاً ما كانوا يحاولون . فقد تمسكت تركيا بحيدتها خشية العدوان النازى وذهبت المواثيق هباء . بعد أن أكلتها نيران الحرب ومزقتها يد الخوف فيما مزقت شذر مذر .

ولقد أدرك ساسة الغرب ما قد يصيب المواثيق السياسية من الشلل والعطب إذا لم تقم على أساس متين من التعاون الاقتصـــادى وتوحيد القوى الدفاعية والهجومية ، فأنشأت من أجل ذلك اتحاد بروكسل فى سنة ١٩٤٨ ثم اتحاد الأطلنطى فى عام ١٩٤٩ . وبذلك أكملت الدول ما اعتور ميثاق هيئة الأمم من ضعف ونقص . ووقفت الدول الغربية اليوم صفاً واحداً متحدة القيادة معبأة جميع مواردها وخبرتها وامكانياتها لغرض واحد هو التعاون والدفاع أو الهجوم المشترك . فهلا اقتبس ساسة العرب مثلهم من سياسة الغرب فاعتمدوا على أنفسهم وأخذوا بيد جامعتهم فاقالوها من عثرتها وجمعوا كلمتهم حولها وعبأوا مواردهم ووحدوا قيادتهم . وإنا لموقنون أنه إذا ردت الدول العربية للجامعة اعتبارها وراجعت دستورها ودعمت بنيانها استطاعت الجامعة أن تكفى الدول العربية مؤنة التعلق بركاب الدول الـكبرى أو عقد المعاهدات الفردية حربية كانت أو اقتصادية . وبذلك وبه فقط يرتفع شأن العرب بين شعوب العـالم ويكون العرب هم القوم المتبوعين لا التابعين .

ملحق – ب
ميناء العقبة

فى اعقاب الحرب الفلسطينية حاول اليهود ان يحتلوا ميناء العقبة فاثاروا بذلك ضجة جعلت انجلترا ترسل قواتها وطائراتها وسفنها إلى الميناء لمعاونة حليفها ملك شرق الاردن ضد العدوان اليهودى المرتقب . ولم تكن هذه أول مرة يطالع فيها العالم اسم هـــذه القرية الضئيلة فى مظهرها العظيمة الخطر فى موقعها الجغرافى والاستراتيجى فهى تقع على رأس الخليج المسمى باسمها وعندها تلتق حدود أربع من الدول العربية هى مصر والعرب السعودية وشرق الاردن وفلسطين . وهى لقربها من البحر المتوسط إذ لا تزيد المسافة بينها وبين ميناء غزة على ١٤٠ ميلا تحاول عبثا ان تتشبه بميناء السويس وتحلم باليوم الذى قد يظهر فيه دلسبس آخر يأخذ بيدها فيخطبها هى الأخرى للبحر المتوسط ويصل بينها وبين غزه برباط مقدس آخر يضارع رباط قناة السويس ويحل محلها متى أصبحت القناة مصرية خالصة .

ولم تكن مصر فى الماضى لتهتم بهذه الخيالات فقد كان ميناء العقبة كميناء السويس كلاهما ثغر داخل فى الوطن المصرى يظله علم مصر وتطوق سواحله مياه مصر . ولم يكن أحد يفكر حينذاك فى مزاحمة السويس أو منافستها . غير انه ظهر فى نهاية القرن التاسع عشر عامل سياسى جديد جعل تركيا تراجع سياستها وكان ذلك فى سنة ١٨٩٢ حين ولى عرش مصر الخديو عباس وكان فى أول عهده شابا متحمساً فى الثامنة عشرة من عمره فاراد الباب العالى ان يستغل حماسة الخديو الجديد وكراهيته للاحتلال الانجليزى فيسترد من الخديوية المصرية لا ميناء العقبة وحدها بل شبه جزيرة سيناء باجمعها وبذلك تتزحزح الحدود الشرقية لمصر من العقبة إلى السويس ورفح . ووصل علم ذلك إلى السفارة البريطانية باسطنبول فقامت أزمة بين مصر وبريطانيا من جهة وبين تركيا من جهة أخرى .

وانتهت الأزمة بأن وصلت إلى مصر رسالة برقية من الصدر الأعظم باسم السلطان بتاريخ ٨ ابريل سنة ١٨٩٢ يشير فيها إلى أن الباب العالى كان قد صرح للحكومة المصرية بوضع عدد كاف من الجند بجهات الوجه والمويلح وطابا والعقبة وكذلك فى بعض الجهات من شبه جزيرة طورسيناء وذلك بسبب مرور المحمل المصرى فى أثناء الحج من طريق البر . أما الآن وقد تغير خطر سير المحل المصرى ولم يعد يتخذ طريقة إلى الحجاز براً بل بحراً ، ولما كانت هذه الجهات غير مبينة على الخريطة المسلمة إلى المغفور له محمد على باشا لذلك أعيد الوجه إلى ولاية الحجاز كما أعيد إليها طابا والمويلح وقد ضمت العقبة كذلك إلى الولاية المذكورة . أما من حيث شبه جزيرة طورسينا فهى باقية على حالها وتبقى إدارتها كما كانت بمعرفة الخديوية المصرية .

وعلى ذلك يكون ميناء العقبة قد أخذ من مصر وضم إلى ولاية الحجاز وذلك بحكم سيادة تركيا على مصر والحجاز فى ذلك الوقت ، وكانت العدالة تقضى برد هذا الثغر إلى مصر بعـــد ما انتهت السيادة العثمانية ونزلت تركيا عن جميع حقوقها فى البلاد العربية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . ذلك لأن العقبة لا تعدو أن تكون جزءا من شبه جزيرة سيناء التى ما برحت جزءا متمما لمصر قد كشف معادنها المصريون القدماء واستخرجوا منها البرونز والنحاس منذ الأسرة الخامسة فى الدولة المصرية القديمة واتخذوا منها فى العصور الوسطى طريقاً برياً آمناً إلى الأماكن المقدسة .

والظاهر أنه ما حرض الأتراك فى ذلك الوقت على استرداد العقبة وغيرها من البلاد الواقعة على خليج العقبة والتى كانت تابعة لمصر إلا ما رأته من تمزيق الدولة المصرية فى أفريقية على أيدى بريطانيا بسبب ثورة المهدى، ويكفى أن تكون بريطانيا فى ذلك الوقت قد قدمت ثغر مصوع الشهير لقمة سائغة لإيطـــاليا كما ازدردت هى زيلع وبربرة على خليج عدن . فهل كانت بريطانيا وهى تحتل مصر وتمثلها فى اللجان الدولية مستطيعة أن تفتح فاها أمام تركيا صاحبة السيادة وهى

تكاد تغص وتبشم من فرط ما التهمته على مائدة مصر فى السودان . لم يكن ذلك طبعاً فى مقدورها وراحت على مصر العقبة كما راحت مصوع وزيلع وبربرة من قبل .

ولم تكد تمضى خمسة عشر عاما على أزمة فرمان تولية الخديو عباس حتى ظهرت فى الأفق الدولى أزمة جديدة ثانية بشأن العقبة . ويبدو أن تركيا كانت لاتزال تمنى نفسها بوضع يدها على مشارف طورسينا فعادت فى شتاء عام ١٩٠٥ تحاول اقصاء المصريين عن منطقة العقبة جميعها وأرسلت قوة احتلت مركز طابا فى الغرب من العقبة وهو داخل فى حدود مصر فتدخلت الحكومة البريطانية وبدأت المفاوضات بين الحكومتين المصرية والتركية بشأن تقرير الحدود بصفة نهائية وتم الاتفاق فى سنة ١٩٠٦ على الحدود الحالية بعد ان انسحب الأتراك من طابا .

ثم عادت مسألة العقبة تظهر للمرة الثالثة فى الحرب العالمية الأولى حين انحاز الشريف حسين أمير مكة إلى جانب الحلفاء وأعلن هو وابناؤه الثورة على الأتراك فقام الأمير فيصل ومعه مستر لورنس المستعرب الانجليزى الشهير ومعهما عدد من الضباط على رأس قوة من العرب يدمرون السكة الحديدية الحجازية ويحاصرون الحاميات التركية التى كانت تحتل المدن والمواقع الاستراتيجية فى بلاد العرب . وكان أهم نصر أحرزه العرب الثائرون على الأتراك فى أول أمرهم نجاحهم فى الاستيلاء على ميناء العقبة فى صيف عام ١٩١٧ . فقد أتاح لهم هذا النصر أن يتصلوا بالجنرال اللنبى ويؤلفوا له ميمنة جيوشه التى كان يعدها فى مصر لغزو الأتراك فى فلسطين وسوريا وطردهم نهائياً من تلك الأصقاع . ومنذ ذلك الوقت أصبحت العقبة وما حولها من أرض شرق الأردن الحالية جزءاً من الحجاز . وقد كانت العقبة فى سنة ١٩٢٤ هى المكان الذى إليه لجأ الملك حسين أولا حين طارده السعوديون من عاصمة ملكه فى مكة فى ذلك العام واضطروه إلى ترك العرش . وكادت القوات السعودية تمد نفوذهـــا إلى ميناء العقبة وغيرها من الأماكن التى كونت

منها بريطانيا أمارة شرق الأردن فى سنة ١٩٢٣ ولم تدخل بريطانيا وتتفق مع الملك عبد العزيز آل سعود فى معاهدة جده سنة ١٩٢٧ على ترك العقبة لشرق الأردن . فقبل الملك السعودى ذلك على مضض ، وما فتئت الحكومة السعودية تطالب بالميناء إلى اليوم .

وكل ما يهم مصر أن تبقى ميناء العقبة وصحراء النقب بمأمن من أيدى الصهيونيين لا لأن مصر تخشى تحقيق حلم قناة العقبة فهو مشروع ان صح هندسياً فلابد أن يتطلب انجازه عشرات من السنين ومئات الملايين من الجنيهات ، بل لأن العقبة ميناء عربى بحت واقع فى شمال البحر الأحمر ويكاد هذا البحر يكون بحيرة عربية اسلامية . وكذلك يعتبر النقب جزءاً متمماً لشبه جزيرة طورسيناء وهو يتاخم حدود مصر من ناحية الشرق ، فإذا ما تسلطت عليه دولة أجنبية معادية تعرضت مصر وقناة السويس لأشد الأخطار . فجدير بمصر اليوم والمسألة الفلسطينية توشك أن تسوى أن تتخذ من الاجراءات ما يكفل تأمين حدودها الشرقية تأميناً كافياً يصونها من العدوان ويحفظ للقناة سلامتها ومصريتها على مر الأيام .

فهرس الكتاب

الفصل الأول : البحر المتوسط فى العصور القديمة

الفصل الثانى : البحر المتوسط فى العصور المتوسطة

الفصل الثالث : البحر المتوسط فى العصور الحديثة

الفصل الرابع : بوابات البحر المتوسط

الفصل الخامس : جبل طارق وطنجه

الفصل السادس : مضيق أترنتو ومشكلة تريستا

الفصل السابع : قناة السويس

الفصل الثامن : جزر البحر المتوسط

الفصل التاسع : بريطانيا فى البحر المتوسط

الفصل العاشر : فرنسا فى بلاد المشرق

الفصل الحادى عشر : مشكلة أسكندرونة

الفصل الثانى عشر : فرنسا فى شمال أفريقية

الفصل الثالث عشر : إيطاليا والبحر المتوسط

الفصل الرابع عشر : الحركة الوطنية فى ليبيا

الفصل الخامس عشر : مشاكل البلقان

الفصل السادس عشر : حيرة الترك بين الشرق والغرب

الفصل السابع عشر : بين تركيا وروسيا

الفصل الثامن عشر : تطور سياسة روسيا الخارجية

الفصل التاسع عشر: اليونان بين الملكية والجمهورية

الفصل العشرون: أسبانيا قبل الثورة وبعدها

الفصل الحادى والعشرون: مصر وقضية الجلاء

الفصل الثانى والعشرون: مصر والسودان

الفصل الثالث والعشرون : مأساة ألمانيا

صفحة

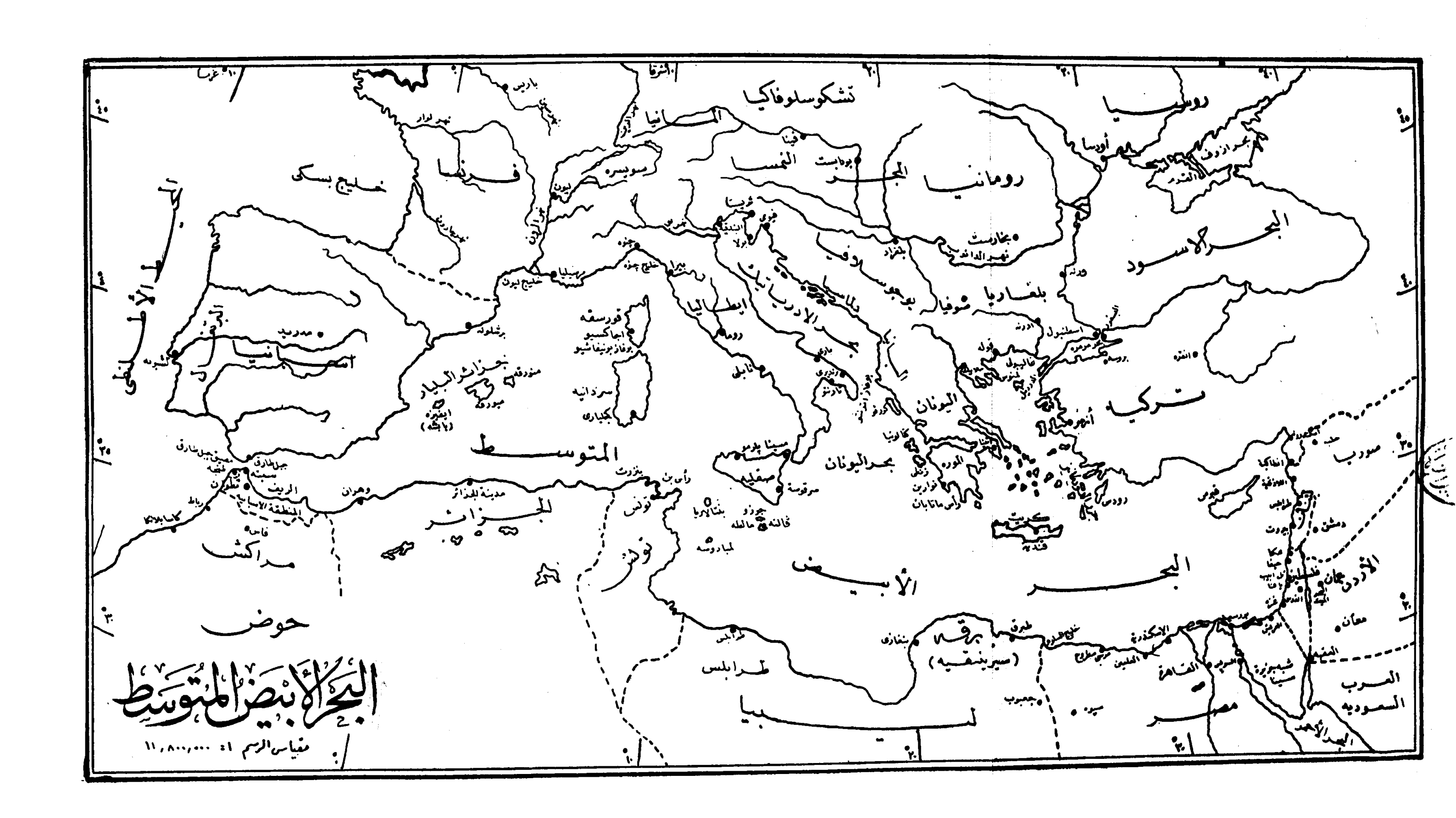
الفصل الرابع والعشرون : سياسة الدول فى الشرق الاوسط

الفصل الخامس والعشرون : فلسطين

الفصل السادس والعشرون : بحرنا

خرائط الكتاب

ملحوظة :- وقع خطأ فى صفحة ٣٨٥ السطر الثامن وهو ٩ مايو وصحته ٩ يونية فنلفت اليه الأنظار



البحر الأبيض المتوسط
مقياس الرسم ١: ١١،٨٠٠،٠٠٠
تشكوسلوفاكيا
روسيا
رومانيا
المجر
النمسا
فرنسا
خليج بسكى
البحر الأسود
بلغاريا
صوفيا
بخارست
تركيا
اليونان
بحر اليونان
إيطاليا
روما
صقلية
المتوسط
الجزائر
مراكش
حوض
البحر
الأبيض
طرابلس
برقة
ليبيا
مصر
القاهرة
الإسكندرية
سوريا
الأردن
العرب
السعودية
قبرص
كريت

الكتب التى أصدرتها اللجنة

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	الثمن مليم
١	يسألونك	الأستاذ عباس محمود العقاد	٢٥٠
٢	أثر الشرق فى الغرب . .	دكتور فؤاد حسانين	١٥٠
٣	قصة الكهرباء واللاسلكى.	الأستاذ محمد عاطف البرقوقى	٢٥٠
٤	مشكلاتنا الاجتماعية . .	« محمد عطية الابراشى	٢٠٠
٥	الحبشة	« حسن محمد جوهر	٢٥٠
٦	الغزل عند العرب . . .	« حسان أبو رحاب	٢٥٠
٧	عائشة أم المؤمنين . . .	الآنسة زاهية مصطفى قدورة	٢٥٠
٨	الفلسفة القرآنية	الأستاذ عباس محمود العقاد	٣٠٠
٩	أحاديث الصباح	الشيخ محمود شلتوت « محمد محمد المدنى	١٥٠
١٠	أبطال الشرق	الأستاذ محمد عطية الأبراشى	١٥٠
١١	أبو العتاهية	الأستاذ محمد احمد برانق	١٥٠
١٢	الراهبة المتوحشة	دكتور عباس ابراهيم حسن	١٠٠
١٣	المهد الذهبى	الأستاذ وهبى اسماعيل حقى « ابراهيم عبد الله	١٠٠
١٤	صرخة فى واد	« محمود غنيم	٣٠٠
١٥	الوزراء العباسيون . . .	« محمد أحمد برانق	٢٠٠
١٦	الصحافة والصحف . . .	المرحوم الأستاذ عبد الله حسين	٢٥٠
١٧	اللعب والعمل	دكتور على عبد الواحد وافى	٨٠

تابع الكتب التى أصدرتها اللجنة

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	الثمن مليم
١٨	ولادة	الأستاذ على عبد العظيم	١٥٠
١٩	من كل نبع قطرة	« حسن محمد جوهر	٦٠
٢٠	الاستعمار الفرنسى	« أحمد رمزى	١٥٠
٢١	سحر العطور	« أحمد على الشحات	١٢٠
٢٢	اكسير الحياة	دكتور محمود محمد سلامه	٢٠٠
٢٣	دراسات فى علم النفس	الأستاذ حامد عبد القادر	٣٠٠
٢٤	مسلم بن الوليد	« حسن علوان	٢٥٠